إمتَاعُ أهلِ التَّوحِيدِ

بِشَرْحِ كِتَابِ التَّوحِيد الَّذي هُوَ حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعَبِيدِ

لِلْإِمَامِ الْمُجَدِّدِ مُحَمَّدِ بنِ عَبدِ الوَهَّابِ

[رَحِمَهُ اللهُ تعَالَى]

(١١١٥-١٢٠٦ هـ)

أَعَدَّهُ فَضِيلَةُ الشَّيْخِ

د. عُمر بن مُحَمَّدِ علي بنِ مُحَمَّدِ خَير (كَبُوشِيَّة)

حَفِظَهُ اللَّهُ

تَقْديمُ فَضِيلَةِ الشَّيخِ د. خَالِدِ بنِ عَبدِ اللَّطِيفِ

حَفظَهُ اللَّهُ

اعتَنَى بِهِ وَلِيدُ بنُ الفَكِي بنِ إبراهيمَ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله - صلى الله عليه وسلم -

أما بعد فقد وقفت على شرح الأخ الشيخ عمر محمد علي - المشهور بكبوشية - على كتاب التوحيد للشيخ العلامة محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - فألفيته شرحاً نافعاً، وقد استوعب شرح الكتاب كله مع سهولة في العبارة وإبانة عن الأحكام واختصار غير مخل فجزاه الله خيراً وبارك في عمله. وفي نظري يصلح هذا الكتاب للتدريس في المعاهد والدورات العلمية. والله ينفع به.

وبالله التوفيق

خالد عبد اللطيف محمد نور

١/٢٣
١٤٣٩هـ

تقديمُ الشَّيخِ الدُّكتورِ : خَالِدِ بن عَبدِ اللَّطِيفِ

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الحْمدُ لِلَّهِ نَحمَدُهُ وَنَستَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ وَنَعُوذُ بِاللهِ مِن شُرُورِ أنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أعمالِنا ، منْ يَهدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمنْ يُضلِلْ فَلَا هَادِي لَهُ ، وَأَشْهَدُ أَن لَا إِلَهَ إِلّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحمَّداً عَبْدُهُ ورَسُولُهُ – ﷺ – أما بَعْدُ فَقَدْ وَقَفْتُ عَلى شَرْحِ الأخِ الشَّيْخِ عُمَرَ مُحَمَّد عَلِي – الْمَشهُورِ بِكَبُوشِيَّة – عَلى كِتَابِ التَّوْحِيدِ لِلشَّيْخِ الْعَلَّامَة مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْوَهَّابِ – رحِمَهُ اللهُ – فَألْفَيتُهُ شَرْحاً نافِعاً ، وَقَدْ اسْتوعَبَ شَرْحَ الْكِتَابِ كلِّهِ مَعَ سُهولَةٍ فِي الْعِبَارَةِ وَإِبَانَةٍ عَنِ الأحكام وَاخْتِصَارٍ غَيْرِ مُخِلٍّ فَجَزَاهُ اللَّهُ خَيْراً وَبَارِكَ فِي عَمَلِهِ . وَفِي نَظَرِي يَصْلُحُ هَذا الْكِتَابُ لِتَدْرِيسِهِ فِي الْمَعَاهِدِ وَالدَّوْرَاتِ الْعِلْمِيَّةِ . وَاللهُ يَنْفَعُ بِهِ

وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ.

خَالِدُ عَبْد اللَطِيفِ مُحَمَّد نُورِ

١٤٣٩/١/٢٣هـ

مُقدِّمةُ الشَّارِحِ

إِنَّ الحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ ، ونستغفِرُهُ ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنفسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا ، منْ يَهدِ اللهُ فَهُوَ المهتدِ ، وَمنْ يُضللْ ، فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلياً مُرْشِدًا ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلّا اللهُ ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾[1].

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾[2].

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴾[3].

أمَّا بعدُ:

فَإِنَّ التَّوْحِيدَ هُوَ الْقَولُ السَّدِيدُ وَالرّكنُ الشَّدِيدُ الَّذِي يَلْجأ إِليهِ العَبيدُ فِي كُرُبَاتِ الدُّنيا وَيومَ الْوَعِيدِ، بِهِ السَّلامَةُ مِنَ النِّيرانِ إِذَا تَمَّ وَكَمُلَ ، وَلَا يُخَلَّدُ صَاحِبُهُ فِي النَّارِ مَهْمَا عَمِلَ، مِنْ أَجلِهِ أَرْسَلَ اللَّهُ النَّبيينَ وَأَنْزَلَ كُتُبَهُ أجْمَعِينَ، وَنَاحَ بِهِ نُوحٌ – عَلَيهِ وَعَلَى نَبِيِّنَا الصَّلاةُ وَ السَّلامُ – ألفَ سَنَةٍ إِلّا خَمْسِينَ عَاماً فَمَا ضَعُفَ وَلَا وَنى، وَشَهِدَ لَهُ قَوْمُهُ فَقَالُوا : قَدْ أَكثَرْتَ جِدالَنَا ، وَأُلْقِي الْخَلِيلُ – عَلَيه وَعَلَى نَبِيِّنَا الصَّلاةُ وَ السَّلامُ – فِي النَّارِ لَمَّا صَدعَ بِهِ وَحذَّرَ مِنْ ضِدِّهِ، فَكَانَتْ خَصِيصَتُهُ الَّتِي مَيَّزَهُ بِهَا قَوْمُهُ : سَمِعْنَا فَتىً يذكرُهُمْ، وَأُخْرِجَ الْكَلِيمُ – عَلَيهِ وَعَلَى نَبِيِّنَا الصَّلاةُ وَ السَّلامُ – وَقَوْمُهُ مِنْ أَرضِهِمْ مُشَرَّدِينَ

(١) سورة آل عمران الآية: ١٠٢.

(٢) سورة النساء الآية: ١.

(٣) سورة الأحزاب الآية: ٧٠-٧١.

لَمَّا قَالَ: رَبُّ السَّمَاواتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كنْتُم مُوقِنِينَ، وَكَادَ الْيَهُودُ لِعِيسَى – عَلَيه وَعَلَى نَبِيِّنَا الصَّلاةُ وَ السَّلامُ – مِنْ أَجلِهِ فَرَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيهِ، فَقَتلُوا مَنْ أَلْقَى اللَّهُ شَبهَهُ عَلَيهِ، وَأُخْرِجَ نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ – عَلَيه الصَّلاةُ وَ السَّلامُ – مِنْ مَكَّةَ وَهِي أَحَبُّ الْبِلادِ إِلَيهِ. فَلَمَّا كَانَ التَّوْحِيدُ بِهَذِهِ الْمَنْزِلَةِ الْعَلِيَّةِ وَالرُّتْبَةِ السَّنيةِ اخْتصَّ اللهُ بِرَحْمَتِهِ وَفَضْلِهِ طَائِفَةً مِنَ الأولِيَاءِ لِيَنُوبُوا مَنَابَ الرُّسُلِ وَالْأنبياءِ، وَلَا رَيْبَ أَنَّهُ لَا يَصْلُحُ لِهَذِهِ الْمُهِمَّةِ كُلُّ أحَدٍ، إِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ لِمَنْ اخْتَارَهُ اللهُ وَاجْتَبَاهُ، قد صلحوا بكُلِّيتِهِم لله فَقُلُوبُهُمْ قد عَمُرتْ بتقْواهُ؛ و هِمَمُهُمْ تَعَلَّقَتْ بِرِضاه، وَ ألسنَتُهُمْ اشْتَغلَتْ بذكراهُ، ووظيفتُهُم يُبَلِّغُون رِسَالَاتِ اللهِ وَحالُهُم يَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أحَدًا إِلّا الله، وأجرُهُم وجزاؤُهُم على الله، وهُمْ أَرْحَمُ خَلْقِ اللهِ بِخَلْقِ الله، أَوْجَبَتْ عَلَيهِمْ شَفَقَتُهُمْ أَنْ يَحْتَمِلُوا مِنْهُمُ الأذى لِيُوصِلُوا لَهُمُ النَّدَى، تَحَرَّقَتْ نُفُوسُهُمْ إِذَا عَلِمُوا مَنْ يَسْجُدُ لِغَيْرِ اللَّهِ، يَقضُّ مَضْجعَهُمْ، وَيُؤَرِّقُ سُبَاتَهُمْ أَنْ يُسْتَغَاثَ بِغَيْرِ اللَّهِ، يَبْذُلُونَ نُفُوسَهُمْ رَخِيصَةً حَتَّى يُعْبَدَ اللهُ وَحْدَهُ، مُمْتَثِلِين قول الله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾(١) فَإِذَا ذُكِرَ هَؤُلَاءِ فَإِنَّ الْإِمَامَ مُحَمَّدَ بن عَبْدِ الْوَهَّابِ – رَحِمَهُ اللهُ – فِي الزُّمْرَةِ الأولى مِنْهُمْ وَيُذْكَرُ مَعَه كِتَابُهُ (كِتَابُ التَّوْحِيدِ) الَّذِي اِشْتَغَلَ بِهِ أهلُ التَّوْحِيدِ الْعُلَمَاءُ مِنْهُمْ وَطَلَبَةُ الْعِلْمِ، فَفِيه مِنَ النفائسِ وَالدُّرَرِ مَا يهُزُّ فُؤَادَ أهْلِ الْعِلْمِ طَرَباً وَفرَحاً، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يَفْهَمُ عَامَّةُ النَّاسِ الْمُرَادَ مِنه بَلَا كَلفَةٍ فَهُوَ سَهْلٌ مُمْتَنِعٌ، وَقَدْ ذكرَ لَنَا أَشْيَاخُنَا أَنَّ الْإِمَامَ – رحِمَهُ اللهُ – يُشَابِهُ الْإِمَامَ الْبُخَارِيَّ – رحِمَهُ اللهُ – فِي تَرَاجِمِهِ، وَرَأَيْنَا حِينَهَا أَنَّ هَذَا عَلَى سَبِيلِ الْمُبَالَغَةِ، وَكُلُّ مَنْ يَسْمَعُ هَذِهِ الْعِبَارَةَ أَوْ يقرؤها يَظُنُّ هَذَا الظَّنَّ ، وَلَيسَ لَهُ عُذْرٌ سِوَى أَنَّهُ جَهِلَ هَذَا الْكِتَابَ وَمَا فَهِمَهُ وَلَا دَرَسَهُ، فَبَيْنَه وَبَيْنَ هَذِهِ الْمَعْرِفَةِ حِجابٌ يَكْشِفُهُ إِذَا جلَسَ بَيْنَ يَدي ذَوِي الألْبَابِ. وَقَدْ نَالَ الْكِتَابُ شهرةً عَظِيمَةً بَيْنَ أَوْلِيَاءِ الشَّيْخِ وَأَعْدَائِهِ، وَشرحَهُ أَهْلُ الْعِلْمِ شروحاتٍ كَثِيرَةٍ أَولُها وَأَفْضلُهَا كِتَابُ:(تَيْسِيرُ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) لِسُلَيْمانَ بن عَبْدِ اللهِ

(١) سورة الأنفال: ٣٩

الْحَفِيدِ ، وَلَكِنْ لِضَعْفِ الْهِمَمِ بَعُدَ النَّاسُ عَنْه لَا سِيما وَهُوَ مَبْسُوطٌ، وَمَنْ طَالعَ هَذَا الشَّرْحَ وَجدَ فِيه مِنَ الْفَوَائِدِ مَا فِيه، وَقَدْ اسْتَعَنْتُ بِاللهِ تَعَالَى أَنْ أَكْتُبَ شَرْحاً مُخْتَصَرًا جُلَّ مَادَّتِهِ مِنَ التَّيْسِيرِ ؛ لأَنْتَفِعَ مِنْه فِي نَفْسِي ، وَلأُقَرِّبَ لأمْثَالِي مِنْ طَلَبَةِ الْعِلْمِ هَذَا الشَّرْحَ النَّفِيسَ وَسَمَّيْتُهُ: (إمْتاعَ أهلِ التَّوْحِيدِ بِشَرْحِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ) رَاجِياً مِنَ اللهِ أَنْ يَنْفَعَ بِهِ كَمَا نَفَعَ بِأَصْلِهِ. وَلَا يفُوتُنِي فِي هَذَا الْمَقَامِ أَنْ أَشْكَرَ شَيخي الدّكْتورَ خَالِدَ بْنَ عَبْدِ اللَّطِيفِ لِتفَضُّلِهِ بِالْاطِّلاعِ عَلَى هَذَا الشَّرْحِ مع ضِيقِ وَقْتِهِ، وَكَثْرَةِ أَشْغالِهِ.

وَتَفَضُّلِهِ أيضاً بِتَقْرِيظِهِ، وَهَذَا مِنْ سَمَاحَتِهِ وَتَوَاضُعِهِ. رَفَعَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ و بَارَكَ اللهُ فِيه و فِي عِلْمِهِ وعَمَلِهِ وَولدِهِ وَمَالِهِ.

الشَّارِحُ

تَرْجَمَةُ الْإِمَامِ مُحَمَّد بنِ عَبْدِ الْوَهَّابِ – رحِمَهُ اللهُ – : (١)

هُوَ أبوعليّ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ بْنِ سُليمَانِ بْنِ عَلِيّ بْنِ مُحَمَّد بْنِ أَحمدَ الْوهيْبِيُّ التَّمِيمِيُّ.

مَوْلِدُهُ: وُلِدَ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ فِي مَدِينَةِ العُيينة سَنَةَ ١١١٥هـ .

أسْرتُهُ: نَشَأَ الشَّيْخُ فِي أسْرَةٍ مَعْرُوفَةٍ بِالْعِلْمِ ، فَجَدُّهُ سُليمَانُ بْنُ عَلِيٍّ أَشْهَرُ الْعُلَمَاءِ فِي عَصْرِهِ ، وَعَمُّهُ إبراهيم عَالم جَلِيلٌ، وَوَالِدُهُ كَانَ ذَا بَاعٍ طَوِيلٍ فِي الْفِقْهِ، بقِيَ قَاضِياً مُدَّةً طَوِيلَةً فِي العُيينة.

نَشأتُهُ: كَانَ الشَّيْخُ – رحِمَهُ اللهُ – مُنْذُ نُعُومَةِ أَظْفارِهِ متفوقاً فِي الذَّكاءِ، وَقَدْ حفِظ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ وَعُمْرُهُ أَقَلُّ مِنْ عشرِ سِنيْن، ثُمَّ دَرَسَ الْفِقْهَ الْحَنْبَلِيَّ عَلَى وَالِدِهِ، وَقَدْ أُعْجِبَ وَالِدُهُ بِذَكائِهِ الطَّامِحِ وَمَوَاهِبِهِ، بَلَغَ مَبْلَغَ الرِّجَالِ وَهُوَ ابْنُ اثْنَيْ عَشَرَ عَاماً، وَزَوَّجهُ أَبُوهُ فِي الْعَامِ نَفْسِهِ، ثُمَّ أَدَّى فَرِيضَةَ الْحَجِّ، وَأَقَامَ شَهْرَيْنِ بِالْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ ، ثُمَّ رَحَلَ وَاشْتَغَلَ بطَلَبِ الْعِلْمِ حَتَّى أَنَّهُ كَانَ يَكْتُبُ عِشْرِينَ صَفْحَةً فِي جَلْسَةٍ وَاحِدَةٍ.

رحلتُهُ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ: قَصَدَ الشَّيْخُ – رحِمَهُ اللهُ – الْحِجازَ وَهُوَ فِي الْعشْريْن مِنْ عُمُرِهِ، وَحَطَّ رَحلَهُ بِالْمَسْجِدِ النَّبَوِيّ، وَأَخَذَ الْكُتُبَ السِّتَّةَ مرَّتَيْنِ، مَرَّةً عَلى الشَّيْخِ عَبْدِ اللهِ بْنِ إبراهيم بن سيف النجدي ، وَمَرَّةً عَلى الشَّيْخِ مُحَمَّدِ حَيَاةِ السِّندِيّ. وَهُوَ فِي مَثَانِي الطَّلَبِ كَانَ – رحِمَهُ اللهُ – مُولَعاً بِالدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ ، وَكَانَ يُنْكِرُ مَا يَرَاهُ مِنَ الْبِدَعِ عِنْدَ الْحجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ، ثُمَّ رَحلَ إِلَى الْبصرةِ فِي دِرَاسَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، فَدَرسَ عَلَى الشَّيْخِ مُحَمَّدِ الْمَجْمُوعِيّ، وَلَمَّا كَانَ نَهَّاءً عَنِ الْمُنْكرِ طَردهُ أشقياءُ الْبصرةِ فِي وَقْتِ الظَّهيرةِ، فَخرجَ مِنْهَا وَلَقِيَهُ فِي الطَّرِيقِ رَجلٌ اسْمهُ أَبو حُمَيدَانَ، فَأَوصله على حِمَاره إِلَى مَدِينَةِ الزُّبَيْرِ، وَكَانَ يُرِيدُ الشامَ طَلَباً لِلْعِلْمِ لَكِنْ نفَدَ الْمَالُ الَّذِي عِنْده فَرَجَعَ إِلَى حُرَيْمِلاءَ وَهُوَ عَازِمٌ عَلَى نَشْرِ التَّوْحِيدِ وَاسْتِئْصَالِ الْبِدَعِ.

(١) انظر كتاب: (مُحَمَّد بن عبد الوهاب مُصْلِح مظلوم ومُفترى عليه)، تأليف الأستاذ: مسعود النَّدْوي، ترجمة وتعليق: عبد العليم عبد العظيم البُستوي، مراجعة وتقديم الدكتور: مُحَمَّد تقي الدين الهلالي، من مطبوعات وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد عام: ١٤٢٠هـ.

أَبْرَزُ سِمَاتِ عَصْرِ الشَّيْخِ :

كَانَتْ بِلادُ نَجدٍ قَبائِلَ وَدُوَيْلَاتٍ مُتَنَافِرَةً متناحرةً ، وَكَانَ الجْهْلُ متفشياً وَالشِّرْكُ مُنْتَشِرًا ، وَالخُرَافَةُ ضَارِبَةً بِأَطْنَابِهَا فِي جَمِيعِ نَواحِي الجْزِيرَةِ. وَكَانَتْ كُلُّ مَدِينَةٍ فِيهَا تَتْبعُ لأميرٍ. فَعَزَمَ الشَّيْخُ عَلَى تَوْحِيدِ الْبِلادِ حَتَّى يُسَاعِدَ ذَلِكَ فِي نَشرِ الدَّعْوَةِ، هَذِهِ الأَفْكَارُ دَعَتْهُ إِلَى مُكَاتَبَةِ أَمِيرِ العُيينة عُثْمانَ بْنِ مَعْمَرٍ وَلَمَّا وَجَدَ الشيخُ الأميرَ مستعداً انْتَقَلَ إِلَيه بِنَفْسِهِ فَأكرَمَ الأميرُ الشَّيْخَ ، وَتزَوَّجَ الشَّيْخُ بِجَوْهَرَةَ بِنْتِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَعْمَرٍ ، فَتوطَّدَت الْعَلاقَاتُ أَكْثَر، وَقَالَ الشَّيْخُ لِلأميرِ:(إِنِّي لأرْجُو إِنْ أَنْتَ قمْتَ بِنَصْرِ لَا إِلَهَ إِلّا اللهُ أَنْ يُظْهِرَكَ اللهُ تَعالَى ، وَتمْلِكَ نَجْدًا وَأَعْرابَهَا). أَبْدَى عُثْمانُ بْنُ مَعْمَرٍ الْمُوَافَقَةَ فِي أَوَّلِ الأمر ثُمَّ إِنَّهُ تَرَاجَعَ لَمَّا كَاتَبَهُ مُلُوكُ الْإِقْلِيمِ حِينَ سَمِعُوا بِدَعْوَةِ الشَّيْخِ، وَكَانَ سَبَبُ سَمَاعِهِمْ أَنَّهُ هَدَمَ قُبَّةً يَقُولُونَ إِنَّهَا كَانَتْ عَلَى قَبْرِ زَيْد بْنِ الخَطَّابِ، وَرَجَمَ زانِيَةً مُحْصَنَةً، كُلُّ ذَلِكَ كَانَ بِمُوَافَقَةِ الأميرِ عُثْمانَ بْنِ مَعْمَرٍ ، فَأَحْدَثَتْ لَهُ هَاتَانِ الْقِصَّتَانِ شُهرةً، وَلَمَّا أَصْغَى عُثْمانُ بْنُ مَعْمَرٍ لِمُلوكِ الْإِقْلِيمِ تَردد كَثِيرًا فِي أَمْرِ الشَّيْخِ فَآثَرَ أَنْ يَطْرُدَهُ مِنَ الْبَلَدِ ، وَقَدْ أَوعَزَ إِلَيه مُلوكُ الْإِقْلِيمِ بِأَنْ يَقْتُلَهُ لَكِنَّه اكْتَفَى بِطَرْدِهِ، وَأرْسلَ إِلَيه رِسَالَةً يَأْمُرُهُ فِيهَا بِالخرُوجِ ، فَخَرَجَ الشَّيْخُ مَعَ جُنْدِيٍّ يُسَمَّى فَرِيدَ الظُّفَيرِيَّ ، مَشَى الشَّيْخُ رَاجِلًا وَالجنْدِيُّ وراءَهُ رَاكِبَاً وَهُوَ يُرَدِّدُ قَوْلَ اللهِ تَعالَى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾(١) تَوجَّهَ الشَّيْخُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى الدَّرْعِيَّةِ وَنزَلَ عِنْدَ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سُوَيْلِمٍ أَحدِ أعْيانِهَا ، وَهُوَ هُنَاكَ فِي بَيْتِ ابْنِ سُوَيْلِمٍ كَانَ يَأْتِيهِ أخوا مُحَمَّد بْنِ سُعُودِ أَميرِ الدَّرْعِيَّةِ مُشاري وَثنَيان، وَصَارَ بَيْتُ ابْنِ سُوَيْلِمٍ هَذَا مَرْكَزًا لِدَعْوَةِ التَّوْحِيدِ، وَكَانَ النَّاسُ يؤُمُّونَهُ مُتَسَتِّرِينَ، ثُمَّ عَزَمَ الشَّيْخُ على أَنْ يَتَّصِلَ بِالأميرِ فَكَلَّمَ إِخْوَتَهُ، فَكَلَّمَا زَوْجَةَ الأميرِ وَكَانَتْ امْرأَةً ذَكِيَّةً مُتَدَيِّنَةً، فَقَالَتْ لِلْأميرِ: (إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ أَتَى إِلَيكَ وَهُوَ غَنِيمَةٌ سَاقهَا اللهُ لَكَ فَأَكْرِمْهُ وَعَظِّمْهُ وَاغْتَنِمْ نُصْرَتَهُ) ، وَلَمَّا التَقيَا عَرضَ عَليهِ الشَّيْخُ أَهمَّ أصولِ دَعْوَتِهِ وَبَشَّرَهُ الأميرُ بِالنُّصْرَةِ لَكِنَّه اشْترطَ شَرْطَيْنِ: الأول: إِذَا قُمْنا بِنُصْرَتِكَ وَفَتحَ اللهُ عَلَيكَ الْبِلادَ ألا تَرْتَحِلَ عَنَّا.

---

(١) سورة الطلاق الآية: ٢.

الثَّانِي:ألا يمْنعَه مِنْ أَخذِ ضرائب كان قد وضعها على الدّرْعِيَّةِ، فَبَايَعَهُ الشَّيْخُ عَلَى الشرط الأول.

ولم يوافق على الثاني. وَقَالَ:(أَمَّا الثَّانِي فَلَعَلَّ اللهَ أَنْ يَفْتَحَ عَلَيكَ مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْ هذه الضرائب).

فَاجْتَمَعَت الْحُجَّةُ وَالْبُرْهَانُ وَالسَّيْفُ وَالسِّنَانُ فَظهرَتْ دَعْوَةُ التَّوْحِيدِ الَّتِي نَجْنِي بَعْضَ ثمارِها الْآنَ.

مُؤَلَّفَاتُ الشَّيْخِ : ١- كِتَابُ التَّوْحِيدِ ، وَهُوَ الَّذِي نَحْنُ بِصَدَدِ شَرْحِهِ، وَاسْمُهُ بِالْكَامِلِ (كِتَابُ التَّوْحِيدِ الَّذِي هُوَ حَقُّ اللهِ على الْعَبِيد). ٢ - كشفُ الشُّبُهَاتِ. ٣ - ثلاثَةُ الْأصولِ. ٤ - الْقَوَاعِدُ الأَرْبَعَة. ٥ - شُرُوطُ الصَّلاةِ وَأَرْكَانُهَا. ٦ - أَصُولُ الْإِيمَانِ. ٧ - فَضْلُ الْإِسْلامِ. ٨ - الْكبائرُ. ٩ - نَصِيحَةُ الْمُسْلِمِينَ. ١٠ - سِتَّةُ مَوَاضِعِ مِنَ السّيرَةِ. ١١ - تَفْسِيرُ الْفَاتِحَةِ .

١٢ - مَسَائِلُ الجَاهِلِيَّةِ . ١٣ - مُخْتَصَرُ السّيرَةِ، وَغَيْرُهَا كَثِيرٌ.

أهمُّ خصائص مُؤَلَّفَاتِه:١ - سُهولَةُ عِبَارَتِهَا، ٢-كَثْرَةُ أدلتِهَا، ٣- أَهَمِيةُ مَوْضُوعَاتِهَا، ٤- اخْتِصَارُهَا.

ثناءُ الْعُلَمَاءِ عَلَيه: مِمَّنْ أَثْنَى عَلَى الشَّيْخِ مُحَمَّد بْنِ عَبْدِ الْوَهَّابِ الْإِمَامُ الصنعاني(١) — رَحِمَهُ اللهُ – صَاحِبُ كِتَابِ سُبُلِ السّلامِ فِي قَصِيدَةٍ طَوِيلَةٍ(٢)يَقُولُ فِي مَطْلَعِهَا :

سلامِي عَلَى نَجْدٍ وَمنْ حَلَّ فِي نَجْدِ *** وَإنْ كَانَ تَسْلِيمِي مِنَ الْبُعْدِ لَا يُجْدِيَ

إلى أَنْ قَالَ:

وَثَانِيهِمَا الشَّيْخُ الْإِمَامُ مُحَمَّدٌ *** بَدَا فِي رُبا نَجْدٍ ضياءً لمستهدي

فَجَدَّدَ دِينَ اللَّهِ بَعْدَ دثورهِ *** فَزَالَ ظَلَامُ الشَّرْكِ وَالْفتنةِ المرْد

زُهْدُهُ وَتَعَبُّدُهُ: قَلَّما نقْرَأ تَرْجَمَةَ مُجَدِّدٍ غَيَّرَ مَجْرَى التَّأْرِيخِ أَوْ مُصلِحٍ أَصلحَ اللَّهُ بِهِ الْبِلَادَ وَالْعبادَ إِلّا وَجَدناهُ متصفاً بِصِفَتَيْنِ الأولى أَنْ يَكُونَ مِنْ أَهْلِ اللَّيْلِ فَإِنَّ الْمُصلِحَ يُصْلِحُ شَأْنهُ قَبْلَ إِصْلاحِ الآخرين فَيُقَوِي صِلَتَهُ بِمَنْ أَزِمَّة الْأمُورِ بِيدِهِ سبحانه. فَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺ بِقِيَامِ اللَّيْلِ حين حمّلَهُ دَعْوَةَ التَّوحِيدِ

(١) ولد بصنعاء سنة ١٠٩٩هـ وتوفي في شعبان سنة ١١٨٢هـ، وكان إماماً جليلاً .

(٢) و هي تسعة وثلاثون بيتاً مذكورة بتمامها في كتاب " عنوان المجد في تاريخ نجد" ٩٥/١ في حوادث سنة ١٢٠٦هـ.

فقال له: ﴿ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ۝٥ ﴾ (١) قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَبْدِ اللَّطِيفِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ اللَّطِيفِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ حسنِ "كَانَ الشَّيْخُ ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ متعبداً يُحْيِي غَالِبَ اللَّيْلِ صَلاةً وَقِراءةً وتهجداً " (٢)

و الْخَلَّةُ الثَّانِيَةُ مِنْ صِفَاتِ الْمُصْلِحِينَ الْعِفَّةُ وَالزُّهْدُ فَإِنَّ النُّفُوسَ جُبِلَتْ عَلَى مَحَبَّةِ مَنْ يُؤْثِرُهَا وَلَا يُنَافِسُهَا فِي مَحْبُوبِهَا وَقَدْ قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَبْدِ اللَّطِيفِ عَنِ الشَّيْخِ الْإِمَامِ " كَانَ مَعَ هَذَا متعففاً متورعاً لَا يَأْكُل مِنْ بَيْتِ الْمَالِ إِلّا بِالْمَعْرُوفِ ، وَبَيْتُ الْمَالِ فِي يَدِهِ وَرَهْنُ تَصرُّفِهِ، وَكَانَ سخياً جَوَادًا" (٣)

وَفَاةُ الشَّيْخِ – رحِمَهُ اللهُ –: وافت المنيةُ الإمامَ فِي شَوَّالٍ أَوْ ذِي الْقَعْدَةِ سَنَةَ ١٢٠٦هـ.

ورَثَاهُ الْإِمَامُ الشوكاني (٤)–رحِمَهُ اللهُ – فِي قَصِيدَةٍ مَطْلَعُهَا (٥)

مُصابٌ دَهَى قَلْبِي فَأَذْكَى غَلائِلِي *** وأصمى بِسَهْمِ الافتجاعِ مقَاتِلِي

مُصابٌ بِهِ الدُّنْيا قَدْ اغْبَرَّ و جهُهُا *** وَقَدْ شمَخَتْ أَعْلامُ قَوْمٍ أَسَافِلِ

لَقَدْ مَاتَ طَوْدُ الْعِلْمِ قُطْبُ رَحى الْعُلا *** وَمَرْكَزُ إِدْرَاكِ الفضول الْأَفاضِلِ

---

(١) سورة المزمل.

(٢) مشاهير علماء نجد : ص ٢٧

(٣) المصدر السابق

(٤) هو مُحَمَّد بن علي الشوكاني فقيه مجتهد من كبار علماء صنعاء اليمن، ولد بهجرة شوكان من بلاد خولان باليمن ونشأ بصنعاء، وولي قضاءها سنة ١٢٢٩ هـ ومات حاكماً بها.

(٥) راجع كتاب أثر الدعوة الوهابية في جزيرة العرب، ص: ٧٩،٨٠.

قِصَّةُ عالِمٍ هِنْدِي مَعَ كِتَابِ التَّوْحِيدِ :

سأذكرُ فِي هَذَا الْمَقَامِ قِصَّةً تَدُلُّ عَلَى مَا ذَكَرْتُ فِي فَضْلِ هَذَا الْكِتَابِ وَأَنَّه يَأْخُذُ بِلُبِّ مَنْ طَالعَهُ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ لِقُوَّةِ حُجَّتِهِ وَسَلاسَةِ عِبَارَتِهِ ، لَكِنْ رُبَّمَا لَا يَظْهَرُ ذَلِكَ إِلّا لِمَنْ مَارَسَ الْكِتَابَ دِرَاسَةً وَتَدْرِيساً. قَالَ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ بْنُ إبراهيم آلُ الشَّيْخِ – رحِمَهُ اللهُ -:(أَقُصُّ الْآنَ قِصَّةَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْبَكْرِي مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ : كَانَ أَوَّلاً مِنْ طُلابِ الْعِلْمِ عَلَى الشَّيْخِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ اللَّطِيفِ آلِ الشَّيْخِ – وَغَيْرِهِ ، ثُمَّ بَدَا لَهُ أَنْ يَفْتَحَ مَدْرَسَةً فِي عمانَ يُعَلِّمُ فِيهَا التَّوْحِيدَ مِنْ كَسْبِهِ الْخَاصِّ ، فَإِذَا فرغَ مَا فِي يَدِهِ أَخَذَ بِضَاعَةً وَسَافَرَ إِلَى الْهِنْدِ ، وَرُبَّمَا أخذَ نِصْفَ سَنَةٍ فِي الْهِنْدِ. قَالَ الشَّيْخُ الْبَكْرِيُّ: كُنْتُ بِجِوَارِ مَسْجِدٍ فِي الْهِنْدِ ، وَكَانَ فِيه مُدَرِّسٌ إِذَا فَرغَ مِنْ تَدْرِيسِهِ لَعَنُوا ابْنَ عَبْدِ الْوَهَّابِ – يَعْنِي الشَّيْخَ مُحَمَّداً – وَإِذَا خرجَ مِنَ الْمَسْجِدِ مَرَّ بِي وَقَالَ: أَنَا أُجِيدُ الْعَرَبِيَّةَ لَكِنْ أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهَا مِنْ أَهْلِهَا ، وَيَشْرَبُ مِنْ عِنْدِي ماءً بَارِداً ، فَأهمَّنِي مَا يَفْعَلُ فِي دَرْسِهِ، قَالَ: فَاحْتِلْتُ بِأَنْ دَعوتُهُ وَأَخَذْتُ (كِتَابَ التَّوْحِيدِ) وَنزعْتُ دِيباجَتَهُ وَوضعتُهُ عَلَى رَفٍّ فِي مَنْزِلِي قَبْلَ مَجِيئِهِ، فَلَمَّا حضَرَ قُلْتُ: أَتَأْذَنُ لِي أَنْ آتِي بِبِطِّيخَةٍ ؟ فَذَهَبْتُ ، فَلَمَّا رَجَعْتُ إِذَا هُوَ يَقْرَأ وَيَهُزُّ رَأْسَهُ ، فَقَالَ : لِمَنْ هَذَا الْكِتَابُ ؟ فَقُلْتُ : لَا أَدْرِي ، ثُمَّ قُلْتُ : الا نَذْهَبُ لِلشَّيْخِ الْغَزْوِي وَنَسْأَلهُ – و كَانَ صَاحِبَ مَكْتَبَةٍ، وَلَهُ رَدٌّ عَلَى جَامِعِ الْبَيَانِ – فَدَخَلْنَا عَلَيه فَقُلْتُ لِلْغَزْوِي : كَانَ عِنْدِي أَورَاقٌ سَألنِي الشَّيْخُ مَنْ هِيَ لَهُ ؟ فَلَمْ أَعْرِفْ ، فَفَهِمَ الْغَزْوِي الْمُرَادَ ، فَنَادَى مَنْ يَأْتِي بِكِتَابِ (مَجْمُوعَةِ التَّوْحِيدِ) فَأُتِيَ بِهَا فَقَابَلَ بَيْنَهُمَا فَقَالَ : هَذَا لِمُحَمَّد بْنِ عَبْدِ الْوَهَّابِ، فَقَالَ الْعَالِم الْهِنْدِيُّ مُغْضباً وَبِصَوْتٍ عَالٍ : الْكَافِرُ . فَسَكتْنَا وَسكَتَ قَلِيلاً ، ثُمَّ هَدَأَ غَضَبُهُ فَاسْتَرْجَعَ ، ثُمَّ قَالَ : إِنْ كَانَ هَذَا الْكِتَابُ لَهُ فَقَدْ ظَلَمْنَاهُ ، ثُمَّ إِنَّه صَارَ كُلَّ يَوْمٍ يَدْعُو لَهُ وَيَدْعُو مَعَه تَلامِيذُهُ لَهُ) (١)

(١) علماء نجد: (١٤٩/١).

ثَناءُ الْعُلَمَاءِ عَلَى كِتَابِ التَّوْحِيدِ : قَالَ الشَّيْخُ سُليمَانُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ مُحَمَّد بْن عَبْدِ الْوَهَّابِ – رَحِمَهُ اللهُ – عَنْ كِتَابِ التَّوْحِيدِ : (كِتَابٌ فَرْدٌ فِي مَعْنَاهُ ، لَمْ يَسْبِقْهُ إِلَيه سَابِقٌ ، وَلَا لَحقَهُ فِيه لاحِقٌ) [١].

وَقَالَ الشَّيْخُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ حسنِ بْنِ مُحَمَّد بْنِ عَبْدِ الْوَهَّابِ – رَحِمَهُ اللهُ –:(قَدْ جَاءَ بَدِيعاً فِي مَعْنَاهُ مِنْ بَيَانِ التَّوْحِيدِ بِبَرَاهِينِهِ ، وَجَمَعَ جُمَلاً مِنْ أدلتِهِ لإيضاحه وَتَبْيِينِهِ ، فَصَارَ عَلَماً لِلْمُوَحِّدِينَ ، وَحُجَّةً عَلَى الْمُلْحِدِينَ) [٢].

قَالَ الشَّيْخُ صَالِحُ آلُ الشَّيْخ :(فَاحْرِصْ – إِذاً – عَلَى تَعَلُّمِ هَذَا الْكِتَابِ وَمُدَارَسَتِهِ ، وَعَلَى كَثْرَةِ مُذَاكَرَتِهِ ، وَفَهْمِ مَا فِيه مِنَ الْحُجَجِ وَالْبَيِّنَاتِ؛ لأَنَّهُ أَفْضَلُ مَا تُودِعُهُ صَدْرَكَ، بَعْدَ كِتَابِ اللهِ – جلَّ وَعلَا – وَسُنَة نَبِيِّهِ ﷺ ، فَلَعَلَّه أَنْ يَكُونَ – إِنْ شَاءَ اللهُ – سَبَباً عَظِيماً مِنْ أَسْبَابِ النَّجَاةِ وَالْفَلاح)[٣].

و قَالَ ابن سحمان:

قَدْ ألفَ الشَّيْخُ فِي التَّوْحِيدِ مُخْتَصَراً … يَكْفِي أَخَا اللُّب إيضاحاً وَتِبْيانًا
مضمناً كُلَّ بَابٍ مِنْ تَرَاجِمِهِ … مِنَ النُّصُوصِ أحاديثاً وَقُرْآنًا
فَاشْدُدْ يَدَيكَ بِهَذَا الأصْلِ مُعْتَصِماً … يُوْرِثْكَ فِي مَا سِوَاهُ اللهُ عِرْفَانًا
وَانْظُرْ بِقَلْبِكَ فِي مَبْنى تَرَاجِمِهِ … تَلْقَ هُنَالِكَ لِلتَّحْقِيقِ عُنْوَانًا
وَلِلْمَسَائِلِ فَانْظُرْ تَلْقَهَا حِكَماً … يَزْدَادُ مِنْهُنَّ أَهْلُ الْعِلْمِ إِتْقَانَا

اشتمل الكتاب على تسعين آية من كتاب الله وعلى واحد وأربعين ومائة حديثا ليس فيها حديث مجمع على ضعفه وبعض الآثار.

---

(١) تيسير العزيز الحميد، دراسة و تحقيق:زهير الشاويش.

(٢) فتح المجيد، ص:٧، صححه وعلق عليه: سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز.

(٣) التمهيد لشرح كتاب التَّوحيد، ١/ ٦٤.

أَهَمُّ شُرُوحِ هَذَا الْكِتَابِ :

١- شَرْحُ الشَّيْخِ سُليمَانَ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مُحَمَّد بْنِ عَبْدِ الْوَهَّابِ الْمُسَمّى (تَيْسيرُ الْعَزِيزِ الْحميدِ) لَكنَّه لَمْ يُكْمِلْهُ وبَقِيت فِيه أَبْوَابٌ قَلِيلَةٌ ، ثُمَّ اخْتصرهُ الشَّيْخُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ حسَن بْنِ مُحَمَّد بْنِ عَبْدِ الْوَهَّابِ رَحِمَهُ اللهُ ، وَأَكْملَهُ وسَمَّاهُ (فَتْحُ الْمَجِيدِ شرح كِتَابُ التَّوْحِيدِ) .

٢ - شَرْحُ الشَّيْخِ الْعَلامَةِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ نَاصِرِ السِّعْدِي رَحِمَهُ اللهُ [١] الْمُسَمّى (الْقَوْلُ السَّدِيدُ فِي مقاصد كِتَابِ التَّوْحِيدِ) .

٣ - شَرْحُ الشَّيْخِ الْإمَامِ ابْنِ بَازٍ رَحِمَهُ اللهُ [٢] الْمُسَمّى (شَرحُ كِتَابِ التَّوْحِيدِ).

٤. شَرْحُ الشَّيْخِ الْعَلَّامَةِ ابْنِ عُثَيْمِينِ رَحِمَهُ اللهُ [٣] الْمُسَمّى (الْقَوْلُ الْمُفِيدُ فِي شَرْحِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ).

٥. شَرْحُ الشَّيْخِ صَالِحِ بْنِ فوزانَ الْفَوْزانِ حَفِظَهُ اللَّهُ الْمُسَمّى (إِعانَةُ الْمُسْتَفِيدِ فِي شَرْحِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ).

٦. شَرْحُ الشَّيْخِ صَالِحِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ آلِ الشَّيْخِ حَفِظَهُ اللَّهُ الْمُسَمّى(التَّمْهِيدُ فِي شَرْحِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ)، وَغَيْرُهَا مِنَ الشُّرُوحِ الَّتِي لَا تُحْصَى.

وكتابتي لِهَذَا الشَّرْحِ القَصْد مِنْهَا أَنْ تَكُونَ بَيْنَ يَدَيَّ مَادَّةٌ تُنَاسِبُ عَامَّةَ النَّاسِ و طَلَبَةَ الْعِلْمِ تجْمَعُ بَيْنَ الْاخْتِصَارِ وَالْاسْتيفاءِ .، وَإِنَّمَا كَتَبتُهَا لَمَّا أُسْنِدَ إِليَّ تَدْرِيسُ هَذِهِ الْمَادَّةِ فِي بَعْضِ الْمَرَاكِزِ الْعِلْمِيَّةِ

(١) هو الشيخ أبو عبد الله عبد الرحمن بن ناصر بن عبدالله بن ناصر آل سعدي من قبيلة تميم، ولد في بلدة عنيزة في القصيم له: كتاب (إرشاد أولي البصائر والألباب لمعرفة الفقه بأقرب الطرق وأيسر الأسباب) و(الدرة المختصرة في محاسن الإسلام) وغيرها، توفي في عام ١٣٧٦هـ.

(٢) عبد العزيز بن عبد الله آل باز، ولد في ذي الحجة سنة ١٣٣٠ هـ بمدينة الرياض ، وكان بصيراً، ثمَّ أصابه مرض في عينيه عام ١٣٤٦ هـ وضعف بصره، ثمَّ فقده عام ١٣٥٠هـ، عين في القضاء عام ١٣٥٧ هـ، أخذ العلم عن مُحَمَّد بن إبراهيم بن عبداللطيف آل الشيخ والشيخ مُحَمَّد بن عبداللطيف توفي في عام ١٤٢٠هـ

(٣) هو أبو عبد الله مُحَمَّد بن صالح بن مُحَمَّد بن سليمان بن عبدالرحمن العثيمين الوهيبي التميمي، كان مولده في ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان المبارك عام ١٣٤٧هـ في مدينة عنيزة، أبرز مشايخه، الشيخ العلامة عبدالرحمن بن ناصرالسعدي و الشيخ عبد الرزاق عفيفي و العلامة الشيخ مُحَمَّدالأمين الشنقيطي والشيخ عبدالعزيز بن ناصر بن رشيد والشيخ عبد الرحمن الإفريقي وغيرهم (رحمهم الله).توفي بمدينة جدة سنة ١٤٢١هـ.

فَوَجَدْتُ أَنِّي بِحاجَةٍ إِلَى مُخْتَصَرٍ يُنَاسِبُنِي أُدَرِّسُ مِنْه تَسْهِيلاً عَلَى نَفْسي وَعَلَى أَمْثَالِي مِنْ طَلَبَةِ الْعِلْمِ وأتمثل هنا ما قَالَ ابنُ أبي العزِّ في شرحِهِ : (وَأَنْسجُ عَلَى مِنْوَالِهِمْ، مُتَطَفِّلاً عَلَيْهِمْ، لَعَلِّي أَنْ أُنْظَمَ فِي سِلْكِهِمْ، وَأَدْخُلَ فِي عِدَادِهِمْ، وَأُحْشَرَ فِي زُمْرَتِهِمْ قال تعالى: ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩﴾ [سورة النساء] وَلَمَّا رَأَيْتُ النُّفُوسَ مَائِلَةً إِلَى الاخْتِصَارِ، آثَرْتُهُ عَلَى التَّطْوِيلِ وَالإِسْهَابِ. (وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أنِيبُ). وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ

قَالَ الإمامُ –رَحِمهُ اللهُ–: (بِسْمِ اللهِ الرَحْمَنِ الرَحِيْمِ، الحَمْدُ للهِ، وَالصلاةُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمَ).

ذَكَرَ هَذِهِ الْمُقدِّمَةَ الشَّيْخُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ حسن فِي شَرْحِهِ لِكِتَابِ التَّوْحِيدِ (١).

(بِسْمِ اللهِ) الجْارُّ وَالْمَجْرُورُ مُتَعَلّقٌ بِفِعْلٍ مَحْذُوفٍ مُنَاسِبٍ لِلْمَقَامِ . والباء للاستعانة والتبرك (اللهِ) الاسمُ العظيمُ هُوَ أعْرَفُ الْمَعَارِفِ، وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ مُشْتَقٌّ مِنْ أله ، يَأْلَهُ. والتأَلُّهُ : التَّعَبُّدُ. والإله هو المعبود مطلقا بحقٍ أو باطلٍ.

و(الله): علَمٌ على ذاته ولا يسمى به غيره. ومعناه: المعبود بالحق.

(الرَحْمَنِ الرَحِيْمِ) نَعْتَانِ لِلْاسْمِ الْعَظِيمِ، يَدُلُّ الأول عَلَى سَعَةِ رَحْمَتِهِ، وَيدل الثَّانِي عَلَى تَعَدِّيهَا وَبلوغِهَا لِلْمَخْلُوقِ.وقد ابتدأ الإمامُ كتابَهُ بالبسملةِ اقتداءً بكتابِ الله عز وجل واقتداء بالنبي ﷺ

(الْحَمْدُ للهِ) وَصْفٌ لله بِالْكَمَالِ مَعَ الْمَحَبَّةِ وَالتَّعْظِيمِ، وللحمد سببان: فَيُحْمَدُ اللهُ لِكَمَالِهِ كَقَوْلِهِ تعَالَى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴾(٢) ويُحمَدُ لإنعامِهِ كقولِهِ تَعالَى:﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴾(٣)

وَقَدْ اجْتَمَعَ فِي التَّوْحِيدِ سببَا الحمد، فَهُوَ صِفَةُ كَمَالٍ لِرَبِّنَا المتعال وهذا ظاهر كَمَا أَنَّه نِعْمَةٌ عَدِيمَةُ الْمِثَالِ.قَالَ سُفْيانُ بْنُ عيينةَ:" مَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَى عَبْدٍ مِنَ الْعِبَادِ نِعْمَةً أَعْظَمَ مِنْ أَنْ عرَّفَهُمْ لا إِلَهَ إلّا اللهُ " (٤)

(١) فتح المجيد ص: ١٠ وص: ١٤ صححه وعلق عليه: سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز.

(٢) سورة الإسراء الآية: ١١١

(٣) سورة الكهف الآية: ١.

(٤) مجموع رسائل ابن رجب ٧٤/٣ .

(وَالصَلاةُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) صَلاةُ اللَّهِ عَلَى نَبِيِّهِ ثَناؤُهُ عَلَيه فِي الْمَلأ الْأَعْلَى كَذَا جَاءَ عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ فِي صَحِيحِ البخَارِيّ. (وَآلِهِ) آلُ النَّبِيِّ ﷺ أَتباعُهُ عَلَى دِينِهِ، (وَسَلَّمَ) هَذَا دُعَاءٌ لَهُ بِالسَّلامَةِ مِنَ الآفات.

[١]

كِتَابُ التَّوحيد

كِتَابُ : مَصْدَرُ كَتَب يكْتُبُ كِتَابا، وَمَادةُ الْكَافِ وَالتّاءِ وَالْباءِ يَدُورُ مَعنَاهَا عَلَى الْجَمْعِ وَالضَّمِّ؛ لِاجْتِمَاعِ الْحروفِ وَمِنْ ثَمَّ اجْتِمَاعِ الْكَلِمَاتِ ثُمَّ اجْتِمَاعِ الاوْرَاقِ.

التَّوْحِيدُ لُغَةً: مَصْدَرُ وَحَّدَ يُوَحِّدُ تَوْحِيداً إِذَا اعْتقدَ وَحْدَانِيَّةَ الشَّيْءِ. وشَرْعاً: هُوَ إِفْرَادُ اللهِ بِمَا اخْتَصَّ بِهِ مِنْ ربوبيةٍ وَألوهيةٍ وَأَسْماءٍ وَصِفَاتٍ. **فَهُوَ ثَلاثَةُ أَنْوَاعٍ** :

الأول: تَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ: وَهُوَ إِفْرَادُ اللهِ بِالْخَلْقِ وَالْمُلكِ وَالتَّدْبِيرِ. وَدَليلُ إِفْرَادِ اللهِ بِالْخَلْقِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾(١)، وَدَليلُ إِفْرَادِ اللهِ بِالْملك قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴾(٢)، وَدَليلُ إِفْرَادِ اللهِ بِالتدبير قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾(٣)

الثَّانِي: تَوْحِيدُ الْأُلُوهِيَّةِ: وَهُوَ إِفْرَادُ اللهِ بِالْعِبَادَةِ. وَالْعِبَادَةُ : هِيَ الْخُضُوعُ لله بِفِعْلِ أوامرِهِ وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ مَحَبَّةً وَتَعْظِيمًا.

الثَّالِثُ: تَوْحِيدُ الأسماء وَالصِّفَاتِ : وَهُوَ إِفْرَادُهُ بِأَسْمَائِهِ الْحسنى وَصِفَاتِ كَمَالِهِ، وَلَا يَكُونُ هَذَا إِلَّا بِأَنْ نثبت لَهُ مَا أَثْبَتَهُ لِنَفْسِهِ فِي كِتَابِهِ أَوْ أَثْبَتَهُ لَهُ رَسُولُهُ ﷺ فِي سُنَّتِه مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ، وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَمْثِيلٍ، عَلَى حدِّ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾(٤) ،

---

(١) سورة الزمر ٦٢.

(٢) سورة طه الآية: ٦.

(٣) سورة الأعراف الآية: ٥٤.

(٤) سورة الشورى الآية: ١٠٨.

فَنَفَتْ الْآيَةُ الْمُمَاثَلَةَ وَ لكن لم يلزم من نفي المماثلة نفي الصِّفَاتِ الثابتةِ له سُبْحَانَه ، وَهَذِهِ الْآيَةُ أطلق عليها بعض أهل العلم دستورَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ فِي بَابِ الأَسماء والصِّفَاتِ.

وقد اجتمعت أنواع التَّوْحِيدِ الثَّلاثَةِ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾[1]

لَمْ يَكْتُبْ الْإِمَامُ – رَحِمَهُ اللهُ – خُطْبَةً لِهَذَا الْكِتَابِ يُبَيِّنُ فِيهَا حَقِيقَةَ الْمَوْضُوعِ وَأهميتهُ وَلَكِنْ كُلُّ مَا أَوْرَدَهُ فِي الْبَابِ الأول الَّذِي لَمْ يُتَرْجِمْ لَهُ مِنْ أدلةٍ تشْتَمِلُ عَلَى بَيَانِ حَقِيقَةِ التَّوْحِيدِ وَأهَمِّيَتِهِ وَحُكْمِهِ – وَسَيَأْتِي هَذَا مِنْ خِلالِ الْكَلامِ عَنِ الأدلةِ الَّتِي أَورَدَهَا.

تنبيه:

وهو أنَّ كلمة التوحيد ليست مخترعة كما يظنُّ من ضعفت معرفته بالتوحيد فهي مأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة رضوان الله عليهم فإنَّ الْعَاصَ بْنَ وَائِلٍ نَذَرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَنْ يَنْحَرَ مِائَةَ بَدَنَةٍ ومات ولم ينحرها وكان له ابنان هشام وعمرو فنحَرَ عنه هِشَامٌ خَمْسِينَ بَدَنَةً و سَأل عَمْرٌو النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: (أَمَّا أَبُوكَ فَلَوْ كَانَ أَقَرَّ بِالتَّوْحِيدِ فَصُمْتَ وَتَصَدَّقْتَ عَنْهُ نَفَعَهُ ذَلِكَ أخرجه أحمد و عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (يَدْخُلُ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ التَّوْحِيدِ النَّارَ فَيَحْتَرِقُونَ إلا دَارَاتِ وُجُوهِهِمْ فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ) مستخرج أبي نعيم.

قَالَ الإمامُ– رَحِمَهُ اللهُ–:[قَوْلُ اللهُ تعالَى: **﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[2].]**

(مَا) نَافِيَةٌ،(خَلَقْتُ) الْخَلْقُ هُوَ التقديرُ والمرادُ به هنا الإيجادُ مِنَ الْعَدَمِ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ سَابِقٍ .(الْجِنُّ) هُمْ عَالَمَ غَيْبِي مكلفٌ كَالْإِنْسِ، وَمَادَّةُ الجِيمِ وَالنُّونِ الْمُشَدَّدَةِ أَصلُ حَقِيقَتِهَا الاسْتِتَارُ.(وَالْإِنْسُ) هُمْ الْبَشَرُ ،

---

(١) سورة مريم الآية: ٦٥.

(٢) سورة الذاريات الآية: ٥٦.

مِنْ أَنِسَ يأْنَسُ أَيْ : الفَ يأْلَفُ، وَقِيلَ مِنْ: نَاسَ يَنُوسُ أَيْ : يَتحَرَّكُ. (إلّا) حَرْفُ اسْتِثْنَاءٍ ، وَالْاسْتِثْنَاءُ مَعَ النَّفْي يُفِيدُ الحصْرَ، وَتقْديرُ الْكَلامِ وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالْإِنْسَ لشيءٍ غَيْرِ الْعِبَادَةِ. (ليعبُدُونِ) اللامُ : لِلتَّعْلِيلِ وفيه إثباتُ الحكمةِ والتعليلِ في أفعالِ اللهِ تعالى، وَمعَنى يَعبُدُونَ: يَخْضَعُونَ، و قَدْ فَسَّرهَا الْإِمَامُ – رَحِمَهُ اللهُ – فِي ثَلاثَةِ الْأصولِ بـ (يُوَحِّدُونِ)، وقد نقله الإمام البخاري في تفسير هذه الآية وَهُوَ تَفْسِيرٌ بِاللازِمِ؛ وليس تفسيرا بالمرادف؛ لأنَّ الْعِبَادَةَ لَا تُسَمَّى عِبَادَةً إلّا مَعَ التَّوْحِيدِ ، فَفَعَلَ اللَّهُ الأول وَهُوَ (الْخَلْقُ) لِيَفْعَلُوا هُمْ الثَّانِي وَهُوَ الْعِبَادَةُ بِشَرْطِهَا وَهُوَ التَّوْحِيدُ ؛ لِتَحْصُلَ لهُمْ السَّعَادَةُ وَيَحْصُلَ مَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ لهُمْ وَمِنْهُمْ. وَمِنَ الْآيَةِ تَظْهَرُ أهمَيةُ التَّوْحِيدِ وَهِي: أَنَّهُ الْغَايَةُ مِنْ خَلْقِ الجِنِّ وَالإِنْسِ وَأَنَّ مَنْ لَمْ يَأْتِ بِالتَّوْحِيدِ لَمْ يَعْبُدِ اللهَ، بَلْ جَاءَ عن رسول الله ﷺ مَا يُفِيدُ أَنَّ الدُّنْيا إنَّمَا قَامَتْ مِنْ أَجْلِ التَّوْحِيدِ لِذَا فَإِنَّ الساعة تَقُومُ يَوْمَ أَنْ تَخْلُوَ الْأَرْضُ مِنه فَعَنْ أَنَسٍ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :" لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لَا يُقَالُ فِي الْأَرْضِ: لَا إِلَهَ إِلّا اللَّهُ (١)

قَالَ الإمامُ– رَحِمَهُ اللهُ–: [وقولُهُ : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾(٢).]

قوله:(وَلَقَدْ) اللامُ: موطئةٌ لِلقسمِ، وَقَدْ: حَرْفُ تَحْقِيقٍ، فَالخَبَرُ مُؤَكَّدٌ بِثَلاثِ مُؤَكِّدَاتٍ هِي: الْقَسمُ الْمَحذُوفُ، واللامُ، وَقَدْ. (بَعَثْنَا) أَيْ: أرسلْنَا،(فِي كُلِّ أمَّةٍ) الْأُمَّةُ هُنَا بِمعْنى الجَماعَةِ.(رَسُولاً) الرَّسُولُ: هُوَ إِنْسانٌ ذكرٌ حُرٌّ أوحِي إِلَيه بِشَرعٍ مُسْتَقِلٍّ وَأُمِرَ بِتَبْلِيغِهِ وَأُرْسِلَ إِلَى قَوْمٍ وقَعتْ مِنْهُمْ الْمُخَالَفَةُ فِي أَصْلِ الدِّيْنِ.(أَنِ) تَفْسِيرِيَّةٌ. (اعْبُدُوا) أَمْرٌ بِعِبَادَةِ اللَّهِ.(وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ) **الْاجْتِنَابُ**: هُوَ تَرْكٌ مَعَ الْبُعْدِ عن تقصد، أَيْ: كُنْ فِي جَانِبٍ، وليَكُنِ الطَّاغُوتُ فِي جَانِبٍ آخر ففيه تركُ أسبابِ الشِّرْكِ. وفيه معنى

(١) رواه أحمد

(٢) سورة النحل الآية: ٣٦.

قصدِ مجانبة الطاغوت. **والطاغوت لغةً**: من الطغيانِ وهو مجاوزةُ الحدِّ ومنْهُ قولُهُ تَعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾[1]. **وَشَرْعاً** : هُوَ كلُّ مَا تجَاوَزَ بِهِ الْعَبْدُ حَدَّهُ مِنْ مَعْبُودٍ أَوْ متبوعٍ أو مطاعٍ[2].

وهنا تنبيه: فإن كل من عبد غير الله فقد عبد الطاغوت أمَّا بالنسبة للمعبود فإنَّه يكون طاغوتا إذا كان لا إرادةَ له كالأحجارِ أو له إرادةٌ ورضي أن يعبدَ مع الله أمَّا إذا لم يرض فإنَّهُ لا يسمى طاغوتا كالأنبياء[3]

وَاشْتَمَلَتْ الْآيَةُ عَلَى رُكْني التَّوْحِيدِ وَهُمَا النفي والإثبات لأنَّ الأمر بِعِبَادَتِهِ يَسْتَلْزِمُ الْإِثْبَات وَالنَّهْي عن عبادة غيره يَتَضَمَّنُ النَّفْي، وَالنَّفْي وَحدَهُ عَدَمٌ، وَالْإِثْبَاتُ وحده لَا يَمْنَعُ الْمُشارَكَةَ، وَهَذِهِ حَقِيقَةُ التَّوْحِيدِ، فَمَنْ نَفَى الْآلِهَةَ الْبَاطِلَةَ وَالإلَهَ الحقَّ وَلَمْ يثْبتْ أُلُوهِيَّةً مُطْلَقاً فَهُوَ مُلْحِدٌ، وَمَنْ أَثْبَتَ الْأُلُوهِيَّةَ لله وَلَمْ يَنْفِ الْآلِهَةَ الْبَاطِلَةَ فَهُوَ مُشْرِكٌ، وَمَنْ أَثْبَتَ الْإِلَهَ الحْقَّ وَنَفَى الْآلِهَةَ الْبَاطِلَةَ فَهُوَ مُؤْمِنٌ مُوَحِّدٌ. وَفِي الْآيَةِ مِنَ الْفَوَائِدِ: أَنَّ التَّوْحِيدَ هُوَ الْغَايَةُ مِنْ بعثةِ الرُّسُلِ وَأَنَّ التَّوْحِيدَ رِسَالَةُ جَمِيعِ الأنبياءِ، وَأَنَّ عِبَادَةَ اللَّهِ لَا تَتِمُّ إلّا بِالْكُفْرِ بِالطَّاغُوتِ، و أَنَّ دِينَ الْأنبياءِ وَاحِدٌ وَهُوَ التَّوْحِيدُ.

الإمامُ- رَحِمَهُ اللهُ-: [وقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾[4].]

قوله (وَقَضَى) أَيْ : وَصَّى وَأَمرَ ، وَفِيه أَنَّ التَّوْحِيدَ هُوَ وَصِيَّةُ اللهِ تَعَالَى ، و الْقَضَاءُ هُنَا شَرْعِيٌّ قَدْ يَقَعُ وَقَدْ لَا يَقَعُ، أَمَّا الْقَضَاءُ الْكَوْنِيُّ فَإِنَّهُ لَا يَتَخَلَّفُ.(رَبُّكَ) ضَمِيرُ الخِطَابِ يَعُودُ إِلَى النَّبي عَلَيه الصَّلَاةُ و السَّلَامُ، وَفِيهَا : أَنَّ النَّبيَّ ﷺ مربوبٌ مَمْلُوكٌ لله ، وَالْإضافَةُ هُنَا إضافَةُ تَشْرِيفٍ.(الا تَعْبُدُوا إِلّا إِيَّاهُ) اشْتَمَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى رُكْني التَّوْحِيدِ وهما النفي والإثبات أيضا؛لأنَّ النَّهْي مُتَضَمِّنٌ لِلنَّفْي، (إلّا)

---

(١) سورة الحاقة الآية: ١١.

(٢) إعلام الموقعين ١/ ٤٠.

(٣) أفدته من شرح الشيخ صالح السندي – حفظه الله –.

(٤) سورة الإسراء الآية: ٢٣.

حَرْفُ اسْتِثْنَاءٍ، وَالْاسْتِثْنَاءُ مَعَ النَّفْيِ يُفِيدُ الْحَصْرَ، الذي هو إثبات الحكم للمذكور ونفيه عما عداه والحكم هنا هو العبادة فهي منفية عن غير الله ثابتة لله وحده. فَاشْتملَتْ الْآيَةُ عَلَى بَيَانِ حَقِيقَةِ التَّوْحِيدِ. التي هي عبادة الله وحده وعدم عبادة غيره.

قَالَ الإمامُ– رَحِمَهُ اللهُ –:[وقوله: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾(١)].

اشْتمَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى رُكْنِي التَّوْحِيدِ أيضاً؛ لأنَّ الأمر مُسْتَلْزِمٌ لِلْإِثْبَاتِ، وَالنَّهْي مُتَضَمِّنٌ لِلنَّفْي، وَتُعْرَفُ هَذِهِ الْآيَةُ بِآيَةِ الْحُقوقِ الْعَشَرَةِ. قَدْ افتتحهَا سُبْحَانه بِحَقِّهِ، فَفِيهَا أَنَّ التَّوْحِيدَ أَعْظَمُ الْحُقوق وأولها وقوله (شيئا) نكرة في سياق النفي فتعم كل شيء.

قَالَ الإمامُ –رحمهُ اللهُ–: [وقوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾(٢) الآيات].

قوله:(قُلْ) الْخِطَابُ لِلنَّبِيِّ عَلَيه الصَّلاةُ وَالسّلامُ. (تَعَالَوْا) أَيْ:اقْبِلُوا، (أَتْلُ) أَيْ: أَقْرَأْ، (مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيكُمْ) (مَا) اسمُ مَوْصُولٍ أَيْ الَّذِي حَرَّمَهُ عَلَيكُمْ رَبُّكُمْ.(الا تُشْرِكُوا بِهِ شيئا): أَوَّلُ الْمُحَرَّمَاتِ وَ أَعْظَمُهَا الشِّرْكُ بِاللهِ تَعَالَى وَهُوَ: مُسَاوَاةُ غَيْرِ اللَّهِ بِاللهِ فِي ما هُوَ مِنْ خصائصِ اللهِ. وَتُعْرَفُ هَذِهِ الْآيَةُ بِآيَةِ الْوَصَايَا الْعَشَرَةِ، وَ أَوَّلُ وَصِيَّةٍ منها النَّهْيُّ عَنِ الشِّرْكِ.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –:[قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ ﷺ :مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى وَصِيَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ التي عَلَيْهَا خاتَمُهُ فَلْيَقْرأْ قَوْلَهُ تعالَى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾(٣) الآيَة (١)].

---

(١) سورة النساء الآية: ٣٦.

(٢) سورة الأنعام الآية: ١٥١.

(٣) سورة الأنعام الآية: ١٥٣.

(ابْنُ مَسْعُودٍ) هُوَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُود بْنِ غَافِل بْنِ حَبِيبٍ الهذلي، شَهِدَ بَدْراً وَالْخَنْدَق وَبَيْعَةَ الرِّضْوانِ، مَاتَ سَنَةَ ٣٢هـ.قوله: (مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ) فِي هَذَا الإسلوب تَشْوِيقٌ لِلْمُسْتَمِعِ ، وَرَفعٌ لِلْهِمَّةِ حَتَّى يَتَدَبَّرَ هَذِهِ الْآيَاتِ (إِلَى وَصِيَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ) وَفِيه:جَوازُ الْإِخْبَارِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ بِاسْمِهِ الْعَلَمِ بِخِلافِ نِدَائِهِ. (الَّتِي عَلَيهَا خَاتَمُهُ) أَيْ: تَوْقِيعُهُ، فَلَمْ تَتَغَيَّرْ وَلَمْ تَتَبَدَّلْ، أي أنَّها آخِرُ مَا وصَّى بِهِ النَّبِيُّ ﷺ، وَهَذَا الْأَثَرُ أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ وَالطَّبَرانِيُّ. لكن قد ضَعَّفَ إسنادَهُ الألبانيُّ فِي تحقيق سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ.وبين أنَّ وآفتَهُ داوُدُ بْنُ يَزِيدَ الْأَوْدِيِ. لكن المعروف من طَرِيقَةِ أهْلِ العِلمِ أَنَّهُمْ يَتَسَاهَلُونَ في تَّصْحِيحِ الآثار فِي التَّفْسِيرِ لَا سِيمَا إِن ثَبتَ الْمَعنَى مِنْ وَجْهٍ صَحِيحٍ كما في هذا الأثر. فقد ثبت تحذيره من الشرك وهو في فراش الموت.

وفيه مِنَ الْفَوَائِدِ: التَّنْبِيهُ عَلَى وَصِيَّةِ النَّبي ﷺ عِنْدَ مَوْتِهِ، و فِيه عِظَمُ هَذِهِ الْآيَاتُ.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – :[عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنه قَالَ: كُنْتُ رَدِيفَ النَّبي ﷺ عَلَى حِمَارٍ فَقَالَ لِي يَا مُعَاذُ؟ أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى العِبَادِ، وَمَا حَقُّ العِبَادِ عَلَى اللَّهِ ؟ قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: حَقُّ اللَّهِ عَلَى العِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ، وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقُّ العِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَفَلَا أبَشِّرُ النَّاس ؟ قَالَ: لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا. أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ[2]]

(مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) هُوَ ابْنُ جَبَل بْنِ عَمْرو بْن أوسٍ الْخَزْرَجِي ، بَدْرِيٌّ مِنَ الْقراءِ ، مَاتَ بِطَاعُونِ عَمَواسَ. فِي الحديثِ مِنَ الْفَوائِدِ : تَواضُعُ النَّبيِّ ﷺ ؛ لِكَونِهِ يَرْكَبُ الْحِمَارَ وَيُرْدِفُ عَلَيه وَيَتَكَلَّمُ مَعَ رَدِيفِهِ. وفيه: جواز الإرداف على الدابة. وَفِيه: فَضِيلَةُ مُعَاذٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْه –. و فِيه: أَنَّ إِلْقاء الْفَائِدَةِ عَلَى طريقةِ السُؤَالِ أَوقعُ فِي النَّفْسِ مِنِ إِلقَائِهَا ابتداءً؛ لأنَّ فيها استثارةً لذهن المتلقي ولفتاً

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤٣١/٥)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٠٠٦٠/٩٣/١٠).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد– باب اسم الفرس والحمار (٢٨٥٦) ومسلم في كتاب الإيمان– باب الدليل على أن من مات على التَّوحيد دخل الجنَّة (٣٠)

لانتباهه. وَفِيه: حُسْنُ تَعْلِيمِهِ عَلَيه الصَّلاةُ وَالسّلامُ. وحَقُّ اللّهِ عَلَى الْعِبَادِ هُوَ مَا يَجِبُ عَلَيهِمْ أَنْ يُعَامِلُوهُ بِهِ وهذا الحق إنما استحقه بمقتضى أنَّه ربهم وسيدهم والعقول تشهد أن للسيد حق على عبده ثانيا أنه استحق هذا الحق من جهة أنه متفرد بالنعم ثالثا من جهة تفرده بالكمال فإن من عرف الله خضع لله ضرزرة[1] وحَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ لَيْسَ لِلْعِبَادِ حَقٌّ عَلَى اللهِ تَعَالَى ، لكنَّ الله أَوْجَبَ لهم حقّاً عَلَى نَفْسِه تفضلاً ، كَمَا قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ – رَحِمَهُ اللهُ –

مَا لِلْعِبَادِ عَلَيه حقٌ وَاجِبٌ ... بَلْ هُوَ أَوجبَ الأمر الْعَظِيمَ الشّانِ

كَلَا وَلَا عَمَلٌ لَدَيه ضَائِعٌ ... إِنْ كَانَ بِالْإِخْلاصِ وَالْإِحْسَانِ

إِنْ عُذِّبُوا فَبِعَدْلِهِ أَوْ نُعِّمُوا ... فَبِفَضْلِهِ و الْحَمْدُ لِلْمَنَّانِ

وَفِي الْحَدِيثِ: حُسْنُ أَدَبِ مُعَاذٍ حَيْثُ لَمْ يَتَكَلَّمْ بِمَا لَا يَعْلَمُ، و فِيه: مَشْرُوعِيَّةُ قَوْلِ:(اللّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ) فِي حَيَاتِهِ ﷺ، في الأمور الشرعية، أَمَّا بَعْدَ مَمَاتِهِ فَجَرَى لِسَانُ الْعُلَمَاءِ عَلَى قولِهِمْ (اللّهُ أَعْلَمُ). وَلا يُقَالُ فِي الْأمُورِ الدُّنْيَوِيَّةِ (اللّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ) ، قولُهُ:(حَقُّ اللّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً) فَحَقُّ اللّهِ تَعَالَى هو التَّوْحِيدُ، قَولُهُ (وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً) الْحَقُّ الَّذِي أَوْجَبَهُ عَلَى نَفْسِهِ لأَهلِ التَّوْحِيدِ سلامتهم من العذاب إِذَا كَمُلَ تَوْحِيدُهُمْ ، وَعَدَمُ تَخْلِيدِهِمْ فِي النَّارِ إِذَا كانَ عندهم أصل التوحيد لكن نَقَصَ تَوْحِيدُهُمْ بِالذُّنُوبِ. و قولُ معاذٍ: (أَفَلَا أُبَشِّرُ النَّاسَ ؟) فِيه: استئذان الْمُتَعَلِّمِ شَيْخَهُ فِي إشاعَةِ مَا خَصَّهُ بِهِ مِنْ عِلْمٍ ، وَفِيه : استحبابُ بِشارَةِ الْمُسْلِمِ بِمَا يَسُرُّهُ. قَولُهُ: (لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا) فِيهِ : جَوَازُ كِتْمَانِ الْعِلْمِ لِلْمَصْلَحَةِ، وَتَخْصِيصُ بَعْضِ الطُّلابِ بِالْعِلْمِ دُونَ بَعْضٍ، وَفِيه أَنَّ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَا يَصْلُحُ لِكُلِّ النَّاسِ وإن كان صالحا في نفسه من أمور المعتقد لعدم قابلية المحل. وَ فيه الْخَوْفُ مِنَ الْاتِّكَالِ عَلَى سَعَةِ رَحْمَةِ اللهِ. قَالَ الْوَزِيرُ أَبُو الْمُظَفَّرِ – رَحِمَه اللهُ –:(لَا يَكْتُمُهَا إِلّا عَنْ جَاهِلٍ يَحْمِلُهُ جَهْلُهُ عَلَى سُوءِ الْأَدَبِ بِتَرْكِ الْخِدْمَةِ وَالطَّاعَةِ ، أَمَّا الأَكْيَاسُ الَّذِينَ إِذَا سَمِعُوا بِمِثْلِ هَذَا

---

(١) أفدته من شرح الشيخ صالح السندي – حفظه الله– .

ازْدَادُوا فِي الطَّاعَةِ ، وَرَأَوْا أَنَّ زِيادَةَ النِّعَمِ تَسْتَدْعِي زِيادَةَ الطَّاعَةِ فَلَا وَجْهَ لِكِتْمَانِهَا عَنْهُمْ).[1] وَفِيه أَنَّ التَّوْحِيدَ عاصمٌ مِنَ الْعَذَابِ ، إِمَّا عصمةً مِنَ الدُّخُولِ إذا تمَّ وكمُلَ وَإِمَّا عصمةً مِنَ الْخُلُودِ إذا نقص بالذنوب والمعاصي.

(١) ذكره عنه ابن مفلح في الآداب الشرعية ١٤٧/١.

[٢]

بَابُ فَضْلِ التَّوحِيد وَمَا يُكَفِّرُ مِنَ الذُّنُوبِ

مُناسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ : أَنَّ الإمام – رَحِمَهُ اللهُ – تَكَلَّمَ فِي الْبَابِ الأول عَنْ حَقِيقَةِ التَّوْحِيدِ وَأَهَمِّيتِهِ فَنَاسَبَ أَنْ يَذكر عقبَ ذَلِكَ مَا يُرَغِّبُ فِيه؛ و هَذِهِ هِي طَرِيقَةُ أَهْلِ الْعِلْمِ فَإِنَّهُمْ يَتَكَلَّمُونَ عَنْ حَقَائِقِ الأَشْيَاءِ قَبْلَ أَنْ يَتَكَلَّمُوا عَنْ فَضَائِلِهَا ، كَمَا أَنَّهُمْ لَا يَتَكَلَّمُونَ عَنِ الْفَضَائِلِ فَقَط . وَمَعنَى التَّرْجَمَةِ : أَيْ : هَذَا بَابٌ فِي بَيَانِ فَضْلِ التَّوحِيدِ وَتَكْفيرِهِ (١) الذُّنُوبَ ، فَيَكُونُ عَطْفُ تَكْفيرِ الذُّنُوبِ عَلَى الْفَضْلِ مِنْ عَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ ؛ لِأَهَمِّيَةِ الْخَاصِّ وَجلالَتِهِ.

قَالَ الإمام – رحمهُ اللهُ –: [وقول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾(٢).]

قوله:(آمنوا) أَيْ: وَحَّدُوا ،(وَلَمْ يَلْبِسُوا) أَيْ : لَمْ يَخْلِطُوا، (إِيمَانَهُمْ) تَوْحِيدَهُمْ ،(بِظُلْمٍ) أَيْ: بِشِرْكٍ. وَظُلْمٌ نَكِرَةٌ فِي سِياقِ النَّفْي فَتَعُمُّ كُلَّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الشِّرْكِ ،(الأَمْنُ) فِي الدُّنْيا وَالآخِرَةِ ،(وَهُمْ مهتدون) أيضاً فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ. وَفِي الْآيَةِ أَنَّ التَّوْحِيدَ سَبَبٌ عَظِيمٌ لِلأَمْنِ وَالْهِدَايَةِ جاء في الصحيحين: من حديث ابن مسعود (لَمَّا نَزَلَتْ {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ} قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّنَا لَا يَظْلِمُ نَفْسَهُ قَالَ لَيْسَ كَمَا تَقُولُونَ {لَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ} بِشِرْكٍ أَوَلَمْ تَسْمَعُوا إِلَى قَوْلِ لُقْمَانَ لِابْنِهِ {يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ})(٣).فَفَسَّرَ النَّبِيُّ ﷺ آيَةَ الأنعامِ بآيَةِ لُقْمانَ ، أَيْ : أَنَّ الْمُرَادَ بِالظُّلْمِ الشِّرْكُ. و فَضْلُ التَّوْحِيدِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ظاهِرٌ وَهُوَ أَنَّ أَهْلَهُ هُمْ أَهْلُ الأَمْنِ وَالْهِدَايَةِ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ ، وَيكْملُ لهُم الأمْنُ وَتتِمُّ لهُم الْهِدَايَةُ بِكَمَالِ التَّوْحِيدِ وَتَمامِهِ ، وَيَنْقُصَانِ بِنَقْصِ التوحيد.

---

(١) هذا على أنَّ (ما) مصدرية ولا يجوز تقديرها موصولة فإنه يقتضي أن التوحيد لا يكفر كل الذنوب أفاده الشيخ العصيمي.

(٢) سورة الأنعام الآية: ٨٢.

(٣) أخرجه البخاري، باب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝١٣﴾برقم: (٤٧٧٦) ، ومسلم ، باب صِدْقِ الإِيمَانِ وَإِخْلاصِهِ ، برقم: (٣٤٢).

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –: [عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ ﷺ قَالَ :قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:(مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ القَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ وَالجنَّة حَقٌّ وَالنَّار حَقٌّ أَدْخَلَهُ اللهُ الجنَّة عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ)[1] . أَخْرَجَاهُ.]

قوله: (عن عُبَادَةَ) هُوَ عبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ بْنِ قَيسٍ الأنْصارِيُّ الْخَزْرَجِيُّ ، أَحَدُ النُّقَبَاءِ ، مَاتَ سَنَةَ ٣٤هـ.(مَنْ شَهِدَ أَن لَا إلَهَ إلّا اللهُ) أَيْ:نَطَقَ بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ عَالِماً بمعْنَاهَا عَامِلاً بمقْتَضَاهَا. وَمَعنَاهَا: لَا مَعْبُودَ حقٌ إلّا اللهُ. وَلَا يَجُوزُ تَقْدِيرُ الْخَبَرِ (مَوْجُودٌ)؛ لأنَّ هَذَا يَسْتَلْزِمُ الْوِحْدَةَ والإتحادَ وَالْحلُول، وَيُكَذِّبُهُ الْوَاقِعُ فَإِنَّ الْآلِهَةَ سِوَى اللهِ مَوْجُودَةٌ وَمَعْبُودَةٌ ، إلّا أَنَّ اللهَ مَعْبُودٌ بِالْحَقِّ وَغَيْرُهُ عُبِدَ بِالْبَاطِلِ وَلَيْسَ مَعناهَا لَا خَالِقَ إلّا اللهُ لأنَّ هَذَا مَعْنَاهُ إِفْرَادُ اللهِ بِالْخَلْقِ وَهَذَا الْمَعنَى لَمْ يُنَازِعْ فِيه أحَدٌ إلا مُكابرةً إِذْ هُوَ مَوْجُودٌ فِي فطرةِ النَّاسِ وَإِنَّمَا أُرْسِلَتِ الرّسُلُ مِنْ أَجْلِ إِفْرَادِ اللهِ بِالْعِبَادَةِ قولُهُ (وَحْدَهُ) تَأْكِيدٌ لِلْإِثْبَاتِ.(لَا شَرِيكَ لَهُ) تَأْكِيدٌ لِلنَّفْي. قال أهلُ العلمِ هذا تأكيدٌ بعدَ تأكيدٍ تنبيهاً على مقامِ التوحيدِ (وَأَنَّ مُحَمَّدًا) لا يَكْفِي فِي دُخُولِ الْإِسْلامِ أَن تَشْهَدَ بِكَلِمَةِ التَّوْحِيدِ فَقَط بَلْ لَا بدَّ أَنْ تَقْتَرِنَ مَعَهَا الشَّهَادَةُ بِرِسَالَةِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ عَلَيه الصَّلاةُ وَالسّلامُ. قَولُهُ: (عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ) وَصَفَ النَّبِيُّ ﷺ نَفْسَهُ بِوصْفَيْنِ تَضَمَّنَا الرَّدَّ عَلَى أَهْلِ الْإِفْرَاطِ وَأهلِ التَّفْرِيطِ ، فَفِي وَصْفِهِ بِالْعُبُودِيَّةِ رَدٌ عَلَى مَنْ عَبَدَهُ وَغلا فِيه ، وَفِي وَصْفِهِ بِالرِّسَالَةِ رَدٌ عَلَى مَنْ جحدَ رِسَالَتَهُ وَكَفَرَ بِهِ ، فمحمدٌ ﷺ عَبْدٌ لَا يُعْبدُ وَرَسُولٌ لَا يُكَذَّبُ. قَولُهُ: (أَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ) فِي قَوْلِهِ: (عَبْدُ اللهِ) ردٌ عَلَى النَّصَارَى الَّذِين زَعَمُوا أَنّه ابْنُ اللهِ، وَفِي قَوْلِهِ: (وَرَسُولُهُ) ردٌ عَلَى الْيَهُودِ الَّذِينَ زَعمُوا أَنَّهُ ابْنُ زِنا وَكَفَرُوا بِرِسَالَتِهِ. (وَكَلِمَتُهُ) أَيْ: كَانَ وخُلق بِكَلِمَةِ (كُنْ)، وَكُلُّ مَخْلُوقٍ إِنَّمَا وُجِدَ بِهذِهِ الكَلِمَةِ، وَإِنَّمَا خُصَّ بِهَا عِيسَى عَلَيه وَعَلَى نَبِيِّنَا الصَّلاةُ وَالسّلامُ؛ لأَنَّ اللهَ خَلقَهُ مَعَ عَدَمِ الْأَسْبَابِ الظَّاهِرَةِ.(وروحٌ مِنْه) أي الروح التي خلقها الله و مِنْ: هُنَا ابْتِدَائِيَّةٌ كَمَا نَقُولُ: الأَرْزَاقُ مِنَ

(١) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء– باب قوله يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم (٣٤٣٥)، ومسلم في كتاب الإيمان– باب الدليل على أن من مات على التّوحيد دخل الجنّة (٢٨).

اللهِ.(وَالْجَنَّةَ حَقٌّ وَالنَّارَ حَقٌّ) الْجَنَّةُ: دَارُ الموحدين، وَالنَّارُ: دَارُ الْكَافِرِينَ، وَهُمَا مَخْلُوقَتَانِ الْآنَ لَا تَفْنَيَانِ، وَفِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ وُجُوبُ الْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَهُوَ أَحَدُ أَرْكَانِ الْإِيمَانِ الستة.(أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ) يَذْكُرُ أَهْلُ الْعِلْمِ فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ مَعْنيينِ لَا تَعَارُضَ بَيْنَهُمَا الأول: أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ عَلَى حَسَبِ عَمَلِهِ ، بِمَعْنَى: أَنَّ مَنْزِلَتَهُ وَدرجتَهُ فِي الْجَنَّةِ تَكُونُ بِحَسَبِ عَمَلِهِ. و الثَّانِي: أَنَّهُ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَطْعاً وَلَوْ كَانَ لَهُ سَيِّئَاتٌ، إِمَّا ابتداءً إِذَا عَفَا اللهُ عَنْه، أَوْ انتهاءً إِذَا أَخَذَهُ اللَّهُ بِذَنْبِهِ. وَهَذَا مَوْضِعُ الشَّاهِدِ مِنَ الْحَدِيثِ وَهُوَ أَنَّ مَآلَ الْمُوَحِّدِ إِلَى الْجَنَّةِ يَقِينًا. قَالَ النَّووِيُّ(١) – رَحِمَهُ اللهُ -:(هَذَا حَديثٌ عَظِيمُ الْمَوْقِعِ وَهُوَ مِنْ أَجْمَعِ الأَحادِيثِ الْمُشْتَمِلَةِ عَلَى الْعَقَائِدِ، فَإِنَّه ﷺ جَمَعَ فِيه مَا يُخْرِجُ عَنْ جَمِيعِ مِلَلِ الْكُفْرِ عَلَى اخْتِلافِ عَقَائِدِهِمْ وَتَباعُدِهِمْ ، فَاخْتَصَرَ ﷺ عَلَى مَا يباين جَمِيعَهُمْ)(٢).

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [وَلَهُمَا فِي حَدِيثِ عِتْبَانَ: ﷺ(فَإِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ)(٣)]

(عِتْبَانَ) هُوَ ابْنُ مَالِك بْنِ عُمَرَ بْنِ الْعَجْلانِ الْأَنْصارِي، مَاتَ فِي خِلافَةِ مُعاوِيَةَ وَهُوَ مِنْ بَنِي سَالم بْنِ عَوْفٍ ، كَانَ يُصَلِّي بِقَوْمِهِ فَضَعُفَ بَصَرُهُ ، وَكَانَ إِذَا نَزَلَتْ الأَمْطَارُ و سَالَ الْوَادِي الَّذِي بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ لَا يسْتَطِيعُ أَنْ يَأْتِيَ مَسْجِدَهُمْ فَشَقَّ عَلَيه الذَّهَابُ إِلَيهِمْ فَطَلَبَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يَخْرُجَ إِلَيهِ وَيُصَلِّي لَهُ فِي مَوْضِعٍ مِنْ بَيْتِهِ لِيَتَّخِذَهُ مُصلَىً ، فَجَاءَهُ النَّبِي ﷺ وَمَعَه طَائِفَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ فِيهِمْ أَبُو بَكْرٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - فَصَلَّى بِهِمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَكعَتَيْنِ ، وَجَلَسُوا عَلَى طَعَامٍ صَنَعُوهُ لَهُمْ فَجَعَلُوا يَتَذَاكَرُونَ فَذَكَرُوا رَجُلاً اسْمُهُ مَالِك بْنُ الدُغْشُم فَقَالَ بَعْضُهُمْ : هُوَ مُنَافِقٌ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَلا تَرَاهُ قَالَ لا إِلَهَ إِلّا اللهُ يُرِيدُ بِذلكَ وَجْهَ اللهِ قَالَ الرَّجُلُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، إِنَّا نَرى وِجْهَتَهُ وَنَصِيحَتَهُ إِلَى الْمُنَافِقِينَ فَذَكَرَ

(١) يحيى بن شرف بن مري النووي، محيي الدين، الحافظ، له (شرح مسلم) و(شرح المهذب)، توفي سنة٦٧٦هـ.

(٢) شرح النووي على مسلم،١/٢٢٧ .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الصلاة- باب المساجد في البيوت (٤٢٥) ومسلم في كتاب المساجد- باب الرخصة في التخلف عن الجماعة بعذر (٣٣).

رَسُولُ اللهِ ﷺ الْحدِيثَ. قولُهُ: (حَرَّمَ على النَّارِ) أَيْ : مَنعَ ، وَالتَّحْرِيمُ إِمَّا تحريما تَامَّاً فَلَا يَدْخُلهَا ابتداءً، وَإِمَّا تَحْرِيماً نَاقِصاً أَيْ: يُحَرَّمُ عَلَيهِ الْخُلُودُ فِيهَا بِفَضْلِ تَوْحِيدِهِ.(يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ) أَيْ : مُخْلِصاً فِي قَوْلِهَا ، مُعْتَقِداً مَا دَلَّتْ عَلَيه مِنْ إِفْرَادِ اللهِ بِالْعِبَادَةِ وَتَرْكِ عِبَادَةِ مَا سِوَاهُ. وَفِي الْحدِيثِ مِنَ الْفَوَائِدِ : أَنَّهُ لَا يَكْفِي مُجَرَّدُ قَوْلِهَا، بَلْ لَا بدَّ مِنْ عِلْمٍ بمَعْناها وَعَمَلٍ بِمُقْتَضَاها ، فَفِيه رَدٌّ عَلَى الْمُرْجِئَةِ الَّذِينَ يَقُولُونَ: الْإِيمَانُ نُطْقٌ باللِّسَانِ فَقَط. وَفِيهِ رَدٌّ عَلَى الْخَوارجِ وَالْمُعْتَزِلَةِ ؛ لأَنَّ ظاهِرَهُ يَمْنَعُ مِنْ خُلُودِ مُرْتَكِبِ الْكَبِيرَةِ فِي النَّارِ. وَفِيهِ رَدٌّ عَلَى الْمُعَطِّلَةِ والأشاعرةِ بِإِثْبَاتِ صِفَةِ الْوَجْهِ ، وَفِيه زِيارَةُ النَّبِيِّ ﷺ أَصْحَابَهُ وَتَواضُعُهُ مَعَهُمْ. و فِيهِ مَشْرُوعِيَّةُ اتِّخَاذِ مَسْجِدٍ فِي الدَّارِ. وَفِيه الْحَذرُ مِنْ مُجَالَسَةِ أَهْلِ الْبِدَعِ وَالْمَعَاصِي. و فِيه الذَّبُّ عَنْ عِرضِ الإخوان ، وَفِيهِ أَنَّ الْأَصْلَ فِي الْمُسْلِمِ السَّلَامَةُ ، وَفِيهِ أَنَّ وِجْهَةَ الرَّجُلِ مَعَ أَهْلِ الْبِدَعِ وَالْفِسْقِ مِنْ مواردِ الشُّبُهَاتِ الَّتِي ينبغي عَلَى الْمُسْلِمِ الْحَذرُ مِنْهَا لِيَسْلَمَ لَهُ عِرْضُهُ وَدِينُهُ لأَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم لَمْ يُنْكِرْ أَصْلَ اسْتِدْلالِهِمْ لاتِّهَامِهِمْ لَهُ بِسَبَبِ وِجْهَتِهِ مَعَ الْمُنَافِقِينَ ، وَمَوْضِعُ الشَّاهِدِ مِنَ الْحدِيثِ أَنَّ التَّوْحِيدَ يُحَرِّمُ دُخُولَ النَّارِ إِذَا تَمَّ وَكَمُلَ وَيُحَرِّمُ أَصْلُهُ الْخُلُودَ فِيهَا إِذَا نَقَصَ بِالْبِدَعِ أَوْ الْكبائرِ

قَالَ الإمامُ – رَحِمهُ اللهُ – [وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ (قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يَا رَبِّ! عَلِّمْنِي شَيْئًا أَذْكُرُكَ وَأَدْعُوكَ بِهِ قَالَ قُلْ يَا مُوسَى لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ قَالَ يَا رَبِّ! كُلُّ عِبَادِكَ يَقُولُونَ هَذَا؟ قَالَ يَا مُوسَى! لَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَعَامِرَهُنَّ غَيْرِي وَالأَرَضِينَ السَّبْعَ فِي كِفَّةٍ وَ(لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) فِي كِفَّةٍ، مَالَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»[١] رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ.]

قَالَ الألبَانِيُّ – رحمه الله – :(فِيه عِنْدَهُمْ جَمِيعاً دَرَّاجُ أَبُو السَّمْحِ عَنْ أَبِي الهيثم ، وَهُوَ عَنْهُ ذُو مَنَاكِيرِ) فهو ضعيف الإسناد لَكِنْ أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ فِي الْأَدَبِ الْمُفْرَدِ مَا يَشْهَدُ لَهُ [٢] لذلك حسنه العلامة ابن

(١) أخرجه النسائي في«السنن الكبرى» (١٠٦٧٠)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٢١٨) والحاكم في «المستدرك» (١٩٣٦) وضعفه الألباني في «ضعيف الترغيب والترهيب»(٩٢٣)

(٢) الأدب المفرد للإمام البخاري برقم: (٥٦٦).

باز – رحمه الله – فَأَذْكُرُ الشَّاهِدَ مِنْه هُنَا لِتَمامِ الْفَائِدَةِ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ (إِنَّ نَبِيَّ اللهِ نُوحًا ﷺ لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ قَالَ لِابْنِهِ إِنِّي قَاصٌّ عَلَيْكَ الْوَصِيَّةَ آمُرُكَ بِاثْنَتَيْنِ وَأَنْهَاكَ عَنْ اثْنَتَيْنِ آمُرُكَ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَإِنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَالأَرَضِينَ السَّبْعَ لَوْ وُضِعَتْ فِي كِفَّةٍ وَوُضِعَتْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فِي كِفَّةٍ رَجَحَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَلَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَالأَرَضِينَ السَّبْعَ كُنَّ حَلْقَةً مُبْهَمَةً قَصَمَتْهُنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ... " الحديث")(١).

قَوْلُهُ فِي حَديثِ أَبِي سَعِيدٍ :(أَذْكُرُكَ وَأَدْعُوكَ بِهِ) يَشْهَدُ لِهَذِهِ الجُمْلَةِ مَا أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ :(إِنَّ أَفْضلَ دُعَاءٍ دُعَاءُ يَوْمِ عرفةَ ، وَأَفضلُ مَا قُلْتُهُ أَنَا والنَّبيون مِنْ قَبلي لَا إِلَهَ إِلّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) ، ووَجْهُ أَنَّهَا ذِكْرٌ أَنَّ فِيهَا شَهَادَةً لله بِالْوَحْدَانِيَّةِ ، ووَجْهُ أَنَّهَا دُعَاءٌ أَنَّ قَائِلَهَا يَرْجُو ثَوابَهَا وَفِي ثَنائِهِ عَلَى اللهِ تَعَرُّضٌ لَهُ بِالْحَاجَةِ وَالْافْتِقَارِ.

قَوْلُهُ :(رَجَحَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلّا اللهُ) أَيْ : بِالنَّظَرِ إِلَى الحَقَائِقِ والمعاني فَإِنَّ كَلِمَةَ التَّوْحِيدِ أَصْدَقُ وَأَعْظَمُ وَأَثْقَلُ مِنْ كُلِّ شيءٍ فَهِيَ تَرْجَحُ بِسَيِّئَاتِ قَائِلِهَا وَذُنُوبِهِ كَمَا فِي حَدِيثِ الْبِطَاقَةِ :(إِنَّ اللهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلاً مِنْ أمتي عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَنْشرُ عَلَيه تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سجلاً كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ الْبَصَرِ ثُمَّ يَقُولُ : أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شيئاً ؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ ؟ فَيَقُولُ : لَا يا رَبِّ فَيَقُولُ : أَفَلَكَ عُذْرٌ ؟ فَيَقُولُ : لَا يارَبِّ فَيَقُولُ : بَلَى إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً فَإِنَّه لَا ظُلْمَ عَلَيكَ الْيَوْمَ فَتُخْرَجُ بِطَاقَةٌ فِيهَا : أَشْهَدُ أَن لَا إِلَهَ إِلّا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ فَيَقُولُ : احْضُرْ وَزْنَكَ فَيَقُولُ : ياربِّ مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ فَقَالَ: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ قَالَ : فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كِفَّةٍ وَالْبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ فَطَاشَتْ السِّجِلَّاتُ وَثَقُلَت الْبِطَاقَةُ فَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللهِ شَيْءٌ)(٢).وَفِي الْحَدِيثِ مِنَ الْفَوائِدِ: التَّنْبِيهُ عَلَى رُجْحانِ لَا إِلَهَ إِلّا اللهُ بِجَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ مَعَ أَنَّ كَثِيرًا مِمَّنْ يَقُولُهَا يَخِفُّ مِيزانُهُ، وَفِيهِ: النَّصُّ عَلَى أَنَّ

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» برقم: (٦٥٨٣)،وصححه الشيخ الألباني في السلسلة برقم:(١٣٤).

(٢) أخرجه الترمذي في «سننه»، باب ما جاء في من يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله،برقم: (٢٦٣٩)، وصححه الشيخ الألباني في مشكاة المصابيح برقم: (٥٥٥٩) من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

الْأَرَضِيْنَ سَبْعٌ كَالسَّمَاواتِ ، وَفِي حَدِيثِ الْبِطاقَةِ : إِثْبَاتُ الْمِيزَانِ ، وَأَنَّ لَهُ كِفَّتَيْنِ أَمَّا حَدِيثُ الْبَابِ فَهُوَ عَلَى سَبِيلِ الْفَرْضِ ، وَفِيه : أَنَّ الَّذِي يُوْزَنُ هُوَ الصَّحَائِفُ ، وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ أَنَّ الَّذِي يُوْزَنُ هُوَ الْعَبْدُ نَفْسُه، وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ أَنَّ الَّذِي يُوْزَنُ الْأَعْمَالُ وَلَا تَعَارُضَ بَيْنَها بَلْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا يَكُونُ فِي حالٍ ، وَفِي حَدِيثِ الْبِطاقَةِ أَنَّ التَّوْحِيدَ أَثْقَلُ شيء.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [وَلِلتِّرْمِذِيِّ وَحَسَّنَهُ عَنْ أَنَسٍ ﷺ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ قَالَ اللهُ تَعَالَى يَا ابْنَ آدَمَ! لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْض خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئاً لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً[1]] .

(أَنَس) هُوَ ابْنُ مَالِك بْنِ النَّضِرِ أَنْصَارِيٌّ خَزْرَجِيٌّ خَدَمَ النَّبِيَّ ﷺ عَشْرَ سِنِيْنَ ، دَعَا لَهُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ :(اللَّهُمَّ أَكْثِرْ مَالَهُ وولدَهُ وَأَدْخِلْهُ الْجَنَّةَ) قَالَ أَنَسٌ :(فَلَقَدْ رَأَيْتُ اثنتينِ وَأَنَا أَرْجُو الثَّالِثَةَ)[2]. (قَالَ اللهُ تَعَالَى) هَذَا من حَدِيثِ الله لَفْظُهُ وَمَعْنَاهُ مِنَ اللهِ ،(لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايا) قُرَابُ الْأَرْضِ : مَا يملؤها أَوْ مَا يُقَارِبُ مِلأَهَا ،(ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئاً) أَيْ : مِتَّ موحداً . وَهَذَا قَيْدٌ عَسِيرٌ لَكِنَّه يَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللَّهُ عَلَيهِ وَهُوَ السَّلامَةُ مِنَ الشِّرْكِ قَلِيلِهِ وَكَثِيرِهِ كَبِيرِهِ وَصَغِيرِهِ قَوْلُهُ :(لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً) إِمَّا أَنْ يُقَالَ هُوَ فِي مَنْ لَقِيَ اللَّهَ موحداً تَائِبا مِنْ ذُنُوبِهِ ، وَإِمَّا أَنْ يُقَالَ : هُوَ فِي مَنْ لَقِيَ اللَّهَ موحداً ولَمْ يَتُبْ من ذُنُوبِهِ لكنْ عفا الله عنهُ وهذا لا يكونُ لِكلِّ مذنبٍ إنَّما بحسبِ المشيئةِ فمنْ شاءَ عذَّبهُ ومنْ شاءَ غفرَ لهُ. لِقَولِهِ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ ﴾ فَالْآيَةُ مُقَيِّدَةٌ لِلْحَدِيثِ بل هي مقيدة لعموم نصوص الوعيد. وَفِي الْحديثِ مِنَ الْفَوائِدِ:إِثْبَاتُ صِفَةِ الْقَوْلِ لله جَلَّ وَعَلا ، وَفِيه: سَعَةُ فَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ ، وَفِيه : أَنَّ التَّوْحِيدَ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ تَكْفِيرِ الذُّنُوبِ ، قَالَ الشَّيْخُ السِّعْدِيُّ – رَحِمَهُ اللهُ – (لَيْسَ شَيْءٌ مِنَ الْأَشْيَاءِ لَهُ مِنَ

(١) أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات– باب في فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله، و قال:«حديث حسن» (٣٥٤٠)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٦٣٠).

(٢) مسند عبد بن حميد برقم:(١٢٦٠).

الْآثَارِ الْحسَنَةِ وَالْفَضَائِلِ الْمُتَنَوِّعَةِ مِثْلَ التَّوْحِيدِ ، فَإِنَّ خَيْرَيِّ الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ مِنْ ثَمَراتِ التَّوْحِيدِ وَفَضَائِلِهِ، وَمِنْ أَجَلِّ فَوَائِدِهِ أَنَّهُ يَمْنَعُ مِنَ الْخُلُودِ فِي النَّارِ، وَأَنَّهُ شَرْطٌ فِي قَبُولِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وَمِنْهَا: أَنَّه يُحَرِّرُ الْعَبْدَ مِنْ رِقِّ الْمَخْلُوقِينَ، وَهَذَا هُوَ الْعِزُّ الْحَقِيقِيُّ وَالشَّرفُ الْعَالِي، فِي كَوْنِهِ متعبداً لله، وَمِنْهَا أَنَّ اللهَ تَكَفَّلَ لِأهلِهِ بِالنَّصْرِ وَالْفَتْحِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾[1] وَمِنْهَا: أَنَّ اللهَ يُدافِعُ عَنْ أَهْلِهِ كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾[2] وَمِنْهَا أَنَّ اللهَ مَنَّ عَلَيهِمْ بِالْحَياةِ الطَّيِّبَةِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةًۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[3].)[4]

(١) سورة غافر الآية: ٥١.

(٢) سورة الحج الآية: ٣٨.

(٣) سورة النحل الآية: ٩٧.

(٤) القول السديد في مقاصد التَّوحيد، ص: ٢٤، دراسة وتحقيق:شيخنا أ.د.المرتضى الزين أحمد،-بتصرف-.

[٣]

بابُ مَنْ حقَّقَ التَّوحيد دَخَلَ الجنَّة بِغَيْرِ حِسَابٍ

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ : لَمَّا تَكلَّمَ الإمامُ في فَضْلِ التَّوْحِيدِ الثَابِتِ لِكُلِّ مُوَحِّدٍ ، ارتقَى إلى فضلٍ أخصَّ مِنْهُ وهو فَضلُ تَحْقِيقِ التَّوْحِيدِ. وتحقيق الشيء بلوغ غايته وتحقيق التوحيد يكون بتصفيته وتكميله وهو على درجتين تحقيق التوحيد الواجب وهو تَخْلِيصُهُ وَتَصْفِيَتُهُ مِنَ الشِّرْكِ الْأَصْغَرِ و الْبِدعِ والإصرار على المعاصي[١] وتحقيق التوحيد المستحب وهذا يزيد على السابق بالبعد عن الشبهات وترك المكروهات وفضول المباحات والتنزه عن الحاجة إلى الخلق

أما تصفيته من الأمور الثلاثة فأولا الشرك الأصغر ولم يذكر الأكبر لأن الأكبر مناف لأصل التوحيد و تحقيق التوحيد أرفع من مجرد التوحيد والشرك الأصغر أنواعه كثيرة لا تكاد تنحصر لكن يجمعها أمران الأول ما يرجع إلى النيات كصرف نوع طاعة لغير الله بالقصد كالرياء والثاني ما يرجع إلى ضعف في اعتقاد تفرد الله عز وجل بالنفع و الضر وهذا ما يرحع إلى الأسباب والمسببات

أما البدع فإن المبتدع يشارك الله في التشريع ولا شك أن هذا نوع خلل في التوحيد لا يسلم منه إلا بتحقيق التوحيد فلا يتبع من حقق التوحيد مشرعا سوى الله قال تعالى ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ {الشورى: ٢١ }

أما المعصية فالغفلة عن أثرها على التوحيد عظيمة ويستبين تأثيرها في التوحيد بالتالي:

الأولى :تقديم طاعة النفس والشيطان على طاعة الرحمن قال تعالى

﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ ﴾ {سورة يس}

---

(١) و السلامة من المعاصي بإجتنابها ما استطاع وبالتوبة والندم مما وقع منها وعدم الإصرار عليها ولأن العبد لا ينفك من الخطأ فمن حقق التوحيد لا ينفك عن التوبة ما أخطأ.أفاده الشيخ العصيمي – حفظه الله–

ثانيا المعصية تدل على نقصان الخوف من الله وضعف في مراقبة الله وهذا خلل في التوحيد

ثالثا: المعصية فيها نوع تعلق بغير الله مما يدل على ضعف المعرفة بالله.

تنبيه: وإن قال أهل السنة بتأثير المعصية على التوحيد لكنها لا تذهبه بل المراد أن يعلم أنَّ صاحبها على خطر

وثمة درجة أرفع من هذه الدرجة وهي تحيقيق المستحب وهي درجة الكمل من أهل التحقيق فهم مع تركهم للأمور السابقة فإنهم تركوا أيضا الشبهات لأنها قنطرة المحرمات مما يدل على عظيم مراقبتهم

ثانيا: تركوا المكروهات لعظيم رغبتهم في رضى الله ثالثا : تركوا قضول المباجات وهي التي لا تكون عونا على الطاعات لأنها قد تقود إلى المكروهات وأقل أحوالها أنها تأخر سير الحبيب رابعا استغنوا بالله عن الخلق.

ولأهلِ تَحْقِيقِ التَّوْحِيدِ فَضْلٌ زائِدٌ عَلَى عَامَّةِ أَهْلِ التَّوْحِيدِ فَإِنَّهُمْ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِلَا حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ.

وإنما قالوا ولا عذاب لأن من لم يحاسب فإنه لن يعذب

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ – رَحِمَهُ اللهُ –:

فِلِوَاحِدٍ كُنْ وَاحِدًا فِي وَاحِدٍ *** أَعْنِي سَبِيلَ الْحَقِّ وَالْإِيمَانِ

فلواحد أي لله الْوَاحِد قَوْله كن وَاحِدًا يُرِيد بِهِ القصد وَهُذا تَوْحِيد الارادة والإخلاص قَوْله فِي وَاحِد يُرِيد بِهِ تَوْحِيد الطَّرِيق وَهُوَ اتِّبَاع الْكتاب وَالسّنة على فهم سلف الأمة.

فأهل تحقيق التوحيد هم أولياؤه الذين كان الله في قلوبهم فلا تسكن ولا تتحرك إلا له و إلا به.

قَالَ الإمامُ –رحمهُ اللهُ– [وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾(١)].

(١) سورة النحل الآية: ١٢٠.

مُناسَبَةُ هذه الْآيَةِ لِلبَابِ : أَنَّ اللهَ ذَكَرَ شَيْئاً مِنْ صِفَاتِ إبراهيمَ الَّذي بَلغَ أعْلَى دَرجَاتِ تَحْقِيقِ التَّوْحِيدِ مِنْ دَوامِ الطَّاعَةِ وَحُسْنِ الْاتِّبَاعِ وَقُوَّةِ التَّوكُّلِ وَالرَّجاءِ وَالْبَراءةِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ [1]، فَقَالَ اللهُ: (كَانَ أُمَّةً) أَيْ: إمَاما، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْإمَامَةَ لا تَكُونُ إلّا بِالصَّبْرِ وَالْيَقِينِ، كَمَا أَنَّ لِلْإمَامِ مِنَ الْحَسَنَاتِ مَا لَيْسَ لِغَيْرِهِ ، فَلَهُ مِثْلُ أجُورِ مَنْ تَبِعَهُ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أجُورِهِمْ شيءٌ. قَوْلُهُ: (قَانِتاً) **الْقُنُوتُ** : هُوَ دَوامُ الطَّاعَةِ. قَوْلُهُ:(لله) هذا تَنْبِيهٌ لِإخْلاصِهِ فِي طاعَتِهِ . قَوْلُهُ :(حَنِيفاً) من **الْحَنَفِ** وهُوَ الْمَيْلُ ، **والْحَنِيفُ شَرْعاً** : هُوَ الْمُقْبِلُ عَلَى اللهِ الْمُعْرِضُ عمَّنْ سِوَاهُ . قَوْلُهُ :(وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) أَيْ : فَارَقَهُمْ عَقِيدَةً وَعَمَلاً وَقَوْلاً وولاءً وَمَنْزِلا.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [وقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ﴾[2]]

جَاءَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي سِياقِ الْمَدْحِ لِأَهْلِ الْإيمَانِ ، فَمَدَحَهُمُ اللهُ بِالسَّلامَةِ مِنْ جَمِيعِ أَنْوَاعِ الشِّرْكِ كَبِيرِهِ وَصَغِيرِهِ جَلِيِّهِ وَخَفِيِّهِ وَمَا أَعَزَّ هَذِهِ السَّلامَةُ

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [وَعَنْ حُصَيْنِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ كُنْتُ عِنْدَ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، فَقَالَ: أَيُّكُمْ رَأَى الكَوْكَبَ الذِي انْقَضَّ البَارِحَةَ؟ فَقُلْتُ: أَنَا ثُمَّ قُلْتُ: أما إِنِّي لَمْ أَكُنْ فِي صَلَاةٍ وَلَكِنِّي لُدِغْتُ قَالَ: فَمَا صَنَعْتَ؟ قُلْتُ: ارْتَقَيْتُ قَالَ: فَمَا حَمَلَكَ عَلَى ذَلِكَ؟ قُلْتُ: حَدِيثٌ حَدَّثَنَاهُ الشَّعْبِيُّ قَالَ: وَمَا حَدَّثَكُمْ؟ قُلْتُ حَدَّثَنَا عَنْ بُرَيْدَةَ بنْ حُصَيْبِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: (لَا رُقْيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ) قَالَ قَدْ أَحْسَنَ مَنِ انْتَهَى إِلَى مَا سَمِعَ وَلَكِنْ حَدَّثَنَا ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما عَنِ النَّبِي ﷺ أَنَّهُ قَالَ:(عُرِضَتْ عَلَيَّ الأمَمُ فَرَأَيْتُ النَّبِي وَمَعَهُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِي وَمَعَهُ الرَّجُلُ

---

(١) هذه الجملة من لطائف شيخي أبي عبد الله خالد بن عبد اللطيف – حفظه الله–

(٢) سورة المؤمنون الآية: ٥٩.

وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبِي وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي، فَقِيلَ لِي هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي هَذِهِ أُمَّتُكَ، وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ الْفًا يَدْخُلُونَ الجَنَّة بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ ثُمَّ نَهَضَ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ فَخَاضَ النَّاس فِي أولَئِكَ- فَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمْ الذِينَ صَحِبُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمْ الذِينَ وُلِدُوا فِي الإِسْلَامِ فَلَمْ يُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا وَذَكَرُوا أَشْيَاءَ فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرُوهُ فَقَالَ: " هُمُ الذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ وَلَا يَكْتَوُونَ وَلَا يَتَطَيَّرُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ " فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ فَقَالَ ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ فَقَالَ: " أَنْتَ مِنْهُمْ " ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرُ فَقَالَ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ فَقَالَ: " سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ"[١].]

قوله:(عن حُصَيْنِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ) أَبُو الهذيلِ السُّلمي ثِقَةٌ اخْتَلَطَ فِي آخِرِ عُمْرِهِ. (سَعِيد بْنِ جُبَيْرٍ) الْإِمَامُ الْفَقِيهُ مَوْلَى بَنِي أَسَدٍ ، مِنْ أَجِلّةِ أَصحَاب ابْنِ عَبَّاسٍ ، قَتلَهُ الْحَجَّاجُ عَامَ ٩٥هـ (كُنْتُ عِنْدَ سَعِيد بْنِ جُبَيْرٍ) فِيه الْجُلُوسُ عندَ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْفَضْلِ.(فَقَالَ أَيُّكُمْ رَأَى الْكَوْكَبَ الَّذِي انْقَضَّ الْبَارِحَةَ؟) فيه عناية السلف بالنظر في ملكوت الله (الْكَوْكَب) النَّجْمُ ،(انْقَضَّ) أَيْ : سَقَطَ،(الْبَارِحَةَ) أَقْرَبُ لَيْلَةٍ مَضَتْ. قوله:(فَقُلْتُ أَنَا ثُمَّ قُلْتُ : أَمَا إِنِّي لَمْ أَكُنْ فِي صَلاةٍ). (أَمَا) بالتخفيف أَيْ : حقاً ، وَفَائِدَتُهَا التَّنْبِيهُ . وَفِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ مِنَ الْفَوَائِدِ : بُعْدُ السَّلَفِ عَنِ الرياءِ ، وَبُعْدُهُمْ عَنْ حُبِّ الْمَدْحِ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا ، وَالتَّشَبُّعِ بِمَا لَمْ يُعْطَوا ،(وَلَكِنِّي لُدِغْتُ) **اللَّدْغَةُ** : هِيَ إِصابَةُ ذَوَاتِ السُّمُومِ ،(قَالَ : فَمَا صَنَعْتَ ؟ قُلْتُ : ارْتَقَيْتُ) أَيْ: طلبْتُ مَنْ يَرْقِينِي، والذي في مسلم استرقيت وهو أنسب (قَالَ:فَمَا حَمَلَكَ عَلَى ذَلِكَ ؟) فِيهِ : طَلَبُ الحجَّة وَالدَّلِيلِ ،(قُلْتُ حَدِيثٌ) أي حملني على ذلك حديث (حَدَّثَنَاهُ الشَّعْبِيُّ) هُوَ عَامِر بْنُ شَرَاحِيل مِنْ أَئِمَّةِ التَّابِعِينَ (قَالَ وَمَا حَدَّثَكُمْ ؟ قُلْتُ:حَدَّثَنَا عَنْ بُرَيْدَةَ بْنِ الْحُصَيْبِ) هُوَ الأَسلميُّ صحَابِي جَلِيلٌ. (أَنَّهُ قَالَ :(لَا رُقْيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ) ذَكَرَهُ مَوْقُوفًا عَلَى بُرِيدَةَ ، وَقَدْ ثَبَتَ

(١) أخرجه البخاري في كتاب الطب (٥٧٥٢)،ومسلم في كتاب الإيمان

الْحديثُ مَرْفُوعاً إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ عِنْدَ أَحْمَدَ[١]. (لَا رُقْيَةَ) اسمُ (لَا) وخبرها مَحْذُوفٌ، وَالتَّقْديرُ : لَا رُقْيَةَ أَنْفَعُ وَأولَى ، (مِنْ) سَبَبِيَّةٌ (عَيْنٍ) **الْعَيْنُ** : هِي النَّظْرَةُ (حُمَةٍ) **الحُمَةُ** : بِالتَّخْفِيفِ هِي إصابَةُ ذُوَاتِ السُّمُومِ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ الْحصرَ بَل الْمُرَادُ أَنَّ الرُّقْيَةَ فِي هَذَيْنِ أَنْفَعُ مِنْ غَيْرِهَا (قَالَ قَدْ أَحْسَنَ مَنِ انْتَهَى إِلَى مَا سَمِعَ) وَفِي هَذِهِ الجْمْلَةِ مِنَ الْفَوائِدِ : أَنَّ مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ فَقَدْ أحْسَنَ ، وَفِيه الثَّنَاءُ عَلَى الْمُحْسِنِ (وَلَكِنْ) أي لا حرج عليك لكن هناك درجة أرفع من هذه وهي ما (حَدَّثَنَا ابْنُ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ (عُرِضَتْ عَلَيَّ الأمَمُ) كَانَ هَذَا الْعَرْضُ فِي لَيْلَةِ الْإِسْراءِ كَمَا فِي رِوايَةِ التِّرْمذِيِّ[٢]، (فَرَأَيْتُ النَّبي) فيه أن النبي مأمور بتبليغ الدعة كالرسول(وَمَعَهُ الرَّهْطُ) **الرَّهْطُ** : هُمُ الجْماعَةُ مِنْ ثلاثةٍ إِلَى عَشْرَةٍ ،(وَالنَّبي وَمَعَه الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ) وَفِي الجْملَةِ مِنَ الْفَوائِدِ: قِلَّةُ أَتْبَاعِ الْأنبياءِ ، وَأَنَّ الْحقَّ لَا يَتعَلَّقُ بِالْكَثْرَةِ ، وَأَنَّه لَا يَتعَلَّقُ بِالنَّتَائِجِ. وَفِي هَذَا الْعَرْضِ تَسْلِيَةٌ للنَّبي ﷺ إِذْ كَذَّبَهُ قَوْمُهُ ، قولُهُ: (إِذْ رُفِعَ لِي سَوادٌ عَظِيمٌ فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي) فِيه: أَنَّ النَّبي ﷺ لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ، قوله: (فَقِيلَ لِي هَذَا مُوسى وَقَوْمُهُ) فِيه : كَثْرَةُ أَتبَاعِ مُوسى – عَلَيه وعلى نبيّنا الصلاةُ والسّلامُ –،(فَنظَرْتُ فَإِذَا سَوادٌ عَظِيمٌ ، فَقِيلَ لِي هَذِهِ أُمَّتُكَ) فِيه : كَثْرَةُ أَتبَاعِ النَّبي ﷺ ، قوله: (وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفاً يَدْخُلُونَ الجْنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ) وَأَخْرجَ أَحْمَدُ وَابْنُ ماجه عَنِ النَّبي ﷺ قال: (وَعَدَنِي رَبِّي أَنْ يُدْخِلَ الجْنَّةَ مِنْ أمتي سَبْعِينَ أَلْفًا بَلَا حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفاً، وثَلاثُ حَثَيَاتٍ مِنْ حَثيَاتِ رَبِّي)[٣]. وَفِي رِوايَةِ أَحْمَدَ " فَزَادَنِي مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ سَبْعِينَ أَلْفًا "[٤] (ثُمَّ نَهَضَ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ فَخَاضَ النَّاس فِي أولَئِكَ) أَيْ : فِي صِفَتِهِمْ لَا فِي تَعْيينِهِمْ، وَفِيه: الْمُبَاحَثَةُ فِي الْعِلْمِ.(فَقَالَ بَعْضُهُمْ فَلَعَلَّهُمْ الذِينَ صَحِبُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ) فِيه : جَوَازُ الِاجْتِهَادِ فِي حَيَاةِ النَّبي ﷺ فِي غِيَابِهِ لَا بِحَضْرَتِهِ إِلّا إِذَا سألهم النَّبِيُّ أو أذن لهم فَلَهُمْ أَنْ يَجْتَهِدُوا

(١) أخرجه أحمد في المسند برقم:(٢٣٢١)، وصححه العلامة الألباني في المشكاة برقم: (٤٥٥٧).

(٢) رواه الترمذي برقم الحديث ٢٤٤٦

(٣)أخرجه ابن ماجه برقم: (٤٢٧٦)، وأحمد برقم: (٢١٢٧١)، وصححه الألباني في الصحيحة برقم: (٢١٧٩).

(٤) هذه الرواية عند أحمد فقط وفيها راوٍ لم يسم.

فِي حَضْرَتِهِ، وَفِيه: فَضْلُ الصَّحَابَةِ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم– (وَقَالَ بَعْضُهُمْ فَلَعَلَّهُمْ الذِينَ وُلِدُوا فِي الإِسْلَامِ فَلَمْ يُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا وَذَكَرُوا أَشْيَاءَ) فِيه: فَضْلُ مَنْ وُلِدَ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا سَلِمَ مِنَ الشِّرْك ، (فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرُوهُ) فِيه: الرُّجُوعُ لِأَهْلِ الْعِلْمِ ، وَأَنَّه لَا اجْتِهَادَ مَعَ وُجُودِ النَّص.(فَقَالَ: هُمُ الذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ) أَيْ:لَا يَطْلُبُونَ الرُّقْيَةَ لأنفسهم؛ ففيه كراهةُ الاسترقاء وَذَلِكَ لِقُوَّةِ اعْتِمادِهِمْ عَلَى اللهِ وَعظيم تعلقهم باللّهِ ، لما في الاسترقاء من توع التفات وذل لغير الله لَكِنْ هَذَا لَا يَعْنِي كَرَاهَةَ التَّدَاوِي لِأَنَّ الاسترقاءَ سَبَبٌ خَفِيٌّ فَالتَّعَلُّقُ فِيه يَكُونُ بِالرَّاقِي بِخِلافِ التَّدَاوِي فَإِنَّه أَمْرٌ مَحْسُوسٌ فَلَا تَعَلُّقَ فِيه بِالطَّبِيبِ غَالِباً ورواية (لا يرقون) لم تثبت إسنادا أما متنها فلا يصح معناه شرعا لأن الراقي متفضل متقرب بنفع أخاه أما الاسترقاء لغيرك فهو حث على الصدقة بل فعله النبي ﷺ حينما رأى جارية في وجهها سفعة فقال النبي ﷺ (استرقوا لها فإن بها نظرة) رواه الطبراني في الكبير (وَلَا يَكْتَوُونَ) قَالَ ابن الْقَيِّم: فَقَدْ تضمنتْ أَحادِيثُ الكيّ أَرْبَعَةَ أَنْوَاعٍ، أَحَدُهَا: فِعْلُهُ[١]، **والثانى** : عَدَمُ مَحَبَّتِهِ لَهُ ، **وَالثَّالِثُ**: الثَّنَاءُ عَلَى مَنْ تَرَكَهُ، **وَالرَّابع**: النَّهي عَنْه، وَلَا تَعَارُضَ بَيْنَهَا بِحَمْدِ اللهِ تعالَى ، فَإِنَّ فِعْلَهُ يَدُلُّ عَلَى جَوَازِهِ ، وَعدَمَ محبته لَهُ لَا يَدُلُّ عَلَى الْمَنْعِ مِنْه. وَأَمَّا الثناءُ عَلَى تارِكِه، فَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ تَرْكَهُ أَوْلَى وَأفْضلُ. وَأَمَّا النهيُّ عَنْه، فعَلَى سَبِيلِ الْاخْتِيَارِ وَالْكَرَاهَةِ، أَوْ عَنِ النَّوْعِ الذى لَا يُحْتَاجُ إِلَيه، بَلْ يُفْعَلُ خَوْفاً مِنْ حُدوثِ الدَّاءِ. وَاللهُ أَعْلَمُ.[٢] وقال ابن قتيبة: الكي نوعان كي الصحيح لئلا يعتل فهذا الذي قيل فيه من اكتوى لم يتوكل لأنه يريد أن يدفع القدر والقدر لا يدافع. والثاني كي الجرح إذا فسد والعضو إذا قطع فهو الذي شرع التداوي فيه فإن كان لأمر محتمل فخلاف الأولى لما فيه من تعجيل التعذيب بالنار لأمر غير محقق "[٣] وخلاصة الكلام عن الكي أنه لا يخرج عن ثلاثة أحوال الأولى أن يكون

(١) المراد أن النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كوى سعدَ بن معاذٍ فى أَكْحَلِه. رواه مسلم. والأكحل عرق وسط الذراع يُفصَد ويُحقَن.

(٢) زاد المعاد (٦٣/٤).

(٣) فيض القدير (٨٢/٦).

قيل المرض وهذا الذي ينافي النوكل وفيه حديث الْمُغِيرَة،عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنِ اكْتَوَى، أَوِ اسْتَرْقَى، فَقَدْ بَرِئَ مِنَ التَّوَكُّلِ» رواه أحمد وابن ماجه ومثل هذه الحالة اعتقاد أهل الجاهلية في الكي أنه يدفع المرض بنفسه.

الحالة الثانية أن يكون الشفاء مظنونا والكي غير متعيّن نعني يمكن أن يتداوى بغيره ففي هذه الحالة يكره لما في الكي من التعذيب بالنار الحالة الثالثة أن يكون الكي متعينا أي ليس هناك غيره من الأدوية والشفاء مقطوعا به فهنا يكون جائزا (وَلَا يَتَطَيَّرُونَ) **التَّطَيُّرُ**: هُوَ زَجْرُ الطَّيْرِ ثُمَّ الْعَمَلُ بِمُقْتَضى ذَلِكَ الزَّجْرِ، وَهُوَ يَشْمَلُ كُلَّ تَشَاؤُمٍ بمرئيٍّ أَوْ مَسْمُوعٍ أَوْ مَعْلُومٍ (وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) هَذَا هُوَ الْأَصْلُ الجامِعُ لِهَذِهِ الْأَفْعَالِ وَهُوَ صِدْقُ الْالْتِجَاءِ إِلَيه وَالْاعْتِمادُ بِالْقَلْبِ عَلَيه، مع بذل الأسباب، والتوكل غَايَةُ تَحْقِيقِ التَّوْحِيدِ، قَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ:(وَاعْلَمْ أَنَّ مُبَاشَرَةَ الْأَسْبَابِ أَمْرٌ فِطْرِيٌّ لَا يَنْفَكُّ أحَدٌ عَنْه وَلَا يُنَافِي التَّوَكُّلَ) وَالْاعْتِمادُ عَلَى الْأَسْبَابِ دُونَ الْاسْتِعانَةِ بِاللهِ قَدْحٌ فِي التَّوَكُّلِ، وترك مُبَاشَرَةِ الْأَسْبَابِ قَدْحٌ فِي الْعَقْلِ

(فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ) بِتَشْدِيدِ الْكَافِ وَتَخْفِيفِهَا – الْأَسَدِي بدرِيٌّ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، اسْتُشْهِدَ فِي حُروبِ الرِّدَةِ.(فَقَالَ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنهُمْ) هَلْ يُشْرَعُ طَلَبُ الدُّعَاءِ مِنَ الْإِخْوَانِ اسْتِدْلالاً بِهَذِهِ الْوَاقِعَةِ؟ الأولى أَنْ يُقَالَ تَرْكُهُ أوْلَى ؛ لأَنَّه لَا يَخْلُو مِنْ نَوْعِ الْتِفَاتٍ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ ، وَقَدْ يَدْخُلُ عَلَى الْمَسْؤُولِ نَوْعُ غُرُورٍ خَاصَّةً إذَا تَكرر عَلَيه السُّؤَالُ . وَمَنْ تَقُومُ بِهِ حاجَةٌ حَتَّى يَطْلُبَ مِنْ غَيْرِهِ الدُّعَاءَ فَهُوَ مُضطَرٌّ إِلَى تِلْكَ الْحاجَةِ ، وَالْاضْطِرارُ مِنْ أَسْبَابِ الْإِجابَةِ، فَلْيُخلص التَّضَرُّعَ إِلَى اللهِ.(فَقَالَ : أَنْتَ مِنْهُمْ) فِيه: عَلَمٌ مِنْ أَعْلامِ النُّبُوَّةِ، وَفِيه مَنْقَبَةٌ عَظِيمَةٌ لِعُكاشَةَ،(سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ) فِيه جَوَازُ اسْتِعْمالِ الْمَعَارِيضِ، وَفِيه حُسنُ خُلُقِهِ عَلَيه الصَّلاةُ وَالسّلامُ ، وَفِيه سَدُّ الذَّرائِع خَوْفًا مِنْ أَنْ يَتَسَلَّلَ الطَّلَبُ إِلَى مَنْ لَيْسَ بِأهْلٍ فَيَطْلُبَ ذَلِكَ، وَفِيه أَنَّ تَرْكَ الاسترقاءِ وَالتَّطَيُّرِ وَالكَيِّ مِنْ تَحْقِيقِ التَّوْحِيدِ، وَفِيه

أَنَّ كُلَّ أمَّةٍ تُحْشُرُ مَعَ نَبِيِّهَا. قَالَ السّعْدِي – رَحِمَهُ اللهُ –:(لَيْسَ تَحْقِيقُ التَّوْحِيدِ بِالتَّمَنِّي وَلَا بِالدَّعَاوَى إِنَّمَا بِمَا وَقَرَ فِي الْقَلْبِ وَصَدَّقَتْهُ الْأَخْلَاقُ الجْمِيلَةُ ، وَالْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ الجْلِيلَةُ[١]

(١) القول السديد في مقاصد التَّوحيد، ص: ٢٩–بتصرف–.

[٤]

بَابُ الخَوْفِ مِنَ الشِّرْكِ

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ: ظاهِرَةٌ وَهِي أَنَّ الْخَوْفَ مِنَ الشركِ مِنْ تَحْقِيقِ التَّوْحِيدِ ، فَيَكُونُ الْبَابُ السَّابِقُ أَعَمَّ وَهَذَا أَخَصَّ مِنه، فَلَا يَكْفِي أَنْ يَعْرِفَ الْعَبْدُ التَّوْحِيدَ وَيَعْمَلَ بِهِ، إِذْ لَا بُدَ مِنْ مَعْرِفَةِ الشِّرْكِ وَالْخَوْفِ مِنْه. **وَالشِّرْكُ لُغَةً** : هُوَ النَّصِيبُ ، وَمِنْه قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ **وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ** ﴾[١].

وَشَرْعاً: هُوَ مُسَاوَاةُ غَيْرِ اللَّهِ بِاللهِ في ما هُوَ مِنْ خصائصِ اللهِ ، وَيَدُلُّ عَلَى هَذَا الْمَعنَى قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ **تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ** ﴾[٢]،وقولُ النَّبِيِّ عليه الصَّلاةُ والسّلامُ لابنِ مَسْعُودٍ لَمَّا سأله أَيُّ الذَّنْبِ أعْظَمُ؟ قالَ: (أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ)[٣].

وقبل الشروع في الأدلة فإن موجبات الخوف من الشرك كثيرة غير ما ذكره الإمام منها أنه يحبط الأعمال قال تعالى﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ {سورة الزمر} ومنها أنه محرم للجنة مخلد في النار مانع من شفاعة سيد الأبرار قال تعالى﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ ﴾ {سورة المائدة}

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [وقول الله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾[٤].]

---

(١) سورة سبأ الآية: ٢٢.

(٢) سورة الشعراء الآية: ٩٧-٩٨.

(٣) أخرجه البخاري باب قتل الولد خشية أن يأكل معه، برقم: (٥٦٥٥) ومسلم، باب كَوْنِ الشِّرْكِ أَقْبَحَ الذُّنُوبِ وَبَيَانِ أَعْظَمِهَا بَعْدَهُ، برقم: (٢٦٧).

(٤) سورة النساء الآية: ٤٨.

قال بعضُ أهلِ العلمِ هذهِ الآيةُ أرجى آيةٍ في كتاب الله لأهل التوحيدِ و هي أعظم الآيات تخويفا من الشرك ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ **الْمَغْفِرَةُ** : هِيَ السِّتْرُ وَالتَّجَاوُزُ ، و هَذَا النَّفْيُ الْمُتَسَلِّطُ عَلَى الْمَصْدَرِ المؤول يَعُمُّ كُلَّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الشِّرْكِ ، فَمِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ مَنْ يَقُولُ : إِنَّ الْآيَةَ خَاصَّةٌ بِالشِّرْكِ الْأَكْبَرِ، وجعلوا الشرك الأصغر كالكبائر لأنه لا يخرج من الملة ولا يخلد في النار ولا يحبط جميع الأعمال وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : الْآيَةُ بِاقِيَةٌ عَلَى عُمُومِهَا. و قَالَ الشَّيْخُ ابن عُثَيْمِين – رَحِمَهُ اللهُ –:(وَشَيْخُ الْإِسْلامِ ابن تيمِيَّةِ الْمُحَقِّقُ فِي هَذِهِ الْمَسَائِلِ ، اخْتَلَفَ كَلامُهُ فِي هَذِهِ الْمَسْالَةِ ، فَمَرَّةً قَالَ : الشِّرْكُ لَا يَغْفِرُهُ اللهُ وَلَوْ كَانَ أصْغَرَ ، وَمَرَّةً قَالَ : الشِّرْكُ الَّذِي لَا يَغْفِرُهُ اللهُ هُوَ الشِّرْكُ الْأَكْبَرُ. وَعَلَى كُلِّ حالٍ ؛ فَيَجِبُ الْحذرُ مِنَ الشِّرْكِ مُطْلَقاً ؛ لِأَنَّ الْعُمُومَ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ دَاخِلاً فِيه الْأَصْغَرُ ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ :" أَنْ يُشْرَكَ بِهِ " أَنْ وَمَا بَعْدَهَا فِي تأويلِ مَصْدَرٍ ، تَقْدِيرُهُ : إِشْرَاكاً بِهِ ؛ فَهُوَ نَكِرَةٌ فِي سِياقِ النَّفْي، فَتُفِيدُ الْعُمُوم.)[1].

ومراد من قال إنَّ الله لا يغفره أي لا بد أن يدخل في موازنة الحسنات والسيئات فلا يكون من السيئات التي تمحى ويعفى عنها. وَمُناسَبَةُ الْآيَةِ لِلْبَابِ أَنَّ مِنْ مُوجِبَاتِ الْخَوْفِ مِنَ الشِّرْكِ ،أَنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُهُ ، وَأَنَّ مَا عَدَاه تَحْتَ الْمَشِيئَةِ، وَإِنَّمَا كَانَ الشِّرْكُ بِهَذِهِ الْمَنْزِلَةِ ؛لأَنَّه أَقْبَحُ قَبِيحٍ وَأَظْلَمُ ظُلْمٍ ، إِذْ مَضْمُونُهُ تَنَقُّصُ رَبِّ الْعَالَمِيْنَ، وَصَرْفُ خَالِصِ حَقِّهِ لِغَيْرِهِ ، وَعَدْلُ غَيْرِهِ بِهِ وعدمُ المغفرةِ للشّرك في مَن لقي الله بِهِ أمَّا مَن تابَ مِنهُ فليسَ داخلاً في الآيةِ فلا تعارضَ بينَ هذهِ الآيةِ وقولِهِ تعالى ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [سورة الزمر] قوله ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ أَيْ: مَا دُونَ الشِّرْكِ ، وَفِيهَا رَدٌّ عَلَى الْخَوارِجِ وَالْمُعْتَزِلَةِ ؛ لِأَنَّهُمْ جَزَمُوا بِأَنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ الْكبائرَ وَفِي قَوْلِهِ: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ أَيْ أَنَّ

(١) القول المفيد على كتاب التَّوحيد، ١١٤، الناشر : دار ابن الجوزي.

الْمَغْفِرَةَ مُتَعَلِّقَةٌ بِالْمَشِيئَةِ ، فَفِيهَا ردٌّ عَلَى الْمُرْجِئَةِ؛ لأَنَّ اللهَ قَدْ لَا يَغْفِرُ مَا دُونَ الشِّرْكِ؛ لِأَنَّهُمْ زَعَمُوا أَنَّه لَا يَضُرُّ مَعَ الْإِيمَانِ ذَنْبٌ.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[و قول الخليل عليه السلام:﴿ وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ﴾[1]]

أَيْ: اجْعَلْنِي وَبَنِيَّ فِي جَانِبٍ، وَاجْعَلْ عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ فِي جَانِبٍ آخر. وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ التيميّ يَقُولُ:(مَنْ يَأْمَنُ مِنَ الْبَلاءِ بَعْدَ خَلِيلِ اللهِ إبراهيم، حِينَ يَقُولُ: ربّ (وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ))[2]. قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ:(مَا ثَمَّ إِلّا غُرُورُ أَهْلِ الْغُرُورِ، فَإِنَّ هَذَا الْقَوْلَ مِنَ الْخَلِيلِ يُوْجِبُ لِصَاحِبِ الْقَلْبِ الْحَيِّ أَنْ يَخَافَ مِنَ الشِّرْكِ؛ وَلِهَذَا الْمعنَى أَوْرَدَ الإمام هَذِهِ الْآيَةَ تَحْتَ هَذِهِ التَّرْجَمَةِ، فإذا كان إبراهيمُ عَلَيهِ السّلامُ خَلِيلَ الرَّحْمَنِ، وَإِمَامَ الْمُوَحِّدِينَ الذي كَسَّرَ الْأَصْنَامَ بِيَديهِ، قد خاف من الشرك فكيف بمن سواه وَهُوَ قُدْوَةُ الْحنفاءِ، فَمَنْ لَمْ يَخَفِ الشِّرْكَ، فَإِنَّما أُوتِيَ من قبل جَهْلِهِ بِنَفْسِهِ أَوْ جَهْلِهِ بِالشِّرْكِ، وَالَّذِي أَوجَبَ الْخَوْفَ لِلْخَلِيلِ عَلَيه السّلامُ هُوَ انْتِشارُ الشِّرْكِ فِي النَّاسِ؛ لِقَولِهِ ﴿ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [سورة إبراهيم: ٣٦] كَمَا أَنَّ الطَّبِيبَ الْعَاقِلَ يَخَافُ عَلَى نَفْسِه مِنَ الْوَبَاءِ الْمُنْتَشِرِ فِي النَّاسِ وَإِنْ كَانَ هُوَ الَّذِي يُدَاوِيهِمْ فَيَتَّخِذُ جَمِيعَ سُبُلِ الْحِيطَةِ وَالْحَذَرِ سلَّمَنَا اللهُ مِنَ الشِّرْكِ صَغِيرِهِ، وَكَبِيرِهِ خفيِّهِ وجليِّهِ وَمُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِلْبَابِ أَنَّ مِنْ مُوجِبَاتِ الْخَوْفِ مِنَ الشِّرْكِ خوف الخليل منه وكثرة انتشاره وفي الآية أن تجنب الشرك إنما هو من توفيق الله لعبده

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[وفِي الحديثِ:(أَخْوفُ مَا أَخَافُ عَلَيكُم الشِّرْكُ الأصْغَرُ، فَسُئِلَ عَنْهُ فَقَالَ "الرِّيَاءُ")[3]]

---

(١) سورة إبراهيم الآية: ٣٥.

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن للطبري، ص: ١٧/١٧، ط١، ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠ م. ت: أحمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة.

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣/٣٠), وابن ماجه في كتاب الزهد- باب الرياء و السمعة (٤٢٠٤)، وحسنه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٥٣٣٣).

أورد الإمام هذا الحديث مختصراً وقد أخرجه الإمام أحمد عن مَحْمُودِ بْنِ لَبِيدٍ ﵁ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ الشِّرْكُ الأَصْغَرُ) قَالُوا: وَمَا الشِّرْكُ الأَصْغَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: (الرِّيَاءُ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا جُزِيَ النَّاس بِأَعْمَالِهِمْ اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاءُونَ فِي الدُّنْيَا فَانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً). قوله :(إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ) فِيه: شَفَقَةُ النَّبِيِّ عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسّلامُ عَلَى أمَّتِهِ، وَقَولِهِ:(أَخْوَف) اسْمُ تَفْضِيلٍ، فَفِيهِ: أَنَّهُ يَخَافُ عَلَيْنَا أَشْيَاءَ أُخْرَى ، لَكِنَّ خَوْفَهُ عَلَينَا مِنَ الشِّرْكِ الأصغر أشدُّ ؛ لِغَفْلَةِ النَّاسِ عَنْه وَخَفَائِهِ وَلِعَظِيمِ خَطَرِهِ. و " مَا " نَكِرَةٌ بِمَعْنى شيءِ ، فالتقديرُ أخوفُ شيءٍ أخافُهُ عليكم الشركُ الأصغرُ وَأَمْرٌ خَافَهُ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى أمَّتِهِ ينبغي على الْعَبْدِ أَنْ يَخَافَهُ عَلَى نَفْسِهِ ، وَفِي الْحَدِيثِ الْخوفُ عَلَى الصَّالِحِينَ مِنَ الشِّرْكِ الأصغر. قوله: (الشِّرْكُ الأَصْغَرُ) وَفِيه : أَنَّ الشِّرْكَ نَوْعَانِ أكْبَرُ وَأصْغرُ وبينهما فروقٌ ذكرها أهلُ العلمِ منها أنَّ الأكبرَ محبطٌ لجميعِ الأعمالِ والأصغرُ محبطٌ للعملِ الذي يقارنُهُ فقط ومنها أنَّ الأكبرَمُخرِجٌ من الملةِ بخلافِ الأصغرِ ومنها أنَّ الأكبرَ يوجبُ الخلودَ في النَّارِ بخلافِ الأصغرِ ومنها أنَّ الأكبرَ يُحْرَمُ صاحبُه من الشفاعةِ بخلاف الأصغر (فَسُئِلَ عَنْه فَقَال : الرِّيَاءُ) هَذَا تَعْرِيفٌ لِلشِّرْكِ الْأَصْغَرِ بِنَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِهِ؛ لأَنَّ الشِّرْكَ الْأَصْغَرَ أَعَمُّ مِنَ الرياء، إِذْ هُوَ كُلُّ مَا سَمَّاهُ الشَّرعُ شِرْكًا وَدَلَّتْ النُّصُوصُ عَلَى أَنَّه لَيْسَ بِأَكْبَرَ، أَوْ لَمْ يُسَمِّهِ الشَّرعُ شِرْكاً لَكِنَّه كَانَ وَسِيلَةً إِلَى الْأَكْبَرِ ، وَيَشْمَلُ أيضاً يَسِيرَ الرياءِ وَشِرْكَ الألفاظ وَالطِّيرة وَغَيْرَ ذَلِكَ.

تنبيه:

وصورُ الشركِ لا تخرجُ عن أمرين أولهما صرفُ طاعةٍ لغيرِ اللهِ من قصدٍ ونحوِهِ والثاني نقصٌ في اعتقادِ تفردِ اللهِ بالنفعِ والضرّ.

قَوْلُهُ: **(الرِّيَاءُ)** مَصْدَرُ رَاءَى يرائي ، رياءً ورئاءً : إِذَا قَصَدَ رُؤْيَةَ النَّاسِ بِعَمَلِهِ. **وَيَنْقَسِمُ الرياءُ إِلَى قِسْمَيْنِ**: رياءِ الْمُسْلِمِ . ورياءِ الْمُنَافِقِ. فرياءُ الْمُنَافِقِ يَكُونُ فِي أَصْلِ الدِّيْنِ ، أَيْ : إِنَّمَا قَالَ كَلِمَةَ التَّوْحِيدِ رياءً. أَمَّا رياءُ الْمُسْلِمِ فَيَكُونُ فِي آحَادِ الْعَمَلِ **وَهُوَ نَوْعَانِ** :

- أَنْ يَكُونَ **فِي أَصْلِ الْعَمَلِ** بِمَعْنَى أَنَّهُ لَمْ يَأْتِ بِالْعَمَلِ إِلَّا رئاء النَّاسِ فَهَذَا مُحْبِطٌ لِلْعَمَلِ ؛ لِلْحديثِ الْإلهي: (قال اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ)[1].
- أَنْ يَكُونَ **طَارِئاً** أَيْ : أَنَّه أَنْشَأَ الْعَمَلَ لله ثُمَّ طَرَأَ عَلَيه الرياءُ بَعْدُ، وَلِلْمُسْلِمِ مَعَه حالَتَانِ : الأولى : أَنْ يُدَافِعَهُ، فَلَا يَضُرُّهُ حينئذٍ. الثَّانِيَةُ : أَنْ يَسْتَرْسِلَ مَعَه ، وَهَذَا يَخْتَلِفُ بحسبِ الْعِبَادَةِ :- فَإِن كَانَت الْعِبَادَةُ يُبْنَى أَولها عَلَى آخرها فَتَبْطُلُ الْعِبَادَةُ كُلُّهَا كَمَنْ صَلَّى رَكْعَةً لله ثُمَّ دَخَلَ عَليهِ الرياءُ فِي الرَّكْعَةِ الثَّانِيَةِ فَتَبْطُلُ الصَّلاةُ كُلُّهَا - أَمَّا إذاكانت الْعِبَادَةُ لا يُبْنَى أَولها عَلَى آخرها فَيَبْطُلُ مَا نَشَأَ عَنِ الرياءِ كَالْصَّدَقَةِ كَمَنْ تَصَدَّقَ بِعشْرينَ دِيناراً خَالِصَةً لله ثُمَّ تَصَدَّقَ بِعشْرِيْنَ رياء فإِنَّ اللهَ يقبلُ الأولى وَلا يقْبَلُ الثَّانِيَةَ[2].

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [وَعن ابنِ مَسْعُودٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ:(مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ نِدًّا دَخَلَ النَّار) وَقُلْتُ أَنَا: مَنْ مَاتَ وَهْوَ لا يَدْعُو لِلَّهِ نِدًّا دَخَلَ الجَنَّةَ[3] رَوَاهُ البُخَارِيُّ.]

---

(١) أخرجه مسلم، باب مَنْ أَشْرَكَ فِي عَمَلِهِ غَيْرَ اللهِ برقم: (٧٦٦٦)، من حديث أبي هريرة ﷺ .

(٢) أفاده العلامة ابن عثيمين في القول المفيد.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن- باب قوله: {ومن النَّاس من يتخذ من دون الله أندادًا} (٤٤٩٧) واللفظ له ،ومسلم في كتاب الإيمان- باب من مات لايشرك بالله شيئًا دخل النار (٩٢).

قوله:(مَنْ) اسم شَرْطٍ يُفِيدُ الْعُمُومَ جُمْلَةُ قوله: (وَهُوَ يَدْعُو) جملة حالِيَّةٌ، وَلَمَّا كَانَ الْعَبْدُ لَا يَعْلَمُ مَتَى يَمُوتُ فَقَدْ وجَبَ عَلَيهِ مُلازَمَةُ التَّوْحِيدِ، (يَدْعُو) **الدُّعَاءُ نَوْعَانِ** : دُعَاءُ مَسْالَةٍ ودعاءُ عِبَادَةٍ ، وَإِنَّمَا سُمِّيتِ الْعِبَادَةُ دُعَاءً لأَنَّ كُلَّ عِبَادَةٍ تتَضَمَّنُ الدُّعَاءَ بِلِسَانِ الْحَالِ أَو الْمَقَالِ قوله: (مِنْ دونِ اللَّهِ ندّاً) أَيْ : غَيْرَ اللَّهِ (النِدُّ) هُوَ الشَّبِيهُ، وَلَيْسَ لله نِدٌ لَكِنَّه موجودٌ فِي اعْتِقاد مَنْ يَدعو غير الله لأَنَّهُ إِنَّما دَعَا غيرَ اللهِ لاعتقاده فِي منْ يدعُوهُ أَنَّهُ ندٌ للهِ في صفاتِهِ. (دَخَلَ النَّارَ) خَالِداً إِذَا كَانَ اتِّخَاذُهُ لِلنِّدِّ شِركاً أَكْبَر ، وَلَا يُخَلَّدُ فِي النَّارِ إِذَا كَانَ اتِّخَاذُهُ لِلنِّدِّ شِرْكاً أَصْغَرَ؛ كَشِرْكِ الألفاظ.وَمُنَاسَبَةُ الْحديث لِلْبَابِ أَنَّ مِنْ مُوجِبَاتِ الْخَوْفِ مِنَ الشِّرْكِ أَنَّه يوجبُ دخولَ النار و كلام ابن مسعود هو مفهوم مخالفة الحديث وفيه بشارة عظيمةٌ لكل من مات على التوحيد إذ من مات عليه سيدخل الجنة قطعا إما ابتداء وإما انتهاء.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [وَلِمُسْلِمٍ عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (مَنْ لَقِيَ اللَّهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا؛ دَخَلَ الجنَّة وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا؛ دَخَلَ النَّار)[(١)].]

قوله: (عن جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) هُوَ جَابِر بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ حَرامِ الْأَنْصارِيُّ السُّلمِيُّ مِنَ الْمُكْثِرِينَ مِنَ الْحديثِ قوله: (مَنْ) شَرْطِيَّةٌ تُفِيدُ الْعُمُومَ (لَقِيَ اللَّهَ) أَيْ : مَاتَ، وَجُمْلَةُ (لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا) حالِيَّةٌ،(دَخَلَ الْجَنَّةَ) فَيَشْمَلُ هَذَا الدُّخُولُ كُلَّ مُوَحِّدٍ ، إلا أَنَّ الدُّخُولَ نَوْعَانِ : فَإِمَّا أَنْ يَدْخُلَهَا ابتداءً إِذَا سَلِمَ مِنَ الإصْرارِ على المعاصي ، و إِمَّا أَنْ يَدْخُلَهَا بَعْدَ دُخُولِهِ النَّارَ فَيُعَذَّبُ بِقَدْرِ ذُنُوبِهِ إِن لَمْ يَعْفُ عنه اللهُ و يَغْفِرْ لَهُ.(وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا ؛ دَخَلَ النَّارَ) هَذَا عَامٌ فِي كُلِّ مَنْ أَشْرَكَ ، وَلَوْ أَشْرَكَ مَعَ اللهِ أَشْرَفَ الْخَلْقِ فَإِنَّه سَيَدْخُلُ النَّارَ وَيَخْلُدُ فِيهَا إِنْ كَانَ شِرْكُهُ أَكْبَر ، أَمَّا إِنْ كَانَ شِرْكُهُ أَصْغَرَ فَإِمَّا أَن تَكُونَ لَهُ حَسَنَاتٌ ماحِيَةٌ أَوْ كَثِيرَةٌ راجِحَةٌ بِالشِّرْكِ الْأَصْغَرِ، فَلَا يَدْخُلُ فِي هَذَا الْعُمُومِ وَإِمَّا أَلَّا تَكُونَ لَهُ حَسَنَاتٌ ماحِيَةٌ ولا رَاجِحَةٌ وَلَا يَعْفُو اللهُ عَنْه فَيَدْخُلُ فِي هَذَا الْعُمُومِ ، وَهَذَا مِمَّا يُوجِبُ الْخَوْفَ مِنَ

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان- باب من مات لايشرك بالله شيئًا دخل النار (٩٣).

الشِّرْكِ فَعَلَى الْمَرْءِ إِن أَرَادَ أَنْ يَسلَمَ مِنَ الرياءِ أَنْ يُكْثِرَ مِنْ هَذَا الدُّعَاءِ: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَعوْذُ بِكَ أَنْ أُشْرِكَ بِكَ وَأَنَا أَعْلَمُ ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا أَعْلَمُ)[1] وَفِي حَديثِ الْبَابِ قُرْبُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ لأَنَّه ليس بين العبد وبينهما إلا الموت. وَفِي النُّصُوصِ غَيْرُ مَا ذَكَرت مِنَ الْفَوَائِدِ: أَنَّ الْإِنْسانَ لَا يَغْتَرُ بِنَفْسِه مَهْمَا بَلَغَ مِنَ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ بَلْ يَعْتَرِفُ بِعَجْزِهِ وَفقرِهِ وَتَقْصيرِهِ ؛ لأَنَّهُ إِنْ لَمْ يَعْصِمْهُ اللهُ فَهُوَ عَلَى خَطَرٍ.

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد، باب فضل الدعاء، برقم: (٢٦٦).

[٥]

بَابُ الدُّعَاءِ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لا إِلَهَ إلا اللَّهُ

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ: أَنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا عَرَفَ التَّوْحِيدَ و فَضْلَهُ وَحَقَّقَهُ وَخَافَ مِنَ الشِّرْكِ فَقَدْ كَمُلَ بِذَلِكَ، فَيَجِبُ عَلَيه أَنْ يَسْعَى فِي تَكْمِيلِ غَيْرِهِ، وَمَنْ اجْتَمَعَتْ فِيه هَذِهِ الْفَضَائِلُ كَانَ أَهْلاً بِأَنْ يدعوَ إِلَى اللهِ. بَلْ مِنْ تَحْقِيقِ التَّوْحِيدِ أَلَّا يَرْضَى الْعَبْدُ بِوجودِ الشِّرْكِ، فيسْعَى إلى إزالتِهِ بالدَّعوةِ إلى التَّوحيدِ بل من تحقيق التوحيد ألا يرضى بمعصية الله فضلا عن أن يرضى بالشرك فقد قال زهير بن نعيم «وددت أن جسدي قرض بالمقارض وأن هذا الخلق أطاعوا الله»رواه أبونعيم في الحلية قال شيخ الإسلام فإنَّ أعظمَ ما عُبدَ اللهُ بهِ نصيحةُ خلقِهِ. وَمَعْنى التَّرْجَمَةِ (بَابُ الدُّعَاءِ) أَيْ: بَابُ الدَّعْوَةِ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلّا اللهُ.

قَالَ الإمَامُ –رحمَهُ اللهُ– [قَالَ تعَالَى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِىۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[1].]

قوله: (قُلْ) الْخِطَابُ لِلنَّبِيِّ عَلَيه الصَّلاةُ والسّلامُ ، وَالتَّقْديرُ: يا أَيُّهَا النَّبِيُّ (هَذِهِ) اسم إشارةٍ و إِنَّمَا يُشَارُ بِهِ إِلَى الْمَحْسُوسِ أصالة، فَفِيه : وُضُوحُ دَعْوَتِهِ،(سَبِيلي) والسبيل هو الطريقُ الواضحُ الذي يمكنُ لكلِّ أحدٍ أنْ يسلكَهُ وفِيه:أَنَّ السَّبِيلَ وَاحِدٌ وَهُوَ الدَّعْوَةُ إِلَى اللهِ عَلَى بَصيرَةٍ ، وَهَذَا سَبِيلُ النَّبي ﷺ وَسَبِيلُ أَتْبَاعِهِ أيضاً، وَقَوْلِهِ:(أَدْعُو إِلَى اللهِ) أي أدعو إلى عبادة الله وحده مخلصا في ذلك وقوله: (عَلَى بَصيرَةٍ) أي: عَلَى عِلْمٍ **فَتَضَمَّنَ سَبِيلُ الْأنبياءِ ثَلاثَةَ أُمُورٍ** هِي الْعِلْمُ وَالدَّعْوَةُ وَالإِخْلاصُ، مَتَى مَا تَخَلَّفَتْ وَاحِدَةٌ

(١) سورة يوسف الآية: ١٠٨.

كَانَتْ نقْصاً وَمُخَالَفَةً لِسَبِيلِ النَّبيين.فأتباع الْأنبياءِ لَا يَتْركونَ الدَّعْوَةَ إلى التوحيد وَلَا يَدْعُونَ إِلَى اللهِ بِجَهْلٍ، قَالَ أهْلُ الْعِلْمِ: الَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَى اللهِ عَلَى غَيْرِ بَصيرة يُفْسِدُونَ وَيُقَدِّرُونَ أَنَّهُمْ يُصْلِحُونَ، قال الشَّيخُ صالحُ السِّندي – حفظه الله – عليكَ ياداعيةَ التَّوحيدِ أنْ تكونَ عليماً رحيماً حكيماً كريمًا سليماً وَفِي قَوْلِهِ : (وَسُبْحَانَ اللهِ) أَيْ : تَنزهَ اللهُ عَنِ النَّقَائِصِ، وَأَعْظَمُهَا الشَّرِيكُ. وَفِي قَوْلِهِ :(وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) هَذِهِ بَراءةُ مِنَ الشِّرْكِ وَأهلِهِ.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[وَعن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛(أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا بَعَثَ مُعَاذًا إِلَى اليَمَنِ؛ قَالَ لَهُ إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. وَفِي رِوَايَةٍ:إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللَّهَ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ؛ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ " أَخْرَجَاهُ.]

قَوْلُهُ (لَمَّا) ظَرفٌ بِمَعْنَى حِين،(بَعَثَ مُعَاذًا) أَيْ: أرْسَلَهُ،(الْيَمَنِ) الْقُطْرُ الْمَعْرُوفُ، وَفِي هَذِهِ الجُمْلَةِ مِنَ الْفَوائِدِ: مَشْرُوعِيَّةُ إِرْسَالِ الدُّعَاةِ إِلَى اللهِ، وَفِيه فَضِيلَةُ مُعَاذٍ، وَفِيه الْعَمَلُ بِخَبَرِ الْوَاحِدِ فِي الْعَقَائِدِ وَالْأَحْكَامِ.(قَالَ لَهُ إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أهْلِ الْكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلُ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيه شَهَادَةَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلّا اللَّهُ) وفِيه: التَّدَرُّجُ فِي الدَّعْوَةِ وَأَنْ يَبْدَأَ بالأهمّ فَالْمُهِمّ. وَفِيه الْعِلْمُ بِحَالِ الْمَدْعُو قَبْلَ دَعْوَتِهِ، قَوْلُهُ:(شَهَادَةُ) الشَّهَادَةُ لَا تُكونُ صحيحةً إِلّا إِذَا اعْتَقَدَ بِقَلْبِهِ ما نَطَقَ بِلسَانِهِ، فَإِنْ نَطقَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يَعْتَقِدْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُنَافِقٌ، وإن أقر بقلبه ولم ينطق بلسانه فهو جاحد وَفِي رِوايَةٍ: (إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللَّهَ) الْمَقْصُودُ مِنْ إِيرَادِ هَذِهِ الرِّوايَةِ التَّنْبِيهُ إِلَى أَنَّ مَعْنى لَا إِلَهَ إِلّا اللهُ هُوَ تَوْحِيدُ اللهِ ، وَفِي الْحدِيثِ وُجُوبُ الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ. قَولُهُ:(فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ) أَي: انْقَادُوا، قَولُهُ:(فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ) فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ مِنَ الْفَوائِدِ: أَنَّ الصَّلاةَ أَعْظَمُ وَاجِبٍ بَعْدَ التَّوْحِيدِ، وَأَنَّ

الْمُطَالَبَةَ بِسَائِرِ الْفَرَائِضِ لَا تكونُ إلّا بَعْدَ التَّوْحِيدِ، لأنَّهُ شرطٌ في قبولها وَأَنَّ الْكفَّارَ مُخَاطبُونَ بِفُرُوعِ الشَّرِيعَةِ وَبِمَا لَا تَصِحُّ إلّا بِهِ وَهُوَ التَّوْحِيدُ، وَأَنَّ صَلاةَ الْوِتْرِ لَيْسَتْ بِوَاجِبَةٍ. قَولُهُ:(فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ) أَي: انْقَادُوا، قَولُهُ: (فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ) الصَّدَقَةُ هُنَا هِيَ الزَّكَاةُ، وَهِيَ قَرِينَةُ الصَّلاةِ فِي كِتَابِ اللهِ وَسُنَة نَبِيِّهِ ﷺ وَهِيَ ثَالِثُ الأَرْكَانِ. وَفِي الْحَدِيثِ مِنَ الْفَوائِدِ: أَنَّ الزَّكَاةَ إِنَّمَا تَجِبُ عَلَى الْغَنِيِّ، وَأَنَّ مَنْ مَلَكَ النِّصَابَ فَهُوَ غَنِيٌّ، وَأَنَّ الزَّكَاةَ وَاجِبَةٌ في مال الصَّبِيِّ وَالْمَجْنُونِ، وَأَنَّ الإِمَامَ هُوَ الَّذِي يَتَوَلَّى قَبْضَ الزَّكَاةِ وَصَرْفَهَا، وَفِيهَا التَّنْبِيهُ لِأَهَمِّيَّةِ صِنْفِ الْفقراءِ مِنْ بَيْنِ الأَصْنَافِ الثمَّانية، وَأَنَّ الزَّكَاةَ تُصرفُ فِي الْبَلَدِ الَّذي يَكُونُ فِيه الْمَالُ إِلّا إِذَا اكْتَفَى الْفقراءُ فيه، وَأَنَّهُ لَا يَجُوزُ دَفْعُ الزَّكَاةِ لِغَنِيٍّ وَلَا كَافِرٍ إلّا إِذَا كَانَ الْغَنِيُّ مُجَاهِدًا أَوْ عَامِلاً فِي جَمْعِ الزَّكَاةِ. قَولُهُ:(فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ فَإِيَّاكَ وَكرائمَ أَمْوَالِهِمْ) قوله: و(كرائم) مَنْصُوبٌ عَلَى التَّحْذِيرِ، وهي: جَمْعُ كَرِيمَةٍ، وَهِيَ النَّفِيسَةُ مِنَ الأموال، فَكَمَا لَا يَأْخُذُ الْعَامِلُ الْكَرِيمَةَ فَلَا يُخْرِجُ صَاحِبُ الْمَالِ الدَّنيئةَ، وَفِيه مِنَ الْفَوَائِدِ أَنَّ أَخْذَ الْعَامِلِ لِلْكَرِيمَةِ بدون رضا صاحب المال ظُلْمٌ، وَفِيه وُجُوبُ الْعَدْلِ عَلَى الْوُلاةِ. قَولُهُ:(واتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنَّه لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حِجابٌ) (اتَّقِ) اجْعَلْ بَيْنَكَ وَبَيْنَ دَعْوَةِ الْمَظْلُومِ وِقَايَةً بِاستعمال الْعَدْلِ وَتَركِ الظُّلْمِ. وَالتَّقْوَى وَالْعَدْلُ يَقِيَانِ مَنْ رُزِقَهُمَا الشُّرُورَ (فَإِنَّه لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حِجابٌ) أَي : أنَّ الأمر الخطيرَ والشأن العظيم أن دعوة المظلوم لا يحجزها من الله حاجزٌ فهِي مُسْتَجَابَةٌ وَإِنْ كَانَتْ مِنْ كافر فقد أخرج أحمد بإسناد صحيح عن أنس – رضي اللَّه عنه ، قال رسول الله – ﷺ –: "اتقوا دعوة المظلوم، وإن كان كافرًا، فإنه ليس دونها حجاب".

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[وَلَهُمَا عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ يَوْمَ خَيْبَرَ: (لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلاً يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ"، فَبَاتَ النَّاس يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ، أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا،فَلَمَّا أَصْبَحُوا، غَدَوْا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كُلُّهُم يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا فَقَالَ "أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ؟" فَقِيلَ هُوَ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ، فَأُتِيَ بِهِ، فَبَصَقَ فِي

عَيْنَيْهِ، وَدَعَا لَهُ فَبَرَأَ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ، فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ، فَقَالَ انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ، حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى فِيهِ، فَوَاللَّهِ، لأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ)[(١)] (يَدُوكُونَ) أَيْ يَخُوضُونَ.]

قوله: (سَهْلُ بْنُ سَعْدٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) هُوَ سَهْل بْنُ سَعْد بْنِ مَالِك بْنِ خَالِدِ الْأَنْصارِي الخزرجى – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا –.(خَيْبَر) هُوَ حِصْنٌ لِلْيَهُودِ شَمَالي الْحجازِ، (لَأعْطِيَنَّ) هَذِهِ الجُمْلَةُ مُؤَكَّدَةٌ بِثلاثِ مُؤَكِّدَاتِ الْقَسَمِ الْمَحْذُوفِ وَاللّامِ وَنُونِ التَّوْكِيدِ.(الرّايَة) مَا يَتَّخِذُهُ أَميرُ الجَيْشِ عَلامَةً عَلَى مَكَانِهِ،(رَجُلاً يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ) وَفِي هَذِهِ الجُمْلَةِ مِنَ الْفَوَائِدِ : فَضِيلَةُ عَلِيٍّ – رَضِيَ اللهُ عَنْه – حَيْثُ أَثْبَتَ النَّبِي عَلَيه الصَّلاةُ وَالسّلامُ مَحَبَّتهُ لله وَرَسُولِهِ ﷺ وَمَحَبَّة اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ لَهُ، وَالثَّانِيَةُ أَعْظَمُ مِنَ الأولى، وَفِيه رَدٌّ عَلَى النَّوَاصِبِ وَالْخوارِجِ الذين يبغضون علياً رضي الله عنه، وَفِيه رَدٌّ عَلَى الْمُعَطِّلَةِ والأشاعرة الَّذِينَ يَنْفُونَ الصِّفَاتِ الْفِعْلِيَّةَ الَّتِي تَتَعَلَّقُ بِمَشِيئَتِهِ تَعَالَى، فَإِنَّ اللهَ قَدْ يُحِبُّ أحداً مَا لِسَبَبٍ وَيبْغضُهُ لِآخر . وَلَيْسَ فِي إِثْبَاتِ هَذِهِ الصِّفَةِ وهي محبة الله ورسوله ﷺ لِعَلِّي – رَضِيَ اللهُ عَنْه – نَفيهَا عَنْ غَيْرِهِ مِنَ الصَّحَابَةِ خِلافًا لِلشّيعَةِ، وَمَنْ أَخَذَ بِمَفْهُومِ الْمُخَالَفَةِ مِنْ هَذَا الخَبَرِ فَقَدْ أَخَذَ بِمَفْهُومِ اللَّقَبِ وَهُوَ أَضْعَفُ الْمَفَاهِيمِ. قَوْلُهُ: (يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ) فِي هَذِهِ الجُمْلَةِ: بِشارَةٌ بِالنَّصْرِ، وَفِيهَا: عَلَمٌ مِنْ أَعْلَامِ النُّبُوَّةِ . قَوْلُهُ :(فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ، أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا) أَي: بَاتُوا يَتَحَدَّثُونَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ فِي مَنْ تُدْفَعُ إِلَيه الرَّايَةُ، وَفِيه: حِرْصُ الصَّحَابَةِ عَلَى الخَيْرِ ، قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ – رضي الله عنه –: (مَا أَحْبَبْتُ الإِمارَةَ إِلا يَوْمَئِذٍ – قَالَ – فَتَسَاوَرْتُ لَهَا رَجاءَ أَنْ أُدْعَى لَهَا)[(٢)](فَلَمَّا أَصْبَحُوا، غَدَوْا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا) أَي: ذَهَبُوا مُبَكِّرِينَ وَحالُهُمْ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يُؤَمِّلُ فِي أَنْ يَكُونَ هُوَ الَّذِي يَنالُهَا وَفِي

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجزية والسير– باب فضل من أسلم على يديه رجل (٣٠٠٩) ومسلم في كتاب فضائل الصحابة– باب من فضائل علي ابن أبي طالب رضي الله عنه (٢٤٠٦).

(٢) أخرجه مسلم،باب مِنْ فَضَائِلِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رضى الله عنه، برقم: (٦٣٧٥).

هَذَا أَنَّ الأولِيَاءَ لَا يعْلَمُونَ الْغَيْبَ لأَنَّ الصَّحَابَةَ كُلَّهُمْ مِنَ الأولِيَاءِ الصَّالِحِينَ. قَوْلُهُ:(فَقَالَ " أَيْنَ عَلِيّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ؟") فِيه: سُؤَالُ الْإِمَامِ عَنْ رَعِيَّتِهِ فِي مَجَامِعِ الخَيْرِ،(فَقِيلَ: هُوَ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ) فِيه:إصابَةُ الأولِيَاءِ بِالْأَوْجَاعِ وَالأمراضِ فَكَيْفَ يُطْلَبُ مِنْهُمْ الشِّفَاءُ ! وَعِنْدَ مُسْلِمٍ عَنْ سلمةَ بْنِ الْأَكْوَعِ قَالَ : قَالَ فَأَتَيْتُ عَلِيًّا فَجِئْتُ بِهِ أَقُودُهُ [١]. (فَبَرَأَ) أَي: عُوفِيَ، وَعِنْدَ الطَّبَرَانِيّ:(فَلَمَّا بَعَثَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى خَيْبَرَ قُلْتُ إِنِّي أَرمَدُ فَتفَلَ فِي عَيْنِي فَمَا وَجَدْتُ بَرْدًا وَلَا حَرًا بَعْدُ وَلَا رمِدَتْ عَيْنَاي) [٢].وَفِي هَذِهِ الجُمْلَةِ مِنَ الْفَوائِدِ: الْإيمَانُ بِالْقَدرِ لأَنَّهَا حَصلتْ لِمَنْ لَمْ يَسْعَ إِلَيها وَفَاتَتْ مَنْ حَرِصَ عَلَيها، وَفِيهَا بَرَكَةُ دُعَاءِ النَّبِيّ ﷺ.قوله: (فَقَالَ:انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ، حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ) قوله: (انْفُذْ) أَي: امْضِ، (عَلَى رِسْلِكَ) أَي: على تمهلٍ وتأنٍ. وَأَوْصَاهُ بِالتَّرَسُّلِ؛ لأَنَّ الْيَهُودَ أَصْحَابُ غَدْرٍ ، وَفِيه : تَركُ الْعَجَلَةِ وَالطَّيْشِ وَرَفْعِ الْأَصْوَاتِ الَّتِي لَا حاجَةَ لَهَا عِنْدَ الْقِتَالِ ، فَإِنَّ الْهُدُوءَ يَدُلُّ عَلَى الشَّجَاعَةِ وَالْعَزِيمَةِ (ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلامِ) الضَّمِيرُ يَعُودُ إِلَى أَهْلِ خَيْبَرَ، وَالْإِسْلامُ هُوَ الْاسْتِسْلامُ لِلَّهِ وَحْدَهُ وَهَذَا مَعنَى كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ ؛ لأَنَّ مَن اسْتَكْبَرَ عَنْ عِبادَتِهِ لَمْ يَكُنْ مُسْلِماً، وَمَنْ اسْتَسْلَمَ فِي عِبَادَتِهِ لله وَلِغَيْرِهِ فَهُوَ مُشْرِكٌ وَهَذَا مَوْضِعُ الشَّاهِدِ وَفِيه مَشْرُوعِيَّةُ الدَّعْوَةِ قَبْلَ الْقِتَالِ، وَإِن كَانُوا قَدْ دُعُوا مِنْ قَبْلُ فَتكُونُ مِنْ بَابِ إقامَةِ الحجَّة وَكَمَالِ الْمَعْذِرَةِ وهيَ مُسْتَحَبّة وَإِلّا فَوَاجِبة.وَفِيه أَنَّ التَّوْحِيدَ هُوَ الْغَايَةُ مِنَ الْجِهَادِ.(وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى فِيه) أَي إِذَا أَجَابُوا لِلْإِسْلامِ فأخبرهم بِمَا يَجِبُ عَلَيهِمْ مِنْ حَقّ اللَّهِ فِي الْإِسْلامِ مِنْ صَلاةٍ وَزكَاةٍ وَنَحْوِهَا، وعند مسلم من رواية أبي هريرة قَالَ له « امْشِ وَلا تَلْتَفِتْ حَتَّى يَفْتَحَ اللَّهُ عَلَيْكَ ». قَالَ أبوهريرة فَسَارَ عَلِيٌّ شَيْئًا ثُمَّ وَقَفَ وَلَمْ يَلْتَفِتْ فَصَرَخَ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلَى مَاذَا أُقَاتِلُ النَّاسَ قَالَ « قَاتِلْهُمْ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ » فهذه أصرح في موضع الشاهد (فَوَاللَّهِ) فِيه: مَشْرُوعِيَّةُ الْقَسَمِ وَإِن لَمْ يُسْتَقْسَمْ، و(رَجُلاً): لَا مَفْهُومَ لَهَا فَهِدَايَةُ الْمَرْأَةِ كَذلِكَ، (خَيْرٌ لَكَ

(١) أخرجه مسلم،باب غَزْوَةِ ذِى قَرَدٍ وَغَيْرِهَا، برقم: (٤٧٧٩).

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط، برقم: (٣٧٩٦).

مِنْ حمرِ النَّعَمِ) الْهِدَايَةُ هُنَا هِدَايَةُ تَوْفِيقٍ، بِكَ: الْبَاءُ سَبَبِيَّةٌ أَي: بِسَبَبِكَ، وَحمرُ - بضمٍ فَسُكُونٍ - النَّعَم – بِفَتْحِ النُّونِ - أَي: الْإِبِلُ الْحَمْرَاءُ وَكَانَتْ مِنْ خَيْرِ أَمْوَالِ الْعَربِ وَمَا زَالَتْ، فَفِيه فَضْلُ الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ. قَالَ النَّوَوِيُّ – رحِمَهُ الله:- (تَشْبِيهُ أمُور الْآخِرَة بِأَعْرَاضِ الدُّنْيَا إِنَّما هُوَ لِلتَّقْرِيبِ مِن الأفْهَام، وَإِلَّا فَذَرَّةٌ مِنَ الْآخِرَة الْبَاقِيَة خَيْرٌ مِنِ الأرْض بِأَسْرِهَا، وَأَمْثَالها مَعَهَا لَوْ تُصُوِّرَتْ)[1] وقَال السِّعْدِي – رحِمَهُ الله – مُبَيناً خَطَرَ ترْكِ وَاجِبِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ:(قَالَ تعَالَى﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾[2] وَرحِمَ اللَّهُ مَنْ أعَانَ عَلَى الدِّينِ وَلَوْ بِشَطْرِ كَلِمَةٍ ، وَإِنَّمَا الْهَلاكُ فِي تَرْكِ مَا يَقْدرُ عَلَيهِ الْعَبْدُ ، مِنَ الدَّعْوَةِ إِلَى هَذَا الدِّينِ)[3]

(١) شرح النووي على مسلم، ١٥/ ١٧٨، الناشر : دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٢

(٢) سورة التغابن الآية: ١٦.

(٣) القول السديد في مقاصد التَّوحيد، ص: ٣٧.

[٦]

بَابُ تَفْسِيرِ التَّوْحِيدِ وَشَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلّا اللهُ

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ : أنَّ الإمام – رَحِمَهُ الله – تَكَلَّمَ فِي الْبَابِ السَّابِقِ عَنِ الدَّعْوَةِ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلّا اللهُ أرَادَ هنا أَنْ يُبَيِّنَ – رَحِمَهُ اللهُ – أنَّ الدعوة للتَّوْحِيدَ ينبغي أن تكون بوضوح فلا يصلح الاجمال في هذا الباب وأن الدعوة للتوحيد وَشَهَادَةَ أَن لَا إِلَهَ إِلّا اللهُ شيءٌ وَاحِدٌ فَمَنْ دَعَا إِلَى التَّوْحِيدِ فَقَد دَعَا إِلَى شَهَادَةِ أن لَا إِلَهَ إِلّا اللهُ . وَمَعْنى التَّرْجَمَةِ : **التَّفْسِيرُ** مِنَ الفسر وَهُوَ التَّوْضِيحُ وَالْكَشْفُ ، وَسبَقَ الْكَلامُ عَنِ التَّوْحِيدِ وَشَهَادَةِ ألَا إِلَهَ إِلّا اللهُ. فَالْعَطْفُ هُنَا عَطْفُ تَفْسِيرٍ ؛ لِأَنَّ التَّوْحِيدَ هُوَ شَهَادَةُ أَن لَا إِلَهَ إِلّا اللهُ . وَالشَّهَادَةُ تَتَضَمَّنُ أَمْرَيْنِ: النُّطْقَ، وَاعْتِقَادَ الْمَنْطُوقِ بِهِ. كما ينبغي أن يعلم أن لا إله إلا الله ليس معناها لا خالق إلا الله.

والمعنى الصحيح أنَّ (لَا إِلَهَ) : إِلَهَ : اسم (لَا)، وَهُوَ بِمعْنى المألوه أَي: الْمَعْبُودُ ، وَخَبرُ (لَا) مَحْذُوفٌ، فَلَا يَجوزُ أَنْ نُقَدِّرَ الخبر كلمة (مَوْجُود) لِوُجُودِ الْآلِهَةِ الْبَاطِلَةِ مَعَ اللهِ ، وَلأَنَّه يَتَضَمَّنُ الْحلُول ، كَمَا لَا يَجوزُ أَنْ نُقَدِّرَهُ مَعْبُودٌ لأَنَّ الْآلِهَةَ مَعْبُودَةٌ مَعَ اللهِ لَكِنَّهَا مَعْبُودَةٌ بِالْبَاطِلِ . فَالصَّحِيحُ فِي تَقْدِيرِ خَبَرِ (لَا) حقٌّ، بِدَليلِ

قَوْلِ اللهِ تعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾[١].

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[وقول الله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾[٢]]

(١) سورة الحج الآية: ٦٢.

(٢) سورة الإسراء الآية: ٥٧.

بَيَّنَ اللهُ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ لِهَذِهِ الْآيَةِ عَجزَ الْآلِهَةِ الْبَاطِلَةِ وَأَنَّهَا لَا تَمْلِكُ إِزَالَةَ الضُّرِّ وَلَا تَحْوِيلَهُ فَقَالَ: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ ﴾ [سورة الإسراء] ثُمَّ بَيَّنَ فِي الآية التي أوردها الإمام أَنَّ هَذِهِ الْآلِهَةَ الَّتِي عُبدت مَعَ اللهِ تَتَعَبَّدُ اللهَ تَعَالَى وَتُقِرُّ لَهُ بِالْعُبُودِيَّةِ وَتَتَنَافَسُ فِي تَحْقِيقِهَا. فَقَالَ: (أُولَئِكَ) مُبْتَدَأٌ يُشِيرُ بِهِ لِلْآلِهَةِ الْمَعْبُودَةِ مَعَ اللهِ بِالْبَاطِلِ. (الَّذِينَ) بَدَلٌ ، وَجُمْلَةُ (يَدْعُونَ) صِلَةُ الْمَوْصُولِ ، وَالْعَائِدُ مَحْذُوفٌ ، وَالتَّقْديرُ : أُولَئِكَ الَّذِينَ تدْعُونَهُمْ ، وَالْخَبَرُ (يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ) أَي : يَطْلُبُونَ .(**الْوَسِيلَةَ**) قِيلَ: معناها الْقُرْبَةُ ، فَمَعنَى الْآيَةِ: أُولَئِكَ الَّذِينَ تَعْبُدُونَهُمْ عِبَادٌ يَطْلُبُونَ التَّقَرُّبَ مِنَ اللهِ فَكَيْفَ تَعْبُدُونَ الْعِبَادَ ؟ فَفِيهَا مَعنَى قولِهِ تَعَالَى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ [الأعراف: ١٩٤] وَقِيلَ الْوَسِيلَةُ بِمَعْنى الْحَاجَةِ ،وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ عَنْتَرَةَ (١)

إِنَّ الرجالَ لهم إليكِ وسيلةٌ *** أَنْ يأخذوكِ تكحلي وتخضبي

و التَّقْديرُ عَلَى هَذَا : أُولَئِكَ الَّذِين تَدْعُونَهُمْ يَطْلُبُونَ حاجَتَهُمْ مِنَ اللهِ فَكَيْفَ تَفْتَقِرُونَ إِلَى الْفَقِيرِ الْمُحْتَاجِ ؟

وَهُنا تَنْبِيهٌ وَهُوَ أَنَّ اللهَ لَمْ يَنْفِ صلاح هؤلاءِ المعبودين لِكَوْنِهِمْ عُبِدُوا مَعَ اللهِ وَإِنَّمَا نَهاهم أَنْ يَعبدُوهَم ، وَبَرْهَنَ لَهمْ أَنَّهَم لَا يصْلُحُون لِلْعِبَادَةِ فَقط؛ لأنَّ الكلام عن التوحيد هو المقصود والكلام عن عدم صلاح هؤلاء المعبودين ليس مقصودا؛ لأنَّ صلاحهم لا يبيح عبادتهم بل ربما يكون الكلام عن مساويهم سببا لعدم قبول التوحيد.

(١) هو عنترة بن شداد بن عمرو بن معاوية بن قراد العبسي: أشهر فرسان العرب في الجاهلية، من أهل نجد، ومن شعراء الطبقة الأولى، واجتمع في شبابه بامرئ القيس الشاعر، وشهد حرب داحس والغبراء (الأعلام للزركلي: ٩١/٥، معجم المؤلفين: ١٤/٨).

قَالَ الإمامُ – رحمَهُ اللهُ – [قوله: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾(١).]

قزله:(إبراهيم) أَبُو الْأنبياءِ.وَإِمَامُ الْمُوَحِّدِينَ (لأَبِيه) فِيه : الْبَداءةُ بِالْأَقْرَبِينَ فِي الدَّعْوَةِ ؛ لأَنَّ أُولِي الْقُرْبَى أولى بِالْمَعْرُوفِ ، وَلأَنَّ اسْتِجَابَتَهُمْ سَبَبٌ فِي اسْتِجَابَة غَيْرِهِمْ .(إنني براءٌ) براءٌ فَعَالٌ مِنْ برأ ، أَي : تَخَلَّى وَترك ، **وَالْبَراءةُ** هُنا تَعْني : الْكُفْر بِكُلِّ مَعْبُودٍ لهُمْ، إِلّا الَّذِي (فَطَرَنِي) أَي : خَلَقَنِي . وَفِيه : أَنَّ قَوْمَ إبراهيم كَانُوا يعبُدُونَ اللهَ وَيَعْبُدُونَ غَيْرَه ، هَذَا إِذَا قُلنَا إِنَّ الاسْتِثْنَاءَ مُتَّصِلٌ وَهُوَ الْأَصْلُ ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُنْقَطِعًا ، إِذَا كَانُوا لَا يعْبُدُونَ اللهَ. وَيعبدُونَ الْآلِهَةَ الْبَاطِلَةَ فَقَط (إنني براءٌ مِمَّا تعْبُدُونَ) تَعْنِي : لَا إلَهَ (إِلّا الَّذِي فَطَرني) تَعْنِي إِلّا اللهُ ،(فَإِنَّه سيهدين) فِيهَا : أَنَّ التَّوْحِيدَ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ الْهِدَايَةِ.(وَجعَلَهَا كَلِمَةً باقِيَةً فِي عَقِبِهِ) أَي : جعلَ كَلِمَة التَّوْحِيدِ باقِيَةً فِي عَقِبِهِ أَي لايزال التَّوْحِيدُ فِي ذُرِّيَّةِ إبراهيم إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ وَإِنَّمَا تَبْقَى كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ فِي الذُّرِّيَّةِ بِوَصِيَّةِ الآباءِ بِهَا الأبناءَ.

قَالَ الإمامُ – رحمَهُ اللهُ – [وقوله: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾(٢).]

قوله:(أَحبارَهُمْ) جمعُ حَبْرٍ وَهُوَ الْعَالِم. قوله:(وَرُهْبَانَهُمْ) جمعُ رَاهِبٍ وَهُوَ الْعَابِدُ. قوله :(أَرْبَابًا) جمعُ رَبٍّ وَهُوَ السَّيد. فَجعلُوا الْأَحْبَارَ أَرْبَابًا ؛ لأَنَّهُمْ يُحِلُّونَ لهُم الحرامَ فَيُحِلُّونَهُ وَيُحَرِّمُونَ عَلَيهِم الْحَلالَ فَيُحَرِّمُونَهُ، وَجعلُوا الرُّهْبَانَ أَربَابًا يعبدُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ ، وَجعلُوا الْمَسِيحَ أيضاً رباً يعبدُونَهُ مَعَ اللهِ (وَمَا أُمِروا إلا لِيعبدُوا إِلَهًا وَاحِدًا) أَي : لَمْ يُؤمرُوا بِغَيْرِ التَّوْحِيدِ .(سُبْحَانَه وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) أَي : تَنَزَّه

(١) سورة الزخرف الآية: ٢٦-٢٨.

(٢) سورة التوبة الآية: ٣١.

عَنِ الشَّرِيكِ كَائِناً مِنْ كَانَ فَهَؤُلَاءِ قَدْ عبدوا الْعُلَمَاءَ وَالصَّالِحِينَ وَالرُّسُلَ فَأَنْكَرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عِبَادَتَهُمْ لَهُمْ وَسَمَّاهَا شِرْكاً.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [وقوله: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾[(١)].]

قوله: (وَمِنَ النَّاسِ) أَي: بَعْضُهُمْ،(أَنْدَادًا) جَمْعُ نِدٍّ، وَهُوَ النَّظِيرُ أَو الشَّبِيهُ،(يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ) أَي : يُحِبُّونَ آلِهَتَهُمْ كَمَا يُحِبُّونَ اللهَ، فَأَثْبتَ لهُمْ مَحَبَّةً لله (وَالَّذِينَ ءامنُوا) وَالَّذِينَ وَحَّدوا (أَشَدُّ حباً لله) ؛ لأَنَّ مَحَبَّتَهُمْ خَالِصَةٌ لله لَا يشوبها شِرْكٌ؛ وَلأَنَّ مَحَبَّتَهُمْ قَائِمَةٌ عَلَى بُرْهَانٍ صَحِيحٍ وَالْبُرْهَان هُوَ تَفَرُّدُهُ بِالْكَمَالِ وَالنِّعَمِ. وَهَذَانِ هُمَا الْبَاعِثان عَلَى الْمَحبَّةِ فَإِنَّ الْكَمَالَ يَدْعُو إِلَى مَحَبَّةِ مَن اتَّصفَ بِهِ فَكَيْفَ إِذَا انْضَمَّ إِلَى ذَلِكَ أَنَّه مُتَفَرِّدٌ ومتفضل بِالنِّعَمِ وَالْعَطَاءِ . وَفِي الْآيَةِ أَنَّهُمْ يُحِبُّونَ أَنْدَادَهُمْ كَحُبِّ اللهِ فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُمْ يُحِبُّونَ اللهَ حباً عَظِيمًا وَلَمْ يدخلهم ذَلِكَ فِي الْإِسْلَامِ، لأَنَّهُمْ لَمْ يُخْلِصُوا مَحَبَّتَهُمْ لَهُ فَكَيْفَ بِمَنْ أحبَّ النِّدَّ أَكْثَرَ مِنْ حُبِّ اللهِ ، وَكَيْفَ بِمَنْ لَا يُحِبُ إِلّا النِّدَّ.!

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[وفي الصحيح عن النَّبي ﷺ؛ أنه قال:(من قال لا إله إلا الله، وكفر بما يعبد من دون الله؛ حرُم ماله ودمه، وحسابه على الله عزَّوجَل)[(٢)].]

قوله: (وَفِي الصَّحِيحِ) اصْطِلاحُ الْمُؤَلِّفِ فِي قَوْلِهِ:(فِي الصَّحِيحِ) أَنَّ الْحدِيثَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَوْ فِي أَحَدِهِمَا. عَنْ طَارِق بْنِ أَشْيَمَ بْنِ مَسْعُودٍ الأشجعي ﷺ قَالَ سمعت رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول :(مَنْ قَال لَا إِلَهَ إِلّا اللهُ). وَفِي مُسْنَدِ أَحْمَدَ: (مَنْ وَحَّدَ اللَّهَ) [(٣)]، فَفِي الْجَمْعِ بَيْنَ الروايتين أَنَّ معَنى لَا إِلَهَ إِلّا اللهُ هُوَ تَوْحِيدُ اللهِ، وَهَذَا مَقْصُودُ الإمام بِالْبَابِ. قوله: (كَفَرَ بِمَا يُعبدُ مِنْ دُونِ اللهِ) فِيه أَنَّ قَوْلَ لَا إِلَهَ إِلّا اللهُ

(١) سورة البقرة الآية: ١٦٥.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان- باب الأمر بقتال النَّاس حتى يقولوا لاإله إلا الله (٢٣).

(٣) أخرجه الإمام أحمد ١٥٨٧٥.

مَعَ عَدَمِ الْكُفْرِ بِالْآلِهَةِ الْبَاطِلَةِ لَا يَكْفِي وَلَا يَعْصِمُ الدمَ والمِالَ، قوله: (حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ)؛ لأَنَّهُ حينئذٍ صَارَ مُسْلِماً ،(وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ عزَّ وَجَلَّ) أَي : أَنَّنَا نَقْبَلُ مِنْه عَلانِيَتَهُ ، وَلَا نَبْحَثُ عَنِ السَّرَائِرِ ، فَإِنْ كَانَ صَادِقاً فَلَهُ الْجَنَّةُ وَإِنْ كَانَ مُنَافِقاً فَتَعْصِمُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ دَمَهُ وَمَالَهُ فِي الدُّنْيا وَلَهُ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ فِي الْآخِرَةِ. قَالَ الشَّيْخُ – رَحِمَهُ اللهُ – في مسائله : (هَذَا مِنْ أَعْظَمِ مَا يُبَيِّنُ مَعنَى لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فَإِنَّهُ لَمْ يَجْعَل التَّلَفُّظَ بِهَا عَاصِماً لِلدَّمِ وَالْمَالِ ، بَلْ وَلَا مَعْرِفَةَ مَعْنَاهَا مَعَ لَفْظِهَا ، بَلْ وَلَا الْإِقْرَارَ بِذَلِكَ ، بَلْ وَلَا كَوْنَهُ لَا يَدْعُو إِلَّا اللهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، بَلْ لَا يَحْرُمُ مَالُهُ وَدَمُهُ حَتَّى يُضِيفَ إِلَى ذَلِكَ الْكُفْرَ بِمَا يُعبدُ مِنْ دُونِ اللهِ ، فَإِنْ شَكَّ أَوْ تَوَقَّفَ لَمْ يَحْرُمْ مَالُهُ وَدَمُهُ ، فَيَا لَهَا مِنْ مَسْالَةٍ مَا أَعْظَمَهَا وَأَجَلَّهَا ، وَيا لَهُ مِنْ بَيَانٍ مَا أوضحَهُ وَحُجَّةٍ مَا أَقْطَعَهَا لِلْمُنَازِعِ) أ.هـ. وَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ نَسْتَفِيدُ أَنَّ مُجَرَّدَ التَّلَفُّظِ بِكَلِمَةِ التَّوْحِيدِ لَا يَكْفِي بَلْ لا بُدَّ مِنْ فَهْمٍ لَمَعْنَاهَا وَعَمَلٍ بمقتضَاها

تنبيه: الأصلُ أنَّ كلَّ من قال لا إله إلا الله مسلمٌ لكن إذا أتى بماياناقضها فلا ينفعه مجردُ التلفظ

قَالَ الإمامُ:(وَشَرحُ هَذِهِ التَّرْجَمَةِ مَا بَعْدَهَا مِنَ الأبواب) أَي : أَنَّ الْكِتَابَ كلَّهُ فِي تَفْسِيرِ التَّوْحِيدِ وَمَعَنى لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَمَا يُضَادُّ ذَلِكَ مِمَّا يُنَافِي أَصْلَ التَّوْحِيدِ أَوْيُنَافِي كماله.

[٧]

بَابٌ مِنَ الشِّرْكِ لُبْسُ الحَلْقَة وَالخَيْطِ وَنَحْوِهِمَا لِرَفْعِ الْبَلَاءِ أَوْ دَفْعِهِ

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ: أَنَّ هَذَا مِنَ التَّفْصِيلِ الَّذِي وَعَدَ بِهِ فِي الْبَابِ السَّابِقِ وَمَعنَى التَّرْجَمَةِ: لُبْسُ الحَلْقَةِ وَالخَيْطِ ونَحْوِهِمَا مِنَ الْوَدَعَةِ وَالحَبَّةِ السَّوْداءِ لِرَفْعِ الْبَلاءِ بَعْدَ نُزُولِهِ أَوْ لِدَفْعِهِ قَبْلَ نُزُولِهِ مِنَ الشِّرْكِ الأَكْبَر أو الأَصْغَر بِحَسْبِ اعْتِقادِ اللاَّبسِ

توطئة:

هَذَا الْبَابُ يَتَوَقَّفُ فَهْمُهُ عَلَى مَعْرِفَةِ **أَحْكَامِ الْأَسْبَابِ وَهِي كَالْآتِي** :

الأول: أَنَّه لَيْسَ لِلْعَبْدِ أَنْ يَجْعَلَ شَيئاً سَبَباً إِلّا مَا ثَبَتَ أَنَّهُ سَبَبٌ شَرْعاً أَوْ قَدرًا، و يَثْبُتُ كَوْنُ الشَّيْءِ سَبَبًا شَرْعاً بِالدَّلِيلِ وَقَدرًا بِالتَّجْرُبَةِ الْمُسْتَقِرَّةِ وَضابِطُهَا أن يظهر ذلك أو يثبت عند أصحاب الخبرة .

الثَّانِي: ألا يَعْتَمِدَ الْعَبْدُ عَلَيهَا بَلْ يَعْتَمِدُ عَلَى مَنْ جَعَلَهَا أَسْبَابًا مَعَ قِيَامِهِ بِالْمَشْرُوعِ، فَهِي مَهْمَا عَظُمَتْ وَقويتْ مُرْتَبِطَةٌ بِقَدرِ اللهِ إن شَاءَ أَبْقَى أثَرَهَا وَإِن شَاءَ مَنَعَ أَثرهَا، لئلا يَعْتَمِدَ عَلَيهَا العِبَادُ وَيَعْلَمُون أَنَّ الأمر بيد اللهِ. إِذَا عُلمَ هذا فَمَنْ لبسَ الحَلْقَة أَو الخَيْطَ قَاصِداً بِذَلِك رَفْع الْبَلاءِ بَعْدَ نُزُولِهِ أَوْ دَفْعَهُ قَبْلَ نزُولِهِ فَقَدْ أَشرك شرْكاً أَكْبر إِذَا اعْتَقَدَ أَنَّهَا تَدْفَعُ أَوْ تَرْفَعُ الْبَلاءَ بِنَفْسِهَا ، وَإِن اعْتَقَدَ أَنَّ اللهَ هُوَ الدَّافِعُ الرَّافِعُ لِلْبَلاءِ وَلَكِن هذه الأشياء سَبَبٌ يُسْتَدْفَعُ بِهَا الْبَلاءُ فَقَدْ جَعَلَ مَا لَيْسَ سَبَباً شَرْعاً وَلَا قَدرًا سَبَباً، فَيَكُونُ قَدْ وَقَعَ فِي الشِّرْكِ الْأَصْغَر، والحال أَنَّ الشرعَ قَدْ نَهَى عَنْهَا فَهِي لَيْسَتْ أَسْبَابًا مَشْرُوعَة ، أَمَّا الْقَدرُ فَلَمْ يُعْلَمْ منه كَوْنُهَا سَبَباً يَحْصُلُ بِهِ الْمَقْصُودُ.

قَالَ الإمامُ – رحمَهُ اللهُ – [وقول الله تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾[(١)].]

أولُ هذهِ الآيةِ: (وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ) طَرِيقَةُ الْقُرْآنِ الاسْتِدْلال بِالرُّبُوبِيَّةِ عَلَى الْأُلُوهِيَّةِ، فيسألهم عَمَّا يُقِرُّونَ بِهِ مِنْ تَفَرُّدِهِ بِخلقِ السّمواتِ وَالْأرْضِ، لِيَحْتَجَّ بِهِ عَلَيْهِمْ فِي إِفْرَادِهِ بِالْعِبَادَةِ ثُمّ قَال تعالَى:(قُلْ أَفَرَأَيْتُم) أَي: أَخْبِرُونِي، عَنْ (مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ) أَي: عن الَّذِينَ تَدْعُوْنَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ .(إِن أَرادنِي اللهُ بِضرٍّ) أَي: إِن قَدَّرَ اللهُ لِي الإصابةَ بالضُّر: (هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ) هَلْ تَسْتَطِيعُ هَذِهِ الْآلِهَةُ أَنْ تَدْفَعَ الضُّرَّ قَبْلَ نُزُولِهِ أَوْ تَرْفَعهُ بَعْدَ نُزُولِهِ. وَالْاسْتِفْهامُ هُنَا بِمَعنَى النَّفْي وَقَدْ جَاءَ صَرِيحاً فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ﴾[(٢)] قَولُهُ: (أَوْ أَرادنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمسِكَاتُ رَحْمَتِهِ) أيضاً: اسْتِفْهامٌ بِمَعنَى النَّفْي وَلَمْ يَذْكُر اللهُ جَوابَهُمْ لِظُهورِهِ وَقَدْ جَاءَ صَرِيحًا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:﴿ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ﴾: وَإِنَّمَا جَاءَ هنا بِطَرِيقَةِ الْاسْتِفْهامِ تَقْرِيرًا لِلْخَصْمِ.بعجز الآلهة الباطلة (قُل حَسْبِي الله) أَي: إِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْآلِهَةُ لَا تَدْفَعُ الضَّرَّ وَلَا تَرْفَعُهُ وَلَا تَجْلِبُ الخَيْرَ وَلَا تَمْنَعُهُ فَاللهُ وحده كافيني. قَولُهُ :(عَلَيه يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ) أَي: فِي جَلْبِ الخَيْرِ وَدفْعِ الضَّيْرِ. وَوَجْهُ الاسْتِدْلَالِ بِالْآيَةِ أَنَّ مَنْ يَلْبَسُ الحَلْقَةَ وَالخَيْطَ إِنَّمَا يَلْبَسُهُمَا لِتَعَلُّقِ قَلْبِهِ بِهَا فِي دَفْعِ الضُّرِّ وَجَلْبِ الخَيْرِ. وَقَدْ برْهنَ اللهُ جلَّ وعلَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ بُطلَان التَّعلُّقِ بِغَيْرِهِ بُرْهَانًا عقلياً وَذلِكَ بِتقْرير مَنْ تعلَّقَ بِهَا أَنَّ غَيْرَ اللهِ لَا يَكْشِفُ ضُرًّا أَرَادَهُ اللهُ وَلَا يُمسِكُ رَحْمَةً أَجرَاهَا اللهُ فَلِماذا التَّعلُّقُ بسواه.وَفِي الْآيَةِ أَنَّ اللهَ يُقَدِّرُ الخَيْرَ وَالشَّرَ وَلَكِنَّ الشَّرَّ لَا يُنْسَبُ إِلَيه؛ لِأَنَّهُ يُقَدِّرُ الشَّرَّ لِلْخَيْرِ

(١) سورة الزمر الآية: ٣٨.

(٢) سورة يونس الآية: ١٠٧.

وَيُقَالُ الشَّرُّ فِي مَقْدُورَاتِهِ لَا فِي تَقْدِيرِهِ فَيُقَدِّرُ الْمَرَض لِيُكَفِّر سَيِّئَاتِ الْعَبْدِ وَيَرْفَعَ درجاتِهِ، فالمرض وإن كان شرا إلا أنَّ المراد منه الخير وَفِي الْحَدِيثِ (وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيكَ) رَوَاهُ الْحَاكِمُ .

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِي ﷺ رَأَى رَجُلاً فِي يَدِهِ حَلَقَةٌ مِنْ صُفْرٍ، فَقَالَ "مَا هَذِهِ" ؟ قَالَ مِنَ الْوَاهِنَةِ فَقَالَ "انْزَعْهَا؛ فَإِنَّهَا لا تَزِيدُكَ إِلَّا وَهَنًا، فَإِنَّكَ لَوْ مِتَّ وَهِيَ عَلَيْكَ؛ مَا أَفْلَحْتَ أَبَدًا»[1]. رَوَاهُ أَحْمَدُ بِسَنَدٍ لَا بَأْسَ بِهِ] الصفر هو النحاس (من الواهنة) من سببية والواهنة مرض والوهن هو الضعف وحَديثُ عِمْرَان هَذَا ضَعَّفَهُ الألباني – رحِمَهُ اللهُ – وَقَالَ فِيه عِلَّتَانِ [2] الأولى: عَنْعَنَةُ الْمُبَارَكِ بْنُ فُضَالَةَ وَهُوَ مُدَلِّسٌ، وَالثَّانِيَةُ الانْقِطَاعُ بَيْنَ الْحسنِ و عِمْرَانَ. لكن هذا المعنى ثابت بالكتاب والسنة قال تعالى:﴿ **يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ ۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾** ﴾ {سورة الحج }

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[وَلَهُ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رضي الله عنه مَرْفُوعًا:(مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً؛ فَلَا أَتَمَّ اللهُ لَهُ، وَمَنْ تَعَلَّقَ وَدَعَةً؛ فَلَا وَدَعَ اللهُ لَهُ)(٣)]

قَالَ الألباني – رحِمَهُ اللهُ –:(عِلَّةُ هَذَا الْحَدِيثِ جَهالَةُ خَالِد بْنِ عبيدٍ المعافري)[4].

هذا المعنى ثابت بالكتاب والسنة قال تعالى:﴿ **لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾** ﴾{ سورة الإسراء}

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤/٤٤٥)، وابن ماجه في كتاب الطب- باب تعليق التمائم (٣٥٣١) وضعفه الألباني في«السلسلة الضعيفة» (١٠٢٩)،

(٢) انظر الضعيفة برقم: (١٠٢٩).

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤/١٥٤).

(٤) انظر السلسلة الضعيفة حديث برقم ١٢٦٦.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[وَفِي رِوَايَةٍ[1] (مَنْ عَلَّقَ تَمِيمَةً فَقَدْ أَشْرَكَ)[2].]

رواه أحمد والحاكم لكن أورده الإمام مختصراً وهو عن عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ الْجُهَنِيّ: (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَقْبَلَ إِلَيْهِ رَهْطٌ فَبَايَعَ تِسْعَةً وَأَمْسَكَ عَنْ وَاحِدٍ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ بَايَعْتَ تِسْعَةً وَتَرَكْتَ هَذَا قَالَ: إِنَّ عَلَيْهِ تَمِيمَةً فَأَدْخَلَ يَدَهُ فَقَطَعَهَا فَبَايَعَهُ وَقَالَ: مَنْ عَلَّقَ تَمِيمَةً فَقَدْ أَشْرَكَ). قَولُهُ :(مَنْ عَلَّقَ) يَشْمَلُ مِنْ عَلَّقَها عَلَى نَفْسِهِ أَوْ عَلَى غَيْرِه. وَفِي رِوَايَةِ الْحَاكِمِ: (مَنْ عَلَّقَ تَمِيمَةً)[3] عَلَّقَهَا متعلقاً بِهَا قَلْبُهُ فِي طَلَبِ الْخَيْرِ وَدفعِ الشَّرِّ. و التَّمِيمَةُ قَالَ الْخَطَّابِيُّ :(خَرَزَةٌ كَانُوا يُعَلِّقُونَهَا يَرونَ أَنَّهَا تَدْفَعُ عَنْهُمُ الآفاتِ، وَاعْتِقادُ هَذَا الرَّأْيِ جَهْلٌ وَضَلالَةٌ ؛ إِذْ لَا مَانِعَ وَلَا دَافِعَ غَيْرُ اللَّهِ تَعَالَى).[4]وَقَالَ أَبُو السَّعَادَاتِ:(التَّمَائِمُ خَرَزَاتٌ كَانَتْ الْعَرَبُ تُعَلِّقُهَا عَلَى أَوْلادِهَا يَتَّقُونَ بِهَا الْعَيْنَ فِي زَعْمِهِمْ فَأَبْطَلَهَا الْإِسْلامُ).[5] قوله: (فَقَدْ أَشْرَكَ) إِن كَانَ يَعْتَقِدُ أَنَّهَا تَدْفَعُ الشَّرَّ أَوْ تَجْلِبُ الْخَيْرَ مِنْ دُونِ اللهِ فَهُوَ شِرْكٌ أَكْبَرُ ، وَإِنْ كَانَ يَعْتَقِدُ أَنَّهَا سَبَبٌ فِي ذلك وَالْوَاقِي هُوَ اللهُ فَتَكُونُ من باب الشِرْكِ الأَصْغر.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[وَلِابْنِ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه (أَنَّهُ رَأَى رَجُلاً فِي يَدِهِ خَيْطٌ مِنَ الْحُمَّى، فَقَطَعَهُ وَتَلَا قَوْلَهُ تعالى: (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)).[6]]

أَثَرُ حُذَيْفَةَ هَذَا ، رَوَاهُ ابن أَبِي حاتِمٍ، مِنْ طَرِيقِ عَزْرَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْأَعْوَرِ، وَلَا يُعْرفُ لِعَزْرَةَ سَمَاعٌ مِنْ حُذَيْفَةَ[1] لكن ثبت في مصنف ابن أبي شيبة بإسناد صحيح عن حذيفة رضي الله عنه عاد مريضا فوجد في

---

(١) إيراد الإمام لهذا الحديث يشعر بأنه رواية من الحديث السابق وليس كذلك بل هو حديث مستقل.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٥٦/٤)، وصححه الألباني.

(٣) أخرجه الحاكم في «المستدرك» برقم: (٧٥٠١)، وقال الذهبي في التلخيص: صحيح.

(٤) معالم السنن ٢٢٠/٤.

(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر ١٩٧/١. قال الألباني رحمه الله بعد نقله كلام ابن الأثير هذا في الضعيفة: " قلت: ولا تزال هذه الضلالة فاشية بين البدو والفلاحين وبعض المدنيين ومثلها الخرزات التي يضعها بعض السائقين أمامهم في السيارة يعلقونها على المرآة!وبعضهم يعلق نعلا في مقدمة السيارة أو في مؤخرتها! وغيرهم يعلقون نعل فرس في واجهة الدار أو الدكان! كل ذلك لدفع العين زعموا، وغير ذلك مما عمَّ وطمَّ بسبب الجهل بالتوحيد، وما ينافيه من الشركيات والوثنيات التي ما بعثت الرسل وأنزلت الكتب إلا من أجل إبطالها والقضاء عليها، فإلى الله المشتكى من جهل المسلمين اليوم، وبعدهم عن الدين".

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢٢٠٨/٧).

عضده خيطا فقطعه ﷺ وقال (لو مت وهو عليك ما صليت عليك) ويُؤْخَذُ مِنَ الْآيَةِ أَنَّ اللهَ أثْبَتَ لهُمْ الْإيمَانَ بِاللهِ وَوَصَفَهُمْ بِالشِّرْكِ لأَنَّهُمْ آمنوا بِاللهِ وآمنوا بِغَيْرِه.أَيْ لَمْ يَأْتُوا بركنِ الْكُفْرِ بِالطَّاغُوتِ فَإِنَّ الْعَبْدَ لَا يَثْبُتْ لَهُ التَّوْحِيدُ حَتَّى يَأْتِيَ بِالرُّكْنَيْنِ مَعا.

تَنْبِيهٌ: لَا مَانِعَ مِنَ الْاسْتِدْلال بآيات الشِّرْكِ الْأَكْبَرِ عَلَى الشِّرْكِ الْأَصْغَرِ كَمَا فَعَلَ الإمامُ – رحمه الله –.

(١) انظر تهذيب الكمال ٥١/٢٠.

]٨[

بَابُ مَا جَاءَ فِي الرُّقَى وَالتَّمَائِمِ

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ: ظَاهِرَةٌ وَهِي أَنَّ الحلقةَ والخيطَ مِنَ التَّمَائِمِ. فهذا الباب أعمُّ من الباب السابق ومعنى التَّرْجَمَةِ: بَابُ مَا جَاءَ مِنَ الْأدلةِ فِي حُكْمِ الرُّقَى وَالتَّمَائِمِ. وَلَمْ يَذْكُرِ الإمام – رحِمَهُ اللهُ – حُكْمَهَا لأَنَّه لَيْسَ وَاحِداً ، وَإِنَّمَا يَحْتَاجُ إِلَى تَفْصِيلٍ يُفْهَمُ مِنَ الْأدلةِ الَّتِي أَورَدَها. وَالرُّقَى: جمع رُقْيَةٍ وَهِي مَجْمُوعُ الْقِرَاءةِ وَالتَّفلِ عَلَى الْمَرِيضِ. و التَّمَائِمِ: جمع تَمِيمَةٍ، وَيَشْمَلُ كُلَّ مَا يُعلَّقُ وَيُعْتَقَدُ أَنَّه يَدْفَعُ الضَّرَّ أَوْ يَجْلِبُ الْخَيْرَ.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ–[فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي بَشِيرٍ الأَنْصَارِيِّ ﷺ (أَنَّهُ كَانَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، فَأَرْسَلَ رَسُولاً أَنْ لا يَبْقَيَنَّ فِي رَقَبَةِ بَعِيرٍ قِلَادَةٌ مِنْ وَتَرٍ أَوْ قِلَادَةٌ إِلَّا قُطِعَتْ)(١)]

(أَبو بَشِيرٍ الأَنْصَارِيّ) صَحَابِيٌّ شَهدَ الْخَنْدَقَ ،(فَأَرْسَلَ رَسُولاً) هُوَ زَيْد بْنُ حارِثَةَ .(أَنْ لَا يَبْقَيَنَّ) – بِفَتْحِ المثناة التَّحْتِيَّةِ أَوْ الْفَوْقِيَّةِ – وَقِلادَةٌ: فَاعِلٌ. قَوْلُهُ :(مِنْ وَتَرٍ) **الْوَتَرُ**: وَاحِدُ الْأَوْتَارِ، وهو ما يُربطُ بين طرفِي الْقَوْسِ، وَكَانَ أَهْلُ الجَاهِلِيَّةِ إِذَا اخْلَوْلَقَ الْوَتَرُ – يَعْنِي: صَارَ قَدِيمَا – قَلَّدُوهُ الدَّوَابَّ، ويَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ يَكُفُّ الْعَيْنَ،(مِنْ وَتَرٍ أَوْ قِلادَةٌ) شَكَّ الرَّاوِي، والأَرْجَحُ الأول؛ لِقَولِهِ عَلَيه الصَّلاةُ وَالسّلامُ (.. قَلِّدُوهَا وَلَا تُقَلِّدُوهَا الاوْتَارَ) (٢) رواه أبو داودَ مرفوعاً، فَالرُّخْصَةُ فِي الْقَلائِدِ ثَابِتَةٌ كَالْمُسْتَعْمَلِ زِماماً فَلَا بَأس بِهِ إِلّا مَا صَاحَبَهُ اعْتِقَادٌ ، وَفِي الْحَدِيثِ: أَنَّه ينبغي لِكَبِيرِ الْقَوْمِ أَنْ يَتَفَقَّدَ أَحْوالَهُمْ دِيناً وَدُنيا،لَاسِيمَا مَا يَتَعَلَّقُ بِالْاعْتِقادِ.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد و السير- باب ماقيل في الجرس ونحوه في أعناق الإبل (٣٠٠٥)،ومسلم في كتاب اللباس والزينة- باب كراهية قلادة الوتر في رقبة البعير (٢١١٥).

(٢)أخرجه أبو داود، بَاب إِكْرَامِ الْخَيْلِ وَارْتِبَاطِهَا وَالْمَسْحِ عَلَى أَكْفَالِهَا، برقم: (٢١٩٠)، وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود برقم: (٢٠٥٣).

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[وعن ابنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:(إِنَّ الرُّقَى وَالتَّمَائِمَ وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ)(١). رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاودَ.]

لهذا الحديث قصة عَنْ زَيْنَبَ امرأة ابن مسعود قَالَتْ: كَانَتْ عَجُوزٌ تَدْخُلُ عَلَيْنَا تَرْقِي مِنَ الْحُمْرَةِ، وَكَانَ لَنَا سَرِيرٌ طَوِيلُ الْقَوَائِمِ، وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ إِذَا دَخَلَ تَنَحْنَحَ وَصَوَّتَ، فَدَخَلَ يَوْمًا فَلَمَّا سَمِعَتْ صَوْتَهُ احْتَجَبَتْ مِنْهُ، فَجَاءَ فَجَلَسَ إِلَى جَانِبِي فَمَسَّنِي فَوَجَدَ مَسَّ خَيْطٍ فَقَالَ: مَا هَذَا؟ فَقُلْتُ: رُقًى لِي فِيهِ مِنَ الْحُمْرَةِ فَجَذَبَهُ وَقَطَعَهُ فَرَمَى بِهِ وَقَالَ: لَقَدْ أَصْبَحَ آلُ عَبْدِ اللَّهِ أَغْنِيَاءَ عَنِ الشِّرْكِ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُول فذكره قوله:(إِنَّ الرُّقَى): (ال) فِي الرُّقَى عَهْدِيَّةٌ أَي رُقَى الجَاهِلِيَّةِ وَهِي الَّتِي تَشْتَمِلُ عَلَى السِّحْرِ أَوْ الْاسْتِعانَةِ بِالْجِنِّ أَمَّا مَا لَا يَشْتَمِلُ عَلَى ذَلِكَ فَقَدْ جَاءَ النَّصُّ بِإِبَاحَتِهِ كَمَا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ: (لَا بَأْسَ بِالرُّقَى مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ شِرْكٌ)(٢).

أَمَّا الرُّقْيَةُ الجَائِزَةُ فَيُشْتَرطُ فِيهَا ثَلاثَةُ شُرُوطٍ: نقلها ابن حجر في الفتح فقال "وقد أجمع العلماء على جواز الرقى عند اجتماع ثلاثة شروط أن يكون بكلام الله تعالى أو بأسمائه وصفاته وباللسان العربي أو بما يعرف معناه من غيره وأن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها بل بذات الله تعالى")(٣).

وَالتَّمَائِمَ أيضاً (ال) فِيهَا عَهْدِيَّةٌ وَالْمُرَادُ تَمَائِمُ أهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ وهي المشْتَمِلَة عَلَى سِحْرٍ وَ اسْتِغاثَةٍ بِغَيْرِ اللَّهِ أَمَّا التَّمَائِمُ الَّتِي مِنَ الْقُرْآنِ فَمُخْتَلَفٌ فِي جَوَازِهَا. قَالَ ابن سِعْدِي – رَحِمَهُ اللهُ –:(فَالأولى تَرْكُهَا لِأُمُورٍ؛ لِعَدمِ وُرُودِهَا عَنِ الشَّارِعِ، وَلِكَوْنِهَا يَتَوَسَّلُ بِهَا إِلَى غَيْرِهَا مِنَ الْمُحَرَّمِ، وَلأَنَّ الْغَالِبَ عَلَى مُعَلِّقِهَا الا يَحْتَرِمَهَا وَيَدْخُلُ بِهَا الْمَوَاضِعَ الْقَذِرَةَ) (٤) وَزَادَ بَعْضُهُمْ أَنَّ الْجَهَلَةَ يَتَعَلَّقُونَ بِكَاتِبِ التَّمِيمَةِ. وَقَالَ ابن

---

(١) أخرجه أبوداودفي كتاب الطب– باب في تعليق التمائم (٣٨٨٣)،وابن ماجه في كتاب الطب– باب تعليق التمائم (٣٥٣٠) وصححه الألباني في«صحيح الجامع» (١٦٣٢).

(٢) أخرجه مسلم، بَاب لَا بَأْسَ بِالرُّقَى مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ شِرْكٌ، برقم: (٤٠٧٩).

(٣) فتح الباري (١٠/ ١٣٥).

(٤) القول السديد في مقاصد التَّوحيد، ص: ٥١ .

سِعْدِي – رحِمَهُ اللهَ –:(فافْهَمْ هَذَا التَّفْصِيلَ وَإِيَّاكَ أَنْ تَحْكُمَ عَلَى الرُّقَى بِحُكْمٍ وَاحِدٍ مَعَ تَفَاوُتِهَا فِي أَسْبَابِهَا وغاياتِها)(١).

وَأَمَّا التِّوَلَةُ فَهِي شِرْكٌ مُطْلَقًا؛ لأَنَّهَا ضَرْبٌ مِنَ السِّحْرِ كما سيأتي في الحديث غير ما ذكرت من الفوائد أدب الرجل إذا دخل بيته وحسن عشرته وتغييره المنكر في بيته بيده وحرصه على سلامتهم من الشرك

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُكَيْمٍ ﷺ مَرْفُوعًا: (مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا؛ وُكِلَ إِلَيْهِ)(٢) رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ.]

عَنْ عِيسَى أَخِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ عكيمٍ (أَبِي مَعْبَدِ الْجُهَنِيِّ) أَعُودُهُ وَبِهِ حُمْرَةٌ فَقُلنَا: ألا تُعلِّقُ شيئاً ؟ قَالَ: الْمَوْتُ أَقْرَبُ مِنْ ذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:" مَنْ تَعَلَّقَ شيئاً وُكِلَ إِلَيهِ. (تَعَلَّقَ) أَي: تَعَلَّقَ شيئاً متعلقاً بِهِ قَلْبُهُ فِي جَلْبِ نَفْعٍ أَوْ دَفْعِ ضَرٍّ. و (شَيْئًا) نَكِرَةٌ فِي سِياقِ الشَّرْطِ تُفِيدُ الْعُمُومَ فَتَشْمَلُ جَمِيعَ مَا يُعَلَّقُ لِدَفْعِ الْبَلاءِ قبل نزوله أَوْ رَفْعِهِ بعد نزوله فَيَعُمُّ النَّصُّ التَّمَائِمَ كُلَّهَا مِنَ الْقُرْآنِ وَغَيْرِهَا لأَنَّ تَرْكَ الاستفصالَ فِي مَقَامِ الْاحْتِمَالِ يُنَزَّلُ مَنْزِلَةَ الْعُمُومِ فِي الْمَقَالِ (وُكِلَ إِلَيهِ) أَي: تَخَلَّى اللهُ عَنْه وَترَكَ أَمْرَهُ وحفظه إِلَى هَذَا الشَّيْءِ الَّذِي تَعَلَّقَ بِهِ قَلْبُهُ، فَمَا ظَنُّكُمْ بِمَنْ وُكِلَ أَمْرُهُ إِلَى خِرْقَةٍ أَوْ ورقَةٍ أَوْ وَدْعَةٍ ؟ وَمَنْ تَعَلَّقَ باللّهِ كَفَاهُ حاجَتَهُ ومؤنته. فَمَا بالُ النَّاسِ يَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ. وَفِي الْحديث مِنَ الْفَوَائِدِ: وُجُوبُ التَّوَكُّلِ عَلَى اللهِ، وَتَرَكُ التَّوَكُّلِ على غَيْرِهِ، وَأَنَّ مَنْ تَعلَّقَ بِغَيْرِ اللَّهِ فهو مَخْذُولٌ. وَفِيه حَذَرُ السَّلَفِ مِنَ الشِّرْكِ الْأَصْغَرِ فَهُوَ أَمْرٌ الْمَوْتُ أحبُّ إِلَيهِمْ مِنه. وَفِيه تَرْكُ السَّلَفِ لِلتَّمَائِمِ كُلِّهَا مِنَ الْقُرْآنِ وَمِنْ غَيْرِهِ

---

(١) المرجع السابق.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣١٠/٤) والترمذي في كتاب الطب- باب ماجاء في كراهية التعليق (٢٠٧٢) وحسنه الألباني في «غاية المرام" برقم: (٢٩٧).

قَالَ الإمامُ – رَحمَهُ اللهُ –[قوله: (التَّمَائِمُ: شَيْءٌ يُعَلَّقُ عَلَى الأولادِ يَتَّقونَ بِهِ الْعَيْنَ لَكِنْ إِذَا كَانَ الْمُعَلَّقُ مِنَ الْقُرْآنِ؛ فَرَخَّصَ فِيهِ بَعْضُ السَّلَفِ، وَبَعْضُهُمْ لَمْ يُرَخِّصْ فِيهِ، وَيَجْعَلُهُ مِنَ الْمَنْهِيّ عَنْهُ، مِنْهُمْ ابْنُ مَسْعُودٍ) ﷺ]

قَولُ الإمامِ (رَخَّصَ فِيهِ بَعْضُ السَّلَفِ) إِذَا كَانَ الْمُرَادُ بِالسَّلَفِ هُنَا الصَّحابَةَ فَالصَّحِيحُ أَنَّهُ لَمْ يَثْبُتْ عَنْهُمْ، لأَنَّ أَثَرَ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو هُوَ مَا رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو نُعيمَ[١] عنه قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله كَلِمَاتٍ نَقُولُهُنَّ عِنْدَ النَّوْمِ مِنَ الْفَزَعِ: «بِسْمِ اللَّهِ، أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ، مِنْ غَضَبِهِ وَعِقَابِهِ، وَشَرِّ عِبَادِهِ، وَمِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ، وَأَنْ يَحْضُرُونِ» قَالَ: فَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو: «يُعَلِّمُهَا مَنْ بَلَغَ مِنْ وَلَدِهِ أَنْ يَقُولَهَا عِنْدَ نَوْمِهِ، وَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ صَغِيرًا لَا يَعْقِلُ أَنْ يَحْفَظَهَا كَتَبَهَا لَهُ فَعَلَّقَهَا فِي عُنُقِهِ»

و كِلَاهُمَا إِنَّمَا رَوَاهُ مِنْ طَرِيقِ مُحَمَّد بْنِ إسحق وَقَدْ عَنْعَنَ وَهُوَ مَعْرُوفٌ بِالتَّدْلِيسِ فالموقوف ضعيف وهو موضع الاستدلال. و الحديث المرفوع رواه ابن السني في عمل اليوم والليلة وليس في سنده ابن إسحق لذلك حسن الألباني المرفوع منه فقط.

أَمَّا أَثَرُ عَائِشَةَ فَلَيْسَ فَهُوَ مَا رَوَاهُ الْحَاكِمُ[٢] من طريق بكير بن عبد الله بن الأشج عن القاسم بن مُحَمَّد عنها وبكير لم يسمع من مُحَمَّد فالأثر منقطع قالتْ « لَيْسَتِ التَّمِيمَةُ مَا تُعُلِّقَ بِهِ بَعْدَ الْبَلَاءِ إِنَّمَا التَّمِيمَةُ مَا تُعُلِّقَ بِهِ قَبْلَ الْبَلَاءِ » هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ " والصوابُ خلافُ ما ذهبتْ إليهِ فإنَّ ما عُلِّقَ بعدَ البلاءِ وقبلَهُ كلُّهُ يسمى تميمةً. فتبيَّنَ بِهذا أَنَّهُ لَمْ يَثْبُتْ عَنِ الصَّحابَةِ، والْأَصْلُ أن نستشفي بالقرآن بالكيفية التي وردت عن النبي ﷺ وأصحابه الكرام[٣]. و أَمَّا مِنْ بَعْدَهُمْ فَأَبُو جَعْفَرَ الْباقِرِ وَأَحْمَدُ فِي إِحْدَى الرِّوَايَتَيْنِ عَنْه جَاءَ أَنَّهُمْ رَخصُوا فِيهَا لِعُمُوم قَوْلِهِ تعَالى:﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ ﴾[٤].وَلَمْ يَتعَرَّضُوا لِكَيْفِيَّةِ ذَلِكَ ، هَذَا تَقْرِيرُ كَلامِهِمْ. والآية

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» رقم الحديث (٦٦٩٦) وأبو نعيم في معرفة الصحابة برقم ٥٩٠٩

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك برقم (٧٥٠٦)

(٣) وقد عدَّ بعض أهل العلم وضع المصحف في البيت أو السيارة لغرض الحفظ من الشرور من تعليق التمائم أفدتها من شرح العلامة الشيخ العصيمي – حفظه الله –.

(٤) سورة الإسراء الآية: ٨٢.

قد نزلت على نبينا عليه الصلاة والسلام فلم يثبت عنه أنَّه علَّق آية على نفسه أو علَّقها على غيره كما لم يثبت عن أحدٍ من أصحابه تعليقُ شيءٍ من القرآن بل الثابت عنهم النَّهي لذا قال الإمام (وَبَعْضُهُمْ لَمْ يُرَخِّصْ فِيهِ، وَيَجْعَلُهُ مِنَ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ، مِنْهُمُ ابْنُ مَسْعُودٍ) ومثلُ ابن مَسْعُودِ وَأَصْحَابِهِ عَبْدِ اللهِ بْنُ عكيمٍ السَّابِقِ.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[قوله:(والرُّقَى: هِيَ الَّتِي تُسَمَّى الْعَزَائِمَ، وَخَصَّ مِنْهَا الدَّلِيلُ مَا خَلَا مِنَ الشِّرْكِ؛ فَقَدْ رَخَّصَ فِيهِ رَسُولُ الله ﷺ مِنَ الْعَيْنِ وَالْحُمَةِ).]

قوله: (وَخَصَّ مِنْهَا الدَّلِيلُ مَا خَلَا مِنَ الشِّرْكِ) يُرِيدُ حديثَ مسلمٍ:(... لا بَأْسَ بِالرُّقَى مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ شِرْكٌ)[1]. قوله: (فَقَدْ رَخَّصَ فِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الْعَيْنِ وَالْحُمَةِ) يُرِيدُ حَدِيثَ بُرِيدَةَ بْنَ الحصيبِ عِنْدَ أَحْمَدَ وَهُوَ قَوْلُهُ "لَا رُقْيَةَ إِلّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمةٍ " أي أنَّ الرقيةَ من العين والحمة أنفع من سواها. وَسبَقَ الْكَلامُ عَلَيه.

- قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[قوله:(و"التِّوَلَةُ: هِيَ شَيْءٌ يَصْنَعُونَهُ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ يُحَبِّبُ الْمَرْأَةَ إِلَى زَوْجِهَا وَالرَّجُلَ إِلَى امْرَأَتِهِ).]

وعليهِ فالتولةُ ضربٌ منَ السِّحرِ فَهِي مِنَ الشِّرْكِ الْأَكْبَرِ.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[وَرَوَى أَحْمَدُ عَنْ رُوَيْفِعٍ ﷺ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ : (يَا رُوَيْفِعُ، لَعَلَّ الْحَيَاةَ سَتَطُولُ بِكَ؛ فَأَخْبِرِ النَّاس أَنَّ مَنْ عَقَدَ لِحْيَتَهُ، أَوْ تَقَلَّدَ وَتَرًا، أَوِ اسْتَنْجَى بِرَجِيعِ دَابَّةٍ أَوْ عَظْمٍ؛ فَإِنَّ مُحَمَّدًا بَرِيءٌ مِنْهُ)[2].]

قوله: (يا رُوَيْفِعُ) هُوَ ابن ثَابِتٍ الْأَنْصَارِيُّ.(لَعَلَّ الْحَيَاةَ سَتَطُولُ بِكَ) فِيه: علمٌ مِنْ أَعْلَامِ النُّبُوَّةِ، فَقَدْ مَاتَ رويفع سَنَةَ ٥٦هـ أَوْ ٥٣هـ يجوزُ أَنْ تَكونَ لَعَلَّ حَرْفَ تَرجٍ فَيَكُونَ مِنْ رَجاءِ النَّبي صلى الله عليه

---

(١) أخرجه مسلم، باب لا بَأْسَ بِالرُّقَى مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ شِرْكٌ.، برقم: (٥٨٦٢).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٠٨/٤).والنسائي وأبوداود وقال الألباني إسناده جيد

وسلم في الله أَنْ يُطَوِّلَ عُمْرَ رويفع، وَقَدْ كَانَ ذَلِكَ.(فَأَخْبِرِ النَّاسَ) دَليلٌ عَلَى وُجُوبِ إِخْبَارِ النَّاسِ بالعلم الذي يحتاجون إليه، وَهَذَا عَامٌ فِي مَنْ تَعلَّمَ عِلْماً احْتَاجَ إِلَيهِ النَّاسُ.لا سيما إن كان من أمور الاعتقاد (عَقَدَ لِحْيَتَهُ) فُسِّرَ عَلَى وُجُوهٍ: أَنَّهُمْ كَانُوا يَفْعَلُونَهُ فِي الْحَرْبِ، وَهُوَ مِنْ عَادَةِ الْأَعاجمِ، قَالَ أَبُو السَّعَادَاتِ (كَانُوا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ تكبُّرًا وعُجْباً)[1]وَقِيلَ: مِنْ فِعْلِ أَهْلِ التَّخَنُّثِ، وَقِيلَ: النَّهْي عَنْه فِي الصَّلاةِ، وَقِيلَ: يُتَّقى بِهِ الْعَيْنُ، وَكُلُّ هَذِهِ الْأَوْجُهِ مُحْتَمَلَةٌ وَالْخلاصة أَنَّ هَذَا الْفِعْلَ مَنْهِيٌّ عَنْه عَلِمْنَا الْعِلَّةَ أَوْ جَهِلْنَاهَا. (أَوْ تَقَلَّدَ وَتَرًا) هَذَا مَوْضِعُ الشَّاهِدِ، لأَنَّهُ نوع من التمائم قوله: (أَوِ اسْتَنْجَى بِرَجِيعِ دَابَّةٍ) **والاستنجاءُ**: إِزَالَةُ أَثرِ الْخَارِجِ مِنَ السَّبِيلَيْنِ. ورَجِيعُ الدَّابَّةِ: رَوْثُهَا قوله:(أَوْ عَظْمٍ) وقد جَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ أَنَّ النَّبي ﷺ قَال لِلجِنِّ: (لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ يَقَعُ فِي أَيْدِيكُمْ أَوْفَرَ مَا يَكُونُ لَحْماً وَكُلُّ بَعْرَةٍ عَلَفٌ لِدَوَابِّكُمْ). فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ-: (فَلا تَسْتَنْجُوا بِهِمَا فَإِنَّهُمَا طَعَامُ إِخْوَانِكُمْ)[2]. قوله:(فَإِنَّ مُحَمَّدًا بَرِيءٌ مِنْهُ). هَذَا مِنْ نُصُوصِ الْوَعِيدِ، فمِنَ السَّلَفِ مَنْ يرى أَنَّهَا لَا تُفَسَّرُ، حَتَّى يُؤَثِّرَ الْوَعِيدُ فِي قُلوبِ سامِعِيهِ وَمِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ مَنْ يرى التَّفْصِيلَ فِي ذَلِكَ بحَسبِ الْمَقَامِ. فيفرق بين مقام الوعظ ومقام التعليم. وَاقْتِرانُ الْفِعْلِ بِالْبَراءةِ مِنَ الْفَاعِلِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْفِعْلَ مِنْ كبائِرِ الذُّنُوبِ أَوَ مِنَ الشِّرْكِ. وَهَذِهِ الْأَفْعَالُ مِنْهَا مَا هُوَ كَبِيرَةٌ، وَمِنْهَا مَا هُوَ شِرْكٌ أَصْغرُ وقد يصل إلى الأكبر.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ؛ قَالَ:(مَنْ قَطَعَ تَمِيمَةً مِنْ إِنْسَانٍ؛ كَانَ كَعِدْلِ رَقَبَةٍ)[3]. رَوَاهُ وَكِيعٌ.]

(١) النهاية (٣/٢٧٠)

(٢) أخرجه مسلم، باب الْجَهْرِ بِالْقِرَاءَةِ فِي الصُّبْحِ وَالْقِرَاءَةِ عَلَى الْجِنِّ، برقم: (١٠٣٥).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/٣٧٥/٢٣٩٣٩).

هَذَا الْأَثَرُ فِيه لَيْث بْنُ أَبِي سُليم وَهُوَ ضَعِيفٌ، لَكِن معناهُ صَحِيحٌ. وَفِيه: فَضْلُ قطْعِ التَّمَائِمِ وَأَنَّهُ كَعِتْقِ الرَّقَبَةِ، وَالْمُرَادُ مُجَرَّدُ التَّشْبِيهِ فِي التَّحَرُّرِ مِنَ الْعُبُودِيَّةِ لِغَيْرِ اللهِ لَا فِي الْأَجْرِ، وَوَجهُ الشَّبَه أَنَّ عِتقَ الْعَبْدِ إِنَّمَا هُوَ عِتْقٌ مِنْ رقٍ مَشْرُوعٍ، وَقطْعُ التَّمِيمَةِ عِتقٌ مِنْ رقٍ غَيْرِ مَشْرُوعٍ فَيَكُونُ هَذَا أَعْظَمَ مِنْ عِتْقِ الرَّقَبَةِ.

وَهُنَا تَنْبِيهٌ وَهُوَ أَنَّه لَا ينبغي قطعُهَا إِنْ لَمْ يَقْطَعْ علائق الشّرْكِ مِنْ قَلْبِ معلقها كما لا بد من النظرِ فِي الْمَفَاسِدِ وَالْمَصَالحِ قبل قطعها، فلا يجوز قطعها إن كان قطعها يأتي بمنكر أعظم.

لكن ثبت عند ابن أبي شيبة عن سعيد بن جبير أنه كان يطوف فرأى رجلا يطوف عليه خرزة فقطعها

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[وَلَهُ عَنْ إِبْرَاهِيمَ؛ قَالَ:(كَانُوا يَكْرَهُونَ التَّمَائِمَ كُلَّهَا مِنَ الْقُرْآنِ وَغَيْرِ الْقُرْآنِ)[١].]

قوله: (كَانُوا يَكْرَهُونَ التَّمَائِمَ كُلَّهَا) الضميرُ يَعُودُ إِلَى أَصْحَابِ ابن مَسْعُودٍ [٢]– ﷺ فَلَا تَعَارُضَ بَيْنَ هَذَا النَّقْلِ وَنَقْلِهِ السَّابِقِ فَرَخَّصَ فيه بَعْضُ السَّلَفِ ، وَبَعْضُهُمْ لَمْ يُرَخِّصْ فِيه – وَقَدْ صَحَّحَ الألبانيُّ – رحِمَهُ اللهُ – هَذَا الْأَثَرَ فِي تَعْلِيقِهِ عَلَى الْكَلِمِ الطَّيِّبِ ، وَالْكَرَاهَةُ عِنْدَهُمْ تَعْنِي التَّحْرِيمَ.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٣٩٣٣/٣٧٤/٧).

(٢) قال ابن حجر: (ما وجد إبراهيم يقول: كانوا إلا وهو يريد أصحاب ابن مسعود) أفادنيها شيخنا أبو عبد الله خالد بن عبد اللطيف حفظه الله.

[٩]

بابُ مَنْ تبرَّكَ بِشَجرٍ أَوْ حَجرٍ وَنَحْوِهِما

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ: أَنَّ هَذَا الْبَابَ مُكَمِّلٌ لِلْبَابَيْنِ السَّابِقَيْنِ ؛ لأَنَّ التَّبَرُّكَ بالشجرِ والحجر هُوَ طَلَبُ البركة مِنَ الشَّجِرِ وَالْحجرِ وَنَحْوِهما. تَبرَّكَ أي: طَلب الْبَرَكَةَ مِنْهُمَا ، **وَالْبَرَكَةُ**: هِي ثُبُوتُ الْخَيْرِ الْإلاهي فِي الشَّيْءِ وَزِيادَتُهُ، وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ: (... الْبَرَكَةُ مِنَ اللهِ)[١].وَمَعنى التَّرْجَمَةِ: بَابُ مَنْ تَبرَّكَ بِشَجَرٍ أَوْ حَجرٍ وَنَحْوِهِما، أَيِ: بَابُ حُكْمِ مَنْ طَلَبَ مِنهُمَا الْبَرَكَةَ، وَلَمْ يَذْكُرْ حُكْمَهُ لِلتَّفْصِيلِ فِيهِ **لأنَّ التَّبركَ مِنْهُ ما هو مشروعٌ ومنه ما هو ممنوعٌ** وقد عقد هذا الباب في ذكر أمثلة من التبرك الممنوع.

وَالتَّبرُّكُ الْمَشْرُوعُ: يَكُونُ بِمَا ثبت أَنَّهُ مُبارَكٌ ، وَيَكُونُ بِالْكَيْفِيَّةِ الَّتِي شُرِعَتْ لِلتَّبَرُّكِ بِهَذَا الشَّيْءِ. وأن يعتقد أن البركة من الله والذي شرع التبرك به سبب فقط وأن اليركة من الله وَقَدْ جَاءَ فِي الشَّرْعِ ذَوَاتٌ وَهَيْئَاتٌ وَأَزْمِنَةٌ وَأَمْكِنَةٌ مُبارَكَةٌ، فَمِنَ الذَّواتِ الْمُبَارَكَةِ: ذَاتُ النَّبي ﷺ وَالنَّخْلَةُ وَالْمُسلِمُ. فَالْمُسْلِمُ وَالنَّخلَةُ قَالَ عَنْهُمَا النَّبي ﷺ:(إنَّ مِنَ الشَّجِرِ لَمَا بَرَكَتُهُ كَبَرَكَةِ الْمُسْلِمِ)[٢].

وهُنَاكَ هَيْئَاتٌ مُبَارَكَةٌ كَالْجَمَاعَةِ وَالثَّرِيدِ وَالسَّحُورِ فَيَكُونُ بِالْحِرْصِ عَلَى هَذِهِ الْهَيْئَةِ، قَالَ النَّبيُّ ﷺ: (الْبَرَكَةُ فِي ثَلاثَةِ الْجَمَاعَةِ وَالثَّرِيدِ وَالسَّحُورِ)[٣]. وَمِنَ الْأَزْمِنَةِ الْمُبَارَكَةِ: لَيْلَةُ الْقَدرِ، وَيَوْمُ عرفة، وَيَوْمُ عَاشُورَاءَ وَنَحْوِهَا، فَأَمَّا لَيْلَةُ الْقَدرِ فَقَدْ قَالَ تَعالَى ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍ ﴾[٤]، وأمَّا يومُ عرفة وعاشوراءَ فقدْ قالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ – « ... صِيَامُ يَوْمِ عَرَفَةَ أَحْتَسِبُ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الَّتِي

(١) أخرجه البخاري، باب شرب البركة والماء المبارك، برقم: (٥٣١٦).

(٢) أخرجه البخاري، باب أكل الجمار، برقم: (٥١٢٩).

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، برقم: (٧٥٢٠)، وصححه العلامة الألباني في السلسلة برقم: (١٠٤٥).

(٤) سورة الدخان الآية: ٣.

قَبْلَهُ وَالسَّنَةَ الَّتِي بَعْدَهُ، وَصِيَامُ يَوْمِ عَاشُورَاءَ أَحْتَسِبُ عَلَى اللهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الَّتِي قَبْلَهُ »[١]. وَمِنَ الْأَمْكِنَةِ الْمُبَارَكَةِ: الْبَيْتُ الحرامُ، وَبَيْتُ الْمَقْدِسِ، فَأَمَّا الْبَيْتُ الحرامُ فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾[٢]. وقَالَ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ ﴿ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾[٣]. و إِذَا ثَبَتَ كَوْنُ الشَّيْءِ مُبَارَكاً فَإِنَّ أَخْذَ الْبَرَكَةِ يَتوقَّفُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ الشَّرْعُ، فَأَخْذُ الْبَرَكَةِ مِنَ الْقُرْآنِ يكُونُ بِتَدَبُّرِهِ وَالْعَمَلِ بِمَا فِيهِ وَالْاسْتِشْفَاءِ بِهِ، وَأَخْذُ الْبَرَكَةِ مِنْ ذَاتِ النَّبِيِّ ﷺ قَدْ ثَبتتْ كَيْفِيَّتُها بِمَا جَاءَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ أَنَّ الصَّحَابَةَ كَانُوا يَتَدَافَعُونَ عَلَى وَضُوئِهِ وَبُصَاقِهِ[٤] وَعَرَقِهِ كَمَا جَاءَ عِنْدَ مُسْلِمٍ أَنَّ أُمَّ سُلَيمٍ كَانتْ تَسْلُتُ عَرَقَهُ فِي طِيبِهَا[٥] وَهَذَا خاصٌّ بِهِ ﷺ لأَنَّ الصَّحَابَةَ لَمْ يَفْعَلُوهُ مَعَ غَيْرِهِ فَهَذَا يُعَدُّ إِجْمَاعاً مِنَ الصَّحَابَةِ عَلَى تَرْكِ التَّبَرُّكِ بِغَيْرِهِ.[٦]

تَنْبِيهٌ: منْ يَدَّعِي بَقاءَ بَعْضِ آثَارِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ شَعْرٍ وَآنِيَةٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ يُطَالَبُ بِالسَّنَدِ الصَّحِيحِ لِإِثْبَاتِ ذَلِكَ. وَبَرَكَةُ الْمُسْلِمِ تَكُونُ بِالْانْتِفَاعِ مِنْ علمِهِ وَالتَّعَاوُنِ معه عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوى، وَبَرَكَةُ النَّخْلَةِ تَكُونُ بِأَكْلِ تَمْرِهَا وَالْانْتِفَاعِ بِهَا وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَلَيْلَةُ الْقَدرِ بِقِيَامِهَا، وَعَرَفَةُ وَعَاشُورَاءُ بِصِيَامِهَا، وَأَمَّا الْبَيْتُ الحرامُ وَبَيْتُ الْمَقْدِسِ فَيَكُونُ بِالصَّلاةِ فِيهِمَا وَيَخْتَصُّ الْبَيْتُ الحرامُ بِالطَّوَافِ بِهِ والتزامِ الملتزَمِ ومسْحِ الركنِ اليَماني وتقبيلِ الحجرِ الأسودِ.

---

(١) أخرجه مسلم، باب اسْتِحْبَابِ صِيَامِ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ وَصَوْمِ يَوْمِ عَرَفَةَ وَعَاشُورَاءَ وَالاِثْنَيْنِ وَالْخَمِيسِ، برقم: (٢٨٠٣).

(٢) سورة آل عمران الآ

(٣) سورة الإسراء الآية: ١.

(٤) أخرجه البخاري، باب شرب البركة والماء المبارك، برقم: (٥٣١٦).

(٥) أخرجه مسلم، باب طِيبِ عَرَقِ النَّبِيِّ -ﷺ- وَالتَّبَرُّكِ بِهِ، برقم: (٦٢٠١).

(٦) الاعتصام للشاطبي (٢/٣٠٣).

قَالَ الإمامُ – رحمَهُ اللهُ – [وقول الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [(١)]]

قوله: (أَفَرَأَيْتُم) الْهَمْزَةُ لِلاسْتِفْهامِ، وَهُوَ هُنَا لِلاسْتِخْفَافِ وَالاحْتِقَارِ، وَالْفاءُ: عَاطِفَةٌ، وَالرُّؤْيَةُ هُنا عِلْمِيَّةٌ، وَجاءَ هَذَا الاسْتِفْهامُ بَعْدَ آيات دَلَّتْ عَلَى عَظَمَةِ اللهِ وَقُدْرَتِهِ الْمُطْلَقَةِ لِيُدْرِكَ الْعَاقِلُ الفرقَ الكبيرَ بَيْنَ اللهِ جَلَّ وَعَلَا الَّذِي اتَّصَفَ بِكُلِّ كَمَالٍ يليقُ بهِ و بَيْنَ هَذِهِ الْآلِهَةِ النَّاقِصَةِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ **(اللّاتُ)** إِذَا قُرِئَ – بِتَخْفِيفِ اللَّامِ وَالتَّاءِ – فَهُوَ مأخوذٌ مِنْ لَفْظِ الجلالَةِ، وَإِذَا قُرِئَ – بِتَشْدِيدِ اللّامِ وَالتّاءِ – فَهُوَ رَجُلٌ كَانَ يَلُتُّ السَّوِيقَ لِلْحُجَّاجِ، وَعَلَى كِلَا الْمَعْنيينِ فَهُوَ صَنَمٌ مِنَ الْحجَرِ، **(وَالْعزى)** مُؤَنَّثُ أَعزّ فَهي مُشْتَقَّةٌ مِنَ الْعَزِيزِ، وَهِي ثَلاثُ شَجَرَاتٍ مِنَ شجر السَّمُرِ **(وَمنَاة)** قِيلَ: مُشْتَقَّةٌ مِنَ الْمَنَّانِ، وَقِيلَ: سُمِّيتْ بِذَلِكَ لِكَثْرَةِ مَا يُمْنَى عَلَيها مِنَ الدِّماءِ، وَهِي صَخْرَةٌ (الكُمْ الذِّكْرُ وَلَهُ وَالْأُنْثَى) هَذَا اسْتِفْهامٌ إنكارى، فَقَدْ كَانُوا يَتَنَزَّهُونَ عَنِ الْبناتِ وَيَقُولُونَ الْملائكَةُ بناتُ اللهِ (تِلْكَ إِذًا قِسمَةٌ ضِيزَى) أَي: جَائِرَةٌ (إِنْ هِيَ إِلّا أَسْمَاءٌ سميتموها أَنْتُمْ وأباؤكم) إِنْ نَافِيَةٌ، (مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ) وَالسُّلْطَانُ هُنَا: هُوَ الْحجَّةُ وَالْبُرْهَانُ، **وَسُمِّيتِ الحجَّةُ سُلْطَانًا**؛ لأَنّـها تَقُودُ الْقلُوبَ وَتَقْهرُها لِقَبُولِ الْحقِّ (إِن يَتْبعُونَ إِلّا الظَّنَّ) الظَّنَّ الَّذِي يَتْبَعُونَهُ أَنَّ هَذِهِ الْأَصْنَامَ آلِهَةٌ تنفعُهم، وَمُنَاسَبَةُ الآياتِ لِلبَابِ: أَنَّهُمْ كَانُوا يطلُبُونَ الْبَرَكَةَ مِنْ هَذِهِ الْأَحْجارِ وَالْأَشْجَارِ ، فَتَقرَّرَ بِهذِهِ الْآيَاتِ أَنَّ طلَبَ الْبَرَكَةِ مِنَ الْمَخْلُوقِ فِي ما لَا يقدرُ عَلَيه إِلّا اللهُ شِركٌ أَكْبَرُ. وَقَوْلُهُ تعالَى (وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدى) أَي التَّوْحِيدُ الْقَائِمُ عَلَى الْبُرْهَانِ الصَّحِيحِ.

---

(١) سورة النجم الآية: ١٩-٢٣.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[عَنْ أَبِي وَاقِدِ اللَّيْثِيّ ﷺ قَالَ خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى حُنَيْنٍ وَنَحْنُ حُدَثَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ! وَلِلْمُشْرِكِينَ سِدْرَةٌ يَعْكفُونَ عِنْدَهَا وَيَنُوطُونَ بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ يُقَالُ لَهَا ذَاتُ أَنْوَاطٍ! فَمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ " اللَّهُ أَكْبَرُ! إِنَّهَا السُّنَنُ! قُلْتُمْ – وَالذِي نَفْسِي بِيَدِهِ – كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى (اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ، قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تجْهَلُونَ) لَترْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ)[١]. رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ.]

قوله:(عن أَبِي وَاقِدِ اللَّيْثِيّ) وَهُوَ الحَارِثُ بْنُ عَوْفٍ، قوله: (وَنَحْنُ حُدَثَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ) أَي: قَرِيبٌ عَهْدُنَا بِالْكُفْرِ، وَهَذَا كَالاعْتِذارِ لهُم (وَلِلْمُشْرِكِينَ سدرةٌ يَعْكُفُونَ عِنْدَهَا) **الْعُكُوفُ**: هُوَ الْمُلازَمَةُ عَلَى وَجْهِ التَّعْظِيمِ وَالْقُرْبَةِ، (وَيَنُوطُونَ بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ) أَي : يُعَلِّقُونَ بِهَا أَسلِحَتَهُمْ رَجاءَ بَرَكَتِهَا ونصرتها، وَ الفعل مأخوذ مِن النوط بمعنى التعليق.(فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ) قَالُوا هَذَا حِرْصًا عَلَى الْبَرَكَةِ وَطَلَبًا لَهَا، لَكِنَّهُمْ لَمْ يَقدمُوا عَلَى ذَلِكَ بأنفسهم إنما رَجَعُوا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَفِيه الرُّجُوعُ إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فِي طَلَبِ الْبَرَكَةِ، وَفِيه أَنَّ الْمُنْتَقِلَ مِنَ الْبَاطِلِ الَّذِي اعْتَادَهُ لا يُؤْمَنُ أَنْ يَكُونَ مَعَه شيءٌ مِنْ ذَلِكَ الْبَاطِلِ.(اللَّهُ أَكْبَرُ!) أَي اللهُ أَكْبَرُ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ شَرِيكٌ وَفِي رِوايَةٍ: (سُبْحَانَ اللهِ). أَي تَنَزَّه اللهُ عَنِ الشَّرِيكِ، وَمَعنى الجُمْلَتَيْنِ: تَعْظِيمُ اللَّهِ وَتَنْزِيهُهُ عَنِ الشِّرْكِ، وَفِيه: مَشْرُوعِيَّةُ التَّسْبِيحُ أَوْ التَّكْبِيرُ عِنْدَ التَّعَجُّبِ.(إِنَّهَا السّننُ !) أَي: الطُّرُقُ الْمَسْلُوكَةُ مِنْ قَبْلُ، قوله:

(قُلْتُم – وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ –) الواو: واو الْقَسَمِ ، وَالْمُرَادُ:أَنَّ نَفْسَه بِيدِ اللَّهِ ملكاً فبيدهِ إِمَاتَتُهَا وَإِحْيَاؤهَا وَتَدْبِيرُهَا وَتَصرِيفُها، وَفِي هَذِهِ الجُمْلَةِ مِنَ الْفَوَائِدِ: الْقَسَمُ عَلَى الْفَتْوَى إِنْ تَأَكَّدَ مِنْ إِصابَةِ الحَقِّ

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب الفتن– باب ما جاء لتركبن سنن من كان قبلكم (٢١٨٠)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٣٦٠١).

، وَفِيه الْقَسَمُ وَإِنْ لَمْ يُسْتَقْسَمْ، وَفِيه إِثْبَاتُ صِفَةِ الْيَدِ لله تعالى، وَفِيه أَنَّ النَّبِيَّ عَلَيه الصَّلاةُ وَالسّلامُ عبدٌ مَمْلُوكٌ لله، وَفِيه اِسْتِحْضَارُ عَظَمَةِ اللهِ عِنْدَ الْقَسَمِ.

قَولُهُ: (كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسى (اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ، قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ). أَي : أَنَّ طَلَبَهُمْ لِسدْرَةٍ يَتَبَرَّكُونَ بِهَا، وَيَعْكفُونَ عِنْدَهَا كَطلب بَني إسرائيلَ لإله، وَفِي هَذِهِ الجُمْلَةِ مِنَ الْفَوائِدِ: آفَةُ الجَهْلِ وَأَنَّهُ سَبَبٌ لِلشِّرْكِ، و أَنَّ الْمَقَاصِدَ الحَسَنَةَ لَا تُغَيِّرُ الحُكْمَ الشَّرْعِيَّ، وَأَنَّ الاعْتِبَارَ بِالحَقَائِقِ لَا بِالألفاظ؛ لأَنَّهُمْ طَلَبُوا شيئاً يُعظِّمُونَهُ وَيَتَبَرَّكُونَ بِهِ، فَهُوَ كَطَلَبِ بنِي إسرائيلَ لإله، فَتَسْمِيَةُ عُبَّادِ الْقُبُورِ لِعِبَادَتِهِمْ تَوسُّلا وَمَحَبَّةً لِلصَّالِحِينَ لَا يُخْرِجُها عَنْ كَوْنِهَا شِرْكا ، فَإِذَا كَانَ اتِّخَاذُ الشَّجَرَةِ لِلْعُكُوفِ عِنْدَهَا وَتَعْلِيقُ السِّلاحِ بِهَا اتخاذاً لِإِلَهٍ مَعَ اللهِ، فَكَيْفَ بِمَا أَحْدَثَ النَّاسُ مِنَ الاسْتِغاثَةِ بِغَيْرِ اللَّهِ صَرَاحَةً! وَفيه أَنَّ مَا يَفْعَلُهُ النَّاسُ الْيَوْمَ مِنَ التَّمَسُّحِ وَالتَّبَرُّكِ بِالأشجارِ وَالْأَحْجارِ وَالْقُبُورِ هُوَ عَيْنُ الشِّرْكِ.قوله:(لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قبْلَكُمْ) أَي: طُرُقَ وَمَنَاهِجَ، وَهَذَا خَبَرٌ الْمُرَادُ مِنْه النَّهْي وَالخَبَرُ – أيضاً –. وَفِي الجُمْلَةِ مِنَ الْفَوائِدِ: عَلمٌ مِنْ أَعْلامِ النُّبُوَّةِ وَأَنَّ التَّبَرُّكَ غَيْرَ الْمَشْرُوعِ بِالْأَشْجَارِ وَالْأَحْجارِ يَقْدَحُ فِي كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ إِنْ لَمْ يَنْقُضْهَا، و أَنَّهُمْ إِذَا جَهِلُوا هَذَا فَغَيْرُهُمْ أَوْلَى بِالجَهْلِ، وَفِيهَا دَلالَةٌ عَلَى أَنَّ حديثَ العهدِ بالإسلامِ يعذر بِالجَهْلِ وَكَذا مَنْ هوَ فِي حكمِهِ لأَنَّهُمْ طلبُوا شجرةً يتبركون بها و التَّبَرُّكُ بِغَيْرِ اللَّهِ فِي ما لَا يقدرُ عَلَيه إِلّا اللهُ شرك أكبر وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَحْكُمْ عَلَيهِمْ النَّبِيُّ عَلَيه الصَّلاةُ وَالسّلامُ بِالْكُفْرِ بِمُجَرَّدِ طَلَبِهِمْ عَذراً لهم بِجَهْلِهِمْ.

[١٠]

بَابُ مَا جَاءَ فِي الذَّبْحِ لِغَيْرِ اللَّهِ

مُنَاسَبَة الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ : أَنَّ الذبحَ لغير اللهِ تقرباً مِنْ أَنْوَاعِ الشِّرْكِ الَّتِي وَعَدَ الإمام بِالْكَلامِ فِيهَا. و مَعنَى التَّرْجَمَةِ : أَي: بَابُ مَا جَاءَ فِي حُكْمِ الذَّبْحِ لِغَيْرِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلا. **واعْلَمْ أَنَّ الذَّبْحَ يَقَعُ طَاعَةً وَيقَعُ عَادَةً**، وَمُرَادُهُ هُنَا الذَّبحُ الَّذِي يَقَعُ تقرُّباً: وهُوَ إِرَاقَةُ الدَّمِ تقرباً لله بطريقة شرعية، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا أَنَّ الْمَقْصُودَ فِي ذِبْحِ التَّقَرُّبِ إِرَاقَةُ الدَّمِ فيقومُ بقلبِ الذَّابحِ تَأليهٌ وتعظيمٌ للمذبوحِ لهُ لا يَليقُ إلا باللهِ بَيْنَما الْمَقْصُودُ فِي غَيْرِهِ مِنَ الذّبحِ اللَّحمُ. وَلَمْ يَذْكُرِ الإمام الْحُكْمَ لأَنَّهُ مَعْلُومٌ وَهُوَ أَنَّهُ شِرْكٌ، لِيُمَرِّنَ الطَّالِبَ عَلَى اسْتِنْباطِ الْحكْمَ مِنَ الدَّليلِ بِنَفْسِه، وَهُنَاكَ فَرْقٌ أيضاً بَيْنَ الذَّبحِ لِغَيْرِ اللَّهِ وَبَيْنَ الإِهْلال باِسم غَيْرِ اسم اللَّهِ، وَكِلَاهُمَا شِرْكٌ، لَكِنَ الأول فِي التَّعَبُّدِ بالنية والْقَصْدِ، وَالثَّانِي فِي التَّسْمِيَةِ وَالاسْتِعانَة.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [وقول الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾(١).]

قوله: (قُلْ) الخِطَابُ للنَّبِيّ عَليه الصَّلاةُ وَالسّلامُ (إنَّ صلاتي) **الصَّلاةُ لُغَةً** : الدُّعَاءُ ، **وَشَرْعاً** : عِبَادَةٌ ذَاتُ أَقْوَالٍ وَأَفْعَالٍ مُفْتَتَحَةٌ بِالتَّكْبِيرِ مُخْتَتَمَةٌ بِالتَّسْلِيمِ ، وصلاتي مُفْرَدٌ مُضَافٌ يُفِيدُ الْعُمُومَ (وَنُسُكِي) النُسُك يُطْلَقُ عَلَى التَّعَبُّدِ وَعَلَى الذَّبْحِ ، وَفِي عِبَادَةِ الذَّبحِ: تَعَلُّقُ الْقَلْبِ بِحُسْنِ الثّوابِ ، وَالتَّخَلُّصُ مِنَ الشُحِّ (وَمَحْيَاي وَمَماتي) أَي : حَيَاتي ، فَالصَّلاةُ والنُسُك لله قَصْدًا وتعبداً ، وَالْحَيَاةُ وَالْمَوْتُ لله مُلْكاً وتصرفاً وهي له من العبد قصداً وتعبداً (لله رَبِّ الْعَالَمِينَ) الربُّ هُوَ الْخَالِقُ الْمَالِكُ الْمُدَبِّرُ ، فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ رُكْنُ الْإِثْبَاتِ (لَا شَرِيكَ لَهُ) فِيهَا : رُكْنُ النَّفْي فَاشْتَملَتْ الْآيَةُ عَلَى رُكني التَّوْحِيدِ ،(وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ) أَي : بِالتَّوْحِيدِ وَالْإِخْلاصِ الْمَفْهُومُ مِنَ النَّفْي وَالإِثْبَاتِ،(وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ) إِسْلامُ كُلِّ نَبِيٍّ

(١) سورة الأنعام الآية: ١٦٢-١٦٣.

مُتَقَدِّمٌ عَلَى أُمَّتِهِ ، وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ أَوَلُهُمْ فَضْلاً ، أَوْ الْمُرَادُ أَنَّهُ : أَوَّلُ مَنْ يُبَادِرُ لِامْتِثَالِ أَمْرِ اللهِ. وَفِي الْآيَةِ أَنَّ **الذبح عِبَادَةٌ لِلَّهِ مِنْ وَجْهَيْنِ: الْوَجْهُ الأول** : أمرُ اللهِ لنبيهِ ﷺ أن يبين أن ذبحه لله لا شريك له بقوله (لله رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ)، **وَالْوَجْهُ الثَّانِي** : قَرْنُهُ بِالصَّلَاةِ.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[وقوله: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾[1]]

الْفاءُ: تَعْلِيلِيَّةٌ، أَي: صَلِّ وَانْحَرْ شُكْرًا لِنِعْمَةِ الْكَوْثَرِ، وَفِي الأمر بِالصَّلَاةِ وَالنَّحْرِ دَليلٌ عَلَى أَنَّ الْمَأْمُورَ بِهِ عِبَادَةٌ، فَصَرْفُه لِغَيْرِ اللهِ يَكُونُ شِرْكاً.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[عَنْ عَلِيٍّ ﷺ قَالَ: حَدَّثَنِي رَسُولُ اللَّه ﷺ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: (لَعَنَ اللَّهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ، لَعَنَ اللَّهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ، لَعَنَ اللَّهُ مَنْ آوَى مُحْدِثًا، لَعَنَ اللَّهُ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الارْضِ)[2] رَوَاهُ مُسْلِمٌ.]

قوله: (عن عَلِيّ) هُوَ عَلِيّ بْنُ أَبِي طَالِب بْنِ عَبْدِ المطَّلِبِ، ابن عَمّ النَّبِيّ ﷺ ، مِنَ السَّابِقِينَ شَهِدَ بَدْراً وَبَيْعَةَ الرِّضْوانِ، وهو أَحَدُ الْعَشَرَةِ وَرَابِعُ الْخُلَفَاءِ، قَتلَهُ الْخَارِجِيُّ الأشقى عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُلْجِمٍ سَنَةَ ٤٠هـ. قوله:(حَدَّثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ) أَي: أَرْبَعُ جُمَلٍ وَفِيه الْقَصْدُ وَالاقْتِصَارُ فِي الْوَصِيَّةِ؛ لأَنَّ الْكَلَامَ الْمُخْتَصَرَ أوقعُ فِي النَّفْسِ وَأسهلُ فِي الضَّبْطِ. قوله: (لَعَنَ اللَّهُ) اللَّعْنُ مِنَ الْمَخْلُوقِ: السَّبُّ، وَمِنَ الْخَالِقِ: الطَّرْدُ وَالإِبْعَادُ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَهَذِهِ الجْمْلَةُ تَحْتَمِلُ الْخَبَرَ وَتَحْتَمِلُ الدُّعَاءَ. قوله: (مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ) تقرباً وَتَعْظِيماً، أَوْ إِهْلالاً وَتَسْمِيَةً، وَاقْتِرانُ الْفِعْلِ بِاللَّعْنِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ مِنَ الْكبائرِ، وَالذَّبْحُ لِغَيْرِ اللَّهِ شِرْكٌ أكبر. قوله:(لَعَنَ اللَّهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ) وهَذَا يَشْمَلُ مَنْ لَعَنَ والِدِيهِ مُبَاشَرَة أَوْ تَسَبَّبَ فِي ذَلِكَ وَهَذَا هُوَ الْغَالِبُ فَفِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ:« مِنَ الْكَبَائِرِ شَتْمُ الرَّجُلِ وَالِدَيْهِ » قَالُوا يَا رَسُولَ

(١) سورة الكوثر الآية: ٢.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الأضاحي- باب تحريم الذبح لغير الله تعالى ولعن فاعله (١٩٧٨).

اللَّهِ هَلْ يَشْتُمُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ قَالَ « نَعَمْ يَسُبُّ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أَبَاهُ وَيَسُبُّ أُمَّهُ فَيَسُبُّ أُمَّهُ »[١] وَفِيه: دَليلٌ عَلَى قَاعِدَة الْمُتَسَبّبِ يُنزَّلُ مَنْزلةَ الْمُبَاشِرِ، وَكَثِيرٌ مَا يَأْتِي فِي الشَّرعِ اقْتِرانُ حَقِّ اللهِ بِحَقِّ الْوَالِدَينَ؛لأَنَّ اللهَ خَالِقُ الْعَبْدِ، وَالْوَالِدَانِ سَبَبٌ فِي وُجُودِهِ. (لَعَنَ اللَّهُ مَنْ آوَى مُحْدِثًا) آوَى: حَمَى وَنَصَرَ، و الْمُحْدِثُ : يَشْمَلُ الْعَاصِي وَالْمُبْتَدِعَ.

قَالَ أهلُ الْعِلْمِ : هَذِهِ الْكَبِيرَةُ تَخْتَلِفُ مَرْتَبَتُهَا بِاخْتِلافِ مَرَاتِبِ الْحَدَثِ نَفْسِهِ، فَكُلَّمَا كَانَ الْحَدثُ أَكْبَرَ كَانَتْ الْكَبِيرَةُ أَعْظَمَ (لَعَنَ اللهُ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الأَرْضِ)

وَفِي الْمُرَادِ بِمَنَارِ الْأَرْضِ ثَلاثَةُ أَقْوالٍ: الأول قَالَ النَّوويُّ–رحمهُ اللهُ–: (وَالْمُرَادُ بِمَنَارِ الْأَرْضِ – بِفَتْحِ الْمِيمِ – عَلامَاتُ حُدودِهَا)[٢]. وغيَّر أَي: قَدَّمَ العلامات والحدود وَأَخَّرَهَا ليأخذ حق غيره، وَفِيه حَديثُ: «مَنِ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الأَرْضِ ظُلْماً طَوَّقَهُ اللَّهُ إِيَّاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ»[٣] **الثَّانِي**: أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ: أَعلامُ الْحَرَمِ؛ لأَنَّ الحَرَمَ لَهُ أَحْكَامٌ تخصُهُ، **الثَّالِثُ**: أَنَّ الْمُرَادَ بِهَا الْعَلامَاتُ الَّتِي عَلَى الطُّرُقِ، فَيَحْصُلُ بِتَغْيِيرِهَا ضلالُ النَّاسِ عَنْ بُلْدانِهِمْ. وَلَا مَانِعَ مِنْ حَمْلِ الْحَديثِ عَلَيهَا جَمِيعاً إِذْ لَا تَعَارُضَ بَيْنَهَا، وَفِي الْحَديثِ: دَليلٌ عَلَى جَوازِ لَعْنِ الْفُسَّاقِ بِأَوْصَافِهِمْ لابِأَعْيانِهِمْ.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[وَعَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ؛: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) قَالَ:(" دَخَلَ الجَنَّة رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ وَدَخَلَ النَّار رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ " قَالُوا: وَكَيْفَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ: مَرَّ رَجُلَانِ عَلَى قَوْمٍ لَهُمْ صَنَمٌ لَا يَجُوزُهُ أَحَدٌ حَتَّى يُقَرِّبَ لَهُ شَيْئاً، فَقَالُوا لاحدِهِمَا: قَرِّبْ قَالَ لَيْسَ عِنْدِي شَيْءٌ

(١) أخرجه البخاري، باب لا يسب الرجل والديه، برقم: (٥٦٢٨)، ومسلم،باب بَيَانِ الْكَبَائِرِ وَأَكْبَرِهَا،برقم: (٢٧٣).

(٢) شرح النووي على مسلم، (١٣/ ١٤١)

(٣) أخرجه مسلم، باب تَحْرِيمِ الظُّلْمِ وَغَصْبِ الأَرْضِ وَغَيْرِهَا، برقم: (٤٢١٧).

أقَرِّبُهُ قَالُوا لَهُ: قَرِّبْ وَلَوْ ذُبَابًا فقَرَّبَ ذُبَابًا، فخَلَّوا سَبِيلَهُ، فَدَخَلَ النَّار وَقَالُوا لِلآخَرِ: قَرِّبْ فَقَالَ مَا كُنْتُ لِأُقَرِّبَ لاحَدٍ شَيْئًا دُونَ اللَّهِ عز وجل "فَضَرَبُوا عُنُقَهُ؛ فَدَخَلَ الجنَّة)(١)**. رَوَاهُ أَحْمَدُ.]**

قَالَ الألبانيُّ – رَحِمَهُ اللهُ -:(وَفِي الْحديثِ عِدَّةُ عِلَلٍ : الأولى : طَارِقُ بْنُ شِهَابٍ مُخْتَلفٌ فِي صُحْبَتِهِ، وَالثَّانِيَةُ : عَنْعَنَةُ الْأَعْمَشِ وَهُوَ مُدَلِّسٌ ، وَالثَّالِثَةُ : أَنَّ الْإِمَامَ أَحْمَدَ رَوَاهُ مَوْقُوفًا عَنْ طَارِقٍ عَنْ سَلمَانَ ، فَهُوَ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَنَ الإسرائيلياتِ) (٢). وقد صح إسناده موقوفا وقد قالَ النبيُّ ﷺ "حَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا حَرَجَ وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّداً، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ» رواه البخاري

وَفيه مِنَ الْفَوَائِدِ مَعْرِفَةُ قُبْحِ الشِّرْكِ فِي قلُوبِ أَهلِ التَّوْحِيدِ فَانْظُرْ كَيْفَ صَبَرَ عَلَى الْقَتْلِ وَلَمْ يُوَافِقْهُمْ عَلَى مَا أَرَادُوا، إما أخذا بالعزيمة أو يقال إن الاكراه ليس عذرا في شريعتهم فَالأول امْتَنَعَ مِنَ الشِّرْكِ لأنه لا يملك مَا يُقَرِّبُهُ لِلصَّنَمِ وَالثَّانِي امْتَنَعَ مِنَ أن يقرب شيئا لصحة اعتقاده وخوفه من الشرك وَفِي الحديث قُرْبُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ.

(١) أخرجه أحمد في الزهد (ص ١٦) وأبونعيم في«الحلية»(٢٠٣/١) موقوفًا على سلمان الفارسي.

(٢) الضعيفة برقم : (٥٨٢٩) –بتصرف–.

[١١]

بابٌ لَا يُذْبَحُ لِلَّهِ بِمَكَانٍ يُذْبَحُ فِيه لِغَيْرِ اللَّهِ

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ : قَالَ السِّعْدِي – رحِمَهُ اللهُ -:(مَا أَحْسَنَ اتْبَاعَ هَذَا الْبَابَ لِلَّذِي قَبْلَهُ، فَالَّذِي قَبْلَهُ مِنَ الْمَقَاصِدِ، وَهَذَا مِنَ الْوَسَائِلِ، ذَاكَ مِنْ بَابِ الشِّرْكِ الْأكبرِ وَهَذَا مِنْ وَسَائِلِ الشِّرْكِ) (١) أ.هـ. فَحَرَّمَ الشَّرْعُ الذَّبحَ لله بِمَكَانٍ يُذْبَحُ فِيه لِغَيْرِ اللَّهِ سداً لِلذَّريعَةِ، وَقَطْعاً لِمُشَابِهَةِ الْكُفَّارِ، وَبُعْداً عَنْ مواطِنِ الرِّيْبِ.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[وقول الله تعالى: ﴿ لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗا ﴾(٢).]

وَجْهُ الدَّلالَةِ مِنَ الْآيَةِ مِنْ جِهَةِ الْقِيَاسِ؛ لأَنَّهُ إِذَا مَنَع اللهُ رَسُولهُ ﷺ مِنَ الْقِيَامِ للهِ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ الْمُؤَسَّسِ عَلَى هَذِهِ الْمَقَاصِدِ الْخَبِيثَةِ، وَهِي الْمَذْكُورَةُ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ وَهِي﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ [سورة التوبة: ١٠٧] مَعَ أَنَّهُ لَا يُقومُ فِيه إِلّا للهِ، فَكَذَلِكَ الْمَواضِعُ الْمُعَدَّةُ لِلذَّبْحِ لِغَيْرِ اللَّهِ لا يَذْبَحُ فِيهَا الْمُوَحِّدُ للهِ؛ لأَنَّهَا قَدْ أُسِّسَتْ عَلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ وَالشِّرْكِ بِهِ.

إشكالٌ يَرِدُ على هذا الدَّليلِ وهو: أَنَّهُ قَدْ جَاءَ عَنْ بَعْضِ الصَّحَابَةِ أَنَّهُمْ صَلُّوْا فِي كَنَائِسِ النَّصَارَى، كَعُمَرَ – رَضِيَ اللهُ عَنْه – وَغَيْرِه مِنَ الصَّحَابَةِ، وَفِي الْبُخَارِيِّ بَابُ الصَّلَاةِ فِي الْبِيعَةِ وهيَ معْبَدُ اليَهودِ وَكَانَ ابن عَبَّاسٍ:« يُصَلِّي فِي الْبِيعَةِ إِلّا بِيعَةً فِيهَا تَمَاثِيلُ » فَالْجَوَابُ: أَنَّ الصُّورَةَ فِي الذَّبحِ لله وَالذَّبحِ لِغَيْرِه وَاحِدَةٌ لَا تَمْيِيزَ بَيْنَهَا فِي الظّاهِرِ، وَإِنْ اخْتَلَفَتْ الْمَقَاصِدُ، وَكَذَلِكَ الصُّورَةُ فِي صَلاة النبي ﷺ فِي مَسْجِدِ الضّرارِ وصلاة المنافقين أيضاً وَاحِدَةٌ، وَأَمَّا صَلاةُ الْمُسْلِمِينَ فِي الْكَنِيسَةِ وَصلاةُ النَّصارَى

(١) انظر القول السديد في مقاصد التَّوحيد، ص: ٦٠ .

(٢) سورة التوبة الآية: ١٠٨.

فَمُخْتَلِفَةٌ لَا يَخْتَلِطُ فِيهَا الأمر عَلَى النَّاظِرِ، فَيُفَرِّقُ بَيْنَهَا النَّاظِرُ مِنْ أَوَّلِ وَهْلَةٍ كَمَا أَنَّ فِي الصَّلاةِ فِي الْكَنَائِسِ وَالْبَيْعِ إِرْغَامٌ لِأَهْلِ الشِّرْكِ.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [وَعَنْ ثَابِتِ بْنِ الضَّحَّاكِ ﷺ قَالَ: (نَذَرَ رَجُلٌ أَنْ يَنْحَرَ إِبِلاً بِبَوَانَةَ ، فَسَأل النَّبي (ﷺ)؟ فَقَالَ: (هَلْ كَانَ فِيهَا وَثَنٌ مِنْ أَوْثَانِ الجاهِلِيَّةِ يُعْبَدُ ؟) قَالُوا: لَا قَالَ (فَهَلْ كَانَ فِيهَا عِيدٌ مِنْ أَعْيَادِهِمْ ؟) قَالُوا: لَا فَقَالَ: رَسُولُ اللهِ ﷺ: (أَوْفِ بِنَذْرِكَ؛ فَإِنَّهُ لَا وَفَاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَلَا في ما لَا يَمْلِكُ ابن آدَمَ) (١)**. رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَإِسْنَادُهُ عَلَى شَرْطِهِمَا.]**

(ثَابِتُ بْنُ الضَّحَّاكِ) ثَابَتُ بْنُ الضّحاكِ بْنِ خَلِيفَةَ الأشْهلي، صَحَابِيٌّ مَشْهُورٌ مَاتَ سَنَةَ ٦٤ هـ.(نَذَرَ رَجُلٌ) **النَّذْرُ لُغَةً:** هُوَ الْالزَامُ، **وَشَرْعاً:** هُوَ إِيجَابُ الْمُكَلَّفِ عَلَى نَفْسِهِ مَا لَا يُوجِبُهُ اللهُ عَلَيهِ،(بِبَوَانَةَ) اسم مَوْضِعٍ.(فَسَأل النَّبيَّ ﷺ) فِيه: الرُّجُوعُ إِلَى أَهْلِ الْعِلْمِ قَبْلَ التَّلَبُّسِ بِالْفِعْلِ.(فَقَالَ:هَلْ كَانَ فِيهَا وَثَنٌ مِنْ أَوْثَانِ الجاهِلِيَّةِ يُعْبَدُ؟ قَالُوا:لَا) فِيه: الْمَنْعُ مِنَ الْوَفَاءِ بِالنَّذْرِ إِذَا كَانَ فِي الْمَكَانِ وَثَنٌ وَلَوْ بَعْدَ زَوالِهِ إلا إذا نُسِيتْ وأُزيلتْ مَعالمُ الشِّرْكِ (قَالَ : فَهَلْ كَانَ فِيهَا عِيدٌ مِنْ أَعْيَادِهِمْ ؟ قَالُوا : لَا) **الْعِيدُ:** مأخوذ مِنَ الْعَودِ مَكَانًا أَوْ زمانًا ، وَسُؤَالُ النَّبيّ ﷺ الأول: عَنِ الشِّرْكِ ، وَسُؤَالُهُ الثَّانِي: عَنْ شعائِرِه، وَفِيه: استفصال العالم المستفتي فِي مَقَامِ الْاحْتِمَالِ.(فَقَالَ: أَوْفِ بِنَذْرِكَ) فِيه: وُجُوبُ الْوَفَاءِ بِالنَّذْرِ إِذَا كَانَ النَّذْرُ نَذَرَ طَاعَةٍ ، وَفِيه أَنَّ تَخْصِيصَ بُقْعَةٍ مَا بِالنَّذْر مِمَّا لَا بَأسَ بِهِ إِذَا خَلَتْ مِنَ الْمَوانِعِ، وَفِيه: أَنَّ الذَّبْحَ لله بِمَكَانٍ يُذْبَحُ فِيه لِغَيْرِ اللهِ مِنْ ذَرائِعِ الشِّرْكِ وَوَسَائِلِهِ.

قَالَ الْعَلَّامَةُ ابن بَازٍ – رَحِمَهُ اللهُ -:(إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَفْعَلَ الطَّاعَةَ فِي مَكَانٍ مِنْ أَمَاكِنِ الْجَاهِلِيَّةِ وَالشِّرْكِ إِلَّا إِذَا غُيرَ هَذَا الْمَكَانُ ، وَزَالَتْ عَنْه آثَارُ الْجَاهِلِيَّةِ وَنُسِيتْ فَلَا بأسَ ، كَمَا أَمَرَ النَّبي ﷺ بِهَدْمِ اللَّاتِ وَبِنَاءِ مَسْجِدٍ مَكَانِهِ، فَهَذَا يَجُوزُ التَّعَبُّدُ فِيه) (٢) وفيه حديث طَلْقِ بْنِ عَلِيٍّ قَالَ خَرَجْنَا

(١) أخرجه أبوداودفي كتاب الأيمان والنذور– باب مايؤمر به من الوفاء بالنذر (٣٣١٣)،وصححه الألباني في«صحيح أبي داود».

(٢) شرح كتاب التَّوحيد، ص: ٤٢، الناشر: مكتبة الرشد –الرياض–، الطبعة الأولى: ١٤١٥هـ–١٩٩٥م.

وَفْدًا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَبَايَعْنَاهُ وَصَلَّيْنَا مَعَهُ وَأَخْبَرْنَاهُ أَنَّ بِأَرْضِنَا بِيعَةً لَنَا فَاسْتَوْهَبْنَاهُ مِنْ فَضْلِ طَهُورِهِ فَدَعَا بِمَاءٍ فَتَوَضَّأَ وَتَمَضْمَضَ ثُمَّ صَبَّهُ فِي إِدَاوَةٍ وَأَمَرَنَا فَقَالَ اخْرُجُوا فَإِذَا أَتَيْتُمْ أَرْضَكُمْ فَاكْسِرُوا بِيعَتَكُمْ وَانْضَحُوا مَكَانَهَا بِهَذَا الْمَاءِ وَاتَّخِذُوهَا مَسْجِدًا قُلْنَا إِنَّ الْبَلَدَ بَعِيدٌ وَالْحَرَّ شَدِيدٌ وَالْمَاءَ يَنْشُفُ فَقَالَ مُدُّوهُ مِن الْمَاءِ فَإِنَّهُ لَا يَزِيدُهُ إِلَّا طِيبًا فَخَرَجْنَا حَتَّى قَدِمْنَا بَلَدَنَا فَكَسَرْنَا بِيعَتَنَا ثُمَّ نَضَحْنَا مَكَانَهَا وَاتَّخَذْنَاهَا مَسْجِداً. فَنَادَيْنَا فِيهِ بِالْأَذَانِ قَالَ وَالرَّاهِبُ رَجُلٌ مِنْ طَيِّئٍ فَلَمَّا سَمِعَ الْأَذَانَ قَالَ دَعْوَةُ حَقٍّ ثُمَّ اسْتَقْبَلَ تَلْعَةً مِنْ تِلَاعِنَا فَلَمْ نَرَهُ بَعْدُ[١] قولُهُ:(فَإِنَّهُ لَا وَفَاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ) فِي الْحَدِيثِ: دَليلٌ عَلَى تَحْرِيمِ نَذْرِ الْمَعْصِيَةِ وَفِيه أَنَّ الْمَعْصِيَةَ قَدْ تُؤَثِّرُ فِي الْأَرْضِ وَكَذَلِكَ الطَّاعَةُ.

قَولُهُ: (وَلَا فِي ما لَا يَمْلِكُ ابن آدَمَ)،لِأَنَّ الْعَبْدَ لَيْسَ لَهُ حَقُّ التَّصرُّفِ في ما لَا يَمْلِكُ ، وَفِي الْبَابِ قِيَاسُ الْمَسْالةِ الْمُشَكَّلَةِ عَلَى الْوَاضِحَةِ ، وَالْمَسْالةُ الْمُشَكَّلَةُ هُنَا: هي الذَّبْحُ للهُ فِي مَكَانٍ يُذْبَحُ فِيه لِغَيْرِ اللَّهِ، وَالْمَسْالةُ الْوَاضِحَةُ: هِي نَهْي اللَّهِ نَبِيَّهُ أَنْ يُصَلِّيَ فِي مَسْجِدِ الْمُنَافِقِينَ مَعَ أَنَّه لَا يُصَلِّي فِيه إِلّا للهِ.

وَفِي الذَّبْحِ لله بِمَكَانٍ يُذْبَحُ فِيه لِغَيْرِ اللَّهِ عِدَّةُ مَفَاسِدَ:

أَولاً: التَّشَبُّهُ بِالْمُشْرِكِينَ.

ثَانِياً: التَّغْرِيرُ بِالْجَاهِلِينَ.

ثَالِثاً: تَكْثِيرُ سَوادِ الْمُشْرِكِينَ.

رَابِعاً: قَدْ يَقَعُ فِي نَفْسِ الذابحِ شَيْءٌ بِأَنَّ هَذَا الْمَكَانَ مُبارَكٌ أَوْ لَهُ مَيِّزَةٌ عَلَى غَيْرِهِ.

خَامِساً: قَدْ يُسَاءُ الظَّنُّ بِمَنْ يَفعلُ ذَلِكَ.

---

(١) رواه أبوداود والنسائي وصححه الألباني.

[١٢]

بَابٌ مِن الشِّرْكِ النَّذْرُ لِغَيْرِ اللَّهِ

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ : ظاهِرَةٌ فَهَذَا أيضاً مِنْ تَفْصِيلِ أَنْوَاعِ الشِّرْكِ الَّذِي وَعَدَ بِهِ في ما سَبَقَ .

النَّذْرُ لُغَةً: هُوَ الْإِيجَابُ، **وَشَرْعاً**: إِيجَابُ الْمُكَلَّفِ عَلَى نَفْسِهِ مَا لَا يُوجِبُهُ اللهُ عَلَيهِ .

و **النَّذْرُ قِسْمَانِ** : **الأول** : نَذْرُ تَبَرُّرٍ ، وَهُوَ عَقْدُ النَّذْرِ بَلَا قَيْدٍ كَأَنْ يَقُولَ لله عَلَيَّ أَنْ أَفْعَلَ كَذَا ، **الثَّانِي** : نَذْرُ مُجَازَاةٍ ، وَهُوَ عَقْدُ النَّذْرِ بِقَيْدِ فَيَقُولُ لَئِنْ حَصَلَ كَذَا فَعَلْتُ كَذَا مِنْ أَنْوَاعِ الطَّاعَةِ وَ عقد النذر مَكْرُوهٌ. وَوَجْهُ الْكَرَاهَةِ: أَنَّ العبد يظنُّ أَنَّ اللهَ لَا يُعْطِيه إلّا إِذَا فَعَلَ كما أَنَّه لَا يَأتِي بالطاعة لله إلّا إِذَا أَعْطَاهُ هذا بالنسبة لنذر المجازاة ،أما نذر التبرر فإنَّ العبد قد أوجب على نفسه ما ليس بواجبٍ قد لا يستطيع الاتيان به لَكِنَّ الْوَفَاءَ بِالنَّذْرِ وَاجِبٌ، لكن نذر المجازاة أشد كراهة من نذر التبرر لما فيه من سوء الظن والبخل بالطاعة لِذَلِكَ مَدَحَ اللَّهُ الْمُوفِينَ وَلَمْ يَمْدَحْ النّاذِرِينَ، قال تعالى: ﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴾[1]،وَهَذِهِ الْآيَةُ فِي صفة الْأَبْرَارِ، فَالْوَفَاءُ بِالنَّذْرِ عِبَادَةٌ يُحِبُّهَا اللَّهُ وصرْفُهُ لغيرِ اللهِ شركٌ.

إشكالٌ وجوابه: وهو كيفَ تقولون عقدُ النذرِ مكروهٌ وصرْفُهُ لغيرِ اللهِ شركٌ ؟ والجوابُ أن يقالَ إنَّ عقدَ النذرِ عهدٌ بين العبدِ وبينَ المعبودِ بعبادةٍ في المستقبلِ بقيدٍ أو بلا قيدٍ فإنْ كانَ هذا العهدُ بينَ العبدِ وسيدِهِ الذي خلقهُ كُرِهَ عقدُ النذرِ لما سبقَ ذكرهُ وإنْ كانَ هذا العهدُ بين العبدِ وبينَ غيرِ اللهِ فهوَ شركٌ أكبر لأنَّهُ وعدُ غيرِ الله بالعبادةِ .

---

(١)سورة الإنسان الآية: ٧.

قَالَ الإمامُ –رحمَهُ اللهُ–[قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾(١).]

وَجْهُ الِاسْتِدْلَالِ بِهَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ اللهَ قد قَرَنَ النَّذْرَ بِالنَّفَقَةِ فِي سَبِيلِ اللهِ ، فَالنَّذْرُ وعدٌ بالعبادةِ كَمَا أَنَّ النَّفَقَةَ عبادةٌ فَإِذَا ثَبَتَ كَوْنُهُ وعدٌ بالعبادةِ فوعدُ غَيْرِ اللّهِ بالعبادة شِرْكٌ.قَولُهُ:(فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ) هَذَا حضٌ عَلَى النَّفَقَةِ وَالْوَفَاءِ بِالنَّذْرِ ، وَأَنَّ اللهَ سَيُجَازِيكُمْ عَلَيهِ لِعلْمِهِ بِطَاعَتِكُمْ

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: (مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللهَ فَلْيُطِعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللهَ فَلَا يَعْصِهِ)(٢)]

(وَفِي الصَّحِيحِ) الْحديثُ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا هِي أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ، الصَّدِيقَةُ بِنْتُ الصَّدِيقِ المبرأةُ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَماواتٍ، مِنْ أَفْضَلِ النِّساءِ، وَفِي تَفْضِيلِها عَلَى خَدِيجَةَ خِلافٌ. قَولُهُ:(مَنْ نذرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِعْهُ) فِيهِ: وُجُوبُ الْوَفَاءِ بِالنَّذْرِ إِذَا كَانَ نَذْرُ طَاعَةٍ، وَفِيهِ: دَلالَةٌ عَلَى أَنَّ نَذْرَ الطَّاعَةِ عِبادَةٌ.(وَمَنْ نذرَ أَنْ يَعْصِيَ اللَّهَ فَلَا يَعْصِهِ) النَّذْرُ إِيجَابٌ، وَالْمَعْصِيَةُ مُحَرَّمَةٌ فَكَيْفَ يُوجِبُ عَلَى نَفْسِه مُحَرَّماً ؟! وَقَدْ صَحَّ عَنِ النَّبِيِّ عَلَيه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ قَولُهُ: (لَا نَذرَ فِي مَعْصِيَةِ اللّهِ وَكَفَّارَتُهُ كَفَّارَةُ يَمِينٍ) رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَهلُ السُّنَنِ، أَي : مَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللهَ فَلَا يَعْصِهِ وَعَلَيه كَفَّارَةُ يَمِينٍ.

(١)سورة البقرة الآية: ٢٠٧.

(٢)أخرجه البخاري في كتاب الأيمان والنذور- بابالنذر في الطاعة (٦٦٩٦).

[١٣]

بَابٌ مِنَ الشِّرْكِ الِاسْتِعَاذَةُ بِغَيْرِ اللهِ

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ: أَنَّ هذا مِنَ التَّفْصِيلِ الَّذِي وَعَدَ بِهِ الإمام فِي الْبَابِ السّادسِ، **والِاسْتِعَاذَةُ** نَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِ الدُّعَاءِ فَهِي: طَلَبُ الْعَوْذِ أَي: الْاحْتِمَاءِ وَالْعِصْمَةِ مِنْ شَيْءٍ تَخَافُهُ بِمَنْ يَعْصِمُكَ مِنه، وَقَدْ جَاءَ فِي حَديثِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشيرٍ أَنَّ " الدُّعَاءَ هُوَ الْعِبَادَةُ " رَوَاهُ أَهْلُ السُّنَنِ، فَإِذَا ثَبَتَ أَنَّ الْإِسْتِعاذَةَ دُعَاءٌ، فَصَرْفُهَا لِغَيْرِ اللَّهِ شِرْكٌ، وأيضاً مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْاسْتِعاذَةَ عِبادَةٌ أَمْرُ اللهِ بِهَا في قولِهِ تَعَالى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾(١).

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [وقول الله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾(٢).]

سَبَبُ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ: أَنَّ الْعَرَبَ كَانُوا إِذَا نَزلُوا وَادِياً قَالُوا: نَعُوذُ بِسَيِّدِ هَذَا الْوَادِي مِنْ سفهاءِ قَوْمِهِ. رَوَاهُ ابن جَرِيرٍ عَنْ مُجَاهِدٍ فَزَادُوهُمْ قيلَ: الواو تَعُودُ إِلَى الْجِنِّ، وَقيلَ: تَعُودُ إِلَى الْإِنْس، وَالْخِلافُ أيضاً فِي ضَمِيرِ النَّصْبِ هَلْ يَعُودُ إِلَى الْإِنْسِ أَوْ الْجِنِّ ؟ قَالَ الْعَلَّامَةُ ابن بَازٍ – رَحِمَهُ اللهُ –:(كِلَا الْمَعْنيينِ حَقٌّ)(٣)، فَعَلَى الْمَعنَى الأول زَادَتْ الْجِنُّ الْإِنْسَ خَوْفًا وَتَعبا بِتَسَلُّطِهَا عَلَيهَا بِسَبَبِ الشِّرْكِ بِهَا، وَعَلَى الثَّانِي زَادَتْ الْإِنْسُ الجنَّ اسْتِكْبارًا وَطُغْيَانًا بعبادتها إياها، وَفِي الْآيَةِ : بَيَانُ مَفَاسِدِ الْإِسْتِعاذَةِ بِغَيْرِ اللَّهِ وَعواقبِهَا الْوَخِيمَةِ وَمَغَبَّتِهَا الْأَلِيمَةِ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ.

---

(١) سورة الأعراف الآية: ٢٠٠.

(٢) سورة الجن الآية: ٦.

(٣) شرح كتاب التَّوحيد، ص: ٤٤.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[وَعَنْ خَوْلَةَ بِنْتِ حَكِيم ﵂ قَالَتْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:(مَن نَزَلَ مَنْزِلاً فَقَالَ أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامات مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْحَلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ)[١] رَوَاهُ مُسْلِمٌ.]

قوله: (عن خَوْلَةَ بِنْتِ حَكِيمٍ) هِي بِنْتُ حَكِيم بْنِ أُمَيَّةَ السُّلمية يُقَالُ لَهَا: أُمُّ شريكٍ، وَكَانَتْ تَحْتَ عُثْمانَ بْنِ مظعون، قِيلَ: إِنَّهَا الْوَاهِبَةُ – الَّتِي وهبَتْ نَفْسَهَا للنَّبيِّ – ﷺ –(مَنْ نَزَلَ مَنْزلاً) يَشْمَلُ كُلَّ نازل وكُلَّ نُزُولٍ عَلَى سَبِيلِ الْإقامةِ الطَّارِئَةِ أَوْ الدَّائِمَةَ. (فَقَالَ أَعُوذُ) أَي : أَلْتجِئُ وَأَعْتَصِمُ (بِكَلِمَاتِ اللهِ) الْمُرَادُ هنا كلماتُه الْكَوْنِيَّةُ لِحَدِيثِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ خنبش عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قال « أَتَانِي جِبْرِيلُ فَقَالَ: يا مُحَمَّدُ ! قُلْ، قُلْتُ: وَمَا أَقُولُ ؟ قَالَ: قُلْ أَعُوذُ بِكَلِمَات اللهِ التَّامَّاتِ الَّتِي لَا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلَا فَاجِر مِن شَرّ مَا خَلَق وَذَرَأَ وَبَرَأَ وَمِن شَرِّ مَا يَنْزِلُ مِن السَّمَاءِ وَمِن شَرِّ مَا يَعْرُجُ فِيهَا وَمِن شَرِّ مَا ذَرَأَ فِي الْأَرْضِ وَبَرَأَ وَمِن شَرِّ مَا يَخْرُجِ مِنْهَا وَمِن شَرِّ فِتَنِ اللَّيْلِ وَالنّهارِ وَمِنْ شَرّ كُلِّ طَارِقٍ يَطْرُقُ إِلّا طَارِقاً يَطْرُقُ بِخَيْرٍ يا رَحْمَنُ » رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالطَّبَرَانِيُّ وَصَحَّحه الألبانيُّ .

فإن كلمات الله اللاتي لا يجاوزهن بر ولا فاجر هي الكلمات الكونية أما كلمات الله الشرعية فإن الفاجر يتجاوزهن، (مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ) أَي : مِن شَرِّ كُلِّ مَخْلُوقٍ ذي شر (لَم يَضُرَّهُ شَيْءٌ) شَيْء: نكِرَةٌ فِي سِياقِ النَّفْي فَتَعُمُّ ، وَاسْتَدَلَّ أَهْلُ الْعِلْمِ على المعتزلةِ بِهَذَا الْحديثِ عَلَى أَنَّ كَلامَ اللّهِ لَيْسَ بِمَخْلُوقٍ؛ لأَنَّ الْاسْتِعاذَةَ بِالْمَخْلُوقِ شِرْكٌ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنّ عدمَ الاستعاذةِ بالمخلوقِ كانت مَحَلُّ اِتِّفَاقٍ بَيْنَ أَهْلِ السُّنَةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ والأشَاعرةِ، وَفِي الْحديثِ فَضِيلَةُ هَذَا الدُّعَاءِ مَعَ اخْتِصَارِه.

قالَ القرطبيُّ[٢] –رَحِمهُ اللهُ–:(هَذَا خَبَرٌ صَحِيحٌ ، وَقَوْلٌ صَادِقٌ عَلِمْنَا صِدْقَهُ دَليلاً وَتَجْرِبَةً، فإِنِّي مُنْذُ سَمِعْتُ هَذَا الْخَبَرَ عَمِلْتُ عَلَيهِ فَلَمْ يَضُرَّنِي شَيْءٌ إِلَى أَن تركتُهُ فلدغَتْني عَقْرَبٌ بِالْمَهْدِيَّةِ لَيْلاً، فَتَفَكَّرْتُ

(١) أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء- باب في التعوذ من سوء القضاء ودرك الشقاء (٢٧٠٨).

(٢) أحمد بن عمر بن إبراهيم، أبو العباس الأنصاري القرطبي: فقيه مالكي، من رجال الحديث يعرف بابن المزين كان مدرسا بالإسكندرية وتوفي بها ومولده بقرطبة، من كتبه المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ٥٧٨ - ٦٥٦ هـ الإعلام للزركلي ١/١٨٦

فِي نَفْسِي فَإِذَا بِي نَسِيت أَنْ أَتَعَوَّذَ بِتِلْكَ الْكَلِمَاتِ فَقُلْتُ لِنَفْسِي – ذَاماً لَهَا وموبخاً – مَا قَالَهُ ﷺ لِلرَّجُلِ الْمَلْدُوغِ:" أَما إِنَّكَ لَوْ قُلْتَ حِينَ أَمْسَيْتَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرّ مَا خَلَقَ لَمْ تَضُرَّكَ"[1] وَفِي هَذِهِ الْقِصَّةِ عَملُ أهْلِ الْعِلْمِ بِالْعِلْمِ ، وَذَمّهُمْ أَنَفْسَهُمْ وَأَنَّ كُلَّ مُصِيبَةٍ تُصِيبُ الْعَبْدَ إِنَّمَا عَلَيه أَنْ يُحَاسِبَ نَفْسَهُ وَليَعْلَمْ أَنَّهُ مِنْ قِبَلِهَا أُوتي.

(١) المفهم ٣٦/٧.

[١٤]

بَابٌ مِن الشِّرْكِ أَنْ يَسْتَغِيثَ بِغَيْرِ اللَّهِ أَوْ يَدْعُوَ غَيْرَهُ

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ: أَنَّ هذا أيضاً مِنَ التَّفْصِيلِ الَّذِي وَعَدَ بِهِ فِي الْبَابِ السَّادسِ. قولُهُ (مِنَ الشِّرْكِ) أَيْ: الْأَكْبَرِ، (أَنْ يَسْتَغِيثَ بِغَيْرِ اللَّهِ) **الْاسْتِغاثَةُ:** هِي طَلَبُ الْغَوْثِ، فَهِي دُعاءٌ فِي حالِ الشِّدَةِ وَالْكَرْبِ. فَيَكُونُ عَطْفُ الدُّعَاءِ عَلَى الْاسْتِغاثَةِ مِنْ بَابِ عَطْفِ الْعَامِّ عَلَى الْخاصِّ، **وَالدُّعاءُ نَوْعَانِ:** دُعَاءُ مَسْالةٍ ودُعاءُ عِبَادَةٍ، و إِنَّمَا يَكُونَ الدُّعَاءُ و الْاسْتِغاثَةُ بِالْمَخْلُوقِ شِرْكا إِذَا كَانَتْ في ما لَا يقدرُ عَلَيه إِلّا اللهُ .وَتَقْدِيرُ التَّرْجَمَةِ الْاسْتِغاثَةُ بِغَيْرِ اللَّهِ وَدُعاءُ غَيْرِه مِنَ الشِّرْكِ.

قَالَ الإمامُ –رحمَهُ اللهُ– [وقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾(١).]

قوله: (وَلَاتَدْعُ) لَا: نَاهِيَةٌ وَالنَّهْي لِلتَّحْرِيمِ، بَلْ هُوَ شِرْكٌ،(مِنْ دُونِ اللهِ) أَيْ: غَيْرِ اللَّهِ،(مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضرُّكَ) هَذِهِ صِفَةٌ كَاشِفَةٌ تَأْتِي لِبَيَانِ الْوَاقِعِ لَا لِلْقَيْدِ، فَكُلُّ مَنْ يُدعَى مِن دُونِ اللهِ لَا يَمْلِكُ الضَّرَّ ولا النَّفْعَ، وَفَائِدَتُهَا زِيادَةِ التَّشْنِيعِ. أَيْ كَيْفَ تَدْعُو الَّذِي لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضرُّكَ فَإِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْخَلْقِ عِنْدَه مِنَ النَّفْعِ وَالضَّرِّ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ، بَلْ كُلُّهُمْ فَقَراءُ إِلَى اللهِ (فإِنْ فَعَلْتَ) الْخِطَابُ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَحَاشَاه أَنْ يَفْعَلَ؛ لِأَنَّهُ مَعْصُومٌ مِنَ الْخَطَأِ، وَدُعاءُ غَيْرِ اللهِ شِرْكٌ بَلْ هُوَ تَجَرُّدٌ مِنَ الْعَقْلِ، فالمراد تحذيرُ أمته من ذلك. (فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ) وَفِي الآيَة: أَنَّ أَصْلَحَ النَّاسِ لَوْ دعا غير اللهِ لَصَارَ مِنَ الظَّالِمِينَ، الظَّالِمُونَ: هُمْ الْمُشْرِكُونَ؛ لأَنَّ الظُّلْمَ وَضْعُ الشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ (٢) ، وَالشِّرْكُ صَرفُ الْعِبادَةِ إِلَى مَنْ لَا يَسْتَحِقُّهَا ،

(١) سورة يونس الآية: ١٠٦-١٠٧.

(٢) لسان العرب ٣٧٣/١٢.

وَبَعْدَ أَنْ نَهَى اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺ أَنْ يَدْعُوَ غَيْرَهَ وَبَرْهن لَهُ أَنَّ غَيْره لَا يَمْلِكُ نَفْعاً وَلَا ضَرًّا. قَالَ له:(وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ) إِلَى آخرها قال ابن كَثِيرٍ (بَيانٌ لأنَّ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ وَالنَّفْعَ وَالضُّرَّ إِنَّمَا هُوَ رَاجِعٌ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَحْدَهُ لَا يُشارِكُهُ فِي ذَلِكَ أَحَدٌ، فَهُوَ الَّذِي يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ وَحْدَهُ، لَا شَرِيكَ لَهُ) [1].(وَهُوَ الْغَفُورُ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) **الْمَغْفِرَةُ هِي**: السِّتْرُ وَالتَّجَاوُزُ لِمَا مَضَى. **وَالرَّحْمَةُ**: أَنْ يُوَفِّقَكَ إِلَى تَرْكِ السَّيِّئَاتِ فِي ما بَقِيَ.

قال الإمام – رحمه الله –[قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[2].]

قَولُهُ (إِنَّ الَّذِينَ تعبدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَمْلَكُونَ لَكُمْ رِزْقًا) هَذَا بَيَانٌ لِفَقْرِ كُلِّ مَعْبُودٍ مِنْ دُونِ اللهِ.

(فَابْتغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ) أَيْ: إِذَا كَانَتْ لَا تَمْلِكُ الرِّزْقَ فَلَا تَطْلُبُوهُ مِنْهَا بَل اطْلُبُوا الرِّزْقَ مِنَ اللهِ الَّذِي يَمْلِكُهُ؛ لأنَّهُ الْغَنِيُّ وَغَيْرُه فَقِيرٌ مَوْصُوفٌ بِالنَّقْصِ فَلَا يَصْلُحُ لِلْعِبَادَةِ، وَلَا تَصِحُّ عِبَادَةُ اللَّهِ إِلَّا بِتَرْكِ عِبَادَةِ غَيْرِهِ، وَفِي الأمر بِالْعبَادَةِ بَعْدَ بَيَانِ أَنَّ الرِّزْقَ يُطْلَبُ مِنْه وَحْدَهُ استدلال بِالرُّبُوبِيَّةِ عَلَى الْأُلُوهِيَّةِ

(وَاشْكُرُوا لَهُ) هَذَا أَمْرٌ بِالشُّكْرِ وَبِالْإِخْلاصِ فِيه **وَالشُّكْرُ**: هُوَ اعْترافُ الْقَلْبِ لله جلَّ وَعلا بِالنِّعْمَةِ وَثَناءُ الْعَبْدِ عَلَيه بِاللِّسَانِ، وَاسْتِعْمالُهُ نِعْمَةَ اللهِ فِي طَاعَتِهِ.

---

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٣٠٠ .

(٢) سورة العنكبوت الآية: ١٧.

قَالَ الإمامُ – رحمَهُ اللهُ – [وقوله: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴾ [1].]

قوله: (وَمَنْ أَضلُّ) الاسْتِفْهامُ هُنَا بِمَعنَى النَّفْي أَيْ: لَا أَحدَ أَضلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ، فَهُوَ قَدْ تَجَرَّدَ مِنَ الْعَقْلِ وَالدينِ، ثُمَّ بَيَّنتْ الآياتُ صِفَاتِ هؤلاء الْمَدْعُوِّين الأولى: أَنَّهُمْ لَا يَسْتَجِيبُونَ لمن يدعوهم إِلَى يَوْمِ الْقِيامَةِ، الثَّانِيَةُ: أَنَّهُمْ غَافِلُونَ عَنْ هَذَا الدُّعَاءِ، الثَّالِثَةُ: أَنَّهُمْ يَكُونُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعداءً لِعابِدِيهِمْ، الرَّابِعَةُ: أَنَّهُمْ يُنْكِرُونَ عِبَادَةَ عابِدِيهِمْ وَيكْفُرُونَ بِهَا، وَفِي الْآيَةِ تَسْمِيَةُ الدُّعَاءِ عِبَادَةٌ.

قَالَ الإمامُ – رحمَهُ اللهُ – [وقوله: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [2]]

هَذَا احْتِجَاجٌ عَلَى الْمُشْرِكِينَ بِنَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ تَوْحِيدِ الْأُلُوهِيَّةِ يُؤمِنُونَ بِهِ عَلَى الأنْوَاعِ الَّتِي لَا يُؤمِنُونَ بِهَا، وَالْمعْنى: إِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْآلِهَةُ لَا تُجِيبكم فِي حالَةِ الِاضْطِرَارِ وَالشِّدَّةِ فَلَا يَصْلُحُ أَنْ تَجْعَلُوهَا آلهةً مع اللهِ فِي حالَةِ الرَّخَاءِ وَالْاخْتِيَارِ، وَالاسْتِفْهامُ فِي الْآيَةِ تَقْرِيري فالله أمر نبيه ﷺ أن يسأل المشركين من الذي يجيب المضطر ويَكْشِفُ الْبَلاءَ وَيَجْعَلُكُمْ خَلَفاً للذين قبلَكُمْ ولم يذكر جوابهم لوضوحه وَفِيها إِقْرَارُ عَبَدَةِ الأَوْثَانِ أَنَّه لَا يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِلَّا اللهُ، وَأَعجَبُ مِنْه أَنَّ عَبَدَةَ الأولياءِ وَالصَّالِحِينَ لَا يُقِرُّونَ بِذَلِكَ وفي الآية لطفُ اللهِ بعبادِهِ حيثُ يوقظُهُم بالشدائدِ ليعرفوا وحدانيتَهُ الَّتي لا سعادةَ لهم إلا بها وقد وقعَ استيقاظُ الفطرةِ بالشدائدِ لعكرمةَ بن أبي جهلٍ ﷺ كما عند النسائي في قصةِ إسلامِهِ (وَأَمَّا عِكْرِمَةُ فَرَكِبَ الْبَحْرَ فَأَصَابَتْهُمْ عَاصِفٌ فَقَالَ أَصْحَابُ السَّفِينَةِ أَخْلِصُوا فَإِنَّ آلِهَتَكُمْ لَا تُغْنِي عَنْكُمْ شَيْئًا هَاهُنَا فَقَالَ عِكْرِمَةُ وَاللَّهِ لَئِنْ لَمْ يُنَجِّنِي مِن الْبَحْرِ إِلَّا الْإِخْلَاصُ لَا يُنَجِّينِي فِي الْبَرِّ غَيْرُهُ اللَّهُمَّ إِنَّ لَكَ عَلَيَّ

(١) سورة الأحقاف الآية: ٥-٦.

(٢) سورة النمل الآية: ٦٢.

عَهْدًا إِنْ أَنْتَ عَافَيْتَنِي مِمَّا أَنَا فِيهِ أَنْ آتِيَ مُحَمَّدًا ﷺ حَتَّى أَضَعَ يَدِي فِي يَدِهِ فَلَأَجِدَنَّهُ عَفُوًّا كَرِيمًا فَجَاءَ فَأَسْلَمَ)

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[وَرَوَى الطَّبَرَانِيُّ بِإِسْنَادِهِ (أَنَّهُ كَانَ فِي زَمَنِ النَّبِي ﷺ مُنَافِقٌ يُؤْذِي الْمُؤْمِنِينَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ قُومُوا بِنَا نَسْتَغِيثُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ هَذَا الْمُنَافِقِ، فَقَالَ النَّبِي ﷺ إِنَّهُ لَا يُسْتَغَاثُ بِي وَإِنَّمَا يُسْتَغَاثُ بِاللَّهِ)[1].]

أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ بِلَفْظٍ قَرِيبٍ مِنْ هَذَا وَ قال الألباني فِيه عِلَّتَانِ: الأولى : فِي سَنَدِهِ الْحَارِثُ بْنُ يَزِيد وَهُوَ مُبْهَمٌ ، الثَّانِيَةُ: فِي سَنَدِهِ عَبْدُ اللهِ بْنُ لهيعة.

(١) أورده الهيثَمي في «مجمع الزوائد» (١٠/٢٤٦).

[١٥]

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [بَابُ قَوْلِ اللهِ تعَالَى: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴾(١).]

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ: أَنَّ الإمام ذكرَ فِي الأبواب السَّابِقَةِ أَنْوَاعاً مِنَ الشِّرْكِ، وَهنا يشرع في ذِكْرِ الْبَرَاهِينِ الدَّالةِ عَلَى بُطلَانِ الشِّرْكِ وَوُجُوبِ التَّوْحِيدِ. قَالَ السِّعْدِي – رحِمَهُ اللهُ –:(هَذَا شُرُوعٌ فِي بَرَاهِينِ التَّوْحِيدِ وَأدلتِهِ، فَالتَّوْحِيدُ لَهُ مِنَ الْبَرَاهِينِ النَّقْلِيَّةِ وَالْعَقْلِيَّةِ مَا لَيْسَ لِغَيْرِهِ، وَتَقَدَّمَ أَنَّ التَّوْحِيدَيْنِ – تَوْحِيدَ الرُّبُوبِيَّةِ وَتَوْحِيدَ الأَسماء وَالصِّفَاتِ – مِنْ أَكْبَرِ بَرَاهِينِهِ وَأَضْخمِهَا، فَالْمُتَفَرِّدُ بِالْخَلْقِ وَالتَّدْبِيرِ، وَالْمُتَوَحِّدُ فِي الْكَمَالِ الْمُطْلَقِ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ هُوَ الَّذِي لَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةُ سِواهُ. وَكَذَلِكَ مِنْ بَرَاهِينِ التَّوْحِيدِ مَعْرِفَةُ أَوْصَافِ الْمَخْلُوقِينَ، فهذ دَليلٌ عَقْلِيٌّ فِطْرِيٌّ، كَمَا أَنَّه دَليلٌ سَمْعِيٌّ نَقْلِيٌّ عَلَى وُجُوبِ تَوْحِيدِ اللهِ وَأَنَّهُ الْحَقُّ، وَعَلَى بُطلَانِ الشِّرْكِ فَنُعُوتُ الْبَارِي تعَالَى وَصِفَاتُ عَظَمَتِهِ وَتَوَحُّدُهُ فِي الْكَمَالِ الْمُطْلَقِ أَكْبَرُ بُرْهَانٍ عَلَى أَنَّه لَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ إِلَّا هُوَ. وَكَذَلِكَ صِفَاتُ الْمَخْلُوقَاتِ كُلِّهَا، وَمَا هِي عَلَيه مِنَ النَّقْصِ وَالْحَاجَةِ وَالْفَقْرِ إِلَى رَبِّهَا فِي كُلِّ شؤونِها، وَأَنَّهُ لَيْسَ لَهَا مِنَ الْكَمَالِ، إِلَّا مَا أَعْطَاهَا رَبُّهَا مِنْ أَعْظَم الْبَرَاهِينِ عَلَى بُطلَانِ إلاهيةِ شيءٍ مِنها .)(٢) انْتَهَى

قَولُهُ:(أَيُشْرِكُونَ) الْهَمْزَةُ: لِلاسْتِفْهامِ، وَالْمُرَادُ بِهِ التَّوْبِيخُ وَالتَّعْنِيفُ، قَولُهُ:(مَا لَا يَخْلُقُ شيئاً) فِيه بَيَانٌ لِعَجْزِ آلِهَتِهِمْ، قَولُهُ: (وَهُمْ يُخْلَقُونَ) وَهَذَا بَيَانٌ لِفَقْرِهَا، (وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا) بَيَانٌ لِعَجزِهَا عَنْ نُصْرَةِ عابِدِيهَا، قَولُهُ:(وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ) هَذِهِ غَايَةٌ فِي الْعَجْزِ فَهِي لَا تَدْفَعُ الضُّرَّ عَنْ نَفْسِهَا فَضْلاً عَنْ غَيْرِهَا، فَهَذَا بُرْهَانٌ ظاهِرٌ عَلَى بُطلَانِ الشِّرْكِ بِاللهِ، وهو يَشْمَلُ كُلَّ مَعْبُودٍ مَعَ اللهِ برا كان أَوْ فَاجِرا.

---

(١) سورة الأعراف الآية: ١٩١–١٩٢.

(٢) القول السديد ص ٦٤–٦٥.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[وقول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ۝١٣ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ﴾[(١)].]

هَذَا بَيَانٌ لِحَالِ الْمَعْبُودِينَ مِنْ دُونِ اللهِ ، **فَالَّذِي يُدْعَى ينبغي أَنْ يَتَّصِفَ بِثلاثِ صِفَاتٍ هِيَ**: الْملكُ وَالسَّمْعُ وَالْقُدْرَةُ، فَإِنْ انْتَفَى أحَدُ هَذِهِ الْأَوْصَافِ فَلَا يُدْعَى، ولا يعبد فَكَيْفَ إِذَا انْتَفَتْ ثَلاثَتُهَا!

فَقَوْلُهُ: (وَمَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ) هَذَا نَفيٌ للْملْكِ قَالَ ابن عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا (الْقِطْمِيرُ هُوَ اللِّفَافَةُ الَّتِي تَكُونُ عَلَى نَوَاةِ التَّمْرِ)[(٢)]

وَقَوْلُهُ:(إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ) هَذَا نَفيٌ للسَّمْعِ، وَقَوْلُهُ:(وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ) هَذَا نُفْيٌ لِلْقُدْرَةِ.(وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ) بَعْدَ أَنَّ بَيَّنَ – سُبْحَانَه – خُذْلانَ الْآلِهَةِ لِعابِدِيهَا فِي الدُّنْيا عَقَّبَ – سُبْحَانَه – ببيانِ خُذْلَانِهَا لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ فبيَّن أَنَّها تَجْحَدُ هَذِهِ الْعِبَادَةَ وَسَمَّاهَا اللهُ شِرْكَا قَوْلُهُ:(وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ) أَيِ: لَا يُخْبِرُكَ عَنْ عواقِبِ الْأُمُورِ وَمَآلَاتِهَا وَمَا تَصِلُ إِلَيه إِلّا الْخَبِيرُ بِهَا، قَالَ قَتَادَةُ – رَحِمَهُ اللهُ –:(يَعْنِي: نَفْسَهُ تَبارَكَ وَتَعَالَى، فَإِنَّهُ أَخْبَرَ بِالْوَاقِعِ لَا مَحَالَةَ)[(٣)].

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ:(شُجَّ النَّبي ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ فَقَالَ كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ ؟ فَنَزَلَتْ: ﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ﴾[(٤)].]

قوله: (شُجَّ النَّبي ﷺ) قَالَ ابن الْأَثِير:(الشجُّ يَكُونُ فِي الرَّأْسِ خَاصَّةً)[(١)] وَالَّذِي شَجَّهُ هُوَ عَبْدُ اللهِ بْنُ شِهَابٍ الزُّهْرِيُّ ،(وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ)- بِفَتْحِ الرّاءِ – وَهِي السِّنُّ الَّتِي تَلِيَ الثَّنايا، (وَكُسِرَتْ) أَي: لَمْ تُقْلَعْ

---

(١) سورة فاطر الآية:١٤.

(٢) تفسير ابن كثير ط٢ ، ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩ م ، ٥٤١/٦، ت: سامي بن محمد سلامة.

(٣) المصدر السابق

(٤) سورة آل عمران الآية: ١٢٨.

مِنْ أَصلِهَا، وَهَذَا فِيه أَنَّ النَّبي ﷺ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ نَفْعاً وَلَا ضراً، وَلِهَذِهِ الْفَائِدَةُ سَاقَ الإمام هَذَا الْحديثَ، وَفِيه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ، وَقَدْ قَالَ النَّوَوِيُّ – رَحِمَهُ اللهُ –:(وَفِي هَذَا وُقُوعُ الْأَسْقَامِ وَالْابْتِلاءِ بِالْأنبياءِ صَلَوَتُ اللّهِ وَسلامُهُ عَلَيهِم)[٢]، وقالَ القاضِي[٣] – رَحِمَهُ اللهُ –:(فِيه مَا ابْتَلَى بِهِ الْأنبياءُ وَأَهْلُ الْفَضْلِ لِينَالُوا جزيلَ الْأَجْرِ، وَيَسْهُلَ عَلَى أُمَمِهِمْ وَغيْرِهِمْ مَا أَصَابَهُمْ، وَيَتَأَسَّوْا بِهِمْ، وَلْيُعْلَمَ أَنَّهُمْ مِنَ الْبَشَرِ تُصِيبُهُمْ مِحَنُ الدُّنيا، وَيطْرَأُ عَلَى أَجْسَامِهِمْ مَا يَطْرَأُ عَلَى أَجْسَامِ الْبَشَرِ لِيَتَحَقَّقُوا أَنَّهُمْ مَخْلُوقُونَ مربوبون، وَلِكَيْ لَا يَدْخُلَ اللَّبْسُ فِي الْمَفْعُولِ بِسَبَبِ مَا ظَهَرَ عَلَى أَيْدِيهِمْ مِنَ الْعجائِبِ والآياتِ مَا يُشَكِّكُ فِى بَشَرِيَّتِهِمْ، وَيُلَبِّسُ الشَّيْطَانُ مِنْ أَمْرِهِمْ مَا لَبَّسَ بِهِ عَلَى النَّصَارَى وَأَشْبَاهِهِمْ)[٤] فَفِي الْحدِيثِ حاجَةُ النَّبِيّ ﷺ إِلَى حِفْظِ رَبِّهِ وكلاءِتِهِ سُبْحَانَه. قولُهُ :(فَقَالَ كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهِمْ ؟) الْاسْتِفْهامُ هُنَا لِلاسْتِبْعَادِ، فَاسْتَبْعَدَ فَلاحَهُمْ ، فَنَزَلَتْ ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ أَي: لَيْسَ لَكَ الْحُكْمُ عَلَى عَاقِبَةِ عِبَادِهِ ، وَهَذَا الْخِطَابُ لِلنَّبِيّ ﷺ فَكَيْفَ بِغَيْرِه، وفي الآية رد على الغلاة الذين يقولون أنه عليه الصلاة والسلام كاشف الكروب وماحي الذنوب وَفِيه الْحَذرُ مِنْ آفَاتِ اللِّسَانِ ، ومن ذلك الْحُكْمُ عَلَى عواقبِ النَّاسِ، فَكَمْ مِنْ بُغاةٍ اهْتَدَوْا ، وَكَمْ مِنْ هُدَاةٍ بَغَوْا.

قَالَ الإمَامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[وَفِيهِ:(عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما " أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللّهِ ﷺ يَقُولُ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ فِي الرَّكْعَةِ الاخِيرَةِ مِنَ الفَجْرِ اللَّهُمَّ العَنْ فُلاَنًا وَفُلاَنًا وَفُلاَنًا بَعْدَ مَا يَقُولُ سَمِعَ اللّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ رَبَّنَا وَلَكَ الحَمْدُ " فَأَنْزَلَ اللّهُ ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾[٥] وَفِي رِوَايَةٍ:(يَدْعُو

---

(١) النهاية ٤٤٥/٢

(٢) شرح النووي على مسلم، (١٢/ ١٤٨)

(٣) القاضي عياض: ابن موسى بن عياض اليحصبي، أبو الفضل سبتي الدار والميلاد أخذ عن أبي رشد، وابن الحاج، وابن عتاب، وأجازه المازري، والطرطوشي وابن العربي، وأخذ عنه ابن عطية وابن زرقون، ومن مصنفاته: التنبيهات المستنبطة على المدونة، جمع فيه غرائب من ضبط الألفاظ وتحرير المسائل، إكمال المعلم في شرح مسلم، والشفاء وغير ذلك ولد سنة ٤٦٧هـ وتوفي سنة ٥٤٤هـ.

(٤) إكمال المعلم (١٦٤/٦)

(٥)أخرجه البخاري في كتاب المغازي- باب {ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم} (٤٥٥٩).

عَلَى صَفْوَانَ بْنِ أمِيَّةَ وَسُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو وَالْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ، فَنَزَلَتْ ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾[1]]

قوله:(ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) هو عبدُ اللهِ بنِ عمرَ بنِ الخطابِ، شَهِدَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ بالصَّلاحِ، وهو مِنَ المكْثرينَ منْ روايةِ الحديثِ.(أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِن الرُّكُوعِ فِي الرَّكْعَةِ الاخِيرَةِ مِنَ الفَجْرِ): فِي هَذَا بَيَانُ مَوْضِعِ قُنُوتِ النَّوَازِلِ (اللَّهُمَّ العَنْ فُلَانًا وَفُلَانًا وَفُلَانًا) اللَّعْنُ هُوَ الطَّرْدُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، وَفِي هذهِ الرِّوايَةِ لم يذكر أسماءهم وَقد صَرَّحَ بِهِمْ فِي الرِّوَايَةِ الْأُخْرى. وثَلاثتُهمْ قدْ أسلمُوا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ وَعَلَيه فَإِنَّ سَبَبَ نُزولِ هَذِهِ الْآيَةِ دُعَاؤُهُ عَلَى هَؤُلَاءِ الثَّلاثَةِ، وَلَا تَعَارُضَ فَإِنَّ سَبَبَ النُّزُولِ قَدْ يَتَعَدَّدُ لِلْآيَةِ الْوَاحِدَةِ.وقولُهُ تَعالَى:

(**أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ**) قَدْ تَابَ اللهُ عَلَى بَعْضِ النَّاسِ الَّذِينَ شَهِدُوا أُحُدًا مَعَ الْكُفَّارِ كَخَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ ، وَعَبْدِ اللهِ بْنِ شِهَابٍ الزُّهْرِيّ. وَفِي الْحديثِ: قُنُوتُ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ وَخَلْفَه سَادَاتُ الأولِيَاءِ فَهُمْ يَفْتَقِرُونَ إِلَى اللهِ فَكَيْفَ يلْجَأُ إِلَيهِمْ النَّاسُ ؟!وطريق الجمع –كما قال الحافظ –رحمه الله– بين الحديثين أن يقال: إن الآية نزلت في الأمرين معا، فيما له من الأمر، وفيما نشأ عنه من الدعاء عليهم. وَفِيه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لا يَعْلَمُ الْغَيْبَ.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[وَفِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ:(قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ أنْزِلَ عَلَيْهِ: (وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)[2] فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ (أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا)! اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ، لَا أغْنِي عَنْكُمْ مِن اللَّهِ شَيْئًا، يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ! لَا أغْنِي عَنْكَ مِن اللَّهِ شَيْئًا، يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ! لَا أغْنِي عَنكِ مِن اللَّهِ شَيْئًا، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ! سَلِينِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتِ، لَا أغْنِي

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب المغازي– باب {ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم} (٤٠٧٠).

(٢) سورة الشعراء الآية: ٢١٦.

عَنْكِ مِن اللَّهِ شَيْئًا)[١]**]**قوله:(عن أَبِي هُرَيْرَة) هُوَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ صَخْرٍ، الدَّوسِي، أَكْثَرُ الصَّحَابَةِ حِفْظًا لَسُنَةِ النَّبيّ ﷺ.(قَالَ:قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ) وفي رِوايَةِ ابن عبّاسٍ– رضي الله عنهما –:(صعَد على الصَّفا) [٢]وفيه: مُبادرةُ النّبيّ ﷺ لامتِثالِ أمرِ اللهِ، (وأنذِرْ) الإنذارُ هوَ الإعلامُ مع التّخويفِ، (عشيرتَك الأقربين) العشيرةُ هي القبيلة وقدْ أمرهُ الله جلَّ وعَلا أن يُنذِرَ جميعَ النّاسِ في قوْلِهِ:﴿ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ ﴾[٣].

ولا تَعارُضَ بيْن الآيتينِ لكنَّ استِجابةَ الأقربينَ سببٌ في استِجابةِ غيْرِهِم، كما أنَّ أُولي القُربى أولى بِالمعروف(فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا) المعشرُ همْ: الجماعةُ.قولُهُ: (اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ) وفي الحديثِ أنَّ المؤمنَ هوَ الّذي يشْتري، والسِّلعةُ هيَ النَّفسُ، والثَّمنُ الجنَّةُ، والمشتَري هوَ اللهُ، والمعنَى: انقِذُوا أنْفُسكُم منَ النَّارِ كمَا هوَ في روايةِ مُسلم.قولُهُ (لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِن اللَّهِ شَيْئًا) أيّ: لا أملكُ لَكُم ضراً ولا نفْعاً وهذا موضعُ الشَّاهدِ منَ الحديثِ.

قالُ السّعديُّ – رحِمهُ الله –:(وإذا كانَ أشْرفُ الخلقِ على الإطلاقِ لا يملِكُ نفعَ نفسِه وأقربِ الخلقِ إليهِ وأمسِّهِ بِهِ رحِمًا، فكيْفَ بِغيْره ؟!، فتبّاً لمن أشركَ بِاللهِ وساوَى بِهِ أحدَ المخلوقينَ، لقد سُلِب عقلُهُ بعدَ أنّ سُلِب دينُهُ ... فمَن عَرفَ اللهَ وعَرفَ الخلقَ اضطرَّتْهُ هذِهِ المعرِفةُ إلى عِبادةِ اللهِ وحْدَهُ، وإخلاصِ الدِّينِ لهُ. وانصَرفَ تعلُّقُهُ بِالمخلوقينَ خوْفًا ورجاءً وطمعًا ، واللهُ أعلمُ) [٤]. وفي الحديثِ مِن الفوائِدِ: الحثُ على الاجتِهادِ والعملِ وترك البِطالةِ والاعتِمادِ على الأنسابِ، وفيه تركُ التَّعلُّقِ بِالأشخاصِ، وفيه أنّ الانتِسابَ إلى النّبيّ ﷺ شرفٌ إذا كانَ معَهُ عملٌ صالِحٌ.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان– باب في قوله تعالى: {وأنذر عشيرتك الأقربين} (٢٠٥).

(٢) أخرجه البخاري برقم: (٤٥٨٩).

(٣) سورة يونس الآية: ٢.

(٤) القول السديد في مقاصد التّوحيد، ص: ٦٨ .

[١٦]

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[بابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴾[(١)].]

قال السِّعْدِي – رحمه الله – فِي مُنَاسَبَةِ هَذَا الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ (وَهَذَا أيضا بُرهانٌ عَظِيمٌ آخر عَلَى وُجُوبِ التَّوْحِيدِ وَبُطْلَانِ الشِّرْكِ، وَهُوَ ذِكْرُ النُّصُوصِ الدَّالَّةِ عَلَى كِبْرِيَاءِ الرَّبِّ وَعَظَمَتِهِ الَّتِي تَتَضَاءَلُ وَتَضْمَحِلُّ عِنْدَهَا عَظَمَةُ الْمَخْلُوقَاتِ فَالْمَخْلُوقَاتُ بِأَسْرِهَا خَاضِعَةٌ لِجَلالِهِ ، مُعْتَرِفَةٌ بِعَظَمَتِهِ وَمَجْدِهِ خَاضِعَةٌ لَهُ خَائِفَةٌ مِنْه ، فَمَنْ كان هذا شَأْنُهُ فَهُوَ الرَّبُّ الَّذِي لَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ وَالْحَمْدَ وَالثَّنَاءَ وَالشّكرَ وَالتَّعْظِيمَ والتألّه إلّا هُوَ) وأوضح من هذا أن يقال أن الإمام قد برهن في الباب السابق بطلان عبادى الأنبياء والأولياء لعجزها عن دفع السوء عن نفسها وعن أقرب الأقربين إليها وحاجتها إلى ربها في حفظها وكلاءتها وفي هذا الباب يبين بطلان عبادة الملائكة لذلها وخضوعها وخوفها من باريها سبحانه فإن كان النبيون لا يصلحون للعبادة والملائكة المقربون لا يستنكفون عن عبادة الله فهذه أصرح البراهين ألالا يصلح للعبادى سواه.

قوله:(حَتَّى إِذَا فُزّعَ عَنْ قلوبِهِمْ) الْفَزَعُ : هُوَ الْخَوْفُ ، وَعَنْ: تُفِيدُ التَّجَاوُزَ، أيْ: حَتَّى إِذَا جَاوَزَ الْفَزَعُ قُلُوبَهُمْ. ففي الآية خوف الملائكة والخوف صفة نقص لا يليق بالمعبود وبهذا بطلت عبادة الملائكة وهو صفة كمال بالتسبة للعبد (قَالُوا مَاذا قَالَ رَبُّكُمْ) أيْ : قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ، فَفِيها: أَنَّهُمْ لَا يعْلَمُونَ الْغَيْبَ، وَفِيها : إِثْبَاتُ صِفَةِ الْقَوْلِ لله عزَّ وَجلَّ .(قَالُوا الْحَقَّ) أيْ : قَالُوا : قَالَ اللهُ الْحَقَّ، (وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ) الْعَلِيُّ: فِي ذاته وصفاته، وَهُوَ مُتَّصِفٌ بِعُلُوِّ الْمَنْزِلَةِ وَالْقَدْرِ والذاتِ ، أَمَّا عُلُوُّ الْمَنْزِلَةِ وَالْقَدْرِ فَقَدْ أَجْمَعَ عَلَيه الْمُسْلِمُونَ ، وَأَمَّا عُلُوُّ الذاتِ فَقَدْ أثْبَتَهُ أهْلُ السُّنَّةِ وَخَالفَ فِيه الْجَهْمِيَّةُ وَالْمُعْتَزِلَةُ

(١) سورة سبأ الآية: ٢٣.

والأشاعرةُ.(الْكَبِيرُ): الكبير في ذاته وذُو الْكِبْرِيَاءِ وَهِيَ الْعَظَمَةُ الَّتِي لَا يُدَانِيهَا شَيْءٌ ، فَلَا أَعْظَمَ مِنْه سُبْحَانَه لذلك استحق العبادة دون ما سواه.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:(إِذَا قَضَى اللَّهُ الأمر فِي السَّمَاءِ؛ ضَرَبَتِ الملائكةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ، يَنْفُذُهُمْ ذَلِكَ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ السَّمْعِ، وَمُسْتَرِقُ السَّمْعِ هَكَذَا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ، وَصَفَهُ سُفْيَانُ بِكَفِّهِ، فَحَرَّفَهَا وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ، فَيَسْمَعُ الكَلِمَةَ، فَيُلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الآخَرُ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، حَتَّى يُلْقِيَهَا عَلَى لِسَانِ السَّاحِرِ أَوْ الكَاهِنِ، فَرُبَّمَا أَدْرَكَهُ الشِّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا، وَرُبَّمَا القَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ، فَيَكْذِبَ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ، فَيُقَالُ أليسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا؟ فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ الكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِن السَّمَاءِ)[(١)].]

قوله:(إِذَا قَضَى اللَّهُ الأمر) يكونُ هذا القضاءُ بالقولِ كَمَا في قولِهِ تعالى:﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[(٢)]. قوله:(فِي السَّمَاءِ) فيه: إثباتُ العلوِّ للهِ، (ضَرَبَتِ الملائكةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ) (خضعانا) – بِفَتْحَتَيْنِ أَوْ بِضَمٍّ فَسُكُونٍ – وَهُوَ مَفْعُولٌ لِأَجلِهِ : أَيْ : لَا تَثْبُتُ أَفْئِدَتُهُمْ حينما يَسْمَعُونَ كَلَامَهُ، وَتَتَبَدَّى لَهُمْ عَظَمَتُهُ .(كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ) الصَّفْوَانُ : هُوَ الْحَجَرُ الْأَمْلَسُ ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ هُنَا تَشْبِيهُ صَوْتِ اللهِ – عزّ وجلّ – بِصَوْتِ السِّلْسِلَةِ عَلَى الصَّفْوَانِ، وَإِنَّمَا هُوَ تَشْبِيهٌ لِصَوْتِ السَّمَاءِ إِذَا تَكَلَّمَ اللهُ بِالْوَحْيِ، وَقَدْ جَاءَ هَذَا صَرِيحاً فِي سَنَنِ أَبِي داوُدَ عَنْ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ – ﷺ –: « إِذَا تَكَلَّمَ اللَّهُ بِالْوَحْيِ سَمِعَ أَهْلُ السَّمَاءِ لِلسَّمَاءِ صَلْصَلَةً كَجَرِّ السِّلْسِلَةِ عَلَى

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن– باب قوله: {إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين} (٤٧٠١).

(٢) سورة البقرة الآية: ١١٧.

الصَّفَا فَيُصْعَقُونَ فَلا يَزَالُونَ كَذَلِكَ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ جِبْرِيلُ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ جِبْرِيلُ فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ». قَالَ: «فَيَقُولُونَ: يَا جِبْرِيلُ مَاذَا قَالَ رَبُّكَ فَيَقُولُ: الْحَقَّ فَيَقُولُونَ: الْحَقَّ الْحَقَّ »[1] .

(يَنْفُذُهُمْ ذَلِكَ) أي: يبلغُ إلى قلوبِهِم، (فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ السَّمْعِ) أَي: يَسْمَعُ الْكَلِمَةَ الَّتِي تَتَكَلَّمُ بِهَا الْمَلائِكَةُ. وَمُسْتَرِقُ السَّمْعِ: هُوَ الشَّيْطَانُ، وَسَمَّاهُ مُسْتَرِقَ السَّمْعِ؛ لأَنَّهُ يَخْتَلِسُ الْكَلامَ اخْتِلاسًا، كَقَوْلِهِ تعالَى: ﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾[2] قولُهُ: (وَمُسْتَرِقُ السَّمْعِ هَكَذَا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ) أَي: يركبُ بَعْضَهُ بَعْضاً، (وَصَفَهُ سُفْيانُ) أَي: ابن عيينةَ.قوله:(بِكَفِّهِ، فَحَرَّفَهَا وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصابِعِهِ) حَرَّفَهَا أَي: أَمَالَهَا، وَبَدَّدَ أَي: فَرَّقَ بَيْنَهَا،(فَيَسْمَعُ الْكَلِمَةَ) أَي : الْمُسْتَرِقُ الْأَقْرَبُ إِلَى السَّمَاءِ(فَيُلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الآخَرُ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، حَتَّى يُلْقِيَهَا عَلَى لِسَانِ السَّاحِرِ أَوْ الكَاهِنِ) وَفِيه: أَنَّ السَّاحِرَ وَالْكَاهِنَ مَصْدَرُهُمَا وَاحِدٌ وَهُوَ الشَّيْطَانُ ، **قَالَ تَعَالَىٰ:** ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴾[3].

قوله: (فَرُبَّمَا أَدْرَكَهُ الشِّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا) **الشِّهَابُ:** هُوَ جُزْءُ النَّجْمِ، وَقَدْ كَانَتْ الشَّيَاطِينُ تَسْتَرِقُ السَّمْعَ قَبْلَ الْبعثةِ فَلَمَّا بُعِثَ النَّبِيُّ عَلَيه الصَّلاةُ وَالسّلامُ شُدِّدَ عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ، فَلَمَّا مَاتَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم صَارَتْ تَسْتَمِعُ فَيَقْذِفُ اللهُ عَلَيهَا الشِّهَابَ، فَإِمَّا أَنْ يُدْرِكَهَا أَوْ لا، بِحَسَبِ حِكْمَتِهِ سبحانه. قَوْلُهُ:(وَرُبَّمَا القَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ) وَهَذَا مِنَ ابْتِلاءِ اللهِ عزَّ وَجَلَّ لِعِبَادِهِ، وَلَوْ شَاءَ مَا اسْتَرقُوا كَلِمَةً قَوْلُهُ: (فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَة كَذْبَةٍ) فَاعِلُ يَكْذِبُ ضَمِيرٌ مُسْتَتِرٌ تَقْدِيرُهُ هُوَ، يَعُودُ إِلَى الْكَاهِنِ، وَقَدْ جَاءَ صَرِيحاً عِنْدَ الْبُخَارِيِّ فِي قَوْلِهِ "فَتُوحِيهِ إِلَى الْكُهَّانِ فَيَكْذِبُونَ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ"

---

(١) أخرجه أبو داود، باب فِي الْقُرْآنِ،برقم: (٤٧٤٠)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود.

(٢)سورة الصافات الآية: ١٠.

(٣)سورة الشعراء الآية: ١٢١-١٢٣.

قولُهُ: (مِائَةَ كَذْبَةٍ) هَذَا عَلَى سَبِيلِ الْمُبَالَغَةِ لَا الْحصْرِ،(فَيُقَالُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا ؟) هذا شأن العامة والدهماء يتبعون صاحب الباطل أو من غلب عليه الباطل لأنه أصاب في مسألة ما أما أهل العلم فإن إصابة صاحب الباطل الحق مرةلا تحملهم على قبول الباطل الذي عنده فالواجب أن ينظر إلى غالب حال الشخص أو الطائفة وإنه لا يمكن أن تخلو طائفة من شيء من الحق كما أن كثرة الباطل الذي عندهم لا يحملنا على جحد الحق الذبي عندهم قولهُ: (كَذَا وَكَذَا) الأولى كِنَايَةٌ عَنِ التَّارِيخِ ، وَالثَّانِيَةُ كِنَايَةٌ عَنِ الْحدَثِ،(فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ)، وَفِي هذهِ الجُمْلَةِ مِنَ الْفَوَائِدِ: قَبُولُ النَّفوس لِلْبَاطِلِ وَحُبُّهَا لَهُ، إِلَّا مَنْ عَصَمَهُ اللهُ ، وَفِيهَا أَنَّ الْبَاطِلَ إِذَا كَانَ فِيه نَوْعُ حقٍّ أَخْطرُ مِنَ الْبَاطِلِ الْمَحْضِ؛ لِمَا يَحْصُلُ بِهِ مِنَ اللَّبْسِ عَلَى ضعفاءِ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [وَعَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (إِذَا أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُوحِيَ بِالأمرِ؛ تَكَلَّمَ بِالْوَحْيِ؛ أَخَذَتِ السَّمَوَاتِ مِنْهُ رَجْفَةٌ (أَوْ قَالَ رِعْدَةٌ شَدِيدَةٌ) خَوْفًا مِنَ اللَّهِ عز وجل فَإِذَا سَمِعَ ذَلِكَ أَهْلُ السَّمَوَاتِ؛ صَعِقُوا وَخَرُّوا لِلَّهِ سُجَّدًا، فَيَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جِبْرِيلُ فَيُكَلِّمُهُ اللَّهُ مِنْ وَحْيِهِ بِمَا أَرَادَ، ثُمَّ يَمُرُّ جِبْرِيلُ عَلَى الْمَلَائِكَةِ، كُلَّمَا مَرَّ بِسَمَاءٍ، سَأَلَهُ مَلَائِكَتُهَا مَاذَا قَالَ رَبُّنَا يَا جِبْرِيلُ ؟ فَيَقُولُ " قَالَ الحَقَّ، وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ فَيَقُولُونَ كُلُّهُمْ مِثْلَ مَا قَالَ جِبْرِيلُ، فَيَنْتَهِي جِبْرِيلُ بِالْوَحْيِ إِلَى حَيْثُ أَمَرَهُ اللَّهُ عز وجل)[(١)].]

هَذَا الْحدِيثُ أَخْرَجَهُ ابن أَبِي عَاصِمٍ فِي السُّنَّة وَابن خزيمَةَ فِي التَّوْحِيدِ وَأَبُو زرعة فِي تَارِيخِهِ[(٢)]وَقَدْ ضَعَّفَهُ الألباني وَقَال فِيه عِلَّتَانِ الأولى: نُعيم بْنُ حَمَّاد الْخُزَاعِي شَيْخُ الْبُخَارِيِّ – وَلَمْ يَرْوِ لَهُ الْبُخَارِيُّ إِلّا مَقْرُونًا؛ لِأَنَّه كَانَ سَيءَ الْحِفْظِ مَعَ جَلالَتِهِ -. الثَّانِيَةُ : فِيه الْوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ وَهُوَ مدلِّسٌ)[(٣)].

---

(١) أخرجه مُحَمَّد بن نصر المروزي في «تعظيم قدر الصلاة»وذكره الهيثمّي في «مجمع الزوائد» (٢١٣/٧)،

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة: (٥١٥)، وابن خزيمة في التَّوحيد برقم: (١٩٧) ط:"دار الآثار"، وأبوزرعة في تاريخه (٦٢١/١).

(٣) ضعفه الألباني في تخريج السنة لابن أبي عاصم (٢٢٧/١) –بتصرف-.

لَكِن جاءت أحاديث صحيحة تشهد لمتنه منها الجديث السابق فهو وإن ضعف إسناده فالمتن صحيح.

[١٧]

بَابُ الشَّفَاعَةِ

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ، قَالَ الشَّيْخُ صَالِحُ آلُ الشَّيْخِ – حفظه الله- :(وَإِيرَادُ هَذَا الْبَاب بَعْدَ الْبَابَيْنِ قبلَهُ مُنَاسِبٌ جداً)[١] وذَلِكَ لأَنَّ الإمام – رَحِمَهُ اللهُ – أَقَامَ فِي الأبواب السَّابِقَةِ الْبَرَاهِينَ وَالْأدلة عَلَى التَّوْحِيدِ، وَبُطلَانِ الشِّرْكِ، ثُمَّ عَقَدَ الْمُؤَلِّفُ هَذَا الْبَابَ لِيَدْحَضَ شُبَهَ الْقَوْمِ، وَأَقْوَى مَا يتمسكون به الشَّفَاعَةُ الَّتِي يَتَعَلَّقُ بِهَا مُشْرِكُو هَذَا الزَّمانِ اقتداءً بِسَلَفِهِمْ.قال تعالى﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [سورة يونس]

وَالشَّفَاعَةُ لُغَةً : مِنْ شَفَعَ يَشْفَعُ إِذَا جَعَلَ الْوَاحِدَ اثْنَينِ، **وَشَرْعاً**: هِيَ التَّوَسُّطُ لِلْغَيْرِ بِجَلْبِ الْخَيْرِ أَوْ دَفعِ الضَّيْرِ.

و الناس تجاه الشفاعة ثلاثة أصناف : الغلاة في إثباتها وهم المشركون حتى طلبوها ممن لا يملكها والجفاة وهم من نفى الشفاعة مطلقا وهم الخوارج والمعتزلة وأهل السنة أثبتوا الشفاعة المثبتة وتفوا الشفاعة المنفية

فهي عندهم قِسْمَانِ: **الأولى**: الشَّفَاعَةُ الْمَنفِيَّةُ وَهِي الَّتِي تُطْلَبُ مِنْ غير اللهِ، أو تطلب من الله لكن لم تستوف الشروط **والثَّانِيَةُ**: الشَّفَاعَةُ الْمُثبتَةُ: وَهِي الَّتِي تُطْلُبُ مِنَ اللهِ. **وَالشَّفَاعَةُ الْمُثبتَةُ سِتَّةُ أَنْوَاع** ، يَخْتَصُّ رَسُولُ اللهِ ﷺ بثَلاثَةٍ مِنْهَا، وثَلاثَةٌ لِسَائِرِ الْأنبياءِ وَالْمُرْسَلِينَ وَالأولياءِ وَالصَّالِحِينَ، **فَأَمَّا الَّتِي يَخْتَصُّ بِهَا الرَّسُولُ ﷺ فَالأولى** الشَّفَاعَةُ الْعُظْمَى وهِيَ الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ وَتَكُونُ لِأَهْلِ الْمَوْقِفِ حِينَ يَسْتَشْفِعُونَ بِهِ لِيَقْضِيَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ وَفِيهَا:حَدِيثُ الشَّفَاعَةِ الطَّوِيلُ وَهُوَ فِي الْبُخَارِيّ وَمُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْه.

---

(١) التمهيد لشرح كتاب التَّوحيد، ص:١/٢٩١.

والثَّانِيةُ : شَفَاعَتُهُ ﷺ لأهلِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَدْخُلُوها. واسْتُدَلَّ لهَا بِحديثِ أنسٍ ﷺ قالَ قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ :" آتِي بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَسْتَفْتِحُ فَيَقُولُ الْخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ، فَيَقُولُ: بِكَ أُمِرْتُ، لا أَفْتَحُ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ [١]

الثَّالِثَةُ: شَفَاعَتُهُ فِي عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ بِتَخْفِيفِ الْعَذَابِ عَنْهُ . كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ ﷺ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ « لَعَلَّهُ تَنْفَعُهُ شفاعتي يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُجعَلُ فِي ضَحْضاحٍ مِنَ النَّارِ يَبْلُغُ كَعْبيهِ يَغْلِي مِنه أُمُ دِماغِهِ » يَعْنِي أَبَا طَالِبٍ.مُتَّفَقٌ عَلَيه.

وَأَمَّا الثَّلاثَةُ الْعَامَّةُ: **فَالأولى**: شَفَاعَتُهُمْ فِي رَفْعِ دَرَجَاتِ أَهلِ الْجَنَّةِ وَذَكَرَهَا الْمُفَسِّرُونَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى:﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾[٢].ورَوَى ابن جَرِيرٍ بِسَنَدِهِ إِلَى ابن عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِي ﷺ قَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ قَالَ: (إِنَّ الله لَيَرْفَعُ ذُرِّيَّةَ الْمُؤْمِنِ إِلَيه فِي دَرَجَتِهِ، وَإِنْ كَانُوا دونَهُ فِي الْعَمَلِ)

وَالثَّانِيَةُ: شَفَاعَتُهُمْ فِي مَنَ اسْتَحقَّ النَّارَ مِنْ أَهْلِ التَّوْحِيدِ ألاَّ يدخُلها. اسْتَدَلَّ لَهُ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ بِحَدِيثِ الشَّفَاعَةِ الطَّوِيلِ وَفِي بَعْضِ رِوَايَاتِهِ كَمَا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ " وَنَبِيُّكُمْ قَائِمٌ عَلَى الصِّرَاطِ يَقُولُ رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ حَتَّى تَعْجَزَ أَعْمَالُ الْعِبَادِ حَتَّى يَجِيءَ الرَّجُلُ فَلَا يَسْتَطِيعُ السَّيْرَ إِلّا زَحْفاً قَالَ وَفِي حافَّتَي الصِّرَاطِ كَلاليبُ مُعَلَّقَةٌ مَأْمُورَةٌ بِأَخْذِ مَنْ أُمِرَتْ بِهِ فَمخدُوشٌ نَاجٍ ومكدوسٌ فِي النَّارِ وَالشَّاهِدُ مِنَ الْحديثِ دُعَاؤُهُ مَعَ قَوْلِهِ اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ حَتَّى تَعْجزَ أَعْمَالُ الْعِبَادِ ثُمَّ بَعْدَ ذَلِك ذَكَرَ مِنْهُمْ نَاجٍ

وَالثَّالِثَةُ : شَفَاعَتهُمْ فِي مَنْ دَخَلَ النَّارَ مِنْ أَهْلِ التَّوْحِيدِ أَنْ يَخْرُجَ مِنْهَا، فَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهُ ﷺ: " إِذَا خَلُصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَمِنُوا، فَمَا مُجَادَلَةُ أَحَدِكُمْ لِصَاحِبِهِ فِي الْحَقِّ يَكُونُ لَهُ فِي الدُّنْيا بِأَشَدَّ مُجَادَلَةً لَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لِرَبِّهِمْ، فِي إِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ ادْخِلُوا النَّارَ قَالَ: يَقُولُونَ:

---

(١) رواه مسلم ١٩٧.

(٢) سورة الطور الآية: ٢١.

رَبَّنَا ! إِخْوَانُنَا كَانُوا يُصلُّونَ مَعَنَا وَيَصُومُونَ مَعَنَا وَيَحُجُّونَ مَعَنَا، فَأَدْخَلْتَهُمُ النَّارَ قَالَ: فَيَقُولُ: اذْهَبُوا فَأَخْرِجُوا مَنْ عَرَفْتُم، فَيَأْتُونَهُمْ، فَيَعْرِفُونَهُمْ بِصُورِهِمْ، لَا تَأْكُلُ النَّارُ صُورَهُمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ النَّارُ إِلَى أَنْصَافِ سَاقَيهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ النَّارُ إِلَى كَعْبَيهِ، فَيُخْرِجُونَهُمْ، فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا! أَخرَجْنَا مَنْ أَمَرْتَنَا. ثُمَّ يَقُولُ: أَخْرِجُوا منْ كَانَ فِي قَلْبِهِ وَزْنُ دِينارٍ مِنَ الْإِيمَانِ، ثُمَّ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ وَزْنُ نِصْفِ دِينارٍ مِنَ الْإِيمَانِ، حَتَّى يَقُولَ: مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ – قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: فَمَنْ لَمْ يُصَدِّقْ بِهَذَا فَلْيَقْرَأْ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾[سُورَةُ النِّسَاءِ] قَالَ: فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا! قَدْ أَخْرَجْنَا مَنْ أَمَرْتَنَا، فَلَمْ يَبْقَ فِي النَّارِ أَحَدٌ فِيه خَيْرٌ. قَالَ: ثُمَّ يَقُولُ اللهُ : شَفَعَتِ الْمَلائِكَةُ وَشَفَعَ الْأَنبياءُ وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ وَبَقِي أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ. قَالَ: فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ – أَوْ قَالَ: قَبْضَتَيْنِ – نَاساً لَمْ يَعْمَلُوا لله خَيْراً قَطُّ ، قَدْ احْتَرَقُوا حَتَّى صَارُوا حَمَماً. قَالَ: فَيُؤْتَى بِهِمْ إِلَى مَاءٍ يُقَالُ لَهُ: مَاءُ الْحَيَاةِ فَيُصَبُّ عَلَيهِمْ ، فَيَنْبُتُونَ كَمَا تَنْبُتُ الحِبَّة فِي حَمِيلِ السَّيْلِ، فَيَخْرُجُونَ مِنْ أَجْسَادِهِمْ مِثْلُ اللُّؤْلُؤِ ، فِي أَعْنَاقِهِمْ الْخَاتَمُ: عتقاءُ الله، قَالَ: فَيُقَالُ لَهُمْ: اُدْخُلُوا الْجَنَّةَ، فَمَا تَمَنَّيْتُم أَوْ رَأَيْتُم مِنْ شيءٍ فَهُوَ لَكُمْ، عندي أفْضَلُ مِنْ هَذَا. قَالَ: فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا! وَمَا أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ ؟ قَالَ : فَيَقُولُ : رِضَائِي عَلَيكُمٍ فَلَا أَسْخَطُ عَلَيكُمْ أَبَدًا ". أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ وَالنَّسَائِيُّ وَصَحَّحَهُ الألباني.

قَالَ الإمامُ – رحِمَهُ اللهُ – [وقول الله عز وجل: ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾[1]]

قولُهُ :(وَأَنْذِرْ بِهِ) **الْإِنْذارُ**: هُوَ إِعْلامٌ مَعَ التَّخْوِيفِ، و (بِهِ) الضَّمِيرُ يَعُودُ إِلَى الْقُرْآنِ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾[1].(الَّذِينَ) اسم مَوْصُولٍ فِي محلّ نصبٍ مَفْعُولٌ بِهِ لأنذر

(١) سورة الأنعام الآية: ٥١.

،(أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ) الْمَصْدَرُ المؤول مَفْعُولٌ بِهِ لِيَخَافُونَ ، وَالتَّقْديرُ: وَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ الَّذِينَ يَخَافُونَ الْحَشْرَ، وَإِنَّمَا خَصَّ هَؤُلَاءِ بِالْإِنْذارِ؛ لِأَنَّهُمْ هُمْ الَّذِينَ يَنْتَفِعُونَ، وَلَا تَعَارُضَ بَيْنَ هَذِهِ الْآيَةِ، والآيات الَّتِي فِيهَا الْإِنْذارُ الْعَامُّ قوله: (لَيْسَ لَهُمْ مَنْ دونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ) هَذِهِ الْجُمْلَةُ حالِيَّةٌ ،(وَلِيٌّ) أَي: نَاصِرٌ ، أَي: لَيْسَ لَهُمْ شَفِيعٌ وَلَا نَاصِرٌ غَيْرَ اللَّهِ،(لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) لَعَلَّ: هُنَا حَرْفُ تَعْلِيلٍ، أَي: أَنْذِرْهُمْ مِنْ أَجْلِ أَنْ يَتَّقُوا رَبَّهُمْ.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[وقول الله تعالى: ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَـٰعَةُ جَمِيعًا ﴾[2]]

قبلَ هذِهِ الآيةِ قولُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـًٔا وَلَا يَعۡقِلُونَ ﴾[3]. (أَمْ) هُنَا مُنْفصلةٌ بمعَنَى بلْ، أي: بلْ اتخذُوا مِن دونِ اللهِ شُفعاءَ،(قُلْ أَوَلُوا كَانُوا لَا يَمْكُونَ شيئاً وَلَا يَعْقِلُونَ) الاسْتِفْهامُ هُنَا إِنْكارِي تَوْبِيخِي، أَي: كَيْفَ يَطْلُبُونَ مِنْهُمْ مَا لَا يَمْلِكُونَ، (وَلَا يَعْقِلُونَ) أَيْ: لَا يعْقِلُونَ طَلَبَكُمْ، فَهُمْ غَافِلُونَ عَنْه. ثُمَّ قَالَ تعَالَى: ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَـٰعَةُ جَمِيعًا ﴾[4] أَي: لَا أحدَ غيره يملكُ من الشفاعة شيئا لأنَّهُ أكَّدَ عمومَ ملكِهِ للشفاعةِ بقولِهِ جميعاً

يقَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[وقوله: ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ ﴾[5]]

الْاسْتِفْهامُ هُنَا إِنْكارِي بِمَعنَى النَّفْي، أَي: لَا أَحَدَ يَجرؤ على الشَّفَاعَةِ عِنْدَه إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَأْذَنَ لَهُ، وهذا من الفروق بين الشفاعة والشفاعة عند غيره وَهَذَا لكمالِ سُلْطَانِهِ وَعَظِيمِ مَلَكُوتِهِ.ومن الفروق بينهما

(١) سورة ق الآية: ٤٥.

(٢)سورة الزمر الآية: ٤٤.

(٣)سورة الزمر الآية: ٤٣.

(٤)سورة الزمر الآية: ٤٤.

(٥)سورة البقرة الآية: ٢٢٥.

أن الشفاعة عند المخلوق تحركه إلى فعل ما لا يريد فعله فقد يقبل الشفاعة مضطرا ومكرها بل قد ذلك لحاجته للشافع وكل ذلك منتف في الشفاعة عند الله تبارك وتعالى. وَذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَحَدَ شَرْطِي الشَّفَاعَةِ وَهُوَ: الْإِذْنُ لِلشَّافِعِ، وَلَا يَكُونُ هَذَا الْإِذْنُ إلّا بَعْدَ الرِّضا عَنِ الْمَشْفُوعِ له.

قَالَ الإمامُ – رحمهُ اللهُ – [وقوله تعالى: ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴾[(١)]]

قوله: (وَكَمْ) كَمْ: خَبَرِيَّةٌ تُفِيدُ التَّكْثِيرَ، قَالَ ابن كَثِيرٍ – رَحِمَهُ اللهُ –:(إِذَا كَانَ هَذَا فِي حَقّ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ فَكَيْفَ تَرْجُونَ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ شَفَاعَةَ هَذِهِ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ عِنْدَ اللهِ)[(٢)] أ.هـ وَاشْتَمَلَتْ الْآيَةُ عَلَى شرْطي **الشَّفَاعَةِ الْمُثْبَتَةِ وَهُمَا**: الْإِذْنُ لِلشَّافِعِ. وَالرِّضا عَنِ الْمَشْفُوعِ له.

قَالَ الإمامُ – رحمهُ اللهُ – [وقوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ﴾[(٣)].]

قَالَ ابن الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ تعَالَى فِي الْكَلامِ عَلَى هَذِهِ الآيَاتِ :(وَقَدْ قَطَعَ اللهُ الْأَسْبَابَ الَّتِي يَتَعَلَّقُ بِهَا الْمُشْرِكُونَ جَمِيعَهَا فَالْمُشْرِكُ إِنَّمَا يَتَّخِذُ مَعْبُودَهُ لِمَا يَحْصُلُ لَهُ مِنَ النَّفْعِ ، وَالنَّفْعُ لَا يكُونُ إلّا مِمَّنْ فيه خَصْلَةٌ مِنْ هَذِهِ الْأَرْبَعِ: إِمَّا مَالكٌ لِمَا يُرِيدُ عَابِدُهُ مِنْه فَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَالِكًا كَانَ شَرِيكًا لِلْمَالِكِ كَانَ مُعِينا لَهُ وَظَهِيرًا فَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُعِينا وَلَا ظَهِيرًا كَانَ شَفِيعًا عِنْدَه فَنَفَى اللهُ سُبْحَانَه الْمَرَاتِبَ الْأَرْبَعَ نَفيا مرتباً مُنْتَقِلَا مِنَ الْأَعْلَى إِلَى الْأَدْنَى فَنَفَى الْملْكَ وَالشِّرْكَةَ وَالْمُظَاهَرَةَ وَالشَّفَاعَةَ الَّتِي يَطْلُبهَا الْمُشْرِكُ وَأَثْبَتَ شَفَاعَةً لَا نَصِيبَ فِيهَا لِمُشْرِكٍ وَهِي الشَّفَاعَةُ بِإِذْنِه، فَكَفَى بِهَذِهِ الْآيَةُ نُورًا وَبُرْهَانًا وَتَجْرِيدًا لِلتَّوْحِيد

---

(١)سورة النجم الآية: ٢٦.

(٢)تفسير ابن كثير، ٤/٣٠٧.

(٣) سورة سبأ الآية: ٢٢-٢٣.

وَقَطْعاً لِأَصُولِ الشِّرْكِ وَمَوَادِّهِ لَمَنْ عَقِلَهَا وَالْقُرْآنُ مَمْلُوءٌ مِنْ أَمْثَالِهَا وَنظائرِهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْعُرُونَ بِدُخُولِ الْوَاقِعِ تَحْته وَتضَمُّنِهِ لَهُ وَيَظُنُّونَهَا فِي نَوْعٍ و قَوْمٍ قَدْ خَلَوَا مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يُعقِّبُوا وَارِثًا فَهَذَا هُوَ الَّذِي يَحُولُ بَيْنَ الْقَلْبِ وَبَيْنَ فَهْمِ الْقُرْآنِ، وَلَعَمْرُ اللهِ إِنْ كَانَ أُولَئِكَ قَدْ خَلَوَا فَقَدْ وِرثَهُمْ من هُوَ مِثْلُهُمْ أَوْ شَرٌّ مِنْهُمْ أَوْ دونَهُمْ وَتناوُلُ الْقُرْآنِ لهُمْ كَتَنَاوُلِهِ لِأُولَئِكَ)(١).

قَالَ الإمَامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[(قَالَ أَبُو العَبَّاسِ: "نَفَى اللَّهُ عَمَّا سِوَاهُ كُلَّ مَا يَتعَلَّقُ بِهِ المُشْرِكُونَ، فَنفَى أَنْ يَكُونَ لِغَيْرِهِ مُلْكٌ أَوْ قِسطٌ مِنْهُ، أَوْ يَكُونَ عَوْنًا لِلَّهِ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الشَّفَاعَةُ، فَبَيَّنَ أَنَّهَا لَا تَنْفَعُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّبُّ؛ كَمَا قَالَ : ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾(٢) ، فَهَذِهِ الشَّفَاعَةُ التِي يَظُنُّهَا المُشْرِكُونَ هِيَ مُنْتَفِيَةٌ يَوْمَ القِيَامَةِ؛ كَمَا نَفَاهَا القُرْآنُ، وَأَخْبَرَ النَّبي ﷺ أَنَّهُ يَأْتِي فَيَسْجُدُ لِرَبِّهِ وَيَحْمَدُهُ – لَا يَبْدَأ بِالشَّفَاعَةِ أَوَّلاً – ثُمَّ يُقَالُ لَهُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ)(٣). وَقَالَ لَهُ أَبُو هُرَيْرَةَ – رضي الله عنه – :(مَنْ أَسْعَدُ النَّاس بِشَفَاعَتِكَ؟ قَالَ "مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ)(٤) فَتِلْكَ الشَّفَاعَةُ لأَهْلِ الإِخْلَاصِ بِإِذْنِ اللَّهِ، وَلَا تَكُونُ لِمَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ، وَحَقِيقَتُهُ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ هُوَ الذِي يَتَفَضَّلُ عَلَى أَهْلِ الإِخْلَاصِ، فَيَغْفِرُ لَهُمْ بِوَاسِطَةِ دُعَاءِ مَنْ أَذِنَ لَهُ أَنْ يَشْفَعَ؛ لِيُكْرِمَهُ، وَيَنَالَ المَقَامَ المَحْمُودَ، فالشَّفَاعَةُ التِي نَفَاهَا القُرْآنُ مَا كَانَ فِيهَا شِرْكٌ، وَلِهَذَا

(١) مدارج السالكين: ٣٤٣/١، دار الكتاب العربي – بيروت، ط ، ١٣٩٣ – ١٩٧٣، ت : محمد حامد الفقي.

(٢) سورة الأنبياء الآية:٢٨.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب التّوحيد- باب قول الله تعالى: {لِمَاخَلَقْتُ بِيَدَيَّ} (٧٤١٠)،ومسلم في كتاب الإيمان- باب أدنى أهل الجنَّة منزلة فيها (١٩٣)،من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب العلم- باب الحرص على الحديث (٩٩).

أَثْبَتَ الشَّفَاعَةَ بِإِذْنِهِ فِي مَوَاضِعَ وَقَدْ بَيَّنَ النَّبِي ﷺ أَنَّهَا لَا تَكُونُ إِلَّا لأَهْلِ الإِخْلَاصِ وَالتَّوحِيد".

انْتَهَى كَلَامُهُ رحمه الله)] (١)

قوله: (قال أَبُو العَبَّاسِ) هُوَ شَيْخُ الْإِسْلامِ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الْحَلِيمِ بنِ عَبْدِ السّلامِ بْن تَيمِيَّةِ الْحَرَّانِي، مَاتَ أَعْزَبَ لَا رَغْبَةً عَنِ السُّنَةِ لَكِنْ انْشِغالاً بِالْعِلْمِ وَالْجِهادِ ، وَلِدُ سَنَةَ : ٦٦١هـ ، وَمَاتَ سَنَةَ ٧٢٨هـ.

(نَفَى اللَّهُ عَمَّا سِوَاهُ كُلَّ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ المشْرِكُونَ، فَنَفَى أَنْ يَكُونَ لِغَيْرِهِ مُلْكٌ) أي: مِلْكٌ تامٌ، (أَوْ قِسْطٌ مِنْهُ) أي: نصيبٌ يعني: شريكٌ، (أَوْ يَكُونَ عَوْنًا لِلَّهِ) أي: يكون غير اللهِ مساعداً وظهيراً، (وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الشَّفَاعَةُ، فَبَيَّنَ أَنَّهَا لَا تَنْفَعُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّبُّ؛ كَمَا قَالَ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ ، فَهَذِهِ الشَّفَاعَةُ التِي يَظُنُّهَا المشْرِكُونَ هِيَ مُنْتَفِيَةٌ يَوْمَ القِيَامَةِ؛ كَمَا نَفَاهَا القُرْآنُ)

الشَّفَاعَةُ الَّتِي نَفَاهَا الْقُرْآنُ هِي الَّتِي تُطْلَبُ مِنْ غَيْرِ اللهِ أَوْ هِي الَّتِي لَا تَشْتَمِلُ عَلَى شَرْطِي الشَّفَاعَةِ الْمُثْبَّتَةِ. وَأَخْبَرَ النَّبِي ﷺ (أَنَّهُ يَأْتِي فَيَسْجُدُ لِرَبِّهِ وَيَحْمَدُهُ - لَا يَبْدَأ بِالشَّفَاعَةِ أَوّلاً - ثُمَّ يُقَالُ لَهُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ)،وهَذا الخبرُ ثابتٌ في الصحيحينِ(٢). قال شيخ الإسلام (وَقَالَ لَهُ أَبُو هُرَيْرَةَ: (مَنْ أَسْعَدُ النَّاس بِشَفَاعَتِكَ ؟ قَالَ "مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ").وهَذَا الْخَبَرُ - أيضاً - ثَابَتْ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ مِنْ حَديثِ أَبِيَ هُرَيْرَةَ - رضي الله عنه- (٣). وأسعد الناس بشفاعتك معناها من الذي يسعد بشفاعتك؟.

قَالَ ابن الْقَيِّمِ - رَحِمَهُ اللهُ -:(فَتَأْملْ هَذَا الْحَديثَ كَيْفَ جَعَلَ أَعظَمَ الْأَسْبَابِ الَّتِي تُنَالُ بِهَا شَفَاعَتُهُ تَجْرِيدَ التَّوْحِيدِ عَكْسَ مَا عِنْدَ الْمُشْرِكِينَ، وأَنَّ الشَّفَاعَةَ تُنَالُ بِاتِّخَاذِهِمْ الشُّفعاءَ وَعِبَادَتِهِمْ، وَمُوالاتِهِمْ ، فَقَلَبَ النَّبِيُّ ﷺ مَا فِي زَعْمِهِمْ الْكَاذِبِ، وَأَخْبَرَ أَنَّ سَبَبَ الشَّفَاعَةِ تَجْرِيدُ التَّوْحِيدِ فحينئذٍ يُؤْذَنُ لِلشَّافِعِ

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٧٧/٧).

(٢) هذا الحديث المذكور قطعة من حديث الشفاعة الطويل، أخرجه البخاري برقم: (٧٥١٠)، ومسلم برقم: (١٩٣).

(٣) أخرجه البخاري.

أَنْ يَشْفَعَ)[1]. قال الإمام: (فَتِلْكَ الشَّفَاعَةُ لأهْلِ الإِخْلَاصِ بِإِذْنِ اللَّهِ، وَلَا تَكُونُ لِمَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ) (وَحَقِيقَتُهُ) أي: حقيقةُ أمرِ الشَّفَاعةِ، (أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ هُوَ الذِي يَتَفَضَّلُ عَلَى أَهْلِ الإِخْلَاصِ، فَيَغْفِرُ لَهُمْ بِوَاسِطَةِ دُعَاءِ مَنْ أَذِنَ لَهُ أَنْ يَشْفَعَ؛ لِيُكْرِمَهُ، وَيَنَالَ المقَامَ المحْمُودَ. فَالشَّفَاعَةُ التِي نَفَاهَا القُرْآنُ مَا كَانَ فِيهَا شِرْكٌ، وَلِهَذَا أَثْبَتَ الشَّفَاعَةَ بِإِذْنِهِ فِي مَوَاضِعَ وَقَدْ بَيَّنَ النَّبي ﷺ أَنَّهَا لَا تَكُونُ إِلَّا لأَهْلِ الإِخْلَاصِ وَالتَّوحيد.) أ. هـ.

(١)مدارج السالكين، ٣٤١/١، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الثانية ، ١٣٩٣ – ١٩٧٣، تحقيق : مُحَمَّد حامد الفقي.

[١٨]

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[بابُ قَوْلِ اللَّه تَعالَى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾[(١)].]

مُناسَبَةُ الْبابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ: أَنَّ الإمام – رَحِمَهُ اللهُ - بَيَّنَ فِي الْبابِ السَّابِقِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لا يَمْلِكُ الشَّفَاعَةَ، وَهُنا يُبَيِّنُ أَنَّ النَّبي ﷺ لا يَمْلِكُ هِدَايَةَ الْقلوب، مَعَ أَنَّه أَفْضَلُهُمْ وَأَعْظَمُهُمْ جاهاً عِنْده فإِذا نَفى اللَّهُ عَنْ نَبِيِّهِ ﷺ مِلْكَ الْهِدَاية فَغَيْرُهُ مِنْ بَابِ أَوْلَى. قَوْلُهُ:(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مِنْ أَحْبَبْتَ) صَرِيحٌ فِي نَفْيِ مُلْكِ النَّبي ﷺ لِهِدَايَةِ الْقلُوبِ، قَوْلُهُ:(وَلَكِنَّ الله يهْدِي مَنْ يَشَاءُ) وكُلُّ فِعْلٍ يُقْرَنُ بِالْمَشِيئَةِ ، يَكُونُ ذَلِكَ عَلَى مُقْتَضى حِكْمَتِهِ.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[وَفِي الصَّحِيحِ [(٢)] عن ابنِ الْمُسَيَّبِ، عَنْ أَبِيهِ؛ قَالَ: (لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبِ الوَفَاةُ؛ جاءَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَعِنْدَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ وَأَبو جَهْلٍ، فَقَالَ لَهُ يا عَمِّ قُلْ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كَلِمَةً أحاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ فَقَالَا لَهُ أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ المُطَّلِبِ ؟ فَأَعادَ عَلَيْهِ النَّبي ﷺ فَأَعَادَا، فَكَانَ آخرَ مَا قَالَ هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ المُطَّلِبِ، وَأَبَى أَنْ يَقُولَ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَقَالَ النَّبي ﷺ " لاستغفِرنَّ لَكَ ما لَمْ أنهَ عنْكَ ". فَأَنزَلَ اللَّه عزوجل : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ ﴾[(٣)].وأنزل في أبي طالبٍ: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾.]

(١) سورة القصص الآية: ٥٦.

(٢) أخرجه البخاري برقم: (١٣٦٠، ٣٨٨٤) ومسلم برقم: (٢٤).

(٣) سورة التوبة الآية: ١١٣.

قوله:(عن ابن الْمُسَيَّبِ) : هُوَ سَعِيد بْنُ المسيَّبِ بْنِ حَزَنٍ، أَبُوه وَجَدُّهُ كِلَاهُمَا مِنَ الصَّحَابَةِ.(أَبَا طَالِبٍ) أَبُو طَالِبٍ هُوَ عَمُّ النَّبِيِّ ﷺ، دَافَعَ عَنْه ثَمَانِيَةَ سِنِيْن بَعْدَ الْبعثةِ،(حَضَرَتْ الْوَفَاةُ) أَي: عَلامَاتُهَا.

قوله:(جَاءَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ) يعودُهُ الْعِيَادَةُ أَخصُّ مِنَ الزِّيَارَةِ، فَهِي تَكَونُ لِلْمَرِيضِ سُميتْ عيادة؛ لأَنَّهَا تَتَكَرَّرُ، وَفِيه حُسنُ خُلُقِهِ ﷺ، وَفِيه زِيارَةُ الْمُشْرِكِ لَا سيّما إِنْ كَانَ مِن ذوي الْأَرْحَام،قوله:(وَعِنْدَه عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أميَّةَ) وَكَانَ يَوْمَئِذٍ مُشْرِكًا وَهُوَ مِنْ مَسلمَةِ الْفَتْحِ،(وَأَبُو جَهْلٍ) عَمْرو بْنُ هِشَامٍ زَعِيمُ الْكُفْرِ، قُتِلَ يَوْمُ بَدْرٍ(فَقَالَ لَهُ يا عَمِّ) فِيه: التَّلَطُّفُ بِالْمَدْعُو، وَفِيه: الْأَدَبُ فِي مُخَاطَبَةِ الْكَبِيرِ،(قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كَلِمَةً) بِالنَّصْبِ عَلَى أَنَّهَا بَدَلٌ مِنْ لَا إِلَهَ إِلّا اللهُ ، وَبِالرَّفْعِ عَلَى أَنَّهَا خَبَرٌ لِمُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ هِي كَلِمَةٌ.

قَوْلُهُ:(أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ) فِيه: فَضِيلَةُ كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ، وَأَنَّ مَنْ قَالَهَا اسْتَحَقَّ أَنْ يُحَاجَّ عَنْهُ. وَفِي رِوَايَةِ مُسْلِمٍ:(أَشهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ) [١] أيضاً: مَنْ قَالَهَا اسْتَحَقَّ أَنْ يُشْهَدُ لَهُ، وَفِيهَا أَنَّ الْأَعْمَالَ بِالْخَوَاتِيمِ، وَفِيها: أَنَّ التَّوْحِيدَ يَنْفَعُ صَاحِبَهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ عَمَلٌ وَذلِكَ عِنْدَ عَدَمِ التَّمَكُّنِ مِنَ الْعَمَلِ. قَولُهُ:(فَقَالَا لَهُ أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ المطَّلِبِ ؟) الْاسْتِفْهامُ هُنا إِنْكَارِي أَيْ كَيْفَ تَزْهَدُ فِي دِينِ أَبِيكَ.(مِلَّةِ عَبْدِ المطَّلِبِ) عَقِيدَتُهُ وَدِينُهُ، وَفِي هَذِهِ الجُمْلَةِ شُؤْمُ وَمَضرَّةُ أَصْحَابِ السُّوءِ، وَفِيهَا: مَضرَّةُ تَقْلِيدِ الْآباءِ والأجدادِ إنْ كانُوا على غيرِ الهدي والسبيلِ، وَهِي الْحُجَّةُ الْمَلْعُونَةُ الَّتِي تَوَارثَهَا الْمُشْرِكُونَ فِي قَدِيمِ الزَّمانِ وَحَدِيثِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾[٢].

(فَأَعَادَ عَلَيْهِ النَّبي ﷺ) فِيه: أَنَّه ينبغي لِلدَّاعِيَةِ أَنْ يَتَحَلَّى بِالصَّبْرِ وَلَا يَضْجَرَ، وَألا يَيْئس وَلَا يَكْتَفِي بِالْمَرَّةِ الْوَاحِدَةِ. (فَأَعَادَا) مَا قَالا: وَفِيهِ: فَهْمُهُمْ لِكَلِمَةِ التَّوْحِيدِ، وَأَنَّهُ لَوْ قَالَهَا لفَارَقَ مِلَّةَ عَبْدِ المطَّلِبِ

---

(١) مسلم برقم: (٢٤).

(٢) سورة الزخرف الآية: ٢٣.

وليسَ المرادُ مجرَّدَ لفظِها.(فكَانَ آخرَ مَا قَال هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ المطَّلِبِ) وفِيه: مَوْتُ أَبِي طَالِبٍ عَلَى الشِّرْكِ. وَ قال أَبُو طَالِبٍ:(أَنَا) لَكِنَّ الرَّاوِي رَوَاهَا بِقولِه:(هُوَ) أنفةً عَنْ حِكَايةِ قَوْلِ أَبِي طَالِبٍ وَاسْتِقْباحاً لِللَفْظِ الْمَذْكُورِ (فقَالَ النَّبي ﷺ:"لاستَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أنْهَ عَنْكَ" هَذَا الخَبَرُ مُؤَكَّدٌ بِثَلاثِ مُؤكِّداتٍ: الْقسَمُ الْمَحْذُوفُ وَاللَّامُ وَالنُّونُ، وَقولُهُ:(مَا لَمْ أَنْهَ عَنْكَ) فِيه: وُقُوفُ النَّبي ﷺ عَلَى حُدودِ الشَّرعِ.فَأَنْزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ:﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ ﴾، هَذِهِ الْقِصَّةُ وقَعَتْ قَبلَ الْهِجْرَةِ والْآيَةُ مَدَنِيَّةٌ، والْمُرادُ أَنَّ أَبَا طَالِبٍ دَاخِلٌ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَلَيْسَ هُوَ سَبَبُ نزولِهَا، وَفِيهَا مِنَ الْفَوائِدِ: شُؤْمُ الشِّرْكِ بِاللهِ، حَيْثُ لَا يَنْفَعُ مَعَه اسْتِغْفارُ رَسُولِ الله ﷺ وفيها تَحْرِيمُ الاسْتِغْفارِ لِلْمُشْرِكِينَ، وفيها صدقُ فَرَاسَةِ النَّبِيِّ ﷺ حَيْثُ نَهاهُ اللهُ وَهُوَ مَا ظَنَّهُ قَبلَ النَّهيِ.وَأَنْزَلَ اللهُ فِي أَبِي طَالِبٍ﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ ﴾هَذِهِ الآيَةُ نَزلَت فِي أَبِي طَالِبٍ خَاصَّةً، وَفِيهَا: تَسْلِيَةٌ لِلنَّبيِّ ﷺ وَتَسْلِيَةٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ آمَنَ بَعْضُ قَوْمِهِ وَكفرَ بَعْضُهُمْ. وَنَفْيُ مُلْكِ الْهِدَايَةِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ هُنَا الْمُرَادُ بِهَا هِدَايَةُ التَّوْفِيقِ، فَالآيَةُ لَا تُعَارِضُ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾(١).لأَنَّ الْهِدَايَةَ الْمُثْبتَةَ هُنَا هِي هِدَايَةُ الْبَيانِ.

وَفِي الْحَدِيثِ مَشْرُوعِيَّةُ أَنْ يُقَالَ لِلْمُحْتَضرِ:(قُلْ: لَا إِلَهَ إِلّا اللهُ) مُسْلِمَا كَانَ أَوْ كَافِرًا، لَكِنْ هَذَا يقيدُ بِحالِ الْمُحْتَضَرِ؛ فيتركها إِذَا لَمْ يَكُنْ متهيئاً لِذَلِكَ، لأَنَّ النَّبي ﷺ عَادَ رَجُلَا مِنَ الْأَنْصارِ – وَهُوَ يَحْتَضِرُ – فَقَالَ:(يا خَالِ قُلْ: لَا إِلَهَ إِلّا اللهُ).فَقَالَ: أَخَالٌ أَمْ عمٌ ؟ فَقَالَ: بَلْ خَالٌ فَقَالَ: فَخَيْرٌ لِي أَنْ أَقُولَ:لَا إِلَهَ إِلّا اللهُ ؟ فَقَالَ النَّبِيّ ﷺ :(نَعَمْ)(٢)

---

(١) سورة الشورى الآية: ٥٢.

(٢) أخرجه أحمد برقم: (١٢١٠٤)، وصححه الألباني في تلخيص أحكام الجنائز، ط٣، ١٤١٠هـ، برقم: (١٤)، ص: ١٠، الناشر: مكتبة المعارف – الرياض.

[١٩]

بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ سَبَبَ كُفْرِ بَنِي آدَمَ وَتَرْكِهِمْ دِينَهُمْ هُوَ الغُلُوُّ فِي الصَّالِحِينَ

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ: أَنَّ الإمام – رَحِمَهُ اللهُ – قَدْ أَقَامَ الْبَرَاهِينَ وَالْأدلة عَلَى وُجُوبِ التَّوْحِيدِ وَدَحْضِ شُبَهِ الْقَوْمِ ، فَلِقَائِلٍ أَنْ يَقُولَ إِذَا كَانَ التَّوْحِيدُ ظاهِراً وَالْأدلةُ عَلَيه قَائِمَةً، وَشُبهُ الْقَوْمِ عَلِيلَةٌ بَلْ مَيْتَةٌ ، فَمَا هُوَ سَبَبُ كُفْرِ بَنِي آدمَ فَكَانَتْ هَذِهِ التَّرْجَمَةُ الَّتِي وقعتْ مِنَ الْكِتابِ مَوْقِعَهَا، فَانْظُرْ يا طَالِبَ الْعِلْمِ فِي تَبْوِيبِ الإمام – رحمه الله – وَعَظِيمِ فِقْهِهِ وَحُسْنِ تَرْتِيبِهِ.

قَولُهُ: فِي التَّرْجَمَةِ وَتَركِهِمْ دِينَهُمْ الْمُرَادُ بِالدِّينِ هُنَا التَّوْحِيدُ.

قَالَ الإمَامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[وقولُ اللهِ عزَّ وجل: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾(١).]

قَولُهُ :(ياأهلَ الْكِتَابِ) هُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى قولُهُ:(لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ) أَي : لَا تَتَجَاوَزُوا الحَدَّ الَّذِي أَمَرَ اللهُ بِهِ. قولُهُ:(وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلّا الحَقَّ) الحَقُّ هُوَ قَوْلُهُ :(إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابن مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ) (إِنَّمَا) أَدَاةُ حَصْرٍ، وَفِي وَصْفِهِ بِأَنَّهُ رَسُولُ اللهِ رَدٌّ عَلَى النَّصَارَى الَّذِينَ قَالُوا هُوَ ابن اللهِ، وَرَدٌّ عَلَى الْيَهُودِ الَّذِين قَالُوا هُوَ ابن زِنا، (وَكَلِمَتُهُ القَاهَا إِلَى مَرْيَمَ) أَي : أَنَّهُ كَانَ بِكَلِمَةِ كُنْ. قولُهُ:(وروحٌ مِنه) أَيْ ابْتِداءُ أَمْرِهِ مِنَ اللهِ. قولُهُ:(فآمنُوا بِاللهِ وَرسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ) مَنْ آمنَ بِاللهِ لا يَقُولُ إِنَّ عِيسَى هُوَ ابن اللهِ؛ لأَنَّ الْإيمَانَ بِاللهِ يَتضمنُ الْإِيمَانَ بِصِفَات كَمَالِهِ وَمِنْهَا أَنَّهُ وَاحِدٌ (انْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ) هَذَا

(١) سورة النساء الآية: ١٧١.

مِنَ التَّفْضِيلِ الَّذِي لَيْسَ فِي الْجَانِبِ الْآخِرِ مِنْه شَيْءٌ،(إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ) أَي: لَا يَصلحُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْبُودُ إِلّا وَاحِدًا أَي أَنَّ الْإِلَهَ الحَقَّ وَاحِدٌ،(سُبْحَانه أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ) أَي : تنَزَّهَ عَنِ الْوَلَدِ؛ لأَنَّ الْوَلَدَ فِي حَقِّهِ نَقْصٌ وَافْتِقَارٌ (لَهُ مَا فِي السّمواتِ وَالْأَرْضِ) إشارَةٌ إِلَى أَنَّهُ غَنِي؛ لأَنَّ اللّامَ لَامُ الْمُلكِ،(وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً) أَي : كَفَى بِاللهِ حَفِيظاً لِعِبَادِهِ مُدَبِّرًا لِأُمُورِهِمْ

قَالَ الإِمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[وَفِي الصَّحِيحِ (عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعالَى:﴿ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾[(١)] قَالَ:(هَذِهِ أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ أَنِ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمْ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ فِيهَا أَنْصَابًا وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا وَلَمْ تُعْبَدْ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ، وَنُسِيَ العِلْمُ عُبِدَتْ)[(٢)].]

قوله:(لاتذرن) أَي : لَا تَتْرُكُوا أحدًا يَتمكَّنُ مِنْ إهَانَتِهَا وَإِذْلالها، ولاتَتْرُكوا عِبَادَتَهَا وَهَذَا مِنْ تَوَاصِي أَهلِ الْبَاطِلِ بِبَاطِلِهِمْ، كَقَوْلِهِ تعَالَى﴿ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴾[(٣)] وأهلُ الحقِّ أولى بذلك وَهَذَا الْأَثَرُ لَهُ حُكْمُ الرَّفْعِ ؛ لِأَنَّهُ خَبَرٌ غَيْبِي لَا يُتَلَقَّى إِلّا مِنْ مِشْكَاةِ النُّبُوةِ ،(هَذِهِ أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ) أَي: أَنَّ نُوحا وجَدَ قَوْمَهُ يَعْبدُونَ هَؤُلَاءِ الصَّالِحِينَ (فَلَمَّا هَلَكُوا) أَيْ: مَاتُوا، وَفِيه: مَشْرُوعِيةُ قَوْلِ هَلَكَ فُلَانٌ وَلَوْ كَانَ صَالحًا (أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ) أَي: القَى فِي نُفُوسِهِمْ (أَنِ انصِبُوا) أَي: أَقِيمُوا،(أَنْصَابًا) أَيْ: صَوِرُوا تَصَاوِيرَ وَتَمَاثِيلَ (وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ) حَتَّى تَدْفَعَكُمْ رُؤْيَتُهَا إِلَى الْعِبَادَةِ: فَأمَرَهُم بِهَذِهِ الْبِدْعَةِ فَاسْتَجَابُوا لَها،(فَفَعَلُوا وَلَمْ

---

(١) سورة نوح الآية: ٢٣.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب تفسيرالقرآن– باب {وَدًّا وَلَاسُواعًا وَلَايَغُوث وَيَعُوق} (٤٩٢٠).

(٣) سورة ص الآية: ٦.

تُعْبَدْ) لِوُجُودِ التَّوحِيدِ بَيْنَهُمْ مَعَ وُقُوعِهِمْ فِي الْبِدْعَةِ (حَتَّى إِذَا هَلَكَ أولَئِكَ) أَيْ: مَاتَ الَّذِينَ صَوَرُوا الصُّوَرَ(وَنُسِيَ الْعِلْمُ عُبِدَتْ) أَيْ : عِلْمُ الْعَقِيدَةِ وَالتَّوْحِيدِ، وَفِي الْأَثَرِ مِنَ الْفَوائِدِ أَهَمِّيَّةُ عِلْمِ التَّوحِيدِ ، وَأَنَّ الْبِدَعَ بَرِيدُ الْكُفْرِ.وَأَنَّ التَّصَاوِيرَ مِنْ وَسَائِلِ الشِّرْكِ ، وَالْحَذرُ مِنْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[قالَ ابن القَيِّمِ: (قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِن السَّلَفِ لَمَّا مَاتُوا، عَكَفُوا عَلَى قُبُورِهِمْ، ثُمَّ صَوَّرُوا تَمَاثِيلَهُمْ، ثُمَّ طَالَ عَلَيْهِمْ الامَدُ فَعَبَدُوهُمْ)[(١)].]

قوله(قال ابن القَيِّمِ) هُوَ أَبُو عَبْدِ اللهِ شَمْسُ الدِّينِ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ بن أيوبَ الدِّمَشْقِي، الْعَالِمُ الْعَلامَةُ تِلْمِيذُ شَيْخِ الْإِسْلامِ، بَلْ خِصِّيصُهُ، وَالْقَيِّمُ: أَيُّ: الْقَائِمُ عَلَى أَمْرِ الْجَوْزِيَّةِ ، وَالْجَوْزِيَّةُ مَدرسَةٌ كَانَ أَبُوه قَيِّمَا عَلَيهَا. (قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِن السَّلَفِ لَمَّا مَاتُوا، عَكَفُوا عَلَى قُبُورِهِمْ) أَيْ: إِنَّ كَلامَ ابنِ عباسٍ هذا قَدْ قَالَ بِهِ غيرُهُ مِنَ الصَّحابةِ، وعَكَفُوا عَلَى قُبُورِهِمْ: أَيْ: لازمُوهَا، قوله (ثم صوروا تماثيلهم) هذه المرحلة الثانية (ثُمَّ طَالَ عَلَيْهِمْ الامَدُ) أَيْ: الزمنُ (فعبدوهم) هذه هي المرحلة الأخيرة.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[وَعَنْ عُمَرَ: رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى ابن مَرْيَمَ، إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ) أَخْرَجَاهُ.[(٢)]]

(لَا تُطْرُونِي) **الْإِطْرَاءُ** هُوَ مُجَاوَزَةُ الْحَدِّ فِي الْمَدْحِ ،(كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابن مَرْيَمَ) الْكَافُ هُنَا لِلتَّشْبِيهِ وَلَيْسَتْ لِلتَّمْثِيلِ لأَنَّهُ لَا يُرِيدُ أَنْ يَنْهَانَا أَنْ نَقُولَ مُحَمَّدٌ بْنُ اللهِ وَلَكِنْ يُرِيدُ أَنْ يَنْهَانَا عَنْ كُلِّ مُجَاوَزَةٍ لِلشَّرْعِ فِي الْمَدْحِ ، فَقَدْ زَعَمَ قَوْمٌ مِنَ الْمُتَصَوِّفَةِ أَنَّ الْكَافَ لِلتَّمْثِيلِ أَيْ: لَا تَقُولُوا ابن اللهِ ، كَمَا قَالَ صَاحِبُ الْبردةِ.

دَعْ مَا ادَّعَتْهُ النَّصَارَى فِي نبيهم *** وَاحْكُمْ بِمَا شِئتَ مَدْحاً فِيه وَاحْتَكِمِ

أَيْ : أُتْرُكْ مَا قَالَتْهُ النَّصَارَى أي لا تقل مُحَمَّد ابن الله ، وَقُلْ مَا شِئْتَ بَعْدَ ذَلِكَ .

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٥/٤٤٣).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم – باب قول الله واذكر في الكتاب مريم (٣٤٤٥)

وَالصَّحِيحُ أَنَّ الْكَافَ لِلْقِيَاسِ، فَالنَّهْي عَامٌّ يَشْمَلُ كُلَّ مَدْحٍ فِيه مُجَاوَزَةٌ لِلحَدِّ، وَمِنْ ذَلِكَ مَا ثَبَتَ فِي الْبُخَارِيِّ عَن الرُّبَيِّعِ بِنْتِ مُعَوِّذٍ قَالَتْ:(لما دَخَلَ عَلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ غَدَاةَ بُنِيَ عَلَيَّ فَجَلَسَ عَلَى فِرَاشِي كَمَجْلِسِكَ مِنِّي وَجُوَيْرِيَاتٌ يَضْرِبْنَ بِالدُّفِّ يَنْدُبْنَ مَنْ قُتِلَ مِنْ آبَائِهِنَّ يَوْمَ بَدْرٍ حَتَّى قَالَتْ جَارِيَةٌ: وَفِينَا نَبِيٌّ يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ فَقَالَ: النَّبِي ﷺ: " لَا تَقُولِي هَكَذَا وَقُولِي مَا كُنْتِ تَقُولِينَ")[1] فَمَنَعَهُنَّ عليْهِ الصَّلاةُ وَالسّلامُ. قَولُهُ:(إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ) هَذَا خَبَرٌ فَيَجِبُ تَصْدِيقُهُ ، وَالْعَبْدُ لَا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ مَعْبُوداً، (فَقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ) وَقَعَ أَهْلُ الْغُلُوِّ فِي الْكُفْرِ مِنْ جهتين: لأَنَّهُمْ عَبدُوهُ مَعَ اللهِ فَأَشْرَكُوا بِهِ فِي هَذَا الْبَابِ. وَكُذَّبُوا خَبَرَهُ. قَالَ أَهْلُ العِلْمِ (مُحَمَّدٌ عَبْدٌ لَا يُعْبَدُ وَنَبِيٌّ لَا يُكَذَّبُ) وَفِي الْحَدِيثِ النهيُّ عَنِ الْإِطْرَاءِ مُطْلَقاً ، وَجَوَازُ مَدْحِهِ بِمَا ثبت مِنَ الصِّفَاتِ ، وَأَنَّ الْإِطْرَاءَ مِنْ سَنَنِ النَّصَارَى وَأَنَّ الْإِطْرَاءَ مِنْ أَسْبَابِ الشِّرْكِ، وَلِهَذَا سَاقَهُ الإمام.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ–[قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ(إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ الغُلُوُّ)[2]]

ذَكَرَ الإمام هَذَا الْحَدِيثَ مُخْتَصَرًا، وَقَدْ أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وابن مَاجَهْ وَالنَّسَائِيُّ عَنِ ابن عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا – قَالَ: (قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ غَدَاةَ الْعَقَبَةِ : الْقُطْ لِي حَصىً فَلَقَطْتُ لَهُ سَبْعَ حَصيَاتٍ مِنْ حَصَى الْخَذْفِ، فَنَفِضَهُنَّ بِيدِهِ وَقَالَ: بِأَمْثَالِ هَؤُلَاءِ فَارْمُوا) بأمثال هؤلاء في العدد والقدر (وإِيَّاكُمْ والغُلُوّ)[3]، قولُهُ: (إِيَّاكُمْ) هذا أسلوبُ تحذيرٍ، (فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ الغُلُوُّ) الْهلاكُ: هُنَا مُخَالَفَةُ الشَّرْعِ، وَهُوَ سَبَبٌ لِهلاكِ الْأنفس والأرواح. وَفِي الْحَدِيثِ، التَّحْذِيرُ مِنَ الْغُلُوِّ مَعَ بَيَانِ عَاقِبَتِهِ، وَأَنَّ

---

(١) أخرجه البخاري، بَاب شُهُودِ الْمَلَائِكَةِ بَدْرًا، برقم: (٣٧٠٠).

(٢) أخرجه النسائي في كتاب مناسك الحج، التقاط الحصى (٣٠٥٧)،وابن ماجه في كتاب المناسك– باب قدر حصى الرمي (٣٠٢٩)،وصححه الألباني في«صحيح الجامع» (٢٦٨٠).

(٣) أخرجه أحمد: (٢١٥،٣٤٧/١)، وابن ماجه: (٣٠٩٢)، والنسائي: (٢٦٨/٥)، وصححه شيخ الإسلام ابن تيمية كما في الفتاوى: (٣٨٣/٣) والألباني في الصحيحة برقم: (١٢٨٣).

مُشَابِهَةَ مَنْ كَانَ قبلَنَا فِي بَعْضِ هَدْيِهِمْ الْبَاطِلِ مِنْ أَسْبَابِ الْهلاكِ، وَأَنَّ الْغُلُوَّ يَكُونُ بِالزِّيادَةِ عَلَى الْمَشْرُوعِ؛ لأَنَّ النَّبي ﷺ قَالَهُ فِي بَيَانِ مَا يُرْمى به الجِمَارُ، عَددًا وهيئةً.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[وَلِمُسْلِمٍ عن ابنِ مَسْعُودٍ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:(هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ – قَالَهَا ثَلاثًا)(١)]

قالَ ابنُ الأثيرِ(٢) –رَحِمَهُ اللهُ– (المتنطعون: هُمُ المتعمقونَ المغالونَ فِي الْكَلامِ، الْمُتَكَلِّمُونَ بِأَقْصَى حُلُوقِهِمْ، وَهُوَ مأخوذٌ مِنَ النِّطْعِ: وَهُوَ الْغَارُ الْأَعْلَى مِنَ الْفَمِ، ثُمَّ أُسْتُعْمِلَ فِي كُلِّ تَعمُّقٍ قَوْلاً أَوْ فِعْلاً)(٣) وَقَالَ غَيْرُهُ: هُمُ المتعمقونَ فِي عباداتِهِمْ، بِحَيْثُ يُخْرِجُونَ بِهَا عَنْ قَوَانِينِ الشَّرِيعَةِ، قَالَهَا ثَلَاثًا وَفِي الْحَدِيثِ الْمُبَالَغَةُ مِنَ التَّحْذِيرِ مِنْ هَذَا الْفِعْلِ، وَحُسْنُ تَعْلِيمِهِ ﷺ، وَأَنَّهُ يُكَرِّرُ إِذَا احْتِيجَ إِلَى التَّكْرارِ، وَفِي الْبَابِ غَيْرُ مَا ذَكَرْنَا مِنَ الْفَوَائِدِ: مَعْرِفَةُ أَولِ شِرْكٍ حَدَثَ فِي الْأَرْضِ، وَفِيه قَبُولُ النُّفُوسِ لِلْبِدْعِ مَعَ أَنَّ الشَّرَائِعَ تَرُدُّهَا وَأَنَّ سَبَبَ ذَلِكَ كُلِّهِ مَزْجُ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ، كَمَحَبَّةِ الصَّالِحِينَ ثُمَّ الْوُقُوعِ فِي عِبَادَتِهِمْ، وَفِعْلِ أُناسٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ شيئاً غير مشروع أَرَادُوا بِهِ خَيْرًا، فَظَنَّ بَعْضُهُمْ أَنَّهُمْ أَرَادُوا بِهِ غَيْرَه وَأَنَّ مَوْتَ الْعُلَمَاءِ سَبَبُ فَقْدِ الْعِلْمِ.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب العلم– باب هلك المتنطعون (٢٦٧٠).

(٢) هو المبارك بن مُحَّد بن مُحَّد بن عبد الكريم، أبو السعادات مجد الدين الشيباني الجزري، المشهور بابن الأثير ولد ونشأ في جزيرة ابن عمر من مشاهير العلماء وأكابر النبلاء، كان فاضلاً، رئيساً مشاراً إليه، تنقل في الولايات واتصل بصاحب الموصل وولي ديوان الإنشاء، عرض له مرض كف يديه ورجليه ومنعه الكتابة فانقطع في بيته قيل إنَّ تصانيفه كلها ألفها في زمن مرضه إملاء على طلبته. من تصانيفه:(النهاية في غريب الحديث) و(جامع الأصول في أحاديث الرسول)، و(الإنصاف في الجمع بين الكشف والكشاف) في التفسير. [طبقات الشافعية ١٥٣/٥ ، وبغية الوعاة ٢٧٤/٢ ، والأعلام للزركلي ١٥٢/٦]

(٣) النهاية (٥/ ٧٥).

[٢٠]

بَابُ مَا جَاءَ مِن التَّغْلِيظِ فِي مَنْ عَبَدَ اللَّهَ عِنْدَ قَبْرِ رَجُلٍ صَالِحٍ، فَكَيْفَ إِذَا عَبَدَهُ ؟

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ: أَنَّ الإمام – رَحِمَهُ اللهُ – ذَكَرَ فِي الْبَابِ السَّابِقِ سَبَبَ كُفْرِ بَنِي آدَمَ وَهُوِ الْغُلُوُّ فِي الصَّالِحِينَ، وَفِي هَذَا الْبَابِ يذكرُ صورة مِنْ صور الْغُلُوِّ وَهُوَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ عِنْدَ قَبْرِ الرَّجُلِ الصَّالِحِ، وَهَذِهِ ذَرِيعَةٌ وَوَسِيلَةٌ لِعِبَادَةِ الرَّجُلِ الصَّالِحِ، فَكَيْفَ إِذَا عَبَدَهُ: هَذِهِ هِي نَتِيجَةُ الْغُلُوِّ وَثَمَرَتُهُ.

ومعنى الترجمة ما جاء من الأدلة المشتملة على النهي الشديد عن عبادة الله وحده بأي نوع من أنواع العبادة عند قبر رجل صالح

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[فِي الصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ ﵂ (أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ ذَكَرَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَنِيسَةً رَأَتْهَا بِأَرْضِ الحَبَشَةِ، وَمَا فِيهَا مِنَ الصُّوَرِ، فَقَالَ أولَئِكَ إِذَا مَاتَ فِيهِمْ الرَّجُلُ الصَّالِحُ أَوْ العَبْدُ الصَّالِحُ، بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ، أولَئِكَ شِرَارُ الخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ) (١) **فَهَؤُلَاءِ جَمَعُوا بَيْنَ الفِتْنَتَيْنِ فِتْنَةَ القُبُورِ، وَفِتْنَةَ التَّمَاثِيلِ.]**

قوله: (أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ) هِي هِنْدُ بِنْتُ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ بْنِ عَبدِ اللهِ المخزوميَّةُ، تَزَوَّجَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بَعْدَ موت أَبِي سلمة ، وَكَانَتْ قَدْ هَاجَرَتْ مَعَ زَوْجِهَا إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ، مَاتَتْ سَنَةَ ٦٢هـ. (ذَكَرَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَنِيسَةً): كَانَ ذِكرُهَا لِهَذِهِ الْكَنِيسَةِ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ فِي مَرَضِ مَوْتِهِ، وَالْكَنِيسَةُ هِي مَعْبَدُ النَّصَارَى الَّذِي يَجْتَمِعُونَ فِيهِ (أولَئِكَ) يَجُوزُ فِي كَافِ الْخِطَابِ الْفَتْحُ مُطْلَقاً، وَيَجُوزُ فِيهَا الْكَسْرُ عِنْدَ مُخَاطَبَةِ الْمُؤَنَّثِ.(إِذَا مَاتَ فِيهِمْ الرَّجُلُ الصَّالِحُ أَوْ الْعَبْدُ الصَّالِحُ) فِيه التحرّي فِي الرِّوَايَةِ قوله: (بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا) أَيْ: مَوْضِعا لِلْعِبَادَةِ وَلَوْ لَمْ يُسَمَّ مَسْجِدَا.(وَصَوَّرُوا فيه تِلْكَ الصُّوَرَ) الْإِشارَةُ إِلَى

(١) أخرجه البخاري في كتاب الصلاة باب هل تنبش قبور مشركي الجاهلية و يتخذ مكانها مساجد (٤٢٧) ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة– باب النهي عن بناء المساجدعلى القبور (٥٢٨).

الصُّورِ الَّتِي رَأَتْهَا، وَفِيه: أَنَّ تَصْوِيرَ الصَّالِحِينَ مِنْ سَنَنِ النَّصَارَى.(أولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ) فِيه تَحْرِيمُ هَذَا الْفِعْلِ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ شِرَارُ الْخَلْقِ؛ لأَنَّهُمْ فَتَحُوا لِلنَّاسِ بَابَ الشِّرْكِ، وَتَسَبَّبُوا فِي انْحِرافِ الْأُمَّةِ عَنِ التَّوْحِيدِ. الذي به سعادة الأمة وفلاحها قَالَ الْقُرْطُبِيُّ – رَحِمَهُ اللهُ –:(إِنَّمَا فَعَلَ أوائلُهُمْ الصُّوَرَ لِيَتَأَسَّوْا بِرُؤْيَةِ تِلْكَ الصُّورَةِ وَيَتَذَكَّرُوا بِهَا أَحوَالَهُمْ الصَّالحَة فَيَجْتَهِدُونَ كَاجْتِهَادِهِمْ، وَيَعْبُدُونَ اللهَ عِنْدَ قُبُورِهِمْ، فَمَضَتْ لَهُمْ بِذَلِكَ أَزمَانٌ ثُمَّ إِنَّهُمْ خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ جهِلُوا أَغْرَاضَهُمْ، وَوَسْوَسَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَنَّ آباءَهُمْ وأجْدادَهُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ هَذِهِ الصُّوَرَ، وَيُعظِمُونَهَا فَعَبَدُوهَا). [١] وجه الشاهد أنه وصفهم بأنهم شرار الخلق .

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[(فَهَؤُلَاءِ جَمَعُوا بَيْنَ الفِتْنَتَيْنِ فِتْنَةَ الْقُبُورِ، وَفِتْنَةَ التَّمَاثِيلِ)[٢].]

وَأطْلَق عَلَى هَاتَيْنِ الْبَلِيَّتَيْنِ فِتْنَةً؛ لأنَّهُمَا من أعظم وَسَائِلِ الشِّرْكِ.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[وَلَهُمَا عَنْهَا، رضي الله عنها قَالَتْ:(لَمَّا نزلَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ طَفِقَ يَطْرَحُ خَمِيصَةً لَهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَإِذَا اغْتَمَّ بِهَا كَشَفَهَا فَقَالَ وَهُوَ كَذَلِكَ: " لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى اليَهُودِ وَالنَّصَارَى، اِتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ "، يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا، وَلَوْلَا ذَلِكَ؛ أبرِزَ قَبْرُهُ، غَيْرَ أَنَّهُ خَشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا) [٣] أَخْرَجَاهُ.]

قوله: (وَلَهُمَا) أَيْ: الْبُخَارِيّ وَمُسْلِمٍ (عَنْهَا) أَيْ : عَنْ عَائِشَةَ – رضي الله عنها– (لَمَّا نَزَلَ) لَمَّا بِمَعْنَى حِينَ، (نَزَلَ) أَي : الْمَوْتُ (طَفِقَ) أَيْ: شَرَعَ (يَطْرَحُ خَمِيصَةً لَهُ عَلَى وَجْهِهِ) الْخَمِيصَةُ كِسَاءٌ لَهُ أَعلامٌ (فَإِذَا اغْتَمَّ بِهَا كَشَفَهَا) أَيْ : إِذَا احْتَبَسَ نَفَسُهُ بِسَبَبِهَا كَشْفَهَا لِيَتَنَفَّسَ، وَهَذَا فِيه شِدَّةُ كَرْبِ الْمَوْتِ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ ؛ لِيَرْفَعَ اللَّهُ دَرَجَتَهُ وَلِتَتَأَسَّى بِهِ أُمَّتُهُ.(فَقَالَ: وَهُوَ كَذَلِكَ) أَيِ: فِي تِلْكَ الْحَالَةِ الْعَصِيبَةِ الشديدة لَمْ

---

(١)المفهم ٢/١٢٧-١٢٨

(٢)انظر إغاثة اللهفان ١/١٨٤

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الصلاة- باب الصلاةفي البيعة (٤٣٦) ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة- باب النهي عن بناء المساجد على القبور (٥٣١).

[20] بَابُ مَا جَاءَ مِن التَّغْلِيظِ فِي مَنْ عَبَدَ اللَّهَ عِنْدَ قَبْرِ رَجُلٍ صَالِحٍ، فَكَيْفَ إِذَا عَبَدَهُ ؟

يشتغِلْ عَنِ التَّوحِيدِ، وَنُصْحِ الْأُمَّةِ، وفيه: أهمِّيَّةُ التَّوْحِيدِ، وَشَفَقَتُهُ ﷺ عَلَى أُمَّتِهِ قولُهُ: (لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى) هَذِهِ الْجُمْلَةُ تَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ خَبَرِيَّةً وَتَحْتَمِلُ أَن تَكونَ دُعائِيَّةً وكأنه – ﷺ – علم أنَّهُ لا يقومُ من مرضِهِ ذلك، فخافَ أن يُعظَّمَ قبرُهُ كما فعلَ مَنْ مضى، فلعن اليهود والنصارى، إشارة إلى ذم من فعل مثل فعلهم. قوله: (اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ) هَذَا هُوَ سَبَبُ اللَّعْنِ، وَهُنَا قَاعِدَةٌ أُصُولِيَّةٌ وهي : اقْتِرانُ الْوَصْفِ بِحُكْمٍ لَوْ لَمْ يَكُنِ الْوَصْفُ علةً لِلْحُكْمِ لَكَانَ الْكَلامُ مَعِيبًا. أي أنَّ السبب في لعن اليهود والنصارى هو اتخاذ قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد وَقَدْ قَامَ هَذَا الْكَلامُ منه مَقَامَ الْوَصِيَّةِ لِأُمَّتِهِ ؛ لِأَنَّهُ شَعَرَ بِالْمَوْتِ، وجه الشاهد أنه قال هذا الكلام في تلك الحالة العصيبة (يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا) هَذَا مِنْ كَلامِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وَفَهْمِهَا لِرِوايَتِهَا وَالرَّاوِي أَدْرَى بِمَا رَوَى، قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ:(وَمِنْ غُرْبَةِ الْإِسْلامِ أَنَّ هَذَا الَّذِي لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَاعِلَهُ فعلَهُ الْخَلْقُ الْكَثِيرُ، وَاعْتَقَدُوا أَنَّهُ قُرْبَةٌ ، وَهُوَ أَعْظَمُ الْمُنْكَرَاتِ).

(وَلَوْلَا ذَلِكَ ؛ أُبْرِزَ قَبْرُهُ) أَيْ لَوْلَا تَحْذِيرُهُ مِنْ صَنِيعِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى لِدُفْنَ فِي البقيع مَعَ سَائِرِ النَّاسِ (غَيْرَ أَنَّهُ خَشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا) بِالْبِنَاءِ لِلْمَعْلُومِ خَشِيَ هُوَ ﷺ ، وبِالْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ خُشِيَ أي الصَّحَابَةُ ، وَيُتَّخَذُ مَسْجِدَا بِالصَّلَاةِ عِنْدَه وَالدُّعَاءِ.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[وَلِمُسْلِمٍ عَنْ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ قَالَ سَمِعْتُ النَّبِي ﷺ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ وَهُوَ يَقُولُ: (إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللَّهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ اتَّخَذَنِي خَلِيلاً كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلاً لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً أَلا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ، أَلا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبورَ مَسَاجِدَ، فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ)[١]. فَقَدْ نَهَى عَنْهُ فِي آخِرِ حَيَاتِهِ، ثُمَّ إِنَّهُ لَعَنَ – وَهُوَ فِي السِّيَاقِ – مَنْ فَعَلَهُ، وَالصَّلَاةُ

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة– باب النهي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها ،والنهي عن اتخاذا لقبور مساجد (٥٣٢).

عِنْدَهَا مِنْ ذَلِكَ، وَإِنْ لَمْ يُبْنَ مَسْجِدٌ، وَهُوَ مَعنَى قَوْلِها: (خَشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِداً) فَإِنَّ الصَّحَابَةَ لَمْ يَكُونُوا لِيَبْنُوا حَوْلَ قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَكُلُّ مَوْضِعٍ قُصِدَتِ الصَّلَاةُ فِيهِ، فَقَدِ اتُّخِذَ مَسْجِداً، بَلْ كُلُّ مَوْضِعٍ يُصَلَّى فِيهِ، يُسَمَّى مَسْجِدًا، كَمَا قَالَ ﷺ :(جُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا)].

(عن جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ) بْنُ سُفْيانِ الْبَجَلِي (قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ) أَيْ : لَيَالِي (إِنِّي أَبْرَأ إِلَى اللَّهِ) أَيْ: أَمْتَنِعُ (أَنْ يَكُونَ لِي مِنكُمْ خَلِيلٌ) **الْخَلِيلُ**: مِنَ الْخُلَّةِ وَهِيَ خَالِصُ الوُدِّ، وَأَعْلَى دَرَجَاتِ الْمَحَبَّةِ وَأَصْفَاهَا، قِيلَ: مِنْ تَخَلُّلِ الْمَوَدَّةِ الْقَلْب.(فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ اتَّخَذَنِي خَلِيلاً كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً) هَذِهِ الْمَنْزِلَةُ لَمْ تَثْبُتْ لأَحَدٍ غَيْرِ نَبِيِّنَا وإبراهيمَ عَلَيْهِمْ الصَّلاةُ وَالسّلامُ. وفي إثبات الخلة لله ردٌ على الأشاعرة و الجهميةِ (وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أمَّتِي خَلِيلاً لاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً) وَفِي هَذِهِ الجُمَلِ مِنَ الْفَوَائِدِ: أَنَّهُ لَمْ يَتَّخِذْ خَلِيلاً مِنْ أُمَّتِهِ، وَهَذَا لَا اشكالَ فيه أَنْ يَقُولَ الصَّحَابِيُّ : حَدَّثَنِي خَلِيلَي، فَإِنَّ الْخُلَّةَ مِنْ جِهَةِ الصَّحَابِي لَا مِنْ جِهَةِ النَّبِيِّ عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسّلامُ وَأَنَّ الْخُلَّةَ أَعْظَمُ مِنَ الْمَحَبَّةِ؛ لأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَخبَرَ أَنَّهُ يُحِبُّ عَائِشَةَ وَأَبَاهَا وَمَعَاذًا وَغَيْرَهُمْ، فَمَنْ وَصفَ رَسُولَ اللهِ ﷺ بِأَنَّه حَبِيبُ اللهِ فَقَدْ قَصَّرَ فِي وَصْفِهِ عَلَيه الصَّلاةُ وَالسّلامُ ، وَفِيه فَضِيلَةُ أَبِي بَكْرٍ وَأَنَّهُ أَفْضَلُ الصَّحَابَةِ وَفِيه إشارَةٌ إِلَى استخلافِهِ – رَضِيَ اللهُ عَنْه – لَا سِيما وَقَدْ كَانَ هَذَا الْكَلامُ فِي مَرَضِ مَوْتِهِ، وَفِيه رَدٌ عَلَى الرَّافِضَةِ الَّذِينَ يُفَضِّلُونَ عِلْياً – رَضِيَ اللهُ عَنْه – عَلَى أَبِي بَكْرٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمُ – قوله: (ألا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ)أَلا: حَرْفُ تَنْبِيهٍ، وَإِنَّ: حَرْفُ تَوْكِيدٍ، قوله:(كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ) وجه الشاهد في تكرار النهي والتنبيه

وَصُورُ اتِّخَاذِ الْقَبْرِ مَسْجِدَا أربعةٌ : بِنَاءُ الْمَسَاجِدِ عَلى الْقُبُورِ أَوْ دَفْنُ الْموتى فِي الْمَسَاجِدِ، وَالصَّلاةُ عِنْدَهَا، وَالدُّعَاءُ عِنْدَهَا. والصلاة إليها (أَلا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ) أَلا حَرْفُ تَنْبِيهٍ، وَلَا نَاهِيَةٌ، وَهَذَا تَحْذِيرٌ مِنْ فِعْلِهِ. فَانْظُرْ– رَحِمَكَ اللهُ– إِلَى مَا اشْتَمَلَ عَلَيه هَذَا الْحَدِيثُ مِنَ التَّنْبِيهِ بَعْدَ التَّنْبِيهِ وَالنَّهْي بَعْدَ النَّهْي، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى خَطَرِ الْمَسْالَةِ وَأَنَّهَا مِنْ وَسَائِلِ الشِّرْكِ، (فَقَدْ نَهَى عَنْهُ فِي آخِرِ حَيَاتِهِ) كَمَا فِي حَدِيثِ جُنْدُبٍ – رضي الله عنه –.(ثُمَّ إِنَّهُ لَعَنَ – وَهُوَ فِي السِّيَاقِ – مَنْ فَعَلَهُ) أَيْ:

[20] بَابُ مَا جَاءَ مِن اَلتَّغْلِيظِ فِي مَنْ عَبَدَ اَللَّهَ عِنْدَ قَبْرِ رَجُلٍ صَالِحٍ، فَكَيْفَ إِذَا عَبَدَهُ ؟

فِي سِياقِ الْمَوْتِ، كَمَا فِي حَدِيثِ عَائِشَةَ – رضي الله عنها –(وَالصَّلاةُ عِنْدَهَا مِنْ ذَلِكَ) أَيْ: الصَّلاةُ عِنْدَ الْقُبُورِ مِنَ اتِّخَاذِهَا مَسَاجِدَ، لِذَلِكَ جَاءَ النَّهْيِ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنِ النَّبِي ﷺ (لَا تَجْلِسُوا عَلَى الْقُبُورِ وَلَا تُصَلُّوا إِلَيها)[١] (وَإِنْ لَمْ يُبْنَ مَسْجِدٌ) أَيْ: أَنَّ هَذَا نَهْيٌ عَنِ الصَّلاةِ وَالدُّعَاءِ عندها .

قَالَ ابن الْقَيِّم – رَحِمَهُ اللهُ –:(وبِالْجُمْلَةِ فَمَنْ لَهُ مَعْرِفَةٌ بِالشِّرْكِ وَأَسْبَابِهِ وَذَرائِعِهِ وَفَهِمَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَقَاصِدَهُ، جَزَمَ جَزْماً لَا يَحْتَمِلُ النَّقِيضَ أَنَّ هَذِهِ الْمُبَالَغَةَ وَاللَّعْنَ وَالنَّهْيَ بصيغتيهِ – صِيغَةَ " لَا تَفْعَلُوا "، وَصِيغَةُ " إِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ "– لَيسَ لِأَجْلِ النَّجَاسَةِ، بَلْ هُوَ لِأَجْلِ نَجَاسَةِ الشِّرْكِ اللاحِقَةِ لِمَنْ عَصَاهُ، وَارْتَكَبَ مَا عَنْه نَهَاهُ ، وَاتَّبَعَ هَوَاهُ، وَلَمْ يَخْشَ رَبَّهُ وَمَوْلَاهُ، وَقَلَّ نَصِيبُهُ أَوْ عُدِمَ مِنْ " لَا إِلَهَ إِلّا اللهُ " فَإِنَّ هَذَا وَأَمْثَالَهُ مِنَ النَّبِي ﷺ صِيَانَةٌ لِحِمَى التَّوْحِيدِ أَنْ يَلْحَقَهُ الشِّرْكُ وَيَغْشَاهُ، وَتَجْرِيدٌ لَهُ وَغَضَبٌ لِرَبِّهِ، أَنْ يُعْدَلَ بِهِ سِوَاهُ، فَأَبَى الْمُشْرِكُونَ إِلّا مَعْصِيَةً لِأَمرِهِ وَارْتِكَابًا لِنَهْيِهِ، وَغَرَّهُمْ الشَّيْطَانُ بِأَنَّ هَذَا تَعْظِيمٌ لِقُبُورِ الْمَشَايِخِ وَالصَّالِحِينَ. وَكُلَّمَا كُنْتُم لَهَا أَشَدَّ تَعْظِيما وَأَشَدَّ فِيهِمْ غُلُوّاً كُنْتُم بِقُرْبِهِمْ أَسْعدَ، وَمِنْ أَعْدَائِهِمْ أَبْعَدَ، وَلَعَمْرُ اللهِ، مِنْ هَذَا الْبَابِ دَخَلَ الشَّيْطَانُ عَلَى عُبَّادِ يَعُوق ويغوث وَنَسْرا؛ وَدَخَلَ عَلَى عُبَّادِ الأَصْنَامِ مُنْذُ كَانُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيامَةِ؛ فَجمعَ الْمُشْرِكُونَ بَيْنَ الْغُلُوِّ فِيهِمْ وَالطَّعْنِ فِي طَرِيقَتِهِمْ ،فَهَدَى اللَّهُ أهلَ التَّوْحِيدِ لِسُلُوكِ طَرِيقَتِهِمْ وَإِنْزالِهِمْ مَنَازِلَهُمْ الَّتِي أَنْزَلَهُمْ اللهُ إِيَّاهَا مِنَ الْعُبُودِيَّة وَسَلْبِ خصائصِ الْإِلاهِيةِ عَنْهُمْ.)[٢]أهـ. (وَهُوَ مَعنَى قَوْلِها: (خَشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا) أي: خشي أن يصلي عنده الجُهَّال، (فَإِنَّ الصَّحَابَةَ لَمْ يَكُونُوا لِيَبْنُوا حَوْلَ قَبْرِهِ مَسْجِدًا) ويُبعد ذلك أنَّ المسجد كان مجاوراً لبيته عليه الصلاة والسلام (وَكُلُّ مَوْضِعٍ قُصِدَتِ الصَّلَاةُ فِيهِ، فَقَدِ اتُّخِذَ مَسْجِدًا) : ولو لم يُعدّ للصلاة، (بَلْ كُلُّ مَوْضِعٍ يُصَلَّى فِيهِ، يُسَمَّى مَسْجِدًا، كَمَا جاءعَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: ﷺ

---

(١)أخرجه مسلم، بَاب النَّهْيِ عَنْ الْجُلُوسِ عَلَى الْقَبْرِ وَالصَّلَاةِ عَلَيْهِ، برقم: (١٦١٣).

(٢)إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، ١/١٨٩، الناشر : دار المعرفة – بيروت، الطبعة الثانية ، ١٣٩٥ – ١٩٧٥، تحقيق : مُحَمَّد حامد الفقي.

«الْأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِدٌ إِلَّا الْمَقْبَرَةَ وَالْحَمَّامَ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ فمن صلى بين يدي القبر فقد اتخذه مسجداً.

وَلأَحْمَدَ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ عن ابنِ مَسْعُودٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) مَرْفُوعًا (إِنَّ مِنْ شِرَارِ النَّاس مَنْ تُدْرِكُهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ وَالذِينَ يَتَّخِذُونَ القُبُورَ مَسَاجِدَ)(١) **رَوَاهُ أَبُو حَاتِمٍ فِي صَحِيحِهِ**. قوله: " من تدركهم الساعة وهم أحياء" لَا تَعَارُضَ بَيْنَ هَذَا الجملة وَحَدِيثِ:(لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي مَنْصُورِينَ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خذلَهُمْ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ) (٢) الْمُرَادُ هُنَا: حَتَّى قُرْبِ قِيَامِهَا، وَالْمُرَادُ بِالَّذِين(تُدْرِكُهُمْ السَّاعَةُ) أَيْ: حَتَّى النَّفخِ فِي الصُّورِ. قوله: (وَالَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ) وَكَانُوا مِنْ شرَارِ الْخَلْقِ؛ لأَنَّهُمْ أَقَامُوا وَسَائِلَ الشِّرْكِ، ومنها الْبِنَاءُ عَلَى الْقُبُورِ وَالصَّلاةُ عِنْدَهَا، والدعاء عندها.

شُبْهَةٌ وَجَوَابُهَا:زَعَمَ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ النَّهْيَ عَنِ الصَّلاةِ عَلَى الْقُبُورِ مِنْ أَجْلِ النَّجَاسَةِ، وَهَذَا التَّعْلِيلُ مَرْدُودٌ ؛ لأنَّ الحديثَ فِيه، صَالِحُوهُمْ وَأنبياؤُهُمْ، وَالْأَنبياءُ طَرِيَّةٌ أَجْسَامُهُمْ لَيْسَ فِيهَا قَيْحٌ وَلَا دَمٌ.

مَسْالَةٌ تَتَعَلَّقُ بِالْبَابِ: و هِيَ مَا حُكْمُ الصَّلاةِ فِي الْمَسْجِدِ الَّذِي فِيه قَبْرٌ ؟ فَالْجَوَابُ أَنَّ فِيهَا تَفْصِيلاً :

- مَنْ قَصَدَ الصَّلاةَ فِي الْمَسْجِدِ مِنْ أَجْلِ الْقَبْرِ فَصَلاتُهُ بَاطِلَةٌ .
- ومَنْ صَلَّى فِي مَسْجِدٍ فِيه قَبْرٌ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ بالقبر صَحَّتْ صَلاتُهُ وَلَا تَلْزَمُهُ الْإعادَةُ.
- وَمَنْ صَلَّى فِي مَسْجِدٍ فِيه قَبْرٌ وَهُوَ يَعْلَمُ بالقبر مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ لِلْقَبْرِ فَهُوَ آثمٌ، وَالْخِلافُ فِي صِحَّةِ صَلاتِهِ قَائِمٍ وَالْأحوط ترك الصلاة فيه لَا سِيَّما إِذَا كَانَ الْقَبْرُ مِنْ جِهَةِ الْقِبْلَةِ مع وجود مسجد آخر ولم تكن فيه تلك المحاذير.

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١/٤٥٤)، وقال شعيب الأرناؤوط: «الحديث حسن لغيره».

(٢) أخرجه ابن ماجه السنن ، باب اتباع سنة رسول الله ﷺ برقم (٦) وصححه الألباني في الصحيحة برقم : (٤٠٣)

[٢١]

بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ الغُلُوَّ فِي قُبُورِ الصَّالِحِينَ يُصَيِّرُهَا أَوْثَاناً تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ : أَنَّ الإمام – رحِمَهُ اللهُ – حَذَّرَ فِي الْبَابِ السَّابِقِ مِنَ الْغُلُوِّ فِي قُبُورِ الصَّالِحِينَ، وَذَكَرَ هُنَا الْغَايَةَ وَالنَّتِيجَةَ ، وَهِي أَنَّهَا تَصِيرُ أَوْثَاناً تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ. قولُهُ (مَا جَاءَ) أي مِنَ الأدلةِ من الكتابِ والسُّنةِ أنَّ الْغُلُوَّ: هُوَ مُجَاوَزَةُ الحَدِّ الْمَشْرُوعِ، والمشروع هو زيارة قبورهم للدعاء لهم الاتعاظ بهم و **أَمَّا الْغُلُوُّ فِي الْقُبُورِ فَهُوَ أَنْوَاعٌ مِنْهَا:** قَصدُهَا لِلتَّبَرُّكِ وَالدُّعَاءِ وَالذَّبحِ وَالْبِناءِ عَلَيهَا ، وَإِنارَتِهَا.(أَوْثَاناً) الْوَثَنُ : هُوَ كُلُّ مَا عُبِدَ مِنْ دُونِ اللهِ ، وَخَصَّهُ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ بِمَا يُبَاشِرُهُ الْعَابِدُ.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[رَوَى مَالِكٌ فِي الْمُوَطَّأِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:(اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ، اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ)[1].]

قوله: (روى مَالِكٌ) هُوَ مَالِك بْنُ أنَس بْنِ مَالِك بْنِ أَبِي عَامِرٍ الأصبُحي ، أَبُو عَبْدِ اللهِ الْمَدَنِيُّ ، إِمَامُ دَارِ الْهِجْرَةِ ، اشْتَهَرَ بِتَعْظِيمِ السُّنَةِ، أَحَدُ الْأَئِمَّةِ الاربَعَةِ، مَاتَ سَنَةَ ١٧٩هـ ، وَلَهُ تِسعُونَ سَنَةً. قولُهُ: (اللَّهُمَّ) أَصْلُهَا يا اللَّهُ ، وَالْمِيمُ عِوَضٌ عَنْ ياء النِّدَاءِ .قولُهُ: (لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثنًا يُعْبَدُ) فِي الْحدِيثِ أَنَّه لَوْ عُبِدَ قَبْرُهُ لَصَارَ وَثَنا، لَكِنَّ اللهَ حَمَاه فَلَا سَبِيلَ إِلَى الْوُصُولِ إِلَيه، هَذَا إِذَا قُلنَا: أَنَّ الْوَثَنَ هُوَ الَّذِي يُبَاشِرُهُ الْعَابِدُ، أَمَّا إِذَا قِيلَ: لَا يَشْتَرِطُ فِي الْوَثَنِ مُبَاشَرَةُ الْعَابِدِ، فَالْجَوابُ: أَنَّ اللهَ لَمْ يَسْتَجِبْ دَعْوَةَ نَبِيِّهِ صلى الله عليه وسلم لِحِكْمَةٍ يَعْلَمُهَا، وَقَدْ وَرَدَ فِي حَدِيثٍ آخر أَنَّ النَّبِي ﷺ قَالَ:(سَأَلتُ رَبِي ثَلَاثًا فَأَعْطَانِي اثنتين وَمَنَعَنِي الثَّالِثَةَ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ، وَفِيه خَوْفُ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى أُمَّتِهِ مِمَّا يُوجِبُ عَلَيهَا غَضَبُ رَبِّهَا، وَفِي دُعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ ألا يَجْعَلَ قَبْرَهُ وَثنا دَلِيلٌ عَلَى إِمْكانِ الْوُقُوعِ، إِذْ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَطْلُبَ مَا لَا يُمْكِنُ وُقُوعُهُ ؛ لأَنَّ ذَلِكَ مِنَ الْاعْتِداءِ فِي الدُّعَاءِ.

(١) أخرجه مالك في «موطئه»: كتاب النداء للصلاة– باب جامع الصلاة (٤١٦)، وهو صحيح راجع تحذير الساجد، ص:١٧.

قَالَ ابن الْقَيِّمِ:

وَدَعَا بألا يَجْعَلَ الْقَبْرَ الَّذِي *** ضمَّهُ وَثناً مِنَ الاوْثانِ

فَأجَابَ رَبُّ الْعَالَمِيْنَ دُعاءَهُ *** وَأَحَاطَهُ بِثَلاثَةِ الْجُدْرَانِ

حَتَّى غَدَتْ أَرْجاؤُهُ بِدُعَائِهِ *** فِي عِزَّةٍ وَحِمَايَةٍ وصيانِ

(اشْتَدَّ غَضبُ اللَّهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ) فِي هَذِه الْجُمْلَةِ مِنَ الْفَوائِدِ: إِثْبَاتُ صِفَةِ الْغَضَبِ لله وَأَنَّه لَيْسَ كَغَضَبِ الْمَخْلُوقِ، وَأَنَّ اتِّخَاذَ الْقُبُورِ مَسَاجِدَ مِنْ وَسَائِلِ جَعْلِهَا أَوْثَاناً، وَجَمَعَ النَّبِيُّ ﷺ فِي هَذَا الْحَدِيثِ بَيْنَ الْغَايَةِ وَالْوَسِيلَةِ وَنَفَّرَ مِنَ الْوَسِيلَةِ بِبَيَانِ أَنَّهَا سَبَبُ غَضَبِ اللهِ، وَفِيهِ حُسْنُ تَعْلِيمِ النَّبِي ﷺ، وَتَحْرِيمُ الصَّلاةِ عَلَى الْقُبُورِ وَبِنَاءِ الْمَسَاجِدِ عَلَيهَا وَالصَّلاةِ إِلَيهَا بَلْ هُوَ من وسائل الشرك وذرائعه ، قَالَ الْقَاضِي عياض – رَحِمَهُ اللهُ –:(وَكَرِهَ مَالِكٌ أَنْ يُقَالَ : زُرْنَا قَبْرَ النَّبِي ﷺ ،... وَكَرَاهَةُ مَالِكٍ لَهُ لِإضافَتِهِ إِلَى قَبْرِ النَّبِي ﷺ وَأَنَّه لَوْ قَالَ زُرنا النَّبِي ﷺ لَمْ يَكْرَهْهُ لِقَولِهِ ﷺ (اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنا يُعَبَدُ بعدى، اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أنبيائِهِمْ مَسَاجِدَ][١] وَقَالَ أيضاً:[وَقَالَ فِي الْمَبْسُوطِ: لَا أَرَى أَنْ يَقِفَ عِنْدَ قَبْرِ النَّبِي ﷺ يَدْعُو وَلَكِنْ يُسَلِّمُ وَيَمْضِي] [٢].

اعْتِراضٌ وَجَوَابُهُ : إِذَا اعْترَضَ مُعْتَرِضٌ بِأَنَّ قَبْرَ النَّبِي ﷺ الْآنَ فِي مَسْجِدِهِ فَمَا الْجوَابُ ؟

الْجوَابُ مِنْ وُجُوهٍ :

الأول :أننا لا نسلم أن قبره ﷺ في مسجده وإنما دفن في حجرة عائشة رضي الله عنها لكن توسع المسجد حتى أحاط بالحجرة .

الثَّانِي أنَّ مَسْجِدَه لَمْ يُبْنَ عَلَى قَبْرِهِ ﷺ والاستدلاَل يكونُ بفعلِ النَّبيِّ ﷺ وليسَ بالواقعِ .

---

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض(٢/٨٤).

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض(٢/٨٥).

الثَّالِثُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَاتَ وَالْمَسْجِدُ مَوْجُودٌ وَلَمْ يُدْفَنْ دَاخِلَ الْمَسْجِدِ بَلْ دُفِنَ فِي حجرة عَائِشَةَ – رضي الله عنها – لِحَدِيثِ: أَبِي بَكْرٍ « مَا قَبَضَ اللَّهُ تَعَالَى نبياً إِلّا فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُدْفَنَ فِيه ». رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ الألباني ، وَكَانَتْ عَائِشَةُ فِي حُجْرَتِهَا حَتَّى مَاتَ عُمَرُ رضي الله عنه. أما دفن الشيخين فيجوز تبعا ما لا يجوز استقلالا

الرَّابِعُ: أَنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ أَنْ يُدْفَنَ نَبِيُّهُ ﷺ فِي الْمَسْجِدِ لَأَنَّهُ لَمْ يَقْبِضْهُ فِيه.

الْخَامِسُ :أَنَّ النبي ﷺ لَا يُحِبُّ أَنْ يُدْفَنَ فِي الْمَسْجِدِ لَأَنَّهُ يحب ما يحب الله عز وجل.

السَّادِسُ: أَنَّ الصَّحَابَةَ إِنَّمَا دَفَنُوهُ فِي بَيْتِهِ خَوْفًا مِنَ اتِّخَاذِ قَبْرِهِ مَسْجِدًا قالت عائشةُ رضي اللهُ عنْها(لَوْلَا ذَلِكَ لأبرز قَبْرُهُ).

السَّابع: أَنَّ الْخُلَفَاءَ الرَّاشِدِينَ ؛ كعُمَرَ وَعُثْمانَ رضي الله عنهُم قَدْ وَسَّعُوا الْمَسْجِدَ وَلَمْ يُوسِّعُوهُ مِنْ جِهَةِ الحُجْرَةِ

الثَّامِنُ : أَنَّ الدُّعَاءَ وَالصَّلَاةَ الَّتِي تُفْعَلُ إِنَّمَا هِيَ فِي مَسْجِدِهِ وَلَيْسَتْ عِنْدَ قَبْرِهِ، لأنَّ الْقَبْرَ بَعِيدٌ جِدًّا بِالنِّسْبَةِ لِمَنْ هُوَ خَارِجُ الحُجْرَةِ.

التاسع: أَنَّ إِدْخَالَ حُجَرِ أَزْوَاجِ النَّبِي ﷺ فِي تَوسعَةِ الْمَسْجِدِ كَانَ فِي عَهْدِ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ سَنَة (٨٨)، وَلَمْ يَكُنْ يَوْمَئِذٍ مِنَ الصَّحَابَةِ أحَدٌ بِالْمَدِينَةِ، وَقَدْ أَنْكَرَهُ خِيَارُ التَّابِعِينَ كَسَعِيد بْنِ المسيّب. فَفِعْلُ الْوَلِيدِ خَطَأٌ لَا يُتَابِعْ عَلَيه – عَفَا اللهُ عَنْه –.(١)

العاشر: أَنَّ الْوَلِيدَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ وَمَنْ أَدْخَلَ الْقَبْرَ فِي الْمَسْجِدِ قَدْ احْتَاطُوا لِذَلِكَ فَبنَو جِدارين مُنْحَرِفَيْنِ مِنْ رُكْنِي الْقَبْرِ الشَّماليّينِ حَتَّى التَقيَا فِي زاوِيَةِ مُثَلَّثٍ ؛ لئلا يَتمكَّنَ أحَدٌ مِنَ اسْتِقْبالِ الْقَبْرِ.

---

(١) انظر أحداث ٨٨ البداية والنهاية لابن كثير.

الحادي عشر : أن دخول القبر كان تبعا لدخول الحجرة وأن دخول الحجرة كان ضمن دخول حجرات أزواج النبي ﷺ ولم يكن القبر مقصودا أبدا.

الثاني عشر: لقد مات في عهد النبي ﷺ جماعة من الصالحين ولم يدفنهم في المسجد.

الثالث عشر : أن الصحابة والتابعين لم يقيسوا على دخول قبر النبي ﷺ في مسجده فيدفنوا من مات منهم من الصالحين في المساجد

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[وَلابْنِ جَرِيرٍ بِسَنَدِهِ عَنْ سُفْيَانَ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴾[1].قَالَ كَانَ يَلُتُّ لَهُمْ السَّوِيقَ، فَمَاتَ، فَعَكَفُوا عَلَى قَبْرِهِ)[2]،وَكَذَا قَالَ أَبُو الجَوْزَاءِ، عن ابنِ عَبَّاسٍ (كَانَ يَلُتُّ السَّوِيقَ لِلْحَاجِّ)[3]]

مَضَى الْكَلامُ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ ، وذَكَرْتُ أَنَّ فَائِدَةَ الْاسْتِفْهامِ التَّحْقِيرُ بَعْدَ ذِكْرِ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى عَظَمَةِ اللهِ.(كَانَ يَلُتُّ السَّوِيقَ) السَّوِيقُ هُوَ خلطُ الدَّقِيقِ بِالسَّمْنِ، (لِلْحاجِّ) اسم جِنْسٍ أيْ: لِجَمِيعِ الْحجِيجِ. وَمُنَاسَبَةُ الْأَثَرِ لِلبَابِ : أَنَّهُمْ غَلَوا فِيه لِصَلاحِهِ وَإِطْعامِهِ الطَّعَامَ حَتَّى عَبَدُوا قَبْرَهُ وَعَكَفُوا عِنْدَه وَلَازَمُوهُ عَلَى وَجْهِ الْقُرْبَةِ ثم إنهم صوروا صورته وعبدوه مع الله فَصَارَ وَثَنَا.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[وَعن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ:(لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَائِرَاتِ الْقُبُورِ، وَالْمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ)[4] رَوَاهُ أَهْلُ السُّنَنِ]

---

(١) سورة النجم الآية: ١٩.

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (٥٢٣/٢٢).

(٣) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (٥٢٣/٢٢).

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٢٩/١) وأبوداود في كتاب الجنائز– باب في زيارة النساء القبور (٣٢٣٦) والترمذي في كتاب الصلاة– باب ماجاء في كراهية أن يتخذ على القبر مسجدًا (٣٢٠)،والنسائي في «سننه الكبرى» (٢١٧٠) وفي «المجتبى»: كتاب

[٢١] بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ اَلْغُلُوَّ فِي قُبُورِ اَلصَّالِحِينَ يُصَيِّرُهَا أَوْثَانًا تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اَللَّهِ

قَالَ الشَّيْخُ الألباني – رَحِمَهُ اللهُ –:(عِلَّةُ هَذَا الْحَدِيثِ باذّان – بِالنُّونِ أَوْ الْمِيمِ – مَوْلَى أَمِّ هانِي وَهُوَ ضَعِيفٌ عِنْدَ جمْهُورِ النُّقَّادِ، وَقَدْ وَسَمَهُ بَعْضُهُمْ بِالتَّدْلِيسِ)(١) وَقَدْ صَحَّحَ الْعَلامَةُ الألباني الْحَديثَ بِلَفْظِ (لَعَنَ اللهُ زَوَّارَاتِ الْقُبُورِ)(٢). فالنهيُّ لهُنَّ عَن الْمُبَالَغَةِ لا عَنْ أَصْلِ الزِّيارَةِ فَالْمُحَرَّمُ عَلَى مَا ذَهَبَ إِلَيه كَثْرَةُ الزِّيارَةِ فَقط وَمِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ مَنْ قَالَ: قَدْ تُطْلَقُ الْمُبَالَغَةُ عَلَى أَصْلِ الْفِعْلِ وهُوَ كَثِيرٌ فِي اللُّغَةِ فَزِيارَةُ الْمَرْأَةِ مُحَرَّمَةٌ عندهم مُطْلَقاً وَإِنْ لَمْ تُكثِرْ مِنْهَا خَاصَّةً مَعَ اسْتِصْحابِ جَزَعِ النِّساءِ وَعَدَمِ صَبْرِهِنَّ. والأرجح ما ذهب إليه الألباني – رحمه الله – فعَنْ أَنَسٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَعْنِي – مَرَّ بِامْرَأَةٍ تَبْكِي عِنْدَ قَبْرٍ، فَقَالَ: «اتَّقِي اللَّهَ، وَاصْبِرِي» . فَقَالَتْ: وَأَنْتَ مَا تُبَالِي بِمُصِيبَتِي؟ فَقِيلَ لَهَا: إِنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فَأَخَذَهَا مِثْلُ الْمَوْتِ، فَأَتَتْهُ، فَقَالَتْ: إِنِّي لَمْ أَعْرِفْكَ. فَقَالَ: «الصَّبْرُ عِنْدَ أَوَّلِ صَدْمَةٍ» والشاهد أنه لم ينهها عن زيارة القبر حتى بعد ما جاءته معتذرة وأصرح من ذلك ما جاء عن عائشة ﵂ أنَّها سألتْ النبي ﷺ كَيْفَ أَقُولُ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ قُولِي السَّلَامُ عَلَى أَهْلِ الدِّيَارِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ وَيَرْحَمُ اللَّهُ الْمُسْتَقْدِمِينَ والمستأخرين وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَلاحِقُونَ رَوَاهُ مُسْلِمٌ وهذا النص والسؤال من أصرح الأدلة وأوضحها إذ لم يقل لها رسول الله ﷺ لا تذهبي إلى المقابر وأنَّ ذلك خاص بالرجال. أمَّا قَوْلُهُ :(وَالْمُتَّخِذِينَ عَلَيهَا الْمَسَاجِدَ) فَقَدْ تَقَدَّمَ مَا يَشْهَدُ لَهُ. أمَّا قَوْلُهُ:(وَالسُّرُجَ) جَمْعُ سِرَاجٍ وَهِي الْمَصَابِيحُ والمراد بها تخصيص قبرٍ معينٍ بالمصابيح لا إضاءة المقبرة عامة. قَالَ الألباني – رَحِمَهُ اللهُ –:(لَمْ نَجِدْ فِي الاحادِيثِ مَا يَشْهَدُ لَهُ، فَهَذَا الْقَدْرُ ضَعِيفٌ، وَإِن لَهَجَ بَعْضُ إِخْوَانِنَا السَّلَفِيّينَ فِي بَعْضِ الْبِلادِ بِالاسْتِدْلالِ بِهِ، فَنَصِيحَتي إِلَيهِمْ أَنْ يُمْسِكُوا عَنْ نِسْبَتِهِ إِلَيه صلى الله

التغليظ في اتخاذ السرج على القبور (٢٠٤٣)، وابن ماجه في كتاب ماجاء في الجنائز– باب ما جاء في النهي عن زيارة النساء القبور (١٥٧٥)، وابن حبان في«صحيحه» (٣١٧٩)، (٣١٨٠)، والحاكم في «المستدرك على الصحيحين» (١/٥٣٠).

(١) الضعيفة برقم (٢٢٥) بتصرف تنبيه والحديث ضعفه الإمام مسلم –رحمه الله – كما في تحذير الساجد للعلامة الألباني–رحمه الله– ص ٤١– ٤٢ وضعفه الشيخ مقبل بن هادي الوادعي – رحمه الله– في تتبعه لأوهام الحاكم في المستدرك (١/٢٤٥).

(٢) انظر صحيح الجامع برقم (٤٩٨٥) .

عليه وسلم، وَيَسْتَدِلُّوا عَلَى مَنْعِ السُّرُجِ بِعُمُومَاتِ الشَّرِيعَةِ ، كَحَدِيثِ كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ ، وَنَهْيِهِ عَنْ إِضاعَةِ الْمَالِ، وَنَهْيِهِ عَنِ التَّشَبُّهِ بِالْكفَّارِ) (١) ومن صور الغلو المنتشرة اتخاذ الأعلام والرايات عليها.

---

(١) السلسلة الضعيفة برقم (٢٢٥) بتصرف.

[٢٢]

بَابُ مَا جَاءَ فِي حِمَايَةِ الْمُصْطَفَى ﷺ جَنابَ التَّوحيد وَسَدِّهِ كُلَّ طَرِيقٍ يُوصِلُ إِلَى الشِّرْكِ.

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ: أَنَّ هَذَا الْبَابَ مِنْ جِنْسِ الأبواب السَّابِقَةِ فِي التَّحْذِيرِ مِنَ الْغُلُوِّ، وَلَكِنَّه فِي التَّحْذِيرِ مِنَ الْغُلُوِّ فِي رَسُولِ اللهِ ﷺ خَاصَّةً ، فَيَكُونُ هَذَا مِنْ عَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِ. ويكون هذا من التدرج في تخليص الناس من الغلو شيئا فشيئا فبعد النهي عن الغلو في الصالحين يحذر من الغلو في النبي ﷺ لعظيم جنابه وعلو منزلته. وَمَعْنَى التَّرْجَمَةِ : بَابٌ مَا جَاءَ أَيْ : مِنَ الْأدلةِ، (فِي حِمَايَةِ) مَصْدَرُ حَمَى يَحْمِي إِذَا جَعَلَ لَهُ مَانِعاً يَمْنَعُ مِنْ قُرْبِهِ ، وَ(الْمُصْطَفى) الْمُخْتَارُ وَهو مِنْ صفاتهِ وَلَيْسَ مِنْ أَسْمَائِهِ ، (جَنَابَ التَّوْحِيدِ) أَيْ : جَانِبَهُ الْعَظِيمَ ،(وَسَدِّهِ) الضَّمِيرُ يَعُودُ إِلَى النَّبي ﷺ .(كُلَّ طَرِيقٍ) : مَفْعُولٌ بِهِ لِلْمَصْدَرِ سَدَّهُ و المعنى سد النبي ﷺ كل طريق يوصل إلى الشرك.

قَالَ الإِمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[وقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[(١)]]

هَذَا الْخَبَرُ مُؤَكَّدٌ بِثَلاثِ مُؤَكِّدَاتٍ: اللامُ وَقَدْ وَالْقَسَمُ الْمَحْذُوفُ، وَقَدْ وَصَفَ اللَّهُ عزَّ وَجل رَسُولَهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِأَرْبَعِ صِفَاتٍ: الأولى:(رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ) والْخِطَابُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ لِلْبَشَرِ، وَقَدْ جَاءَ هَذَا الْمَعْنَى صَرِيحاً فِي قَوْلِهِ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾[(٢)] وَقِيلَ الْخِطَابُ لِلْعَرَبِ، وَلَا تَعَارُضَ ، فَيَكُونُ كَقَوْلِهِ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾[(٣)] فَالْمِنَّةُ حاصِلَةٌ بِنَبِيِّنَا ﷺ عَلَى الْبَشَرِ عَامَّةً، وَعَلَى الْعَرَبِ خَاصَّةً ؛ لأَنَّ الْمِنَّةَ عَلَيهِم أَعْظَم.

---

(١) سورة التوبة الآية: ١٢٨.

(٢) سورة فصلت الآية: ٦.

(٣) سورة الجمعة الآية: ٢.

الثَّانِيَةُ:(عَزِيزٌ عَلَيه مَا عِنِتُّم) أَيْ: يَصْعُبُ عَلَيه عَنتُكُمْ أيْ: مَشَقَّتُكُمْ، وَهَذَا مِنْ كَمَالِ شَفَقَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ ﷺ لَنَا. الثَّالِثَةُ :(حَرِيصٌ عَلَيكُم) الْحِرْصُ: هُوَ بذْلُ الجُهْدِ لِإِدْرَاكِ أَمْرِ مَقْصُودٍ ، فَهُوَ حَرِيصٌ عَلَى إيصَالِ الْخَيْرِ إِلَينَا وعتد النسائي من حديث أبي هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسَلَّمَ: ((إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ مِثْلُ الْوَالِدِ أُعَلِّمُكُمْ)).

الرَّابِعَةُ:(بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ) تَقْدِيمُ الجَارِ وَالْمَجْرُورِ يُفِيدُ الْحصْرَ، فَهُوَ عَلَى الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ غَلِيظٌ شَدِيدٌ؛ لأَنَّ الله أَمْرَهُ بِذَلِكَ كما في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾[1] وَالرَّأْفَةُ أَرق مِنَ الرَّحْمَةِ. وَمُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِلبَابِ: إِذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ متصفاً بِهَذِه الصِّفَاتِ فَهَلْ يليق بِمَنْ هَذِهِ صفاتُهُ أَنْ يَتْرُكَ الْأُمَّةَ تَقَعُ فِي الشِّرْكِ وَأَسْبَابِهِ وَلَا يُحَذِّرُهَا مِنْهُ !؟ وَفِي الْآيَةِ مِنَ الْفَوَائِدِ: التَّنْبِيهُ إِلَى مِنَّةِ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ، وَفِيهَا التَّنْبِيهُ إِلَى جَمِيلِ صفاتِهِ، وَفِيهَا أَنَّ الرَّحْمَةَ وَالرَّأْفَةَ بِالْأُمَّةِ تَقْتَضِي تَحْذِيرهَا مِنَ الشِّرْكِ، فَالدُّعَاةُ الَّذِين يحذورنها من الشِّرْكِ من أَرْحَمِ النَّاسِ بِهَا.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:(لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، وَلَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ، تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ)[2] رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ وَرُوَاتُهُ ثِقَاتٌ.]

قوله:(لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا) **لِهَذِهِ الْجُمْلَةِ مَعْنيانِ: الأول ظاهرٌ**: وهو لَا تَدْفِنُوا الْموتى فِي الْبُيُوتِ لما فِيه مِنَ التَّضْيِيقِ عَلَى الْوَرَثَةِ، و حِرْمَانُ الْمَيتِ مِنْ دَعْوَةِ الْمُسْلِمِينَ **وَالثَّانِي**: صَلَّوْا فِي بُيُوتِكُمْ وَاقْرَؤُوا فِيهَا الْقُرْآنَ؛ لأَنَّ المتقرر عِنْدَهُمْ أَنَّ الْقُبُورَ لَا يُصَلَّى فِيهَا وَلَا يُقْرَأ فِيهَا الْقُرْآنُ. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ:(اجعَلُوا فِي

(١) سورة التوبة الآية: ٧٣.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢/٣٦٧)، وأبوداود في كتاب المناسك- باب زيارة القبور (٢٠٤٢)،وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٢٢٦).

بُيوتِكُمْ مِنْ صَلَاتِكُمْ وَلَا تَتَّخِذُوهَا قُبُورًا)[١]. وفي مسلمٍ: (لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْفِرُ مِن الْبَيْتِ الَّذِي تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ)[٢].وَفِي الْحديثِ الْعِنَايَةُ بِالْبُيُوتِ وَعِمَارَتِهَا بِالصَّلَاةِ وَقِرَاءةِ الْقُرْآنِ.

قَولُهُ: (وَلَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا) قَالَ ابن الْقَيِّمِ – رَحِمَهُ اللهُ –:(الْعِيدُ هُوَ مَا يَعْتَادُ النَّاسُ مجيئَهُ وَقَصْدَهُ مِنْ زَمانٍ وَمَكَانٍ،أُخِذَ مِنَ الْمُعَاوَدَةِ وَالْاعْتِيادِ)[٣] ، وَالْمعْنَى: لَا تَتَرَدَّدُوا عَلَى قَبْرِي وَلَا تَعْتَادُوا ذَلِكَ فِي أَوْقَاتٍ مَعْلُومَةٍ، وَإِنَّمَا يُزَارُ لِسَببٍ كَمَنْ قَدِمَ مِنْ سَفرٍ أَوْ زَارَهُ لِيَتَذَكَّرَ الْآخِرَةَ ، ففي الحديث مشروعية زيارة قبره ﷺ وأنها من القرب كما قال الإمام في المسألة الرابعة نهيه عن زيارته على وجه مخصوص مع أن زيارته من أفضل الأعمال وفي هذه المسألة رد على من يقول أن الإمام يحرم زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم لكن الزيارة فيها المشروع وفيها الممنوع فالزيارة المشروعة هي التي سلمت من البدع بأن لا يكرر المجيء ولا يدعو الله عنده ولا يشد رحله من أجل القبر بل من أجل المسجد ويزور القبر تبعا ومن صور اتخاذ قبره عيدا شد الرحال إليه ومنها الاجتماع عند زيارته قَولُهُ :(وَصلُّوا عَلَيَّ) هَذَا أَمْرٌ بِالصَّلَاةِ عَلَيه ، فَقَدْ تَجِبُ وَقَدْ تُسْتَحَبُّ بِحَسْبِ الْحالِ. (فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ، تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ) هَذَا تَعْلِيلٌ لِلنَّهْيِ عَنْ تَكْرارِ الزِّيارَةِ قَالَ ابن تَيمِيَّةَ – رَحِمَهُ اللهُ –:(يُشِيرُ بِذَلِكَ إِلَى أَنَّ مَا نَالَنِي مِنْكُمْ مِنَ الصَّلَاةِ وَالسّلَامِ فَإِنَّه يَحْصُلُ بِقُرْبِكُمْ مِنْ قَبْرِي وَبَعْدَكُمْ ، فَلَا حاجَةَ لِاتِّخَاذِهِ عِيدًا)[٤] .

وَقَدْ كَانَ السَّلَفُ يَنْهَوْنَ عَنْ هَذَا التَّرَدُّدِ فَعَنْ سَهْلِ بْنِ سُهَيْلٍ قَالَ رَآنِي الْحسَنُ بْنُ الْحسَنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عِنْدَ الْقَبْرِ فَنَادَانِي وَهُوَ فِي بَيْتِ فَاطِمَةَ يَتَعَشَّى فَقَالَ هَلُمَّ إِلَى الْعَشَاءِ فَقُلْتُ لَا أُرِيدُهُ فَقَالَ مَا لِي رَأَيْتُكَ عِنْدَ الْقَبْرِ فَقُلْتُ سَلَّمْتُ عَلَى النَّبِي ﷺ فَقَالَ: إِذَا دَخَلْتَ الْمَسْجِدَ فَسَلِّمْ ثمَّ قَالَ إِنَّ رَسُولَ

---

(١) أخرجه البخاري، بَاب كَرَاهِيَةِ الصَّلَاةِ فِي الْمَقَابِرِ، برقم: (٤١٤)، واللفظ له، ولفظ مسلم: (اجْعَلُوا مِنْ صَلَاتِكُمْ فِي بُيُوتِكُمْ وَلَا تَتَّخِذُوهَا قُبُورًا)، بَاب اسْتِحْبَابِ صَلَاةِ النَّافِلَةِ فِي بَيْتِهِ وَجَوَازِهَا فِي الْمَسْجِدِ، برقم: (١٢٩٦).

(٢) أخرجه مسلم، بَاب اسْتِحْبَابِ صَلَاةِ النَّافِلَةِ فِي بَيْتِهِ وَجَوَازِهَا فِي الْمَسْجِدِ، برقم (١٣٠٠).

(٣) إغاثة اللهفان ١/١٩٠.

(٤) اقتضاء الصراط المستقيم ١٧٣/٢.

اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا وَلَا تَتَّخِذُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ وَصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ مَا كُنْتُمْ لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ مَا أَنْتُمْ وَمَنْ بَالأَنْدَلُسِ إِلَّا سَوَاءٌ [(١)]. أي: في الصلاةِ على النَّبيِّ ﷺ؛ لقوله ﷺ: (إِنَّ لِلَّهِ مَلَائِكَةً فِي الأَرْضِ سَيَّاحِينَ يُبَلِّغُونِي مِنْ أُمَّتِي السَّلَامَ) [(٢)].

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ الحُسَيْنِ ﷺ: (أَنَّهُ رَأَى رَجُلاً يَجِيءُ إِلَى فُرْجَةٍ كَانَتْ عِنْدَ قَبْرِ النَّبِي ﷺ فَيَدْخُلُ فِيهَا فَيَدْعُو، فَنَهَاهُ وَقَالَ أَلا أُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا سَمِعْتُهُ مِنْ أَبِي عَنْ جَدِّي عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا، وَلَا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ تَسْلِيمَكُمْ لَيَبْلُغُنِي أَيْنَ كُنْتُمْ)[(٣)] رَوَاهُ فِي الْمُخْتَارَةِ.]

قوله: (عَلِيّ بْنِ الحسَيْنِ) الْمَعْرُوفُ بِزَيْنِ الْعَابِدِينَ مِنْ خِيَارِ التَّابِعِينَ ، قَالَ الزُّهْرِيُّ: مَا رَأَيْتُ قُرَشِيًا أَفْضَلَ مِنْ قوله:(أَنَّهُ رَأَى رَجُلاً يَجِيءُ إِلَى فُرْجَةٍ) الْفُرْجَةُ الْكَوَّةُ فِي الْجِدارِ أَيْ : فَتْحَةٌ فِي الْجِدارِ غَيْرُ نَافِذَةٍ .(فَيَدْخُلُ فِيهَا فَيَدْعُو، فَنَهَاهُ) فيه : النَّهْي عَنْ قَصْدِ الْقَبْرِ لِلدُّعَاءِ ، و فيه تَغْيِيرُ الْمُنْكَرِ لَا سيَّما إِنْ كَانَ مِنْ وَسَائِلِ الشِّرْكِ. وَفِي هَذِهِ الْآثَارِ حِمَايَةُ السَّلَفِ لِجَنَابِ التَّوْحِيدِ.(وَقَالَ أَلا أُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا سَمِعْتُهُ ...) فِيه: أَنَّ النَّهْيَّ عَنِ الْمُنْكرِ إِنَّمَا يَكُونُ بِبَيِّنَةٍ وَحُجَّةٍ. وَإِنَّمَا سَاقَ الإمام هَذَا الْحَدِيث وَإِنْ كَانَ مُطَابِقًا لِلَّذِي قَبْلَهُ لَفْظَاً وَمَعْنى؛ لِيُبَيِّنَ فَهْمَ السَّلَفِ لِهَذِهِ النُّصُوصِ ، فَإِنَّهُ الْفَيْصَلُ فِي فهمِ الوحيين، فَإِنَّ علياً زَيْنَ الْعَابِدِينَ فَهِمَ أَنَّ التَّرَدُّدَ عَلَى الْقَبْرِ وَالدُّعَاءُ عِنْدَه مِنَ اتِّخَاذِهِ عِيدًا ؛ لَأَنَّهُ لَيسَ فِي

---

(١) أخرجه أحمد برقم: (٣٤٨٤)، وصححه الألباني في المشكاة برقم: (٩٢٤).

(٢) أحكام الجنائز ٢٢٠.

(٣) أخرجه الضياء المقدسي في «الأحاديث المختارة» (٤٢٨/٢٤٤/١)، وابن أبي شيبة في "مصنفه" (٣٧٥/٢)، وحسنه الألباني في "تحذير الساجد" ص:١٤٠.

الْحديثِ نَهيٌ عَنِ الدُّعَاءِ وَالتَّرَدُّدِ ، كَمَا أَنَّ الإمام سَاقَهُ أيضاً تَكْثِيرًا لِلْأدلةِ. لكن في هذا الحديث فإن تسليمكم يبلغني وهناك صلاتكم (رَوَاهُ فِي الْمُخْتَارَةِ) وَهُوَ كِتَابُ ضِيَاءِ الدِّينِ الْمَقْدِسِيّ.

مَسْألةٌ :

هَلْ يُشْرَعُ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يُسَافِرَ لِزِيارَةِ قَبْرِ النَّبِيِّ ﷺ أَوْ يَشُدَّ الرِّحالَ مِنْ أَجْلِ زِيارَةِ الْقَبْرِ ؟ قَالَ عَلامَةُ الدُّنْيا الشَّيْخُ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ بَازٍ – رَحِمَهُ اللهُ -: وَأَمَّا شَدُّ الرِّحَالِ لِزِيارَةِ الْقُبُورِ فَلا يَجُوزُ، وَإِنَّما يُشْرَعُ لِزِيارَةِ الْمَسَاجِدِ الثَّلاثَةِ خَاصَّةً؛ لِقَوْلِهِ ﷺ:«لَا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلاثَةِ مَسَاجِدَ: الْمَسْجِدُ الْحَرامُ وَمَسْجِدِي هَذَا وَالْمَسْجِدُ الْأَقْصَى » مُتَّفَقٌ عَلَى صِحَّتِهِ ، وَإِذَا زَارَ الْمُسْلِمُ مَسْجِدَ النَّبِيِّ ﷺ دَخَلَ فِي ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ التَّبَعِيَّةِ زِيارَةُ قَبْرِهِ ﷺ وَقَبْرِ صَاحِبِيهِ)[١]

ومعنى الحديث لا تشد الرحال في الاسلام إلى بقعة تقربا إلا إلى هذه المساجد الثلاثة

(١) مجموع فتاوى ابن باز ٥/٣٣٣

[٢٣]

بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ بَعْضَ هَذِهِ الأمَّةِ يَعْبُدُ الاوْثَانَ

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ : أَنَّ الإمام – رَحِمَهُ اللهُ – بَعْدَ أَن ذَكَرَ سَبَبَ الشِّرْكِ وَهُوَ الْغُلُوُّ فِي قُبُورِ الصَّالِحِينَ وَأَنَّه يُصَيِّرُهَا أَوْثَانًا، وَمَا بَعْدَه مِنَ الأبواب عَلِمَ أَنَّ الْقَوْمَ سيأتون بِشُبْهَةٍ هِي عِنْدَهُمْ حُجَّةٌ يَرُدُّونَ بِهَا هَذَا الْبَيَانَ وَهِي قَوْلُهُمْ إِنَّ هَذِهِ الأمة أَمَّةٌ مَرْحُومَةٌ مَعْصُومَةٌ لَا يُمْكِنْ أَنْ تَقَعَ فِي الشِّرْكِ فَعَقدَ هَذَا الْبَابَ لِيُبَيِّنَ أَنَّ شُبْهَتَهُمْ وَاهِيَةٌ ، وَحُجَّتَهُمْ داحضةٌ . وَمَعَنى التَّرْجَمَةِ : بَابُ مَا جَاءَ مِنَ الْأدلةِ من الكتابِ والسُّنةِ عَلَى أَنَّ بَعْضَ هَذِهِ الْأُمَّةِ لَا كُلَّهَا يَعْبُدُ الاوْثَانَ.

والناس في الحكم بالتكفير طرفان ووسط الأول أهل التفريط من ينفي وقوع الشرك في الأمة

والثاني أهل الغلو وهم أهل التكفير فيزعمون أن الأمة كلها ارتدت عن الدين

والوسط أهل السنة الذين يقولون أن الشرك يقع من بعض هذه الأمة لا كلها للدليل الشرعي والحسي.

قَالَ الإمامُ –رَحِمَهُ اللهُ–: [وقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾(١)]

(أَلَمْ) الْاسْتِفْهامُ هُنَا تَقْرِيري (أُوتُوا) أَيْ : أَعْطُوْا ،(نَصِيبًا) أَيْ: حظاً وَجُزْءًا ، وَفِيه: أَنَّهُمْ لَمْ يَعْمَلُوا بِمُقْتَضى الْعِلْمِ، وَأَنَّ عِلْمَهُمْ بِالْكِتَابِ قليلٌ وضعيفٌ أو أن ما عندهم من العلم لم يعصمهم من الشرك (يُؤمنُونَ) أَيْ: يُقِرُّونَ بِهِ (بالجبتِ) وهو يَشْمَلُ الصَّنَمَ وَالسَّاحِرَ وَالْكَاهِنَ **(وَالطَّاغُوتُ)** هُوَ مَا تَجَاوَزَ بِهِ الْعَبْدُ حَدَّهُ مِنْ مَعْبُودٍ أَوْ متبوعٍ أَوْ مُطاعٍ.

(١) سورة النساء الآية: ٥١.

(وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا) جاءَ فِي الصَّحِيحِ الْمُسْنَدِ مِنْ أَسْبَابِ النُّزُولِ لِلْعَلامَةِ الْوادِعِي – رَحِمَهُ اللهُ – :(أَنَّ الْمُشْرِكِينَ قَالُوا لِكَعْبِ بْنِ الاشْرَفِ: نَحْنُ خَيْرٌ أَمْ هَذَا الصَّنْبُورُ الْأبْتَرُ يُرِيدُونَ: نَبِيَّنَا عَلَيه الصَّلاةُ و السَّلامُ ، فَقَال : أَنْتُمْ خَيْرٌ فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الْآيَةَ). قَالَ الْوادِعِي وَرِجَالُهُ رِجَالُ الصَّحِيحِ إلّا أَنَّ الرَّاجِحَ إِرْسَالَهُ [1]وَالصَّنْبُورُ بِمعْنى الْأبْتَرِ وَيُقَالُ لِلشَّجَرَةِ الَّتِي لَا أَصْلَ لَهَا.

قَالَ الإمامُ– رَحِمَهُ اللهُ– [وقوله تعالى:﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ ﴾[2]]

قبل هذه الآية قوله ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ۝٥٩ ﴾ فأهل الكتاب لا يعيبون علينا إلا توحيدنا وإيماننا قوله:(قل) يا أَيُّهَا النَّبِيُّ (هَلْ أنبِئُكُمْ) الْاسْتِفْهامُ هُنَا فَائِدَتُهُ التَّشْوِيقِ (بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ) الْإشارَةُ إِلَى النَّبِي ﷺ وَأَصْحَابِهِ؛ لأنَّ الْيَهُودَ قَالُوا مَا رَأَيْنَا دِيناً شراً مِنْ دِينِكُمْ فأخبر سبحانه أن هناك من هو شر ثم ذكر صفات اليهود. (مَثُوبَةً) أَيْ : جَزَاءاً وَثَواباً (مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ) أَيْ: طَرَدَهُ مِنْ رَحْمَتِهِ (وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ) جَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ (إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَجْعَلْ لِمَسْخٍ نَسْلاً وَلَا عَقِباً)[3] فليست القردة والخنازير الموجودة الآن من نسل اليهود الذين مسخهم الله (وَعَبَدَ الطَّاغُوت) فَاعِلُ عَبدَ ضَمِيرٌ مُسْتَتِرٌ جَوَازًا تَقْدِيرُهُ هُوَ يعود إلى اسم الموصول مَن .

---

(١) الصحيح المسند لأسباب النزول للوادعي ص: ٦٨

(٢) سورة المائدة الآية: ٦٠.

(٣)أخرجه مسلم باب بيان أن الآجال والأرزاق وغيرها لا تزيد ولا تنقص عما سبق به القدر برقم (٤٨١٤).

قَالَ الإمامُ- رَحِمَهُ اللهُ- [وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا﴾[1]]

قوله: (الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ) هُمْ الأمراءُ وَالْكبراء بِدَلِيلِ أَنَّه وَصَفَهُمْ بِأَنَّهُمْ (غَلَبُوا) وَبِدَليلِ تَأْكِيدِهِمْ لِلْفِعْلِ ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى نُفُوذِ أَمْرِهِمْ ، وَفِيه: أَنَّ بِنَاءَ الْمَسَاجِدِ عَلَى الْقُبُورِ مِنْ سَنَنِ مَنْ كَانَ قبْلَنَا. وقد لعن الله الذين اتخذوا القبور مساجد كما سبق ذكره في الباب السابق بل جاء وصفهم بأنهم شرار الخلق وَيَتِمُّ الْاسْتِدْلالُ بالآيات الثَّلاثَةِ بِحَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ – رضي الله عنه – أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ :(لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ...)[2] فَإنَّ الشِّرْكَ قَدْ وَقَعَ فِي الْأُمَمِ السَّابِقَةِ ، وَقَدْ تَقَرَّرَ مِنَ الْحَدِيثِ أَنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ تَتْبَعُ سُنَنَ مَنْ كَانَ قبلَهَا، ومن سننِهِم الشركُ فَمِنَ الآياتِ وَالْحَدِيثِ نَسْتَفِيدُ أَنَّ بَعْضَ هَذِهِ الْأُمَّةِ سَيَقَعُ فِي عِبَادَةِ الاوْثَانِ.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:(لَتَتبِعُنَّ سنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ) قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ! الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: (فَمَنْ؟)[3] أَخْرجَاهُ.]

قَوْلُهُ :(لَتَتَّبِعُنَّ) هذهِ الْجمْلَةُ مُؤَكَّدَةٌ بِثَلاثِ مُؤَكِّدَاتِ اللامِ وَالْقَسَمِ وَالنُّونِ،أَيْ: لَتَفْعَلُنَّ أَفْعَالَهُمْ وَلَتَتْبَعُنَّ طَرَائِقَهُمْ، وَمِنْ بَيْنِهَا عِبَادَةُ الْقُبُورِ ، وَبِنَاءُ الْمَسَاجِدِ عَلَيهَا، وَهَذَا الْخَبَرُ الْمُرَادُ مِنْه النهي وَالْخَبَرُ مَعًا أَيْ: ذَمُّ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ والنهي عن فعله، وَالْإِخْبَارُ بِأَنَّ ذَلِكَ سَيَقَعُ، قَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ (وَقَدْ خرج هَذَا مِنْه مَخْرَجَ الذَّمِّ لِمَنْ يَفْعَلُهُ). وقد جاءت رواية تبين ذلك (ليحْملَنّ شرار هذه الأمّة على سَنَنِ الذين

(١) سورة الكهف الآية: ٢١.

(٢) أخرجه البخاري برقم: (٣٤٥٦)، ومسلم برقم: (٢٦٦٩)

(٣) أخرجه البخاري برقم: (٣٤٥٦)، ومسلم برقم: (٢٦٦٩) دون قوله: (حذو القذة بالقذة) فهي ليست في الصحيحين وإنَّما هي في مسند أحمد "١٢٥/٤" من حديث شداد بن أوس، وفي سندها شهر بن حوشب مختلف فيه.

خلَوا من قبلهم- أهل الكتاب- حذو القُذَّةِ بالقُذَّة) أخرجه أحمد وهذه الرواية صريحة في أن ذلك واقع من شرار الخلق لا من خيارهم وزيادَةُ (حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ) لَيْسَتْ فِي الصَّحِيحَيْنِ بل هي في مسند أحمد وحذوها في المتابعة والمماثلة والقذة هي ريشة السهم. وَلَفْظُ الصَّحِيحَيْنِ:(شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِراعًا بِذِراعٍ) (حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ) هَذَا تَأْكِيدٌ لِلْمُتَابَعَةِ التَّامَّةِ ؛ لأَنَّ جُحْرَ الضَّبِّ أَعْسَرُ وَأَصْغَرُ الجحورِ. قَوْلُهُ:(قَالُوا يا رَسُولَ اللَّهِ ! الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى ؟) اسْتَفْهَمُوا اسْتِبْعَادًا مِنْهُمْ لِلامْرِ وَاسْتِعْظامًا لَهُ ، وَمُنَاسَبَةُ الْحَدِيثِ لِلْبَابِ أَنَّ كُلَّ كُفْرٍ وَقَعَ لِلْأمَمِ السَّابِقَةِ فَسَيَقَعُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ بَلْ كُلُّ مَعْصِيَةٍ وَذَنْبٍ.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [وَلِمُسْلِمٍ عَنْ ثَوْبَانَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:(إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِيَ الأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ الكَنْزَيْنِ الاحْمَرَ، وَالأَبْيَضَ، وَإِنِّي سَأَلتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ، وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَإِنَّ رَبِّي قَالَ يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَلَوْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا، حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا)(١).]

قوله:(عن ثَوْبَانَ) مَوْلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ أَيْ: عَتِيقُهُ ، مَاتَ سَنَة ٥٤هـ بِحِمصَ. (إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ) أَيْ : جَمَعَهَا وَضَمَّهَا .(فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا) فِي هَذِهِ الجُمْلَةِ : عَلَمٌ مِنْ أَعْلَامِ النُّبُوَّةِ، وَفِيهَا عَظِيمُ قُدْرَةِ اللَّهِ، وَفِيهَا: أَنَّ مُلْكَ هَذِهِ الْأُمَةِ يَتَّسِعُ مِنْ جِهَةِ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ أَكْثَرُ مِنْ جِهَةِ الشِّمَالِ

(١)أخرجه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة- باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض (٢٨٨٩).

وَالجْنُوبِ.(وَأعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ، وَالابْيَضَ) وَهِيَ الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ، وهي كُنُوزُ كِسْرَى وَقَيْصَرَ، فَإِنَّ أَعْظَمَ كُنُوزُ كِسْرَى مِنَ الْفِضَّةِ، وَكُنُوزُ قَيْصَرَ مِنَ الذَّهَبِ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي زَمَنِ عُمَرَ، فَأعْطِيَتْهُمَا الْأُمَّةُ مِنْ بَعْدِه وَلَمْ يُعْطَهَا هُوَ وَلَا تَعَارُضَ؛ لَأنَّهُ نَزَّلَ أُمَّتَهُ مَنْزِلَةَ نَفْسِه. (وَإِنِّي سَأَلتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ بِعامَّةٍ) فِيه شَفَقَةُ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى أُمَّتِهِ.(وَأَنْ لا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُّواً مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ) أَيْ: مِنَ الْكفَّارِ (فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ) أَيْ: يَحُوزُ أرْضَ الْمُسْلِمِينَ كُلَّهَا، وَقِيلَ: مُعْظَمَهَا، (وَإِنَّ رَبِّي قَالَ يا مُحَمَّدُ) فِيه: إِثْبَاتُ صِفَةِ الْقَوْلِ لله تَعَالَى، (إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّه لا يُرَدُّ) الْمُرَادُ بالْقَضَاء هنا القضاءُ الْكَوْنِيُّ، وَفِيه كَمالُ سُلْطَانِهِ وَقُدْرَتِهِ؛ لأَنَّهُ سُبْحَانَه لَا رَادَّ لِقَضَائِهِ وَلَا مُعَقِّبَ لحُكْمِهِ، وَالْمعنى أَنَّ اللهَ اسْتَجَابَ بَعْضَ دُعَاءِ نَبِيِّهِ ﷺ وَلَمْ يَسْتَجِبْ بَعْضَه، لحِكْمَةٍ يَعْلَمُهَا هُوَ سُبْحَانَهُ (وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أَهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ) هَذِهِ الدَّعْوَةُ أُسْتُجِيبَتْ ، وَفِيه : أَنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ لَا تَهْلَكُ جَمِيعُهَا بِالْقَحْطِ ، لَكِنْ قَدْ يَكُونُ فِي بَعْضِ نواحِيهَا دُونَ بَعْضٍ.

(وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُّواً مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ) وَفِيه : أَنَّ اللهَ اسْتَجَابَ الدَّعْوَةَ الثَّانِيَةَ استجابةً مُقَيَّدَةً ، وَأَنَّ اللهَ لَا يُسَلِّطُ عَلَيهَا عَدُوَّهَا مَا دَامَتْ كَلِمَتُهَا مُجْتَمعَةً. فَإِنَّ الخْوْفَ عَلَى الْأُمَّةِ مِنْ خِلافِهَا فِي ما بَيْنَهَا أَشَدُّ مِنْ عَدُوِّهَا (وَلَوْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا) أيْ : مِنْ بجَوانِبِهَا، وَفِي هَذِهِ الجْمْلَةِ وُجُوبُ الْوُحْدَةِ وَتحْرِيمُ الْفُرْقَة وأنها سبب هزيمة المسلمين.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [وَرَوَاهُ الْبَرْقَانِيُّ فِي صَحِيحِهِ، وَزَادَ (وَإِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الائِمَّةَ المُضِلِّينَ، وَإِذَا وَقَعَ عَلَيْهِمْ السَّيْفُ، لَمْ يُرْفَعْ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَلْحَقَ حَيٌّ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ، وَحَتَّى تَعْبُدَ فِئَامٌ مِنْ أُمَّتِي الاوْثَانَ، وَإِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي كَذَّابُونَ، ثَلَاثُونَ، كُلُّهُمْ

يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبيين، لَا نَبِيَّ بَعْدِي، وَلَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الحَقِّ مَنْصُورَة، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى)(١)]

قوله:(رواه الْبَرْقَانِيُّ) هُوَ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ غَالِبٍ الخوارزمي ، أَبُو بَكْرٍ، وَلَدُ سَنَةَ ٣٣٦هـ ، وَمَاتَ سَنَةَ ٤١٥هـ (فِي صَحِيحِهِ) وَمُسْتَخْرَجُهُ يَشْتَمِلُ عَلَى الصَّحِيحِ وَزِيادَةٍ. (وَإِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ) فِيه: شَفَقَةُ النَّبِي ﷺ عَلَى أُمَّتِهِ، وَالْأَئِمَّةُ: يَشْمَلُ الْمُلُوكَ وَالْعُلَمَاءَ وَالْعُبَّادَ وَلأَنَّ فِي فَسَادِهِمْ فَسَادًا لِلْأُمَّةِ، قَالَ ابن الْمُبَارَك – رَحِمَهُ اللهُ –:

وَهَلْ أَفسَدَ الدِّينَ إلّا الْمُلُوكُ *** وَأَحْبَارُ سُوءٍ وَرُهْبَانُهَا(٢)

ومتى وجد حاكم يحمل الناس على الفساد أو عالم يزين لهم الباطل فحينئذ لا تسل عن انتشار الرذيلة

قوله: (وَإِذَا وقعَ عَلَيهِم السَّيْفُ ، لَمْ يُرْفَعْ إِلَى يَوْمِ الْقِيامَةِ ،) فِيه: عَلَمٌ مِنْ أَعْلامِ النُّبُوَّةِ فَإِنَّ السَّيْفَ مُنْذُ أَنَّ وقعَ بِمَقْتَلِ عُمَرَ لَمْ يَرْفَعْ لَكِنَّه يَقِلُّ وَيكْثُرُ (وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَلْحَقَ حَيٌّ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ) فِيه:عَلَمٌ مِنْ أَعْلامِ النُّبُوَّةِ (وَيَلْحَقَ بِالْمُشْرِكِين) أيْ: يلحقَ بهم فِي بِلدانِهِمْ وعقائدِهِمْ أيضاً وقد رأينا الهجرة إلى ديار الكفر تعقبها ردة غالبا. (وَحَتَّى تَعْبُدَ فِئَامٌ مِنْ أُمَّتِي الاوْثَانَ) فِئَام: أَيْ: جَمَاعَاتٌ، وَهَاتَانِ الْجُمْلَتَانِ هُمَا مَوْضِعُ الشَّاهِدِ مِنَ الْحَدِيثِ. فَكَمْ مِنْ جِهَةٍ فِي بِلادِ الْمُسْلِمِينَ عُبِدَتْ فِيهَا الاوْثَانُ رُكوعًا وَسُجُودًا وذلاً وَخُضُوعًا ودعاءً وَطَوَافًا عَلَى مَرْأًى وَمَشْهَدٍ مِنَ النَّاسِ ولَا يُنْكِرُ ذَلِكَ أَحَدٌ وَمَا ذَاكَ إلّا لِغُرْبَةِ الْإِسْلامِ ، فَمَنْ يُنْكِرُ وُقُوعَ الشِّرْكِ فَقَدْ كَذَّبَ خَبَرَ النَّبي عَلَيه الصَّلاةُ و السَّلامُ ، وَكَفَى بِهَذَا ضَلالاً.

(١) أخرجه أبو نعيم الأصبهاني في «حلية الأولياء» (٢/٢٨٩)، وأبو داود برقم: (٤٢٥٢)، وصححه الألباني في التعليقات الحسان "٩/٣٨٩-٣٩٠) وانظر الصحيحة "٤/٢٥٢".

(٢) سير أعلام النبلاء ٩/٥٥٠.

إشكال وجوابه:

عن عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ , أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنِّي وَاللَّهِ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا بَعْدِي,وَلَكِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنَافَسُوا فِيهَا) رواه أحمد والبخاري ومسلم قال ابن حجر أَيْ عَلَى مَجْمُوعِكُمْ لأَنَّ ذَلِكَ قَدْ وَقَعَ مِنَ الْبَعْضِ أَعَاذَنَا اللَّهُ تَعَالَى (١)

الجواب الثاني أن يقال أن عدم خوف النبي ﷺ على أمته من الشرك لا يعني عدم وقوعه فهذا رسول الله ﷺ قد ذكر أنه لا يخاف الفقر على أمته مع ذلك قد وقع الفقرعليهم

الشبهة الثانية عَنْ جَابِرٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: ((إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَه الْمَصْلُونُ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ ولكن في التحريش بينهم)) رواه أحمد. الجواب على هذه الشبهة من وجوه الأول أن وقوغ اليأس من الشيطان لا يعنى عدم حصول ما أيس منه قال تعالى ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا ﴾ {يوسف: ١١٠} الثاني أن (ال) في قوله المصلون للعموم فقد أيس أن يعبده جميع المصلين ولم ييأس من أن بعبده بعضهم الثالث : أن (ال) في قوله المصلون للكمال أي فقد أيس أن بعبده من صلى صلاة تامة كاملة.

قوله: (وَإِنَّه سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي كَذَّابُونَ، ثلاثُونَ، كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ) لَيْسَ الْمُرَادُ بالعدد الحصر وَلَكِنِ الْمُرَادُ مَنْ لَهُمْ شَوْكَةٌ وَصَولَةٌ وَأَثَرٌ، فَإِنَّ مِنْهُمْ من يَقُولُ ذَلِكَ بِسَبَبِ الْهَذَيَانِ وَالْجُنُونِ وَلَا يَشْتَهِرُ أَمْرُهُ، وَقَدْ ظَهَرَ مِصْدَاقُ ذَلِكَ، فَقَدْ خَرَجَ مُسَيْلِمَةُ الْكَذَّابِ بِالْيَمَامَةِ وَقُتِلَ فِي خِلَافَةِ أَبِي بَكْرٍ، وَخَرَجَ الْأَسْوَدُ الْعَنْسِي بِالْيَمَنِ ، وَطُلِيحَةُ الأَسَدِيُّ فِي عَهْدِ أَبِي بَكْرٍ، وَتَابَ وَحَسُنَ إِسْلامُهُ، وَخَرَجْتِ سجاح الَّتِي تَزَوَّجَهَا مسيلمة، وَخَرَجَ الْمُخْتَارُ بْنُ أَبِي عَبِيدِ الثَّقفِي، وَخَرَجَ الْحَارِثُ الْكَذَّابُ فِي عَهْدِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ

(١) فتح الباري ٢١١/٣.

مروانَ، وَظَهَرَ فِي هَذِهِ الأعصر غُلامُ أَحْمَدُ القادياني في الهند، وظهر في بلاد السودان محمود مُحَمَّد طه وقد قتله رئيس حكومة السودان بفتوى من العلامة ابن باز تقبل الله منهما هذا العمل الجليل وَلَا شَكَّ أَنَّ مَنَ ادَّعَى النُّبُوَّةَ فَهُوَ كَافِرٌ وَمنْ يُصَدِّقُهُ أيضاً كَافِرٌ؛ لِقَوْلِهِ: (وَأَنَا خَاتَمُ النَّبيينَ) .

وَلَا يُشْكِلُ عَلَى هَذَا نُزُولُ عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ فَإِنَّهُ يَنْزِلُ بِشَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ. وقد أخبرنا نبينا ﷺ(وَلَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ مَنْصُورَةً) هَذِهِ بِشارَةٌ عَظِيمَةٌ فَإِنَّهُ مَهْمَا كُثُرَتْ الْفِتَنُ فَأَهْلُ الْحَقِّ مَوْجُودُونَ ؛ لأَنَّ الْفِعْلَ لَا تَزَالُ يَدُلُّ عَلَى الاسْتِمْرارِيَّةِ ، وَالطَّائِفَةُ الْمَنْصُورَةُ هِي الْفِرْقَةُ النَّاجِيَةُ، وَهُمْ أَهْلُ الْحَدِيثِ، قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ – رَحِمَهُ اللهُ –:(إِنْ لَمْ تَكُنْ هَذِهِ الطَّائِفَةُ الْمَنْصُورَةُ أَصحَابَ الْحَدِيثِ فَلَا أَدري مَنْ هُمْ)[(١)] وَقَالَ الْقَاضِي عياضُ وَإِنَّمَا أَرَادَ أَهْلَ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ وَمَنْ يَعْتَقِدُ مَذْهَبَ أَهْلِ الْحَدِيثِ [(٢)].(لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خذلَهُمْ ، وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ) فَالْخَيْرُ باقٍ عَلَى مَرِّ الازْمِنَةِ، وَلَا يُزِيلُهُ مَكْرُ الْمَاكِرِينَ، وَلَا كَيدُ الْكَائِدِينَ لأَنَّ مَعَهُمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَإِن يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلَا غَالِب لَكُمْ فَهَذِهِ الطَّائِفَةُ لَا يَضُرُّهَا مَنْ خذلها مِنْ أَبْنَائِهَا، وَلَا منْ جَاهَرَهَا الْعداءَ مِنَ الْمُخَالِفِينَ، فَإِنَّهَا باقِيَةٌ بِأَمْرِ اللهِ مُنْتَظِرَةٌ أَمْرَ اللهِ. (حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى) وَهُوَ الرِّيحُ الطَّيِّبَةُ الَّتِي تَقْبِضُ أَرْوَاحَ الْمُؤْمِنِينَ قُبيلَ قِيَامِ السَّاعَةِ كَمَا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ .(تَبارَكَ) أَيْ : تَعَاظَمَ ،(وَتَعَالَى) مِنَ الْعُلُوِّ.

(١) رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي مَعْرِفَةِ عُلُومِ الْحَديثِ .

(٢) إكمال المعلم (٦/٣٥٠) .

[٢٤]

بَابُ مَا جَاءَ فِي السِّحر

مُنَاسَبَةُ هَذَا الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ : أَنَّ الْمُؤَلِّفَ – رَحِمَهُ اللهُ – بَعْدَ أَنْ بَيَّنَ وُقُوعَ الشِّرْكِ بِالدَّلِيلِ، لكن مِنَ النَّاسِ مِنْ لَا يُقْنِعُهُ الدَّلِيلُ فاحْتَاجَ الإمام أَنْ يُبَرْهِنَ لِوُقُوعِ الشِّرْكِ بِحُجَّةٍ أخْرَى وَهي ذِكْرُ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الشِّرْكِ، لَا ينْكِرْ وُجودَه إلّا مُكابِرٌ وَهُوَ السِّحْرُ فَكَأَنَّهُ يَقُولُ مِنْ لَمْ يُقْنِعْهُ الدَّليلُ فَلَيُقْنِعْهُ الْوَاقِعُ الذَّلِيلُ.

وَالسِّحْرُ لُغَةً: هُوَ عِبارَةٌ عَمَّا خَفِيَ وَلَطُفَ سَبَبُهُ ، وَمِنْه سُمِّيَ آخِرُ اللَّيْلِ سَحرًا ، وَكَذَلِكَ الْكَلامُ الْبَليغُ سِحْرًا. **وَشَرْعاً** [١] هُوَ عُقَدٌ وَعَزَائِمُ وَرُقَى يُستعانُ فيها بالشَّيطانِ تُؤَثِّرُ فِي الْبَدَنِ وَالْقلبِ، فَتَكُونُ سَبَباً فِي الْمَوْتِ أَوْ الْمَرَضِ أَوْ التَّفْرِيقِ بَيْنَ الْمُتَحابِّينَ بِإِذْنِ اللهِ. وَوَجْهُ كَوْنِ السِّحْرِ نَوْعاً مِنْ أَنْوَاعِ الشِّرْكِ: أَنَّهُ لَا يَتِمُّ تعلمه إلّا بِالْكُفْرِ بالله وَالْاسْتِعانَةِ بِالشَّيْطَانِ مَعَ مَا فِيه مِنَ ادِّعَاءِ عِلْمِ الْغَيْبِ الَّذِي هُوَ مِنْ خصائص الرَّبِّ تَبَارك و تَعالَى.

قَالَ الإمامُ –رَحِمَهُ اللهُ– [وقوله: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴾[٢]]

قوله :(وَلَقَدْ عَلِمُوا) الْخَبَرُ مُؤَكَّدٌ بِثلاثِ مُؤَكِّداتِ الْقسَمِ الْمَحْذُوفِ وَاللامِ وَقَدْ ، وَضَمِيرُ الْفَاعِلِ يَعُودُ إِلَى مُتَعَلِّمِي السِّحْرِ.(عَلِمُوا) أَيْ : أَيْقَنُوا وَتَحَقَّقُوا (لِمَنْ اشْتَرَاهُ) أَيْ : اخْتَارَهُ، وَعَبَّرَ بِالشِّرَاءِ؛لأنَّ السَّاحِرَ يَدْفَعُ دِينَهُ ثَمَناً لِيَنَالَ السِّلْعَةَ وَهِي السِّحْرُ مِنَ الْبَائِعِ لَهَا وَهُوَ الشَّيْطَانُ، قوله:(مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ من خلاق)، مَا نَافِيَةٌ و خلاقٍ نَكِرَةٌ فِي سِياقِ النَّفْي، و مِنْ زائِدَةٌ ، وَالنَّكِرَةُ فِي سِياقِ النَّفْي إِذَا زِيدَتْ عَلَيهَا مِنْ فَهِي نصٌّ فِي الْعُمُومِ. و معْنَى خلاقٍ نَصِيبٍ. وفي الآية إثبات حقيقة السحر خلافا للمعتزلة

(١) قول أهل العلم السحر شرعا لا يعني إقرارهم له وكذا حدهم للشرك والخمر فلا غبار على هذه الكلمة.

(٢)سورة البقرة الآية: ١٠٢.

وَقَدْ اشْتَمَلَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ عَلَى كُفْرِ السَّاحِرِ مِنْ خَمْسَةِ أَوْجُهٍ:

١– قَوْلُهُ:(وماكفر سُليمَانُ) أَيْ: مَا تَعْلَّمَ السِّحْرَ لأن اليهود زعمت أن سليمان تعاطى السحر.

٢– قَوْلُهُ:(وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَّرُوا) أَيْ: بِتَعلُّمِ السِّحْرِ.

٣– قَوْلُهُ:(وَمَا يُعَلِّمَانِ مَنْ أحدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكَفُرْ).

٤– قَوْلُهُ:(وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خلاقٍ) وَلَيْسَ هَذَا الْوَعِيدُ إِلّا للكافرِ.

٥– قَوْلُهُ:(وَلَوْ أَنَّهُمْ آمنوا وَاتَّقَوْا) فِيه أَنَّ السِّحْرَ يُنَافِي الْإِيمَانَ. وَفِي الآيات: أَنَّ الْمُسْلِمَ يَكفُرُ بِتَعَلُّمِ السِّحْرِ وَلَوْ لَمْ يَعْمَلْ بِهِ.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [قوله:﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾[(١)]]

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [قَالَ عُمَرُ ﷺ "الجِبْتُ السِّحر، وَالطَّاغُوتُ الشَّيْطَانُ"[(٢)]].[وَقَالَ جَابِرٌ "الطَّوَاغِيتُ كُهَّانٌ، كَانَ يَنْزِلُ عَلَيْهِمْ الشَّيْطَانُ، فِي كُلِّ حَيٍّ وَاحِدٌ"[(٣)]]

قوله:(يؤمنون بالجبت) يَشْمَلُ السَّاحِرَ وَالْكَاهِنَ وَالصَّنَمَ. قوله: (وَالطَّاغُوت) أَحَسنُ مَا قِيلَ فِيه تَعْرِيفُ ابن الْقَيِّمِ – رَحِمَهُ اللهُ –: مَا تَجَاوَزَ بِهِ الْعَبْدُ حَدَّهُ من معبودٍ أو متبوعٍ أو مطاعٍ.

الْمُرَادَ جِنسُ الشَّيْطَانِ، وَتَفْسِيرُ عُمَرَ وَجَابِرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا تَفْسِيرٌ بِالْمِثَالِ.

---

(١)سورة النساء الآية: ٥١.

(٢) أخرجه البخاري معلقاً بصيغة الجزم في كتاب التفسير، باب "١٠" من سورة النساء، ووصله ابن جرير في تفسيره "١٣٥/٥٥٦،٧/٤" والسياق المذكور له، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩٧٤/٣)، وصحح الأثر الألباني في "مختصر صحيح البخاري، ١٥٦/٣"، وقوى إسناده الحافظ في الفتح "٣١٨/٨" ط: (دار السلام).

(٣) أخرجه البخاري معلقاً بصيغة الجزم في كتاب التفسير، باب "١٠" من سورة النساء، ووصله ابن أبي حاتم في تفسيره "٩٧٦/٣"، وذكره البغوي في «شرح السنة» (١٧٩/١٢).

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: (اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ قَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ! وَمَا هُنَّ؟ قَالَ الشِّرْكُ بِاللهِ، وَالسِّحر، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ اليَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ المُحْصَنَاتِ الغَافِلَاتِ المُؤْمِنَاتِ)(١)]

قوله: (اجْتَنِبُوا) الاجْتِنَابُ: تَرْكٌ مَعَ الْبُعْدِ (السَّبْعَ) لَيسَ الْمُرَادُ الحصر، فَقَدْ تَقَرَّرَ فِي الْأصولِ أَنَّ مَفْهُومَ الْعَدَدِ ضَعِيفٌ وقوله: (الْمُوبِقَاتِ) أَيْ: الْمُهْلِكَاتُ وفيه فائدة التَّفْصِيلُ بَعْدَ الْإِجْمَالِ وهي تَشْوِيقُ الْمُخَاطِبِ للتفصيل لذلك(قَالُوا يا رَسُولَ اللهِ ! وَمَا هُنَّ ؟) ، قوله: (قَالَ الشِّرْكُ بِاللهِ) الشِّرْكُ: لُغَةً النَّصِيبُ، وشَرْعاً : مُسَاوَاةُ غَيْرِ اللهِ بِاللهِ في ما هُوَ مِنْ خصائص اللهِ، وَهَذَا الْمعْنى مأخوذٌ مِنْ قَوْلِ اللهِ تعَالَى:﴿ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾(٢)وَمِنْ حَدِيثِ ابن مَسْعُودٍ فِي الصَّحِيحَيْنِ قالْ قلتُ: يَا رَسُولَ اللهِ , أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ» (٣). (وَالسِّحْرُ) الْعَطْفُ هُنَا مِنْ عَطْفِ الخَاصِّ عَلَى الْعَامِ ، وَهُوَ مَوْضِعُ الشَّاهِدِ مِنَ الْحَدِيثِ ، وَقَدْ مَضَى تَعْرِيفُهُ.

قوله (وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالحَقِّ) وَالنَّفْسُ الَّتِي حرَّمَهَا هِي نَفْسُ الْمُؤْمِنِ و نَفْسُ الْمُعَاهِدِ أما المؤمنُ فلحديثِ ابنِ مسعودٍ ﷺ عنِ النَّبي ﷺ : "لا يَحِلُّ دَمُ امْرِىءٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لا إِلهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ إِلاَّ بِإِحْدَى ثَلاثٍ: النَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالْمَارِقُ مِنَ الدِّينِ التَّارِكُ الْجَمَاعَةَ " متفق عليه. وأَمَّا نَفْسُ الْمُعَاهِدِ فلحديث عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا" رواه البخاري.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الوصايا- باب قول الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا} (٢٧٦٧)، ومسلم في كتاب الإيمان- باب بيان الكبائر وأكبرها (٨٩).

(٢) سورة الشعراء الآية: ٩٧-٩٨.

(٣) أخرجه البخاري، باب قوله تعالى: (فلا تجعلوا للهِ أنداداً وأنتم تعلمون) ،برقم: (٤٤٧٧)، ومسلم، باب كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده، برقم: (٨٦).

و(أَكلُ الرِّبَا) الْمُرَادُ تَنَاوِلُهُ عَلَى أَيْ وَجْهٍ كَانَ فلا فرقَ بينَ أكلهِ والسُّكنى فيهِ وَالرِّبَا زِيادَةٌ بَيْنَ أَشْيَاءَ يَجِبُ فِيهَا التَّسَاوِي أَوْ تَأْخِيرٌ بَيْنَ أَشْيَاءَ يَجِبُ فِيهَا التَّقابُضُ و(أَكلُ مَالِ الْيَتِيمِ) أَيْضًا الْمُرَادُ تَناولُهُ عَلَى أَيْ وَجْهٍ وَالْيَتِيمُ منْ مَاتَ أَبُوه قَبْلَ الاحتلام (وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ) هُوَ الْفِرَارُ مِنَ الْمَعْرَكَةِ عِنْدَ زَحْفِ الْجَيْشَيْنِ لِمَا فِيه مِنْ كَسْرٍ لِنُفُوسِ الْمُسْلِمِينَ وَرَفْعٍ لِلرَّوْحِ الْمَعْنَوِيَّةِ لِلْكَافِرِينَ و (وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ) الْقَذْفُ هُوَ الرَّمْي بِالْفَاحِشَةِ وَالْمُحْصنات هُنَّ الْحَرائِرُ وَالْغَافِلَاتُ الْبَعيداتُ عَنِ الرِّيبَةِ.

قَالَ الإِمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [وَعَنْ جُنْدبٍ ﷺ مَرْفُوعًا: (حَدُّ السَّاحِرِ ضَرْبَةٌ بِالسَّيْفِ)[1] رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: "الصَّحِيحُ أَنَّهُ مَوْقُوفٌ".]

قوله: (عن جُنْدَبٍ) جُنْدَبُ الْخَيْرِ بْنُ كَعْبٍ الْغَامِدِيُّ الأزدي، صَحَابِيٌّ مَعْرُوفٌ بِقَاتِلِ السَّاحِرِ،(مَرْفُوعًا) يَعْنِي: مَنْسُوبًا إِلَى النَّبِي ﷺ (حَدُّ السَّاحِرِ) أَيْ: عُقُوبَتُهُ الَّتِي حَدَّهَا الشَّرْعُ (ضَرْبَةٌ بِالسَّيْفِ) يُرْوَى بِالْهَاءِ وَالتَّاءِ ، وَبِهَذَا أَخَذَ أَبُو حَنِيفَةَ وَمَالِكٌ وَأَحْمَدُ ، وَفَصَّلَ الشَّافِعِيُّ فَقَالَ :(إِنْ كَانَ سِحْرُهُ بِالْأَدْوِيَةِ والعقاقير فَلَا يُقْتَلُ، وَإِنْ كَانَ سِحْرُهُ بِالْاسْتِغَاثَةِ بِالشَّيَاطِينِ فَيُقْتَلُ ، فَإِذَا ثَبَتَ أَنَّه سَاحِرٌ يُقْتَلُ بَعْدَ اسْتتابَتِهِ؛ لأَنَّ اسْتِعْمَالَ الادْوِيَةِ والعقاقير لَا يُسَمَّى سِحْرًا)[2].

وَظاهِرُ كَلامِ الشَّافِعِيِّ – رَحِمَهُ اللهُ – أَنَّه يَقُولُ بِمَا قَالَ بِهِ الْأَئِمَّةُ قَبْلَهُ لَكِنْ لابُدَ مِنَ التَّأَكُّدِ مِنْ تَعَاطِيهِ السّحرَ فَرُبَّمَا يُرْمَى بِذَلِكَ مَنْ لَيْسَ بِسَاحِرٍ أَصالَةً. قولُهُ: (رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ "الصَّحِيحُ أَنَّهُ مَوْقُوفٌ".) أيْ: أَنَّهُ مِنْ كَلامِ الصَّحَابِي، وَلَمْ يَثْبُتْ رَفْعُهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ.

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب الحدود- باب ماجاء في حد الساحر (١٤٦٠) والدارقطني في«سننه» (١١٤/٣)، والطبراني في«المعجم الكبير» (١٦٦٥/١٦١/٢)، والحاكم في«المستدرك على الصحيحين» (٨٠٧٣)، والبيهقي في«السنن الكبرى» (١٣٦/٨)، وفيه: إسماعيل بن مسلم أبو إسحاق المكي: «ضعيف الحديث» التقريب (٤٨٤)، وضعفه الألباني في الضعيفة برقم: (١٤٤٦).

(٢) الأم للشافعي (٢٩٣/١).

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [وَفِي "صَحِيحِ البُخَارِيِّ" عَنْ بَجَالَةَ بْنِ عَبَدَةَ قَالَ "كَتَبَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ ﷺ أَنِ أقْتُلُوا كُلَّ سَاحِرٍ وَسَاحِرَةٍ" قَالَ فَقَتَلْنَا ثَلَاثَ سَوَاحِرَ"(١)]

هَذَا الْحَدِيثُ فِي مُسْنَدِ أَحْمَدَ وَهُوَ عَلَى شَرْطِ الْبُخَارِيِّ ، وَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ جُزْءًا مِنْه.(بَجَالَةَ بْنَ عَبَدَةَ) التَّمِيمِيُّ بَصْرِيٌّ ثِقَةٌ، و فِيه قَتْلُ الْمُرْتَدَّةِ بِخِلافِ الْمَرْأَةِ فِي الْمَعْرَكَةِ، وَفِيه وُجُودُ السِّحْرِ فِي عَهْدِ عُمَرَ فَكَيْفَ بِزمانِنَا ؟،(كَتَبَ عُمَرُ) هَذَا الْحَدِيثُ صَرِيحٌ فِي قَتْلِ السَّاحِرِ مِنْ دُونِ اسْتَتابَةٍ، وَهُوَ مَذْهَبُ الْجُمْهُورِ إِلّا الشّافِعِيَّ فَقَدْ ذَهَبَ إِلَى اسْتَتابَتِهِ فَإِن تَابَ وَإِلّا قتل. (٢)

و مَا ذَهَبَ إِلَيه الْجُمْهُورُ هُوَ الصَّوَابُ لأَنَّ السِّحْرَ أَمْرٌ خَفِيٌّ فَلَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَجْزِمَ بِتَوْبَةِ السَّاحِرِ منه وَاللهُ أَعْلَمُ.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[وَصَحَّ عَنْ حَفْصَةَ ﷺ "أَنَّهَا أَمَرَتْ بِقَتْلِ جَارِيَةٍ لَهَا سَحَرَتْهَا فَقُتِلَتْ"(٣)]

هَذَا الْأَثَرُ مَوْقُوفٌ صَحِيحٌ رَوَاهُ مَالِكٌ وَعَبْدُ الرَّزَّاقِ وَابن أَبِيَ شَيْبَةِ. قوله: (حَفْصَةُ) بِنتُ عُمَرَ بْنِ الْخِطَابِ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ ، تَزَوّجَهَا النَّبِيُّ ﷺ بَعْدَ مَوْتِ (خنيسِ بْنِ حذافة) (جَارِيَةٍ لَهَا) أَيْ: مَمْلُوكَةٌ، كَانَتْ قَد دَبَّرَتْهَا أَيْ قَالَتْ لَهَا أَنْتَ حُرَّةٌ بَعْدَ مَوْتِي.

[وَكَذَلِكَ صَحَّ عَنْ جُنْدُبٍ ﷺ.] وهُوَ جُنْدُبُ الْخَيْرِ. وَقَدْ رَوَى الْحَاكِمُ:(أَنَّ أَمِيرًا مِنَ الأمراءِ بِالْكُوفَةِ دَعَا سَاحِرًا يَلْعَبُ بَيْنَ يدي النَّاسِ فَبلغَ ذَلِكَ جُنْدُبًا، فَاشْتَمَلَ عَلَى سَيْفِهِ حَتَّى أَتَاهُ وَهُوَ يَقْطَعُ رَأْسَهُ ثُمَّ يُعِيدُهُ – يَعْنِي : بِالسِّحْرِ – فَضَرَبَهُ جُنْدُبٌ بِالسَّيْفِ وَقَالَ: إنْ كَانَ صَادِقًا فَلْيُعِدْ رَأْسَهُ فَتَفَرَّقَ النَّاسُ،

---

(١) أخرج البخاري في كتاب الجزية– باب الجزية والموادعة مع العرب أصل الكتاب وليس فيه قتل السواحر (٣١٥٧)، وأبو داود في كتاب الخراج والإمارة والفيء– باب في أخذ الجزية من المجوس (٣٠٤٣) واللفظ له.

(٢) الأم للشافعي ٢٩٣/١.

(٣) أخرجه مالك في «موطئه»: كتاب العقول– باب ما جاء في الغيلة والسِّحر (١٦٢٤). بلاغًا، ووصله عبد الرزاق في «مصنفه» (١٨٧٤٧/١٨٠/١٠)، وصححه الحافظ ابن كثير في تفسير آية (١٠٢) من سورة البقرة.

فَقَالَ جُنْدُبٌ: لَنْ تُرَاعُوا إِنَّمَا أردْتُ السَّاحِرَ، فَبلَغَ ذَلِكَ سَلْمَانَ الْفَارِسِيَّ فَقَالَ: بِئْسَ مَا صَنْعا مَا كَانَ لِلأميرِ أَنْ يَدْعُوَ سَاحِرًا يلعبُ بَيْنَ يديه وَهُوَ إِمَامٌ يُقْتَدَى بِهِ، وَمَا كَانَ لِهَذَا أَنْ يُعَاتِبَ أَميرَهُ بِالسَّيفْ)[١]وَقَدْ صَحَّحَ الألبانيُّ – رحمه الله– هَذِهِ الْقِصَّةِ بِمَجْمُوعِ الطُّرُقِ.

قَالَ الإمامُ– رَحِمَهُ اللهُ– [قَالَ أَحْمَدُ عَنْ ثَلَاثَةٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبي ﷺ.]

(أَحْمَدُ) هُوَ ابن حَنْبَل بْنِ هَلالِ الشَّيْبانِيّ، إِمَامُ أَهل السُّنَّةِ وَالْجمَاعَةِ، أَعَلمُ أَهْلِ الْمِصْرِ بِالْفِقْهِ، قَالَ عَنْه بَعْضُهُمْ :(عَنِ الدُّنْيا مَا كَانَ أَصْبَرَهُ، وبالماضين مَا كَانَ أَشْبَهَهُ، أَتَتْهُ الدُّنْيا فَأَبَاهَا والشُّبَهُ فَنَفَاهَا)، قَوْلُهُ (عَنْ ثَلاثَةٍ) هُمْ عُمَرُ وَجُنْدُبٌ وَحَفْصَةُ[٢]،وَقَتْلُهُمْ هُوَ الصَّوَابُ، قَالَ بَعْضُ الْأَئِمَّةِ:(مَا دَخَلَ السِّحْرُ بَلَدَةً إِلّا فَشَا فِيهَا الظُّلْمُ وَالْاعْتِداءُ وَالطُّغْيَانُ.)

وهذا الفعل منهم يستفاد منه كفر الساحر لأنه لا يحل دم امريء إلا بإحدى ثلاث وهو لم يزن ولم يقتل فلم يكن إلا تاركا لدينه و قد ذكر ابن قدامة أن هذا الفعل منهم يكون إجماعا

(١) أخرجه الحاكم (٤/٣٦١)، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها برقم: (١٤٤٦).

(٢) من فتح المجيد: (٢/٤٧٦) تحقيق: الفريان وفقه الله.

[٢٥]

بَابُ بَيَانِ شيءٍ مِنْ أَنْوَاعِ السِّحر

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ: ظاهِرَةٌ وهي أَنَّ الإمامَ بَيَّنَ فِي الْبَابِ السَّابِقِ حُكْمَ السِّحْرِ، وَنَاسَبَ فِي هَذَا الْبَابِ أَنْ يُعقِّبَ بِأَنْوَاعِهِ؛ لَأنَّهُ لَيْسَ نَوْعَا وَاحِدَا، فَمِنْه مَا يَشْتَمِلُ عَلَى الْاسْتِغاثَةِ بالشيطان وَادِّعَاءِ عِلْمِ الْغَيْبِ وَمِنْه مَا يُسَمَّى سِحْرَا وَلَا يَشْتَمِلُ عَلَى شيءٍ مِنْ ذَلِكَ.

قَالَ الإمامُ– رَحِمَهُ اللهُ–: [قالَ أَحْمَدُ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، حَدَّثَنَا عَوْفٌ، عَنْ حَيَّانَ بْنِ الْعَلَاءِ، حَدَّثَنَا قَطَنُ بْنُ قَبِيصَةَ عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبي ﷺ قَالَ: (إِنَّ الْعِيَافَةَ وَالطَّرْقَ وَالطِّيرة مِنَ الْجِبْتِ)]

هَذَا الْحدِيثُ ضَعَّفَهُ الألبانيُّ فِي غَايَةِ الْمَرَامِ فِي تَخْرِيجِ أَحادِيثِ الْحَلالِ وَالْحَرامِ[1]،وآفتُهُ حَيَّانُ بْنُ الْعَلاءِ.

قَالَ الإمامُ– رَحِمَهُ اللهُ–: [قَالَ عَوْفٌ الْعِيَافَةُ زَجْرُ الطَّيْرِ، وَالطَّرْقُ الْخَطُّ يُخَطُّ بِالأَرْضِ، وَالْجِبْتُ قَالَ الْحَسَنُ رَنَّةُ الشَّيْطَانِ[2] إِسْنَادُهُ جَيِّدٌ.]

قوله:(**الْعِيافَةُ) لُغَةً:** مَصْدَرُ عَافَ يَعَافُ إِذَا أَبَتْ نَفْسُه الشيءَ، **وَأَمَّا شَرْعاً** فَالْمُرَادُ بِهَا: زَجْرُ الطَّيْرِ وزجرُها تحريكُها لِيَعْمَلَ بِمُقْتَضى ذَلِكَ الزَّجْرِ بحسب وجهتها يميناً أو شمالاً. (وَالطَّرْقُ الْخَطُّ يُخَطُّ بِالأَرْضِ) هُوَ مَا يُعْرَفُ عِنْدَ النَّاسِ بالرَّمْل، أَوْ الرَّبْل.(وَالْجِبْتُ قَالَ الْحَسَنُ رنةُ الشَّيْطَانِ) و الظَّاهِرُ أَنَّه قد وقع تَصْحِيفٌ فَالَّذِي فِي الْمُسْنَدِ وَغَيْرِهِ بِالْهَمْزَةِ وَالْهاءِ ، أَيْ : إِنَّهُ الشَّيْطَانُ. وَمَنْ قَالَ مِنْ أَشْيَاخِنَا رَنَّةُ الشَّيْطَانِ شَرَحَهُ بِأَنَّهُ وَحيُ الشَّيْطَانِ وَلَا تَعَارُضَ بَيْنَ الْمَعْنَيينِ فَسُبْحَانَ مَنْ حَفِظَ شِرْعَتهُ.

---

(١) غاية المرام ص:١٨٤، وضعفه كذلك الشيخ ابن عثيمين في القول المفيد، "٥١٧/١".

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٦٠/٥).

قَالَ الإمامُ– رَحِمَهُ اللهُ–: [وَلابِي دَاوُدَ وَالنَّسائِيِّ، وَابْنِ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ لَهُمُ الْمُسْنَدُ مِنْهُ[١]]

أَيْ : أَنَّ الْمُسْنَدَ وَهُوَ الْمَنْسُوبُ إِلَى النَّبِي ﷺ بِسَنَدٍ ظاهِرُهُ الْاتِّصَالِ ، رَوَاهُ أَبُو داوُدَ وَالنَّسَائِيُّ وَابن حِبَّانَ، لكن لَمْ يُخَرِّجْ هَؤُلَاءِ تَفْسِيرَ عَوْفٍ، إِنَّمَا أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ وَإِسْنادُهُ جَيِّدٌ.

قَالَ الإمامُ– رَحِمَهُ اللهُ–: [وَعَنِ ابن عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (مَنِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ النُّجُومِ؛ فَقَدِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ، زَادَ مَا زَادَ)[٢] رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ]

(اقْتَبَسَ) بِمعْنى أخذ أَوْ تَعَلَّمَ، بَلْ فِي رِوايَةِ الطَّبَرانِيّ (مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِنَ النُّجُومِ تَعَلَّمَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ)[٣] (شُعْبَةً) الشعبة الطَّائِفَةُ أَوْ الْجُزْءُ أَوْ الْقِطْعَةُ، وَمِنْه حَديثُ (وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ) [٤]

قوله (مِنَ النُّجُومِ) الْمُرَادُ به عِلْمُ التَّنْجِيمِ.

وعلم التنجيم نَوْعَانِ النَّوْعُ الأول: يُسَمَّى عِلْمَ التَّأْثِيرِ؛ وَهُوَ الَّذِي يَحْرُمُ مِنْه وَهُوَ: نِسْبَةُ الْحوادِثِ الأَرْضِيَّةِ لِلنُّجُومِ، وَالْاسْتِدْلالُ بِالأَحْوالِ الْفَلَكِيَّةِ عَلَى الْحوادِثِ الأَرْضِيَّةِ، وَمِنْه الأبْراجُ – حَظُّكَ الْيَوْمِ – **وَالثَّانِي:** يُسَمَّى عِلْمُ الْمَسِيرِ وَهُوَ الْاسْتِدْلالُ بِالنُّجُومِ عَلَى الْاتِّجاهَاتِ وَالأَزْمِنَةِ وَأَوْقَاتِ الزُّروعِ ، وَهَذَا مُبَاحٌ.

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الطب– باب في الخط وزجر الطير (٣٩٠٧)، وابن حبان في «صحيحه» (٦١٣١/٥٠٢/١٣)، وضعفه الألباني في «ضعيف أبي داود» .

(٢) أخرجه أحمدفي «مسنده» (٣١١/١)،وأبوداود في كتاب الطب– باب في النجوم (٣٩٠٥)،وابن ماجه في كتاب الأدب– باب تعلم النجوم (٣٧٢٦)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٠٧٤).

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، برقم: (١١٢٧٨).

(٤) أخرجه البخاري، باب أمور الإيمان وقول الله تعالى: (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله ...) برقم: (٩)، ومسلم، باب بيان عددشعب الإيمان وأفضلها وأدناها وفضيلة الحياء وكونه من الإيمان، برقم: (٣٥).

قوله (فَقَدْ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ) قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ – رَحِمَهُ اللهُ –:(صَرّحَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنَّ عِلْمَ النُّجُومِ مِنَ السِّحْرِ) [١] أهـ لِمَا فِيه مِنِ ادِّعَاءِ عِلْمِ الْغَيْبِ، واستِعانةٍ بالشَّيطانِ. (زَادَ مَا زَادَ) أَيْ : كُلَّمَا زَادَ مِنْ عِلْمِ التَّنْجِيمِ كُلَّمَا زَادَ مِنَ الْإِثْمِ وَالسِّحْرِ.

قَالَ الإمامُ– رَحِمَهُ اللهُ– –[وَلِلنَّسَائِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَة: ﷺ (مَنْ عَقَدَ عُقْدَةً ثُمَّ نَفَثَ فِيهَا، فَقَدْ سَحَرَ، وَمَنْ سَحَرَ؛ فَقَدْ أَشْرَكَ، وَمَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا، وُكِلَ إِلَيْهِ)[٢]]

هَذَا الْحَدِيثُ ضَعِيفٌ وَعِلَتُهُ الْانْقِطاعُ بَيْنَ الْحَسَنِ وَأَبِي هُرَيْرَةَ، لَكِن قَدْ ثَبَتَتْ جمْلَةُ (وَمَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا، وُكِلَ إِلَيْهِ) عَنِ النَّبي ﷺ بِإسْنادٍ آخر كَمَا تَقَدَّمَ الْكَلامُ عَلَيهَا فِي بَابِ ما جاء في الرقى والتمائم مِنْ حَديثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُكيم ﷺ

قَالَ الإمامُ– رَحِمَهُ اللهُ– [وَعَنِ ابن مَسْعُودٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:(ألا هَلْ أنَبِّئُكُمْ مَا الْعَضْهُ؟ هِيَ النَّمِيمَةُ، الْقَالَةُ بَيْنَ النَّاس)[٣] رَوَاهُ مُسْلِمٌ.]

(ألا) حَرْفُ عَرْضٍ، وَفِيه التَّرَفُّقُ فِي التَّعْلِيمِ، (أنَبِّئُكُمْ) أخْبرُكُمْ، قَوْلُهُ: (مَا الْعَضْهُ ؟) مَا: اسْتِفْهامِيَّةٌ، وَفَائِدَةُ الاسْتِفْهامِ تَشْوِيقُ الْمُخاطبِ لِما يَأْتِي مِنَ الْكَلامِ، وَفِيه: حُسْنُ تَعْلِيمِهِ ﷺ ؛ لأنَّ التَّعْلِيمَ بِطَرِيقَةِ الْاسْتِفْهامِ أوقعُ فِي النَّفْسِ.(الْعَضْهُ) بزِنة الْوَجْه، وَقِيلَ: العِضَةُ عَلَى وَزْن العِدَةُ ، وَمعنَاهَا التَّفْرِيقُ وَالتَّقْطِيعُ ،(هِي النَّمِيمَةُ) مِنْ نَمَّ الْكَلامَ إِذَا نَقَلَهُ إِلَى غَيْرِه ثُمَّ فَسَّرَهَا بِقولِهِ:(الْقالَةُ بَيْنَ النَّاسِ) فَهِي: نَقْلُ الْكَلامِ مِنْ قَوْمٍ إِلَى آخرين سَواءٌ كَانَ صِدْقًا أَوْ كَذِبًا. قَالَ أَبُو الْخِطَابِ :(وَمِنَ السِّحْرِ السَّعيُ بِالنَّمِيمَةِ وَالْإِفْسَادِ بَيْنَ النَّاسِ)[٤]

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية، ص: ٩٩.

(٢) أخرجه النسائي في كتاب تحريم الدم– باب الحكم في السَّحرة (٤٠٧٩)، وضعفه الألباني في «ضعيف النسائي» .

(٣) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب– باب تحريم النميمة (٢٦٠٦).

(٤) نقله عنه ابن مفلح في الفروع (١٠/٢١٠).

ووجهُ الشَّبَهِ بيْنَهُمَا: أَنَّ كُلاً مِنْهُمَا يُفَرِّق بَيْنَ الْمُتَحابِّين، وَيَشْتَمِلُ عَلَى أَذَى الْمُسْلِمِينَ، قَالَ يَحْيى بْنُ أَبِي كَثِير:(يُفْسِدُ النَّمَّامُ فِي سَاعَةٍ مَا لَا يُفْسِدُهُ السَّاحِرُ فِي شَهْرٍ)[١] وَفِي الْحديثِ : التَّحْذِيرُ مِنَ النَّمِيمَةِ وَالْغِيْبَةِ وَأَنَّهُمَا مِنَ الْكبائرِ.

قَالَ الإمامُ- رَحِمَهُ اللهُ- [وَلَهُمَا عَنِ ابن عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا)[٢]]

(وَلَهُمَا) أَيْ : لِلْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ (الْبَيَانِ) هُوَ التَّعْبِيرُ عَمَّا فِي النَّفْسِ بِفَصَاحَةٍ تَسْتَمِيلُ الْقُلُوبَ وَتَأْخُذُ الْمَسَامِعَ. قَالَ بَعْضُهُمْ:

فِي زُخْرُفِ الْقَوْلِ تَزْيِينٌ لِبَاطِلِهِ *** وَالْحَقُّ قَدْ يَعْتَرِيهِ سُوءُ تَعْبِيرِ

وَ قِيلَ أيضاً :

تَقُولُ هَذَا مُجَاجُ النَّحْلِ تَمْدَحُهُ *** وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ قَيْءُ الزَّنابيرِ

مَدْحاً وَقَدْحاً مَا جَاوَزْتَ وَصْفَهُمَا *** وَالْحَقُّ قَدْ يَعْتَرِيهِ سُوءُ تَعْبِيرِ

قوله (لَسِحْرًا) وَجْهُ إِطْلاقِ السِّحْرِ عَلَى الْبَيَانِ: مَا يَحْصُلُ بِهِ مِنَ الْعَطْفِ وَالصَّرْفِ.

وَهَلْ وَصْفُ الْبَيَانِ بِأَنَّه سِحْرٌ مَدْحٌ أَوَقَدْحٌ ؟ ظاهِرُ النَّصِّ أَنَّه ذَمٌّ لَهُ لأنَّ السِّحْرَ مَذْمُومٌ وَمِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ مَنْ قَالَ إِنَّ ذَلِكَ بِحَسَبِ حالِ الْمُتَكَلِّمِ، فإِنْ أَبْطَلَ بِهِ الْبَاطِلَ وَأَحَقَّ بِهِ الْحَقَّ فَهُوَ مَمْدوحٌ. وَإِنْ رَدَّ بِهِ الْحَقَّ وَأَثْبَتَ بِهِ الْبَاطِلَ فَهُوَ مَذْمُومٌ.

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٣/٧٠).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب النكاح- باب الخطبة (٥١٤٦) ولم يخرجه مسلم.

[٢٦]

بَابُ مَا جَاءَ فِي الْكُهَّانِ وَنَحْوِهِمْ

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ: أَنَّ الْبَابَ السَّابِقَ فِي بَيَانِ أَنْوَاعِ السِّحْرِ، وَتَقَدَّمَ أَنَّ السَّاحِرَ وَالْكَاهِنَ مَصْدَرُهُمَا وَاحِدٌ وَهُوَ الشَّيْطَانُ ، وكلٌ مِنْهُمَا يَدَّعِي عِلْمَ الْغَيْبِ أَيْ: يُنَازِعُ اللهَ في ما اخْتَصَّ بِهِ، ويستعينُ بالشيطانِ كَمَا أَنَّ الْكِهَانَةَ ضَرْبٌ مِنَ السِّحْرِ.

قَالَ الإمامُ- رَحِمَهُ اللهُ - [رَوَى مُسْلِمٌ فِي "صَحِيحِهِ" عَنْ بَعْضِ أَزْوَاجِ النَّبِي ﷺعَنِ النَّبِي ﷺ قَالَ: (مَنْ أَتَى عَرَّافًا، فَسَأَلهُ عَنْ شيءٍ، فَصَدَّقَهُ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا)[١]]

رِوايَةُ مُسْلِمٍ لَيْسَ فِيهَا (فَصَدَّقَهُ) لَكِنْ هَذِهِ رِوايَةُ أَحْمَدَ قوله: (بَعْضِ أَزْوَاجِ النَّبِي ﷺ) هِي حَفْصَةُ (مَنْ أَتَى عَرَّافًا) الْعَرَّافُ اسم عَامٌّ يَشْمَلُ الْكَاهِنَ وَالْمُنَجِّمَ والرَّمال وَكُلَّ مَنْ يَدَّعِي عِلْمَ الْغَيْبِ (فَسَأَلهُ عَنْ شيءٍ) ظاهِرُ رِوايَةِ مُسْلِمٍ أَنَّ هَذَا الْوَعِيدَ مرتبٌ عَلَى الْإِتْيانِ وَالسُّؤَالِ فَقَط؛ لأَنَّ مُجَرَّدَ إِتْيانِ الْكُهَّانِ مَنْهِيٌّ عَنْه، وَفِي حَديثِ مُعاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ قَالَ :(منَّا رِجَالٌ يَأْتُونَ الْكُهَّانَ قَالَ: فَلَا تَأْتِهِمْ) [٢] فَمَنَعَهُ مِنْ إِتْيانِهِمْ احْتِقَارًا لَهُمْ وَإِعْرَاضًا عَنْهُمْ، وَحِفْظًا لِقُلُوبِنَا وَدِينِنَا.

وَسُؤَالُ الْكَاهِنِ عَلَى أَنْوَاعٍ:

الأول: سُؤَالُهُ مُجَرَّدٌ عَنِ التَّصْدِيقِ وَالْإِنْكارِ فَهَذَا حَرَامٌ .

وَالثَّانِي: أَن يقَارَنَهُ تَصْدِيقٌ فَهذا كُفْرٌ أصغرُ وَقَدْ يَصِلُ إِلَى الْأَكْبَرِ.

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب السلام- باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان (٢٢٣٠).

(٢) أخرجه مسلم، باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحة، برقم: (٥٣٧).

وَالثَّالِثُ: سُؤَالُهُ لِيَخْتَبِرَهُ ويُنْكِرَ عَلَيه فَهَذَا وَاجِبٌ كَمَا فِي سُؤَالِ النَّبي ﷺ لابن صَيَّادٍ قَالَ :(خَبَّأْتُ لَكَ خبيئاً ؟ قَالَ : الدخ قَالَ : اخْسَأْ فَلَنْ تَعْدُوَ قَدْرَكَ)(١).

قوله:(لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلاةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا) : الْقَاعِدَةُ فِي نَفْيِ الْقَبُولِ: أَنَّهُ إِذَا تَعَلَّقَ بِفَوَاتِ شَرْطٍ أَوْ وُجُودِ مَانِعٍ فَمَعنَاهُ الْبُطلَانُ ، كَحَدِيثِ :(لَا يَقْبَلُ اللهُ صَلاةَ أَحَدِكُمْ إِذَا أَحْدَثَ حَتَّى يَتَوَضَّأَ)(٢) أَمَّا إِذَا لَمْ يَتَعَلَّقْ بِأَحَدِهِمَا فَنَفيُ الْقَبُولِ يَعْنِي: نَفيُ حُصُولِ الثَّوابِ، فَأَدَاءُ الْعِبَادَةِ يُسْقِطُ الْفَرْضَ فِي حقِّهِ وَلَا يُطَالَبُ بِهَا وَلَا يَحْصُلُ لَهُ ثَوابٌ عَلَيهَا. كَمَا فِي مَسَائِلِنَا هَذِهِ.

حُكْمُ تَصْدِيقِ الْكُهَّانِ:

ذَهَبَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ إِلَى أَنَّ الَّذِي أَتَى كَاهِنَا وَعَرَّافَا فَصدَّقَهُ لَمْ يَكْفُرْ كُفرًا مُخْرِجًا مِنَ الْمِلَّةِ ؛ لأَنَّ الكفرَ لَوْ كَانَ أَكْبرَ لَمْ يُؤَقَّتْ لَقَبولِ صَلاتِهِ بأربعينَ يَوْمًا، فَإِنَّ الْمُرْتَدَّ لَا تُقْبَلُ لَهُ صَلاةٌ مُطْلَقًا، وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ كُفْرَهُ أَصْغَرُ قَوْلُهُ عَلَيه الصَّلاةُ و السَّلامُ :(مَنْ أَتَى حائِضًا أَوْ امْرَأَةً فِي دُبُرِهَا أَوْ كَاهِنًا فَصدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفرَ بِمَا أنزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ)(٣). لأنَّ اقْترانَ إِتيانِ الْكُهَّانِ بِإِتْيانِ الْحَائِضِ وَالْمَرْأَةِ فِي دُبُرِهَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كُفْرٌ أَصْغر. وَهَذَا الْمَذْهَبُ يُشْكِلُ عَلَيه كَيْفَ يَكُونُ كُفْرُ مَنْ يُصَدِّقُ الْكَاهِنَ أَصْغرَ وَقَدْ اعْتَقَدَ أَنَّ غَيْرَ اللَّهِ يَعْلَمُ الْغَيْبَ وَعِلْمُ الْغَيْبِ مِنْ خصائصِ اللهِ لِذَلِكَ ذَهَبَ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ إِلَى أَنَّ كُفْرَهُ أَكْبَرُ وَقَدْ ذَهَبُوا إِلَى الْحُكْمِ عَلَى رِوايَةِ أَحْمَدَ بِالشُّذُوذِ فَرتَّبُوا وَعِيدَ لَمْ تُقْبَلْ لهُ صَلاةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا عَلَى مُجَرَّدِ السُّؤَالِ كَمَا فِي رِوايَةِ مُسْلِمٍ فَفِيهَا تَرْتِيبُ الْوَعِيدِ عَلَى مُجَرَّدِ الْإِتْيانِ وَالسُّؤَالِ وَهُوَ مَذْهَبٌ قَوِيٌّ إِذَا قِيلَ بِضَعْفِ رِوايَةِ أَحْمَدَ.

---

(١) أخرجه البخاري،باب قول الرجل للرجل اخسأ ،برقم: (٦١٧٣)، ومسلم،باب ذكر ابن صياد ،برقم: (٢٩٢٤).

(٢) أخرجه البخاري، باب في الصلاة، برقم: (٦٩٥٤).

(٣) أخرجه ابن ماجه، باب النهي عن إيتان الحائض، برقم: (٦٣٩)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه برقم: (٥٢٢).

وَالتَّحْقِيقُ أَنْ يُقَالَ أَنَّ مَنْ صَدَّقَ الْكَاهِنَ وَاعْتَقَدَ أَنَّ غَيْرَ اللهِ يَعْلَمُ الْغَيْبَ فكفرُهُ أَكْبَرُ، وَمَنْ أَتَى الْكُهَّانَ وَهُوَ يَعْتَقِدُ أَنَّ الْغَيْبَ مِنْ خصائصِ اللهِ لَكِنْ قَدْ قَامَتْ عندَهُ شُبْهَةٌ وَهِي أَنَّ هَذَا الْكَاهِنَ أَخْبَرَ بِمَا وَصَلَهُ عِلْمُهُ مِنْ طَرِيقِ الجِنِّ أَوْ الْمَلائِكَةِ فَهَذَا كُفْرُهُ أَصْغَرُ فَظَهَرَ بِهَذَا أَنَّه لَا خِلافَ بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ فَكُلٌّ قَدْ نَزَّلَ الحديثَ عَلَى وَجْهٍ مُعَيَّنٍ.

قَالَ الإمامُ –رَحِمَهُ اللهُ– [وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِي ﷺ قَالَ: (مَنْ أَتَى كَاهِنًا، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أنزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ)[١] رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ]

قَوْلُهُ:(فَقَدْ كفرَ) هَذَا مِنْ نُصُوصِ الْوَعِيدِ، فَمِنَ السَّلَفِ مَنْ يرى أَنَّهَا لَا تُفَسَّرُ بَلْ تُجْرَى كَمَا جَاءَتْ، حَتَّى يَحْصُلَ الْأَثَرُ الْمَقْصُودُ مِنَ النَّصِّ بالنِّسبةِ للسامعِ وَمِنْهُمْ: مَنْ يرى التَّفْصِيلَ بِحَسَبِ الْمَقَامِ، وَالتَّفْرِيقَ بَيْنَ طَلَبَةِ الْعِلْمِ وَغَيْرِهِمْ وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ فِيه التَّفْصِيلَ السَّابِقَ فَقَدْ يَكُونُ أَكْبَرَ وَقَدْ يَكُونُ أَصْغَرَ، (بِمَا أنْزِلَ عَلَى ﷺ) أيْ: بِالْقُرْآنِ؛ لَأنَّهُ لا يَجْتَمِعُ تَصْدِيقُ الْقُرْآنِ وَتَصْدِيقُ الْكُهَّانِ فِي قَلْبِ الْعَبْدِ، فقَدْ جَاءَ فِي الْقُرْآنِ بتكذيبِ الكُهْان قَوْلُهُ تَعَالَى:﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾[٢]

وَفِي قَوْلِهِ أَنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ: إِثْبَاتٌ لِصِفَةِ الْعُلُو لأنَّ النزول لا يكون إلا من أعلى وقد نزل من الله سبحانه.

قَالَ الإمامُ –رَحِمَهُ اللهُ–[وَلِلأَرْبَعَةِ وَالْحَاكِمِ – وَقَالَ "صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِهِمَا" – عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ:ﷺ (مَنْ أَتَى عَرَّافًا، أَوْ كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أَنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ)[٣].]

هَذَا الْحديثُ موقوف على أبي هريرة فِيه مَا سَبَقَ لَكِنْ ذكرَهُ الإمام تَكْثيرًا لِلْأدلةِ.

(١) أخرجه أبوداود في كتاب الطب– باب في الكاهن (٣٩٠٤) والترمذي في كتاب الطهارة– باب ماجاء في كراهية إتيان الحائض (١٣٥) وابن ماجه في كتاب الطهارة– باب النهي عن إتيان الحائض (٦٣٩)، وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٤٥٩٩).

(٢) سورة النمل الآية: ٦٥.

(٣) انظر الحديث السابق.

قَالَ الإمامُ- رَحِمَهُ اللهُ- [وَلابِي يَعَلَى بِسَنَدٍ جَيِّدٍ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ مِثْلُهُ مَوْقُوفًا[١]]

هَذَا الْأَثَرُ رَوَاهُ الْبَزَّارُ وَإِسْنادُهُ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ وَلَفْظُهُ :(منْ أَتى كَاهِنًا أَوْ سَاحِرًا .. ألخُ.)

قَالَ الإمامُ- رَحِمَهُ اللهُ- [وَعَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ ﷺ مَرْفُوعًا: (لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَطَيَّرَ أَوْ تُطُيِّرَ لَهُ، أَوْ تَكَهَّنَ أَوْ تُكُهِّنَ لَهُ، أَوْ سَحَرَ أَوْ سُحِرَ لَهُ، وَمَنْ أَتَى كَاهِنًا، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ) [٢] رَوَاهُ الْبَزَّارُ بِإِسْنَادٍ جَيِّدٍ وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الأَوْسَطِ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ، دُونَ قَوْلِهِ (وَمَنْ أَتَى) إِلَى آخِرِهِ[٣].]

قوله:(لَيْسَ مِنَّا) هَذِهِ اللَّفْظَةُ قد تَدُلُّ عَلَى الْخُرُوجِ مِنَ الْإِسْلامِ ، وقد تَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذَا الْفِعْلَ مِنَ الْكبائرِ ،بحسب القرائنِ. (تَطيَّرَ) أَيْ : زَجرَ الطَّيْرَ لِنَفْسِهِ، أَوْ لِغَيْرِهِ أَوْ فَعَلَ بِمُقْتَضى الزَّجْرِ وَيَشْمَلُ العائف وَالَّذي يَعْمَلُ بِمُقْتَضى كَلامِهِ، أَمَّا العائف فَهُوَ كَاهِنٌ وَالْكَاهِنُ كَافِرٌ كُفْرًا أَكْبَر ، وَالثَّاني كفرُهُ فِيه التَّفْصِيلُ السابق (أَوْ تُطُيِّرَ لَهُ) أَمَرَ غَيْرَه بِزَجْرِ الطَّيْرِ (أَوْ تَكَهَّنَ) هُوَ الْكَاهِنُ ، وَهُوَ كَافِرٌ كُفْرًا أَكْبر، (أَوْ تُكُهِّنَ لَهُ) أيْ : أَتَى الْكَاهِنَ، وَهَذَا فِيه التَّفْصِيلُ كَما تَقَدَّمَ.

(أَوْ سَحَر أَوْ سُحِرَ لَهُ) الأول: السَّاحِرُ، وَهُوَ كَافِرٌ كُفْرًا أَكْبَر. وَالثاني سَبَقَ فِيه التَّفْصِيلُ؛ لأنَّ إِتْيانَ السَّحَرَةِ مِنْ إِتْيانِ الْكُهَّانِ.

---

(١) أخرجه أبو يعلى في «مسنده» (٩/٢٨٠) وصححه الألباني في صحيح الترغيب: (١٧٢/٣).

(٢) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٨/١٦٢/١٥٠٦٥) وذكره الهيثَمي في «مجمع الزوائد» (١٧٧/٥) وقال: «رواه الطبراني وفيه:إسحاق بن الربيع العطار وثقه أبوحاتم وضعفه عمر وبن علي،وبقية رجاله ثقات».

(٣) أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٤/٣٠١/٤٢٦٢)، وذكره الهيثَمي في «مجمع الزوائد» (٥/٢٠١)، وقال: «رواه البزار و الطبراني في الأوسط وفيه: زمعة بن صالح وهو ضعيف»، وصححه الشيخ الألباني –رحمه الله- في صحيح الترغيب والترهيب بشواهده "١٧٠/٣" .

قَالَ الإِمامُ- رَحِمَهُ اللهُ- [قَالَ الْبَغَوِيُّ: (الْعَرَّافُ الَّذِي يَدَّعِي مَعْرِفَةَ الْأُمُورِ بِمُقَدِّمَاتٍ يُسْتَدَلُّ بِهَا عَلَى الْمَسْرُوقِ وَمَكَانِ الضَّالَّةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ) (١).]

الْبَغَوِيُّ: هُوَ الحسينُ بْنُ مَسْعُودِ الْفَرَّاءُ الشَّافِعِيُّ، نُسِبَ إِلَى بَغْشَور، عَالِمُ خُراسانَ، صَاحِبُ مَعَالِمِ التَّنْزِيلِ، وَشَرْحِ السُّنَّةِ وَمَصَابِيحِ السُّنَةِ، وَتَعْرِيفُ البغوي هَذَا وَعَلَيه بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ يَعْنِي: أَنَّ الْعَرَّافَ مَنْ يَخْتَصُّ بِمَعْرِفَةِ الْأُمُورِ الْوَاقِعَةِ فِي الْمَاضِي. وَهَذَا قَدْ يُخْبِرُ أَحْيانا بِأَشْيَاءَ قَدْ وقعَتْ كَمَا أَخْبَرَ. وَإِخْبَارُهُ بِمَا وَقَعَ كَمَا وقع لَا يُزَحْزِحُ الْمُوَحِّدَ عَنْ مُعْتَقَدِهِ وَهُوَ أَنَّ الْغَيْبَ مِنْ خصائص الْمَوْلَى وَإِنَّمَا يَزْدَادُ يَقِينا فِي هَذَا الْمُخْبِرِ أَنَّه مِمَّنْ تَتَنَزَّلُ عَلَيه الشَّيَاطِينُ الَّذِينَ أَخبَرَنَا اللهُ بِهِمْ قَالَ تَعَالَى﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴾(٢).وأنه من أولياء الشيطان الذين يوحي إليهم.

قَالَ الإِمامُ- رَحِمَهُ اللهُ- [(وَقِيلَ: هُوَ الْكَاهِنُ، وَالْكَاهِنُ هُوَ الَّذِي يُخْبِرُ عَنِ الْمُغَيَّبَاتِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ)]

وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا وَاضِحٌ.فالغيب نوعان غيب مضى (ويسمى الغيب النسبي) وهو غيب بالنسبة لمن غاب عنه وليس غيبا لمن حضره وهذا يطلع عليه الجن ويخبر به الكاهن أما الغيب المطلق وهو ما يقع في المستقبل فلا يمكن لأحد أن يعلمه إلا أن يُطْلِع اللهُ عليه رسله وما سوى ذلك فهو تخمين لا حقيقة له.قال تعالى ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [سورة الجن]

---

(١) كلام البغوي في شرح السنة "١٨٢/١٢"، وانظر أضواء البيان للشنقيطي (٤٨٤/١).

(٢)سورة الشعراء الآية: ١٢١-١٢٣.

قَالَ الإمامُ– رَحِمَهُ اللهُ– [(وَقِيلَ الَّذِي يُخْبِرُ عَمَّا فِي الضَّمِيرِ)]

مَا فِي الضَّمِيرِ لَا يَعْلَمُهُ إِلّا اللهُ، لَكِنْ قَدْ يَتَوصَّلُ الجِنِّيُّ إِلَى مَا فِي الضَّمِيرِ بِالْهَوَاجِسِ أَوْ بِكَلامٍ يَخْرُجُ مِنْ صَاحِبِهِ، وَقَدْ قَالَ الشَّيْخُ سُليمَانُ – رَحِمَهُ اللهُ –:(وَالْمَقْصُودُ مِنْ هَذَا: مَعْرِفَةَ أَنَّ مَنْ يَدَّعِي عِلْمَ شيءٍ مِنَ الْمَغِيبَاتِ إِمَّا دَاخِلٌ فِي اسم الْكَاهِنِ أَوْ مُشَارِكٌ لَهُ فِي الْمعْنى فَيَلْحَقُ بِه) (١)

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[وَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ الْعَرَّافُ اسْمٌ لِلْكَاهِنِ، وَالْمُنَجِّمِ وَالرَّمَّالِ، وَنَحْوِهِمْ، مِمَّنْ يَتَكَلَّمُ فِي مَعْرِفَةِ الْأُمُورِ بِهَذِهِ الطُّرُقِ (٢)]

أيْ: هِيَ بِمَعْنى وَاحِدٍ (وَالْمُنَجِّمِ) هُوَ الَّذِي يَدَّعِي مَعْرِفَةَ الْأمُورِ بِوَاسِطَةِ النَّجوم، كَأَنْ يَقُولَ:(إِذَا وُلِدَ فِي نَجْمِ كَذَا حَصَلَ لَهُ كَذَا، وَإِذَا التقَى نَجْمُ كَذَا وَكَذَا حَصَلَ لَهُ كَذَا)،(وَالرَّمَّالُ) يَدَّعِي مَعْرِفَةَ الْغَيْبِ بِوَاسِطَةِ الْخَطِّ فِي الرَّمْلِ،(وَنَحْوِهِمْ) كَمَنْ يَقْرَأُ فِي الْكَفِّ أَوْ الْفِنْجَانِ، وَإِن اخْتلَفتْ الطُّرُقَ فَالنَّتِيجَةُ وَاحِدَةٌ وَهِيَ ادِّعَاءُ عِلْمِ الْغَيْبِ الَّذِي هُوَ مِنْ خصائص الْمَوْلَى سُبْحَانَه.

إِشْكَالٌ وَجَوَابُهُ: كَيْفَ يَكُونُ الخَطُّ فِي الْأَرْضِ كهَانَةً وَقَدْ جَاءَ فِي حَدِيثِ مُعاوِيَةَ بنِ الحكمِ أَنَّهُ قَالَ للنبِيّ ﷺ: (ومِنَّا رِجَالٌ يَخُطُّونَ) فَقَالَ النَّبي ﷺ:(كَانَ نبيٌ مِنَ الْأنبياءِ يَخُطُّ فَمِنْ وَافَقَ خَطُّهُ فَذَاكَ)(٣) قَالَ النَّوَوِيُّ – رَحِمَهُ اللهُ –:(مَعنَاهُ مَنْ وَافَقَ خَطُّهُ فَهُوَ مُبَاحٌ لَهُ وَلَكِنْ لَا طَرِيقَ لَنَا إِلَى الْعِلْمِ الْيَقِينِي بِالْمُوَافَقَةِ فَلَا يُبَاحُ) (٤).وَقَدْ أُعطِيَ ذَلِكَ النَّبِيّ ﷺ هَذَا الْخَطُّ مُعْجِزَةً لَهُ، وَلَمْ يَقُلْ النَّبي ﷺ الْخَطُّ حرامٌ؛ دَفْعاً لِتَوهُّمِ أَنَّ ذَلِكَ النَّبِيَّ عليه الصلاة والسلام يَفْعَلُ الْحَرامَ، وَسَبَبُ إصابَتِهِمْ مُوَافَقَتُهُمْ لِذَلِكَ النَّبِيِّ صلى الله عَلَيه وَعَلَى نَبِيِّنَا وَسَلَّمَ.

---

(١) انظر:تيسير العزيز الحميد (٣٥٢).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (١٧٣/٣٥).

(٣) حديث معاوية سبق تخريجه.

(٤) شرح النووي على مسلم، ٥/ ٢٣، الناشر : دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الثانية ، ١٣٩٢.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [(وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما فِي قَوْمٍ يَكْتُبُونَ (أَبَا جَادٍ) وَيَنْظُرُونَ فِي النُّجُومِ "مَا أَرَى مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ خَلَاقٍ")[1]].

هَذَا الْأَثَرُ رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الْكَبِيرِ وَابن أَبِي شَيْبَةَ وَعَبْدُ الرَّزَّاقِ وَالْبَيْهَقِيُّ. (أَبَا جَادٍ) هِيَ أَبْجَدْ هَوَّزَ، أَيْ: الْحُروفُ الْأَبْجَدِيَّةُ.

وَيَنْقَسِمُ تَعَلُّمُهَا إِلَى قِسْمَيْنِ: الأول: مُبَاحٌ، كَمَنْ تَعَلَّمَهَا لِلْكِتَابَةِ أَوْ حِسَابِ الْجُمَلِ، **وَالثَّانِي:** كفرٌ، كَمَنْ تَعَلَّمَهَا لِيَرْبِطَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ سَيْرِ النُّجُومِ، لِيَتَوَصَّلَ بِهِ إِلَى مَعْرِفَةِ مَا سَيَقَعُ فَهَذَا ضَرْبٌ مِنَ الْكِهَانَةِ.

(١) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (١٣٩/٨).

[٢٧]

بَابُ مَا جَاءَ فِي النُّشْرَةِ

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ: أَنَّ الإمام – رَحِمَهُ اللهُ – ذَكَرَ فِي الْبَابِ السَّابِقِ السِّحْرَ وَأَنْوَاعَهُ وَمَا هُوَ فِي حُكْمِهِ ثُمَّ عَقَدَ هَذَا الْبَابَ لأَنَّ النَّاسَ إذا احْتَاجُوا إِلَى معرفَةِ حُكْمِ السِّحْرِ فَهُمْ يَحْتَاجُونَ إِلَى معرفَةِ حُكْمِ النُّشْرَةِ أيضاً. **والنُّشْرَة** [(١)] – بِضَمِّ النُّونِ – أَصلُهَا مِنَ النَّشْرِ وَهُوَ قِيَامُ الْمَرِيضِ صَحِيحاً، وَقِيلَ: النَّشْرُ ضِدُّ الطَّيِّ ، **وَشَرعاً**: هِي حَلُّ السِّحْرِ. **أَمَّا حُكْمُهَا فَتَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْن: الأول** : حَلُّ السِّحْرِ بِالسِّحْرِ فَهَذَا لَا يجوزُ. **أَمَّا الثَّانِي**: وَهُوَ حَلُّ السِّحْرِ بِالرُّقَى وَالْأَدْعِيَةِ الْمَشْرُوعَةِ فَهُوَ جَائِزٌ بَلْ مُسْتَحَبٌّ.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[عَنْ جَابِرٍ: رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ عَن النُّشْرَةِ ؟ فَقَالَ:(هِيَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ) [(٢)] **رَوَاهُ أَحْمَدُ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ، وَأَبُو دَاوُدَ.]**

قوله:(سُئِلَ عَن النُّشْرَةِ؟) أَيْ النُّشْرَةِ الْمَعْهُودَةِ الَّتِي كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَصْنَعُونَهَا وَهِي حَلُّ السِّحْرِ بِالسِّحْرِ.(هِي مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ) أَيْ: مِمَّا يُستعانُ فِيه بالشَّيْطَانِ أَوْ مِمَّا يَأْمُرُ بِهِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّه يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكرِ.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [وَقَالَ "سُئِلَ أَحْمَدُ عَنْهَا؟ فَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ ﷺ يَكْرَهُ هَذا كُلَّهُ]

أَيْ: سُئِلَ عَنْ حُكْمِهَا، وَالْكَرَاهَةُ عِنْدَهُمْ: بِمَعْنَى التَّحْرِيمِ.(كُلَّه) أَيْ: النُّشْرَةُ الَّتِي هِي مِنْ عَمَلِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَالسَّائِلُ: هُوَ أَبُو داوُدَ وأَثَرُ ابنِ مسعودٍ ﷺ رواهُ ابنُ أبي شيبةَ عن إبراهيمَ كانُوا يكرهونَ التمائمَ والرُّقى والنشرَ [(٣)]

(١) تعرف عند العامة في بلادنا بالزار أو الدستور ولا يزال بعض النَّاس يتعاطونها نسأل الله العافية لنا ولهم.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣/٢٩٤)، وأبو داود في كتاب الطب– باب في النشرة (٣٨٦٨)، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود».

(٣) برقم (٢٣٤٧١) أفدتها من شرح الشيخ العصيمي – حفظه الله–.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [وَفِي "الْبُخَارِيّ" عَنْ قَتَادَةَ قُلْتُ لِابْنِ الْمُسَيّبِ رَجُلٌ بِهِ طِبٌّ أَوَ يُؤَخَّذُ عَنِ امْرَأَتِهِ، أَيُحَلُّ عَنْهُ أَوْ يُنْشَرُ؟ قَالَ: لَا بَأْسَ بِهِ، إنَّما يُرِيدُونَ بِهِ الْإِصْلَاحَ، فَأَمَّا مَا يَنْفَعُ، فَلَمْ يُنْهَ عَنْهُ (١)]

قوله:(عن قَتادَةُ) هُوَ ابن دِعَامَةَ السَّدوسي الْبَصرِي فَقِيهٌ مِنْ أَحْفَظِ التَّابِعِينَ، وُلِدَ أَكْمَهَ، مَاتَ سَنَةَ بِضْعِ عَشْرَةَ وَمِائَة .(رَجُلٌ بِهِ طِبٌّ) – بِكَسْرِ الطَّاءِ – وَيُقَالُ طُبَّ الرَّجُلُ – بِالضَّمِّ – : إِذَا سُحِرَ، وَسُمِّيَ السِّحْرُ طباً تَفَاؤُلاً كَتَسْمِيَةِ اللَّدِيغِ بِالسَّلِيمِ.(أَوْ يُؤَخَّذُ) – بِفَتْحِ الواوِ المهموزةِ وَتَشْدِيدُ الْخَاءِ الْمُعْجَمَةِ – أَيْ: يُحْبَسُ عَنِ امْرَأَتِهِ فَلَا يَصِلُ إِلَى جِمَاعِهَا. والأُخْذَةُ – بِضَمِّ الْهَمْزَةِ – هَمْهَمَةُ السَّاحِرِ، وَكَلامُ ابن المسيّبِ حَمَلَهُ بَعْضُ أهْلِ الْعِلْمِ عَلَى أَنَّ السِّحْرَ النَّافِعَ جَائِزٌ وَمَا سِوَاهُ حَرامٌ، وَبِهِ قَالَ بَعْضُ الحنابلة وَكَلامُ سَعِيد ابْنِ المسيب لَيْسَ حُجَّةً فَإِنَّ الْعَالم يُسْتَدَلُّ لَهُ وَلَا يُسْتَدَلُّ بِهِ فكَيْفَ وَقَدْ عَارَضَهُ منْ هُوَ مِثْلُه من التَّابعين وهو الحسنُ البصريُّ بَلْ عَارَضَهُ منْ هُوَ أَجَلُّ مِنْه وَهُوَ ابن مَسْعُودٍ ، وَفوقَ ذلكَ مُخَالفته لِنَصِّ كَلامِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَعَلَى كُلِّ حالٍ فَالصَّوَابُ مَا عَلَيه جُمْهُورُ أَهلِ السُّنَّةِ وَالْجَماعَةِ وَهُوَ أَنَّ حَلَّ السِّحْرِ بِالسِّحْرِ لَا يجوزُ؛ لَأنَّهُ لَا يكُونُ إلّا بَعْدَ تَعَلُّمِ السِّحْرِ، وَتَعَلُّمِ السِّحْرِ كفرٌ وَهُو ذَرِيعَةٌ لِعَقْدِ السِّحْرِ والأولى حملُ كلامِ ابن المسيب علَى الرُّقَى الشَّرعيةِ وهو الأليقُ به.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [وَرُوِيَ عَنِ الْحَسَنِ أَنَّهُ قَالَ: (لَا يَحِلُّ السِّحر إِلَّا سَاحِرٌ)(٢)]

(١) ذكره البخاري تعليقًا في كتاب الطب– باب هل يستخرج السِّحر (فتح الباري: ٢٣٣/١٠) ووصله أبوبكر بن الأثرم في سننه أفدتها من شروحات الشيخ العصيمي حفظه الله .

(٢) رواه الطبراني في تهذيب الآثار كما في فتح الباري "٢٨٧/١٠" (ط: السلام"، وعزاه الشيخ عبد الرحمن بن حسن صاحب فتح المجيد "٥٠٢/٢" لابن الجوزي في جامع الأسانيد، وانظر الآداب الشرعية لابن مفلح "٧٧/٣"،وظاهر الإسناد الذي نقله الحافظ في الفتح عن الطبري الصحة لكن بلفظ: (وكان الحسن يكره ذلك) يقول: (لا يعلم ذلك إلا ساحر) قال الشيخ الألباني في "مختصر صحيح البخاري" (٢٧/٤) وهذا عندي أرجح من قول سعيد. أهـ.

الْحسَنُ : هُوَ الْحسَنُ بْنُ أَبِي الْحسنِ، واسم أَبِيه يَسَارُ الْبَصرِي، مِنْ خِيَارِ التَّابِعِينَ ، مَاتَ سَنَةَ ١١٠هـ ، وَقَدْ قَارَبَ التِّسْعِينَ. وَمَعْنى كَلامِ الْحسَنِ: لَا يَحِلُ السِّحْرَ بِالسِّحْرِ إِلّا سَاحِرٌ فَإِذا قِيلَ بِإِبَاحَةِ حَلِّ السِّحْرِ بِالسِّحْرِ لَزِمَ مِنْهُ إِبَاحَةَ تَعَلُّمِ السِّحْرِ وَمَا لَزِمَ مِنْه مُحَرَّمٌ فَهُوَ مُحَرَّمٌ وعَلَيهِ فَحَلُّ السِّحْرِ بِالسِّحْرِ مُحَرَّمٌ

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ النُّشْرَةُ حَلُّ السِّحر عَنِ الْمَسْحُورِ، وَهِيَ نَوْعَانِ أَحدُهُما حَلٌّ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ، وَهُوَ الَّذي مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ وَعَلَيْهِ يُحْمَلُ قَوْلُ الحْسَنِ، فَيَتَقَرَّبُ النَّاشِرُ وَالْمُنْتشرُ إِلَى الشَّيْطَانِ، بِمَا يُحِبُّ، فَيُبْطِلُ عَمَلَهُ عَنِ الْمَسْحُورِ، وَالثَّانِي النُّشْرَةُ بِالرُّقْيَةِ وَالتَّعَوُّذَاتِ وَالادْوِيَةِ وَالدَّعَوَاتِ الْمُبَاحَةِ، فَهَذَا جَائِزٌ (١)]

قوله: "فَيَتَقَرَّبُ النَّاشِرُ وَالْمُنْتَشرُ إِلَى الشَّيْطَانِ، بِمَا يُحِبُّ، فَيُبْطِلُ عَمَلَهُ عَنِ الْمَسْحُورِ" فتبين بهذا أن الشيطان لا يبطل عمله عن المسحور إلا بعد ما يوقعهما في الشرك بالله تعالى ، النَّاشِرُ هُوَ السَّاحِرُ وَالْمُنْتَشِرُ هُوَ الْمَسْحُورُ.

قَالَ الشَّيْخُ ابن عُثَيْمِين – رَحِمَهُ اللهُ – :(هَذَا الكلامُ جَيِّدٌ وَلَا مَزِيد عَلَيه)يشير إلى كلام ابن القيم(٢)

---

(١) انظر «إعلام الموقعين» لابن قيم الجوزية (٣٩٦/٤).

(٢) انظر «القول المفيد» (٥٥٧/١).

[٢٨]

بَابُ مَا جاءَ فِي التَّطَيُّرِ

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ: أَنَّ التَّطَيُّرَ نَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِ الْكِهَانَةِ وادعاءٌ لِعِلْمِ الْغَيْبِ، كَمَا أَنَّ فِي التَّطَيُّرِ تعلقاً بِغَيْرِ اللهِ، وَمُنافاةً لِلتَّوَكُّلِ عَلَى اللهِ. قَولُهُ:(بَابُ مَاجَاءَفِي التَّطَيُّرِ) أَيْ: ما جاء مِنَ الْأدلةِ وَالنُّصُوصِ فِي حُكْمِهِ. **والتَّطَيُّرُ لُغَةً**: تَفعُّل مِنَ الطَّيْرِ أَيْ: وَأَصْلُهُ طَلَبُ الخيرة مِنَ العائف بِزَجْرِ الطَّيْرِ، أي طلب الاخنيار هل يفعل هذا الأمر أويتركه ثُمَّ اسْتُعْمَلَ فِي التَّشَاؤُمِ **فَالتَّطَيُّرُ**: هُوَ التَّشَاؤُمُ بمرئي أَوْ مَسْمُوعٍ أَوْ مَعْلُومٍ. وَالتَّطَيُّرُ شِرْكٌ أصغر وَقَدْ يَصِلُ إِلَى الْأَكْبَرِ إِذَا اعْتَقَدَ أَنَّ الْمُتَطَيِّرَ بِهِ يَمْلِكُ الشَّرَّ دون الله عز وجل؛ لأنَّ الْمُتَطَيّرَ قَطعَ تَوَكُّلَهُ عَلَى اللهِ وَتَعَلَّقَ بِأَمْرٍ لَا حَقِيقَةَ لَهُ.

قالَ الإمامُ –رحمهُ اللهُ– [وقول الله تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾[1]]

أولُ هذِهِ الآيةِ:﴿ فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾

قوله (فإذا جاءتهم الحسنة) هَذَا حالُ أَعْدَاءِ الرُّسُلِ إِذَا أَصَابَهُمْ الْخَصْبُ وَالرَّخَاءُ قَالُوا: هَذَا بِفِعْلِنَا وَبِسَبَبِنَا قوله: (وإن تصبهم سيئة) أَيْ : جَدْبٌ وَبَلاءٌ، قَالُوا: هَذَا بِسَبَبِ شُؤْمِ مُوسى وَأَصْحَابِهِ، فَرَدَّ اللهُ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ بِقولِهِ:(ألا إنما طائرهم عند الله) أَيْ : أَنَّ اللهَ هُوَ الَّذِي قَدَّرَ لَهُمْ هَذِهِ الْمَصَائِبَ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ، قوله (ولكن أكثرهم لا يعلمون) أَيْ : يَجْهَلُونَ أَنَّ التَّوْحِيدَ وَالسُّنَةَ هُمَا سَبَبُ كُلِّ خَيْرٍ، وَالشِّرْكَ وَالْبِدْعَةَ هُمَا سَبَبُ كُلِّ شَرٍّ. مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِلْبَابِ أَنَّ التَّطَيُّرَ مِنْ صِفَاتِ أَعْدَاءِ الرُّسُلِ فَهُوَ مَذْمُومٌ.

وَأَنَّ الْمُتَطَيّرَ بِهِ لَا يَمْلِكُ الضَّرَّ وَإِنَّمَا يَقَعُ الْبَلَاءُ بِتَقْدِيرِ اللهِ.

---

(١) سورة الأعراف الآية:١٣١.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [قوله: ﴿ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ ﴾[١]]

هَذَا خَبَرُ اللهِ عَنْ كَلامِ أَتْبَاعِ الرُّسُلِ رداً عَلَى أَعْدَاءِ الرُّسُلِ ، فِي قَوْلِهِمْ: ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡ ﴾[٢] فـ (قالوا طائركم معكم) أَيْ أَنَّ الْبَلاءَ إِنَّمَا نزلَ بِسَبَبِ مُخَالَفَتِكُمْ لِلشَّرعِ وَلَا تَعَارُضَ بَيْنَ آيَةِ سورة الاعْرَافِ وَآيَةِ سورة يس، فَطَائِرُهُمْ عِنْدَ اللهِ تَقْدِيرًا وَقَضَاءًا وطَائِرَهُمْ مَعَهُمْ سَبَبًا وَكَسْبًا.قوله:﴿ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ﴾(أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ) شرط محذوف جوابه وتقديره تَطَيَّرْتُم.أَيْ مِنْ أَجْلِ التَّذْكِرَةِ تَشَاءَمْتُم قوله (بل أنتم قوم مسرفون) أي متجاوزون للحد بنسبتكم الشر إلى من ليس سببا فيه.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : «لَا عَدْوَى، وَلَا طِيرَةَ، وَلَا هَامَةَ، وَلَا صَفَرَ» [٣] أَخْرَجَاهُ، زَادَ مُسْلِمٌ : وَلَا نَوْءَ وَلَا غُولَ [٤]]

قوله: (لَا عَدْوَى) لَا: نَافِيَةٌ لِلْجِنْسِ وَخَبَرُهَا مَحْذُوفٌ، **الْعَدْوَى**: هِيَ مُجَاوَزَةُ الْعِلَّةِ مِنَ الْمَرِيضِ إِلَى غَيْرِهِ، فَالْمَنْفِيُّ هُوَ إِضَافَةُ الْعِلَّةِ إِلَى الْعَدْوَى دُونَ تَقْدِيرِ اللهِ، وَهذا اعْتِقادُ أَهْلِ الْجاهِلِيَّةِ وتقدير الخبر لا عدوى مُؤَثِّرَةٌ بِطَبْعِهَا دُونَ تَقْدِيرِ اللهِ، وَإِلّا فَقَدْ يَجْعَلُ اللهُ بِمَشِيئَتِهِ مُخَالَطَةَ الصَّحِيحِ لِلْمَرِيضِ سَبَباً لحدوثِ الْعِلَّةِ، وَلِهَذَا قَالَ عَلَيهِ الصَّلاةُ و السَّلامُ :(فِرَّ مِنَ الْمَجْذُومِ، فِرَارَكَ مِنَ الأَسَدِ) [٥] قَالَ عَلَيهِ الصَّلاةُ و السَّلامُ: (لا يوردَنَّ ممرضٌ على مصِحٍ)[٦] فلا تعارض بين هذه النصوص

---

(١) سورة يس الآية:١٩.

(٢) سورة يس الآية:١٨.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الطب– باب لا صفر وهو داء يأخذ البطن (٥٧١٧)،ومسلم في كتاب السلام– باب لا عدوى ولاطيرة ولا هامة ولا صفر ولا نوء (٢٢٢٠).

(٤) أخرجه مسلم في كتاب السلام– باب لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر ولا نوء (٢٢٢٢)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه برقم: (٢٥٠٣١)، وصححه الألباني في الصحيحة برقم: (٧٨٣).

(٦) أخرجه البخاري، باب لا هامة، برقم: (٥٧٧٠).

وقال:(فمنْ أعدى الأول) (١) يُشِيرُ إِلَى أَنَّ الأول إِنَّمَا جَرُبَ بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقدرِهِ، وَكَذَلِكَ الثَّانِي، فَأَمْرُهُ بِالْفِرَارِ مِنَ الْمَجْذُومِ، وَنَهْيُهُ عَنْ إيرَادِ الْمَرِيضِ عَلَى المصِح، مِنْ بَابِ اجْتِنَابِ الاسْبَابِ الَّتِي خلقَهَا اللَّهُ وَجَعَلَهَا أَسْبَابًا لِلأذى، وَالْعَبْدُ مَأْمُورٌ بِاتِّقَاءِ أَسْبَابِ الشَّرِّ، لَكِنَّ الْوَاجِبَ أيضاً أَنْ يَقْوَى تَوَكُّلُ الْعَبْدِ عَلَى اللهِ وَأَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ لَا يُصِيبُهُ إِلّا مَا كَتَبَ اللهُ لَهُ، فَمنْ احْتَاجَ إِلَى مُبَاشَرَةِ الْمَرِيضِ كَالْطَّبِيبِ وَنَحْوِهِ فَإِنَّهُ يَتَوَكَلُ عَلَى اللهِ وَيُبَاشِرُ الْمرضى.

(وَلَا طِيَرَةَ) لَا: نَافِيَةٌ لِلْجِنْسِ، وَالْخَبَرُ مَحْذُوفٌ، وَالتَّقْدِيرُ: لَا طَيْرَةَ مُؤَثِّرَةٌ أَصْلاً، وَوَرَدَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ مُعاوِيَةَ بنِ الحكمِ – رَضِيَ اللهُ عَنْه – قَالَ:(وَمِنَّا رِجَالٌ يَتَطَيَّرُونَ، قَالَ ذَاكَ شَيْءٌ يَجِدُونَهُ فِي صُدُورِهِمْ فَلَا يصدَّنَّهم)، فَأَخْبَرَ أَنَّ تأذيَهُم وَتَشَاؤُمَهُم بِالتَّطَيُّرِ إِنَّمَا هُوَ فِي أَنْفسِهِم وَعَقِيدَتِهِم لَا فِي الْمُتَطَيِّرِ بِهِ، فَوَهْمُهُم وَخَوْفُهُم وَإِشْرَاكُهُم هُوَ الَّذِي يُطَيِّرُهُم وَيَصُدُّهُم لَا مَا رَأَوهُ أَوسَمِعوهُ، فَأوضَحَ – عَلَيه الصَّلاةُ وَ السَّلامُ – لِأُمَّتِهِ فَسَادَ الطِّيرة؛ لِيَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ سُبْحَانَه لَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ عَلَيهَا عَلامَةً، وَلَا فِيهَا دَلالَةً وَلَا نَصبَهَا سَبَبًا لِمَا يَخَافُونَهُ، لِتَطمَئِنَ قُلُوبُهُمْ وَتَسْكُنَ نُفُوسُهُمْ إِلَى وَحْدَانِيَّةِ اللهِ تَعَالَى، فَمِنْ اسْتَمْسَكَ بِعُرْوَةِ التَّوْحِيدِ وَاعْتَصَمَ بِحَبْلِهِ الْمَتِينِ قَطَعَ هَاجِسَ الطِّيرة قَبْلَ اسْتِقْرارِهَا وَبَادَرَ خَوَاطِرَهَا قَبْلَ استمْكَانِهَا، قَالَ عِكْرِمَةُ:(كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ ابن عَبَّاسٍ فَمَرَّ طَائِرٌ يَصِيحُ فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ : خَيْرٌ خَيْرٌ فَقَالَ ابن عَبَّاسٍ : لَا خَيْرَ وَلَا شَرَّ) (٢).

وَخَرجَ طَاوُسٌ مَعَ رَجُلٍ فِي سَفَرٍ فَصَاحَ غُرَابٌ فَقَالَ الرَّجُلُ : خَيْرٌ، فَقَالَ طَاوُسٌ أَيُّ خَيْرٍ مَعَ هَذَا أَوْ شَرٍّ لَا تَصْحَبْنَا وَلَا تَسِرْ مَعِي.(٣)

إشكالٌ وردُّهُ:

(١) أخرجه البخاري،باب لا صفر وهو داء يأخذ البطن ،برقم: (٥٧١٧)، ومسلم، باب لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر ولا نوء ولا غول ولا يورد ممرض على مصح، برقم: (٢٢٢٠).

(٢) انظر التمهيد ١٩٤/٢٤، والمقاصد الحسنة ص:٣٣٣

(٣) رواه عبد الرزاق في مصنفه برقم ١٩٥١٣

صحَّ عن النَّبيّ عليهِ الصلاةُ والسَّلامُ: أنَّه قال: (إِنْ كَانَ الشُّؤْمُ فِي شيءٍ فَفِي: الْمَرْأَةِ وَالدَّابَّةِ وَالْمَسْكَنِ) [(١)] قال بعض الناس فَظاهِرُهُ إِثْبَاتُ الشُّؤْمِ أَوْ التَّطَيُّرِ فِي هَذِهِ الاشْيَاءِ الثَّلاثَةِ وليس كذلك فإن الله قال في كتابه ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [سورة الزخرف]: ولم يقلْ أحدٌ أنَّ في الآيةِ إثباتُ الولدِ للهِ تعالى بلْ فَهِمُوا منها عَكسَ ذَلكَ. أي إن وجد الشؤم في شيء فإنَّه يوجد في هذه الثلاثة والحال أن الشؤم لا يوجد في شيء إذن فهو غير موجود في هذه الأشياء الثلاثة.

و يُبيِّنُ هَذَا الْحديثَ حَديثُ سَعْد بْنِ أَبِي وَقَاصٍ الَّذِي فِيه: (مِنْ سَعَادَةِ ابْنِ آدَمَ ثَلاثَةٌ، وَمِنْ شِقْوَةِ ابْنِ آدَمَ ثَلاثَةٌ، مِنْ سَعَادَةِ ابْنِ آدَمَ: الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ، وَالْمَسْكَنُ الصَّالِحُ، وَالْمَرْكَبُ الصَّالِحُ، وَمِنْ شِقْوَةِ ابْنِ آدَمَ: الْمَرْأَةُ السُّوءُ، وَالْمَسْكَنُ السُّوءُ، وَالْمَرْكَبُ السُّوءُ) [(٢)]،فَالشُّؤْمُ فِي الْحديثِ الْمُرَادُ بِهِ الشَّقَاءُ الَّذِي هُوَ هُوَ ضِدُّ السَّعَادَةِ ، فالمعنَى أَنَّ هَذِهِ الاشْيَاءَ مِنْ أَسْبَابِ الشَّقَاءِ الْحِسِّي ، وَأَسْبَابِ السَّعَادَةِ الْحِسِّيةِ .

قوله: (وَلَا هَامَةَ) – بِتَخْفِيفِ الْمِيمِ – وَلَهَا معنيانِ: الأول: أَنَّهَا طَائِرٌ يَشْبَهُ الْبُومَةَ أَوْ هِيَ الْبُومَةُ كَانَتْ الْعَرَبُ تتشاءَمُ بِهَا وَمَا زَالُوا كَذَلِكَ يقُولُ أحدُهُمْ : تنعي لِي أَحَدَ أَفْرَادِ بَيْتِي. وَالثَّانِي: كَانُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ الْقَتِيلَ تَصِيرُ عِظَامُهُ طَائِراً حَتَّى يُؤخَذَ بثَأْرِهِ.(لَا هَامَةَ) الْخَبَرُ مَحْذُوفٌ وَتَقْدِيرُهُ عَلَى الْمَعنَى الأول: لَا هَامَةَ مُؤَثِّرَةٌ أَصْلاً، وَعلَى الثَّانِي: لَا هَامَةَ مَوْجُودَةٌ.

(وَلَا صَفَرَ) أيضاً فِيها معنيانِ: الأول: هُوَ دَاءٌ فِي الْبَطْنِ أعْدَى مِنَ الْجَرَبِ، فَيَكُونُ عَطْفُهُ عَلَى الْعَدْوَى مِنْ عَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِ.:والثاني قيل الْمُرَادُ شَهْرُ صَفرٍ؛ لأَنَّهُمْ كانُوا يَتَشَاءَمُونَ بِهِ وَلَا زَالُوا[(٣)] ، وَلَا تَعَارُضَ بَيْنَ الْمَعْنيينِ: فَعَلَى الأول لا صَفَرَ مؤثرٌ بنَفْسِه، وَعَلَى الثَّانِي لَا صَفَرَ مؤثرٌ أَصْلاً.

---

(١) أخرجه الترمذي، باب ماجاء في الشؤم، برقم: (٢٨٢٤) انظر الصحيحة: (٤٤٣ و ٧٩٩ / ١٨٩٧).

(٢) أخرجه أحمد برقم: (١٤٤٥) وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم: (١٩١٤).

(٣) تقول عامة أهلنا الوحيد الما فيه جديد. يريدون بالوحيد شهر صفر ويريدون بالجديد الزواج فهم يتشاءمون بالزواج في هذا الشهر.

(وَلَا نَوْءَ) والنَّوْءُ: وَاحِدُ الْأَنْوَاءِ وَهِي مَنَازِلُ الْقَمَرِ، فَالْعَرَبُ كَانَتْ تَعْتَقِدُ أَنَّ نُزُولَ الامْطَارِ وَهُبُوبَ الرِّياحِ بِسَبَبِ النُّجُومِ، وَاللهُ جَلَّ وَعَلا هُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّياحَ وَيُنْزِلُ الامْطَارَ، وَإِنَّمَا هِي وَقْتٌ لِنَزُولِ الْمَطَرِ وَهُبُوبِ الرِّيحِ، فَلَا نوءَ مؤثِرٌ أَصْلاً.(وَلَا غُولَ) الْغُولُ: وَاحِدُ الْغِيلانِ، وَهِي مِنْ أَعْمَالِ الشَّيَاطِينِ تَتَشَكَّلُ لِلنَّاسِ فِي الْفَلَوَاتِ، خُصُوصَا إِذَا اسْتوحشَ الْإِنْسانُ. وَتَقْدِيرُ الْخَبَرِ: لَا غُولَ مؤثِرٌ مَعَ ذِكْرِ اللهِ وَالتَّوَكُّلِ عَلَيه.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [وَلَهُمَا عَنْ أَنَسٍ ﷺ ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا عَدْوَى وَلَا طِيرَةَ وَيُعْجِبُنِي الْفَأْلُ، قَالُوا وَمَا الْفَأْلُ؟ قَالَ: الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ »[(١)]]

قوله:(الْفَأْلُ) يُطْلَقُ عَلَى مَا يَسَرُّ وَمَا يَسُوءُ، وَالطِّيرَة فِي ما يَسُوءُ فَقَط: وَتَفْسِيرُهُ هُنَا الفأل بِالْكَلِمَةِ الطَّيِّبَةِ تَفْسِيرٌ بِالْمِثَالِ. قَالَ ابن الْقَيِّمِ – رَحِمَهُ اللهُ –:(لَيْسَ فِي الْإِعْجابِ بِالْفَأْلِ وَمَحَبَّتِهِ شيءٌ مِنَ الشِّرْكِ، بَلْ ذَلِكَ إِبَانَةٌ عَنْ مُقْتَضى الطَّبِيعَةِ، وَمِنْ حُبِّ الْفِطْرَةِ الْإِنْسانِيَّةِ الَّتِي تَمِيلُ إِلَى مَا يُوَافِقُهَا وَمَا يُلَائِمُهَا، كَمَا أَخْبَرَ أَنَّه حُبِّبَ إِلَيه مِنَ الدُّنْيا النِّساءُ وَالطِّيبُ)[(٢)].

قَالَ الحليميُّ[(٣)] (إِنَّمَا كَانَ ﷺ يُعْجِبُهُ الْفَأْلَ؛ لأَنَّ التَّشَاؤُمَ سُوءُ ظَنٍّ بِاللهِ بِغَيْرِ سَبَبٍ مُحَقَّقٍ، وَالتَّفَاؤُلُ حَسَنُ ظنٍ بِهِ، و الْمُؤْمِنُ مَأْمُورٌ بِحُسْنِ الظَّنِّ بِاللهِ تَعَالَى عَلَى كُلِّ حالٍ[(٤)]وَمِنْ تَفَاؤُلِ النَّبي عَلَيه الصَّلاةُ وَ السَّلامُ قَوْلُهُ فِي صُلْحِ الْحُدَيْبِيَةِ لَمَّا رَأَى سُهَيْلَ بْنَ عَمْرٍو «لَقَدْ سَهُلَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ» رواه البخاري.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الطب–باب لاعدوى (٥٧٧٦)،ومسلم في كتاب السلام–باب الطِّيرة والفأل (٢٢٢٤).

(٢) مفتاح دار السعادة، ٢/٢٤٤، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت.

(٣) قال الذهبي –رحمه الله–: (القاضي العلامة، ورئيس المحدثين والمتكلمين بما وراء النهر، أبو عبد الله الحسين بن الحسن بن مُحَّد بن حليم البخاري الشافعي).

(٤) انظر فتح الباري (٢١٥/١٠).

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [وَلأَبِي دَاوُدَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ ﷺ قَالَ: ذُكِرَتِ الطِّيَرة عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «أَحْسَنُهَا الْفَأْلُ، وَلَا تَرُدُّ مُسْلِمًا، فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مَا يَكْرَهُ، فَلْيَقُلْ اللَّهُمَّ لَا يَأْتِي بِالْحَسَنَاتِ إِلَّا أَنْتَ وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَاتِ إِلَّا أَنْتَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ»(١)]

هَذَا الْحَدِيثُ ضَعَّفَهُ العلامة الألباني –رحمه الله – وَذَكَرَ فِيه علَّتَيْنِ: الأولى: عُرْوَةُ بْنُ عَامِرٍ مُخْتَلفٌ فِي صُحْبَتِهِ والثَّانِيَةِ: حَبِيب بْنُ أَبِي ثَابِت كَثِيرُ التَّدْلِيسِ، وَلَمْ يُصَرِّحْ بِالتَّحْدِيثِ.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [وَلَهُ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ مَرْفُوعًا: «الطِّيَرة شِرْكٌ، الطِّيَرة شِرْكٌ، وَمَا مِنَّا إِلَّا. وَلَكِنَّ اللَّهَ يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ»(٢) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَالتِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ وَجَعَلَ آخِرَهُ مِنْ قَوْلِ ابْنِ مَسْعُودٍ(٣).]

قوله: (الطِّيَرة شِرْكٌ) صَرِيحٌ فِي حُكْمِ الطِّيَرة وَأَنَّهَا شِرْكٌ، وَلَكِنَّهَا مِنَ الشِّرْكِ الأَصْغَرِ غَالِباً إِذَا عَمِلَ بمقتضاها أَوْ اعْتَقَدَ تَأْثِيرَهَا، قَالَ الْقَاضِي – رَحِمَهُ اللهُ –:(إِنَّمَا سَمَّاهَا شِرْكاً؛ لأَنَّهُمْ كَانُوا يَرَوْنَ مَا يَتَشَاءَمُونَ بِهِ سَبَباً مؤثراً فِي حُصُولِ الْمَكْرُوهِ وَمُلاحَظَةُ الاسْبَابِ فِي الْجُمْلَةِ شركٌ خَفِيٌّ، فَكَيْفَ إِذَا انْضَمَّ إِلَيهَا جهالَةٌ وَسُوءُ اعْتِقَادٍ)(٤)

قوله (وَمَا مِنَّا إِلّا) قَالَ التوربشتي(٥):(وَمَا منَّا إِلّا مَنْ يَعْرِضُ لَهُ الْوهمُ مِنْ قِبْلِ الطِّيَرة. وَكَرِهَ أَن يُتِمَّ كَلامَهُ ذَلِكَ لِما يَتَضَمَّنُهُ مِنَ الْحَالِ الْمَكْرُوهِ وَهَذَا نَوْعٌ مِنْ أَدَبِ الْكَلامِ يُكْتَفَى دُونَ الْمَكْرُوهِ مِنْه بِالإشارَةِ، فَلَا

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الطب– باب في الطِّيَرة (٣٩١٩)، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (١٩٩)،.

(٢)أخرجه أبوداود في كتاب الطب– باب في الطِّيَرة (٣٩١٠)، والترمذي في كتاب السير– باب ماجاء في الطِّيَرة (١٦١٤)،وابن ماجه في كتاب الطب– باب من كان يعجبه الفأل ويكره الطِّيَرة (٣٥٣٨)،وصححه الألباني في«غاية المرام» (٣٠٣).

(٣) انظر: «العلل الكبير» للترمذي (١٠٤/٢)، «العلل» للدارقطني (٢٤٤/٥).

(٤) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح٢٨٩٧/٧.

(٥) فضل الله بن حسن بن حسين بن يوسف أبو عبد الله، شهاب الدين التُّورِبِشْتِي (المتوفى: ٦٦١ هـ).

يَضْرِبُ لِنَفْسِه مِثْلَ السُّوءِ) [1]وَذلِكَ الحَذْفُ يُسَمَّى فِي الْبَدِيعِ بِالْاكْتِفَاءِ، وَهَذِهِ الجُمْلَةُ لَيْسَتْ مِنْ كلامِ النَّبِي ﷺ إِنَّمَا هِي مِنْ قَوْلِ ابن مَسْعُودٍ، وَفِيه:أَنَّ التَّوَكُّلَ دَواءُ الطِّيرة؛ لَأنَّهُ صِدْقُ الْاعْتِمادِ عَلَى اللهِ فِي جَلْبِ الْمَنَافِعِ وَدَفْعِ الْمَضَارِّ مَعَ الثِّقَةِ بِاللهِ، وَالأخذ يالاسْبَابِ الَّتِي قَدْ ثَبَتَتْ سَبَبِيَّتُهَا.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [وَلِأَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما: «مَنْ رَدَّتْهُ الطِّيرة عَنْ حَاجَتِهِ، فَقَدْ أَشْرَكَ، قَالُوا فَمَا كَفَّارَةُ ذَلِكَ؟ قَالَ: أَنْ يَقُولَ اللَّهُمَّ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُكَ، وَلَا طَيْرَ إِلَّا طَيْرُكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ» [2]]

قوله:(ابن عَمْرو) هُوَ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرو بْنِ العاص، أَحدِ العبادلة الْفقهاءِ مَاتَ بِالطَّائِفِ سَنَةَ ٦٣هـ قوله (مَنْ رَدَّتْهُ الطِّيرة عَنْ حَاجَتِهِ، فَقَدْ أَشْرَكَ) الطِّيرة هِي التَّشَاؤُمُ بِالشَّيْءِ الْمَرْئِي أَوْ الْمَسْمُوعِ أَوْ الْمَعْلُومِ ، فَإِذَا اسْتَجَابَ الْإِنْسانُ وَامْتَنعَ عَمَّا عَزمَ عَلَيهِ فَقَدْ قَرعَ بَابَ الشِّرْكِ بَلْ وَلجَهُ، وَبَرئَ مِنَ التَّوَكُّلِ عَلَى اللهِ وَفَتحَ عَلَى نَفْسِهِ بَابَ الخَوْفِ وَالتَّعَلُّقِ بِغَيْرِ اللَّهِ، وَذلِكَ شِرْكٌ فَيُفْسِدُ عَلَيه إِيمَانَهُ وَيَبْقى هَدَفًا لِسِهَامِ الطِّيرة، وَيُقَيِّضُ لَهُ الشَّيْطَانُ مِنْ ذَلِكَ مَا يُفْسِدُ عَلَيهِ دِينَهُ وَدُنْيَاهُ، وَكَمْ مِمَّنْ هَلَكَ بِذَلِكَ فَخسِرَ الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ، فَضَابِطُ الطِّيرة الَّتِي هِي شِرْكٌ أَن تَرُدَّ الْمُتَطَيِّرَ عَنْ حاجَتِهِ، فَإِنْ لَمْ تَرُدَّهُ فَلَا حَرَجَ عَلَيهِ فِي ما يَقَعُ فِي نَفْسِهِ إِلَّا أَنْ يَعْظُمَ فِي قَلْبِهِ. (فَقَدْ أَشْرَكَ) شِرْكاً أَكْبرَ إِنْ اعْتَقَدَ أَنَّ المتشاءَم بِهِ يَمْلِكُ الخَيْرَ وَالشَّرَّ، وَهُوَ أَصْغَرُ إِنْ اعْتَقَدَ أَنَّ المتشاءم به سَبَبٌ، وَهَذَا الْغَالِبُ فِي التَّشَاؤُمِ.

(قَالُوا فَمَا كَفَّارَةُ ذَلِكَ ؟) أَيْ: كَفَّارَةُ مَا يَقَعُ فِي الْقَلْبِ مِنْ نَقْصِ التَّوَكُّلِ أَنْ يَقُولَ هَذَا الدُّعَاءَ وَيُمْضِي فِي حاجَتِهِ (اللَّهُمَّ لَا خَيْرَ إِلّا خَيْرُكَ) أَيْ : لَا خَيْرَ إِلّا مِنْكَ إِمَّا أَنْ يَأْتِيَ مُبَاشرَةً مِنْهُ كَالْمطَرِ ، أَوْ بِوَاسِطَةِ كَالْدَّرَاهِمِ -(وَلَا طَيْرَ إلّا طَيْرُكَ)- أَيْ : الطُّيُورُ كُلُّهَا مُسَخَّرَةٌ بِإِذْنِكَ لَا عَلاقَةَ لَهَا بِالحوادِثِ، وَقَدْ يُرَادُ بِالطَّيْرِ هُنَا مُقَابِلُ الخَيْرِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الَّذِي يُقَدِّرُ الخَيْرَ وَالشَّرَ، لَكِنَّ الشرَّ فِي مَفْعُولِهِ لَا فِي فِعْلِهِ

---

(١) الميسر في شرح المصابيح١/٧٧.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢/٢٢٠) وصححه الألباني في الصحيحة برقم: (١٠٦٥).

أَيْ: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ يُقَدِّرُ الشرَّ لِلْخَيْرِ – (وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ) إِلَهَ: بِمَعْنى مألوه وَخَبَر لَا مَحْذُوفٌ، أَيْ: لَا مَعْبُودَ حَقٌّ غَيْرُكَ.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[وَلَهُ مِنْ حَدِيثِ الْفَضْلِ بْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما « إِنَّمَا الطِّيرة مَا أَمْضَاكَ أَوْ رَدَّكَ»]

رَوَاهُ الْإِمَامَ أَحْمَدُ مَرْفُوعًا مِنْ حَديثِ الْفَضْلِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«إِنَّمَا الطِّيرة مَا أَمْضَاكَ، أَوْ رَدَّكَ» قَالَ أَحْمَدُ شَاكِر: فِيه مُحَمَّد بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُلاثَة، قَالَ الْبُخَارِيُّ: فِي حِفْظِهِ نظَرٌ، وَمَسْلَمَةُ الْجُهَنِّيُّ هُوَ ثِقَةٌ، وَلَكِنَّه مُتَأَخِّرٌ عَنْ أَنْ يُدْرِكَ الْفَضْلَ بْنَ عَبَّاسٍ(١) وَيُغْنِي عَنْهُ حديثُ (مَنْ رَدَّتْهُ الطِّيرة عَنْ حاجَتِهِ ، فَقَدْ أَشْرَكَ) السَّابِقُ.

---

(١) أخرجه أحمد (٤١٢/٢)بتحقيق شاكر .

[٢٩]

بَابُ مَا جَاءَ فِي التَّنْجِيمِ

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ: تَقَدَّمَ أَنَّ التَّنْجِيمَ و السِّحْرَ وَالْكِهَانَةَ وَالتَّطَيُّرَ كُلَّهَا مُنَازَعَةٌ لله جَلَّ وَعلا فِي صِفَةٍ مِنْ صفاته يَخْتَصُّ بِهَا وَحدَهُ وَهِي عِلْمُ الْغَيْبِ. قَوْلُهُ:(بَابُ مَاجَاءَفِي التَّنْجِيمِ) أَيْ: مَا جَاءَ مِنَ الْأدلةِ فِي حُكْمِهِ.

وعِلْمُ التَّنْجِيمِ نوْعَانِ. الأول: مَا يُسَمَّى بِعِلْمِ التَّأْثِيرِ: عِلْمَ التَّأْثِيرِ؛ وَهُوَ الَّذِي يَحْرُمُ مِنْه وَهُوَ: نِسْبَةُ الْحَوادِثِ الأَرْضِيَّةِ لِلنُّجُومِ، والْاسْتِدْلالُ بِحَرَكَةِ النُّجُومِ وَالتِقَاءِهَا وَافْتِرَاقِهَا وَطُلُوعِهَا وَغُرُوبِهَا عَلَى مَا سيكون فِي الْمُسْتَقْبَلِ وعليه فَهُوَ ضَرْبٌ مِنَ الْكِهَانَةِ.

الثَّانِي : مَا يُسَمَّى بِعِلْمِ الْمَسِيرِ وَهُوَ تَعَلُّمُ الْمَنَازِلِ للاسْتِدْلالِ بِهَا عَلَى الْجِهَاتِ وَالاوْقَاتِ، وَقَدْ رَخص فِيه بَعْضُ أهْلِ الْعِلْمِ وَكَرِهَهُ بَعْضُهُمْ ، وَالصَّوَابُ الجواز.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [قَالَ الْبُخَارِيُّ فِي "صَحِيحِهِ" قَالَ قَتَادَةُ: خَلَقَ اللّهُ هَذِهِ النُّجُومَ لِثَلَاثٍ زِينَةً لِلسَّمَاءِ، وَرُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ، وَعَلَاماتٍ يُهْتَدَى بِهَا، فَمَنْ تَأَوَّلَ فِيهَا غَيْرَ ذَلِكَ: أَخْطَأَ وَأَضَاعَ نَصِيبَهُ، وَتَكَلَّفَ مَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ. انْتَهَى[١]]

رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ معلقاً ووصلَهُ ابن جَرِيرٍ وَعَبْدُ الرَّزَّاقِ وَعَبْد بْنُ حَمِيدٍ قولُه: (خَلَقَ اللّهُ هَذِهِ النُّجُومَ لِثَلَاثٍ زِينَةً لِلسَّمَاءِ ورجوما للشياطين) وَقد دلّ القرآن عَلَى كلام قتادة هذا قَال تَعَالَى: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴾[٢]. وقَال :﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ

(١) ذكره البخاري تعليقًا في كتاب بدء الخلق– باب في النجوم (فتح الباري: ٦/٢٩٦).

(٢) سورة الصافات الآية:٦.

وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾[١]وقال ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِ ﴾[٢] (وعَلَاماتٍ يُهْتَدَى بِهَا) لقَولِهِ تعَالَى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴾[٣] و قَال تعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ ﴾[٤]أَيْ: يُعْرفُ بِهَا الْجِهَاتُ وَالاوْقَاتُ، (فَمَنْ تَأَوَّلَ فِيهَا غَيْرَ ذَلِكَ) أَيْ : زَعَمَ فِيهَا غَيْرَ مَا سَبَقَ، (أَخْطَأَ) أَيْ: أَخْطَأَ الصَّوَابَ،(وَأَضَاعَ نَصِيبَهُ) أَيْ: حَظَّهُ مِنْ عُمْرِهِ؛ لأَنَّه شَغَلَ نَفْسَهُ بِمَا يَضُرُّهُ وَلَا يَنْفَعُهُ. وَقِيلَ أضاع نَصِيبهُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ مَحْمُولٌ عَلَى الْمَنْجم فَإِنَّه سَاحِرٌ مُدَّعٍ عِلْم الْغَيْبِ فَقَدْ وَقَعَ فِي الشِّرْكِ الْأَكْبَرِ و من أَتَاهُ وصَدَّقَهُ فَقَدْ وقع في الكفر أيضا وهُوَ دائرٌ بَيْنَ الْكُفْرِ الْأَكْبَرِ وَالأَصْغَرِ وقد سبق تفصيل الكلام عليه.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [وَكَرِهَ قَتَادَةُ تَعَلُّمَ مَنَازِلِ الْقَمَرِ، وَلَمْ يُرَخِّصِ ابْنُ عُيَيْنَةَ فِيهِ ذَكَرَهُ حَرْبٌ عَنْهُمَا[٥] وَرَخَّصَ فِي تَعَلُّمِ الْمَنَازِلِ أَحْمَدُ وَإِسْحَاقُ[٦].]

اخْتَلَفَ السَّلَفُ فِي حُكْمِ تَعَلُّمِ الْمَنَازِلِ الَّتِي يَنْزِلُهَا الْقَمَرُ وَهِي ثَمَّانية وَعِشْرُونَ مَنْزِلاً، وَعَلامَةُ كُلِّ مَنْزِلَةٍ نَجْمٌ مِنَ النُّجُومِ. وَكُلُّ مَنْزِلَةٍ ثَلاثَ عَشَرَةَ يَوْمًا وَجُزْءٌ يَسِيرٌ مِنَ الْيَوْمِ، فَمِنَ السَّلَفِ مِنْ كَرِهَ تَعَلُّمَهَا كَقَتَادَةَ وَابن عيينة ذَكَرَهُ حَرْبٌ عَنْهُمَا.و(حَرْبٌ) هُوَ ابن اسماعيل أَبُو مُحَمَّدٍ الْكِرْمانِي، مِنْ أجلةِ أَصْحَابِ أَحْمَدَ، وَرَخَّصَ فِيه أَحْمَدُ وإسحقُ – وَهُوَ الصَّوَابُ –. فَيَتَعَلَّمُهَا لِمَعْرِفَةِ أَوْقَاتِ الزَّرْعِ وَالْجِهَاتِ، وقَدْ امْتَنَّ اللهُ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ بِمَعْرِفَةِ هَذِهِ الْمَنَازِلِ وَلَا يَمْتَنُّ بِحَرامٍ قَال تَعَالَى

﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَ ﴾[١].

---

(١) سورة فصلت الآية:١٢.

(٢) سورة الملك الآية:٥.

(٣) سورة النحل الآية:١٦.

(٤) سورة الأنعام الآية:٩٧.

(٥) انظر: «فتح الباري» لابن رجب (٢/٢٩٦).

(٦) انظر: «فتح الباري» لابن رجب (٢/٢٩٦)، وقال: «فرخص فيه:النخعي ومجاهد وأحمد».

(وَإِسْحَاقُ) هُوَ ابن إبراهيم أَبُو يَعْقُوبَ الْحَنْظَلِي النيسابوري، إمَامٌ مَعْرُوفٌ بِابن راهويه، وَقَالَ فِيه الْإِمَامُ أَحْمَدُ:(إسْحَقُ عِنْدَنَا إمَامٌ مِنْ أئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ)

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [وَعَنْ أَبِي مُوسَى ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لا يَدْخُلُون الجنَّة مُدْمِنُ الْخَمْرِ، وَمُصَدِّقٌ بِالسِّحر، وَقَاطِعُ الرَّحِمِ» (٢) رَوَاهُ أَحْمَدُ وَابْنُ حِبَّانَ فِي "صَحِيحِهِ".]

(أَبُو مُوسى) هُوَ عَبْدُ اللهِ بْنُ قيس بْنِ سَلِيم بْنِ حَضَار الأشعري، اسْتَعْمَلَهُ النَّبي ﷺ وَأَمَّرَهُ عُمَرُ ثُمَّ عُثْمانُ. قوله:(ثَلاثَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ) الْعَدَدُ لَا مَفْهُومَ لَهُ، وَهَذَا مِنْ نُصُوصِ الْوَعِيدِ – وَقَدْ سَبَقَ الْكَلامُ فِيهَا – و التَّحقيق أَنَّهُمْ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ابتداءً هَذَا جَمْعاً لِلْأدلةِ وَحَمْلاً لِلْمُطْلَقِ عَلَى الْمُقَيَّدِ. قوله: (مُدْمِنُ الْخَمْرِ) هُوَ الْمُدَاوِمُ عَلَيهَا، وَالْخَمْرُ عَرَّفَهَا النَّبي ﷺ بقولِهِ:(كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٍ) (٣)، (وَقَاطِعُ الرَّحِمِ) هُمْ الْقَرَابَةُ، وَالصِّلَةُ تَكُونُ بِالْعِلْمِ وَالْمَالِ وَالزِّيارَةِ وَنَحْوِهَا مِنْ وُجُوهِ الْإِحْسَانِ.

(وَمُصَدِّقٌ بِالسِّحْرِ) هَذَا هُوَ الشَّاهِدُ مِنَ الْحَديثِ؛ لَأنَّ التَّنْجِيمَ نَوْعٌ مِنَ السِّحْرِ، وَقَدْ سَبَقَ حَديثُ : (مِنَ اقْتبسَ شُعْبَةً مِنَ النُّجُومِ فَقَدْ اقْتبسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ) فَتَصْدِيقُ الْمَنَجِّمِيْنِ مِنْ تَصْدِيقِ الْكُهَّانِ، وَيَدْخُلُ فِي التَّنْجِيمِ مَا يُسَمَّى بِبُرْجِكَ الْيَوْمِ، وَالنَّظَرُ فِيهَا إِتْيانٌ لِلْكُهَّانِ.

---

(١) سورة يونس الآية:٥.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣٩٩/٤)، وقد حسنه الشيخ الألباني في السلسلة برقم: (٧٦٨).

(٣) أخرجه مسلم، باب بيان أن كل مسكر خمر وأن كل خمر حرام، برقم: (٢٠٠٣).سورة الواقعة الآية:٨٢.

[٣٠]

بَابُ مَا جَاءَ فِي الِاسْتِسْقَاءِ بِالأَنْوَاءِ

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ: ظَاهِرَةٌ، فَالْاسْتِسْقَاءُ بِالْأَنْوَاءِ نَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِ التَّنْجِيمِ، وَمَعْنى الِاسْتِسْقَاء: طلبُ السُّقْيَا، وَالْأَنْوَاءُ: جَمعُ نَوْءٍ وَهُوَ النَّجْمُ.

وَالْاسْتِسْقَاءُ نَوْعَانِ :

١- نوع هُوَ شركٌ أكْبَرُ وَهُوَ طَلَبُ السُّقْيَا مِنَ النَّوْءِ أو نسبتها إليها نسبة إيجاد.

٢- نوع هُوَ شركٌ أَصْغَرُ وَهُوَ نِسْبَةُ حُصُولِ الخَيْرِ وَالْمَطرِ إِلَى النَّوْءِ، لكونها سببٌ مَعَ اعْتِقادِ أَنَّ اللهَ جَلَّ وَعلا هُوَ الَّذِي ينزلُ الأمطارَ أصلاً بل هذا اعتقاد المشركين الأُول. قال تعالى

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [سورة العنكبوت]

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[وقول الله تعالى:﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾[(١)]]

قِيلَ: إِنَّ مَعنَى الْآيَةِ تجْعَلُونَ شُكْرَ الرِّزْقِ التكذيبَ بِهِ، فَتَنْسبُونَهُ إِلَى غَيْرِ مُعْطِيهِ، وَهَذَا الَّذِي يُنَاسِبُ الْبَابَ. وَمِن الْمُفَسِّرِينَ مَنْ قَالَ : الرِّزْقُ هُوَ الْقُرْآنُ ، أَيْ : تجْعَلُونَ حَظَّكُمْ مِنْ هَذَا الْقُرْآنِ الَّذِي بِهِ حَيَاتُكُمْ التَّكْذيبَ بِهِ. وَلَا مَانِعَ مِنْ حَمْلِ الْآيَةَ عَلَى المعنين جَمِيعًا لأَنَّهُ لَا تَعَارُضَ بَيْنَهَا.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [وَعَنْ أَبِي مَالِكٍ الاشْعَرِيِّ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ لَا يَتْرُكُونَهُنَّ الْفَخْرُ بِالاحْسَابِ، وَالطَّعْنُ فِي الأَنْسَابِ وَالِاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ

(١) سورة الواقعة الآية ٨٢

وَالنِّيَاحَةُ)[١]، وَقَالَ: (النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا، تُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ.]

(أبو مَالِكٍ الاشْعَرِيّ) هُوَ الْحَارِثُ بْنُ الْحَارِثِ الشَّامِيّ، وَفِي الصَّحَابَةِ ثَلاثَةٌ بِهَذِهِ الْكُنْيَةِ وَالنِّسْبَةِ.

قَوْلُهُ:(أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي) تَقَدَّمَ أَنَّ الْعَدَدَ لَا مَفْهُومَ لَهُ وَالْمَقْصُودُ تَسْهِيلُ الْعِلْمِ وَضَبْطُهُ قوله: (مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ) أَيْ : مِنْ شَأْنِهَا وسننها وعادتها (لَا يَتْرُكُونَهُنَّ) أَيْ: لَا يَزَالُ فِي النَّاسِ مَنْ يَتَعَاطَاهَا وَيَتَأَسَّى بِالْكَفَرَةِ فِيهَا، قَالَ شَيْخُ الْإِسْلامِ – رَحِمَهُ اللهُ –:(أَخْبَرَ أَنَّ بَعْضَ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ لَا يَتْرُكُهُ النَّاسُ كُلُّهُمْ ذماً لِمَنْ لَمْ يَتْرُكْهُ)[٢]،وَفِي هَذَا ذمٌ لِهَذِهِ الأَفْعَالِ بنسْبتِهَا إِلَى الْجَاهِلِية. قوله (الْفَخْرُ بِالْأَحْسَابِ) أَيْ : التَّشَرُّفُ بِالْآبَاءِ وَالتَّعَاظُمُ بِمَنَاقِبِهِمْ وَذَلِكَ جَهْلٌ عَظِيمٌ إِذْ لَا شَرَفَ إِلّا بِالتَّقْوَى، قَالَ تَعَالَى:﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[٣].

قوله:(وَالطَّعْنُ فِي الأَنْسَابِ) أَيْ: الْوُقُوعُ فِيهَا بالذمّ وَالْعَيْبِ أَوْ بِنَفْيِ صِحَّةِ نِسْبَتِهَا، وَلِهَذَا لَمَّا عَيَّرَ أَبُو ذَرٍّ – رَضِيَ اللهُ عَنْه – رَجُلَا بِأُمِّهِ قَال النَّبي ﷺ له:(أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ)[٤] فَدَلَّ ذَلِكَ على أَنَّ التَّعْيِيرَ بِالأَنْسَابِ مِنْ أَخْلاقِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَأَنَّ الرَّجُلَ مَعَ فَضْلِهِ وَعِلْمِهِ وَدينِهِ قَدْ يَكُونُ فِيه بَعْضُ الْخِصَالِ الْمُسمّاةِ بِجَاهِلِيَّةٍ وَيَهُودِيَّةٍ وَنَصْرَانِيَّةٍ، وَلَا يُوجِبُ ذَلِكَ كُفْرَهُ وَفِسْقَهُ. قَالَهُ شَيْخَ الْإِسْلامِ[٥].

(١) أخرجه مسلم في كتاب الجنائز– باب التشديد في النياحة (٩٣٤).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم، (٤/ ١٤٣)، دراسة وتحقيق: ناصر عبد الكريم العقل، الناشر:دار عالم الكتب، بيروت، لبنان، الطبعة السابعة، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

(٣) سورة الحجرات الآية: ١٣.

(٤) أخرجه البخاري، باب المعاصي من أمر الجاهلية ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك لقول النَّبي ﷺ إنك امرؤ فيك جاهلية وقول الله تعالى: (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء)، برقم: ٣٠

(٥) اقتضاء الصراط المستقيم (١/٢٥٢).

قوله: (وَالِاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ) هُوَ نِسْبَةُ السُّقْيَا وَمَجِيءُ الْمَطَرِ إِلَى النُّجومِ وَهُوَ مَوْضِعُ الشَّاهِدِ مِنَ الْحَدِيثِ، وَقَدْ خَافَ النَّبِيُّ ﷺ ذَلِكَ عَلَى أُمَّتِهِ، قَالَ عَليهِ الصَّلاةُ وَ السَّلامُ :(إِنَّ أَخوفَ مَا أَتَخَوفُهُ عَلَى أمتي آخِرَ الزَّمانِ ثَلَاثًا :إيمانًا بِالنُّجُومِ وَتَكْذيباً بِالْقَدرِ وَحَيْفَ السُّلْطَانِ)[١].

قوله: (وَالنِّيَاحَةُ) وَهِي رَفْعُ الصَّوْتِ بِالنَّدبِ وَالْبُكاءِ عَلَى الْمَيتِ، لِمَا فِيهَا مِنَ التَّسخُّط عَلَى أَقْدارِ اللهِ وَالْمُعَارَضَةِ لاحْكَامِهِ وَسُوءِ الْأَدبِ مَعَه سُبْحَانَه، وَمَعَ ذَلِكَ فَهِي لَا تَرُدُّ قضاءً وَلَا تَرْفَعُ بلاءً ، (النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا) فِيه: التَّنْبِيهُ عَلَى أَنَّ الْوَعِيدَ وَالذَّمَّ لا يَلْحقُ التَّائِبَ مِنَ الذَّنْبِ، وَفِيهِ: أَنَّ النِّيَاحَةَ مِنَ الْكبائرِ. (تُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ) أَيْ: تُبْعَثُ مِنْ قَبْرِهَا، و (السِرْبَال) هُوَ الثَّوْبُ، و (قَطِرَان) قَالَ ابن عَبَّاسٍ: هُوَ النُّحاسُ المذاب، وَقِيلَ: هُوَ الْقَطِرَانُ الْمَعْرُوفُ (وَهُوَ مَادَّةٌ سَوْداءُ سَائِلَةٌ لَزِجَةٌ تُسْتَخْرَجُ مِنَ الْفَحمِ وَالْخَشَبِ وَنَحْوِهُمَا وَهِي شَدِيدَةُ الْاشْتِعالِ)،(وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ) الدرعُ : هُوَ قَمِيصُ الْمَرْأَةِ، و (الجَرَبُ) مَرَضٌ مَعْرُوفٌ، وَالْمَعْنَى: إنهنَّ يُلَطَّخْنَ بِالْقَطِرَانِ فَيَصِيرُ لَهُنَّ كَالْقَمِيصِ حَتَّى يَكُونَ اشْتِعالُ النَّارِ أَشَدَّ، وَالتِصاقُهَا بِأَجْسَادِهِنَّ أَعْظَمَ، وَرائِحَتُهُنَّ أَنْتَنَ، وَالمهَا بِسَبَبِ الْجَرَبِ أَشَدُّ، وَفِي الْحَديثِ أَنَّ هَذِهِ الْأَربعَة كُلَّهَا مِنَ الْكبائر، وَفيه: عَلَمٌ مِنْ أَعْلامِ النُّبُوّةحيث وقع ما أخبر به ﷺ.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [وَلَهُمَا عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ ﷺ قَالَ : صَلَّى لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالْحُدَيْبِيَةِ عَلَى إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلِ، فَلَمَّا انْصَرفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاس، فَقَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ: "قَالَ أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا

(١) صححه الألباني في الصحيحة برقم: (١١٢٧).

مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ»(١)]

قوله: (وَلَهُمَا) أَيْ: لِلْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ،(زَيْد بْنِ خَالِد) الْجُهَنِيِّ صَحَابِيٌّ مَشْهُورٌ،(صَلَّى لَنَا) أَيْ: بِنَا، وَفِيهِ: إشارَةٌ إِلَى أَنَّ الْإِمَامَ يَحْمِلُ عَنِ المأمومين شيئاً كَبِيرًا،(بِالْحُدَيْبِيَةِ) مَكَانٌ مَعْرُوفٌ (عَلَى إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلِ) أَيْ: عَقِبَ مَطَرٍ.(فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ، فَقَالَ:« هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ؟)

فِي هَذِهِ الجُمْلَةِ مِنَ الْفَوَائِدِ: مَشْرُوعِيَّةُ الْمَوْعِظَةِ وَالتَّنْبِيهِ عَلَى الْخَطَأ عَقِبَ الصَّلَوَاتِ، وَفِيهَا الْقَاءُ الْعَالِمِ الْمَسْالَةَ عَلَى أَصْحَابِهِ، وَفِيهَا أَنَّ التَّعْلِيمَ بِطَرِيقَةِ الْاسْتِفْهامِ أَوقعُ فِي النَّفْسِ.(قَالُوا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعلمُ) فِيه: أَدَبُ الصَّحَابَةِ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمُ –(قَالَ أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ) الْعُبُودِيَّةُ هُنَا كَوْنِيَّةً بِدَلِيلِ التَّقْسِيمِ إِلَى مُؤْمِنٍ وَكَافِرٍ. وَفِيه: إِثْبَاتُ الْقَوْلِ للهِ تَعَالَى، وَمَضَى الكلام فِي أَنَّ الْكُفْرَ فِي نِسْبَةِ السُّقْيَا إِلَى النَّوْءِ قَدْ يَكُونُ كُفْرَا أَصْغَرَ وَقَدْ يَكُونُ كُفْرَا أَكْبَرَ. (فَأَمَّا مَنْ قَال مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ) فِي هَذِهِ الجُمْلَةِ مِنَ الْفَوَائِدِ: التَّفَطُّنُ لِلْإِيمَانِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، وَفِيهَا إِثْبَاتُ صِفَتي الْفَضْلِ وَالرَّحْمَةِ، وَفِيهَا أَنَّهُ لَا يَجُوزُ إضافَةُ نِعَمِ اللَّهِ إِلَى غَيْرِهِ ، وَفِيهَا أَنَّ النِّعَمَ ابْتِلاءٌ وَامْتِحَانٌ ، فَهِيَ سَبَبُ كُفرٍ أَوْ إيمانٍ، وَفِيهَا مَشْرُوعِيَّةُ قَوْلِ مُطِرَنَا بِفَضْلِ اللهِ ورحمتِهِ عِنْدَ نُزُولِ الْمطَرِ.(وَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا ، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ) هَذَا مَوْضِعُ الشَّاهِدِ مِنَ الْحَدِيثِ ، وَقَائِلُ هَذِهِ اللَّفْظَةِ لَهُ ثَلاثَةُ أَحْوالٍ: الأولى: أَنْ يَنْسِبَ الْمطَرَ إِلَى النَّوْءِ أَوْ النَّجْمَ نِسْبَةَ إيجادٍ فَهَذا كُفْرٌ أَكْبَرُ .

الثَّانِيَةُ : أَنْ يَنْسِبَهَا نِسْبَةَ سَبَبِيَّةٍ فَهَذَا مِنْ شِرِكِ الألفاظ.

الثَّالِثَةُ : أَنْ يَقُول مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا قَاصِدًا لِلْظَرْفِيَّةِ فَقَط، فَهَذَا لَيْسَ مِنَ الشِّرْكِ الأصْغَرِ وَلَا الْأَكْبَرِ لَكِنْ أيضا لَا يجوز لأَنَّ فيه مشابَهة اللَّفْظِ الْمَنْهِيُّ عَنْه.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجمعة- باب قول الله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ (١٠٨٣)،ومسلم في كتاب الإيمان- باب بيان كفر من قال مطرنا بالنوء.

وَيَجُوزُ أَنْ يَقُولَ مُطِرْنَا فِي نَوْءِ كَذَا. فِي هَذِهِ الجُمْلَةِ مِنَ الْفَوَائِدِ: التَّفَطُّنُ لِلْكُفْرِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ وَأَنَّ نِسْبَةَ الْمَطَرِ إِلَى الْأَنْوَاءِ كُفْرٌ وَإِلَى اللهِ إِيمَانٌ، وَأَنَّ مِنَ الْكُفْرِ مَا لَا يُخْرِجُ مِنَ الْمِلَّةِ، وَقُرْبُ الْكُفْرِ وَالْإِيمَانِ وَأَنَّهُ بِلَفْظَةٍ وَاحِدَةٍ، وَالْحَذَرُ مِنْ مَزَالِقِ اللِّسَانِ.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [وَلَهُمَا[١] .مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما مَعْنَاهُ، وَفِيهِ قَالَ بَعْضُهُمْ: لَقَدْ صَدَقَ نَوْءُ كَذَا وَكَذَا فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الْآيَاتِ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ﴾[٢]]

قوله:(وَلَهُمَا) الْحَدِيثُ فِي مُسْلِمٍ فَقَط وَلَفْظُهُ :(عَنِ ابن عَبَّاسٍ قَالَ : مُطِرَ النَّاسُ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ : أَصْبَحَ مِنَ النَّاسِ شَاكِرٌ وَمِنْهُمْ كَافِرٌ ، قَالُوا هَذِهِ رَحْمَةُ اللهِ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ لَقَدْ صَدَقَ نَوْءُ كَذَا وَكَذَا فنزلت هَٰذِهِ الْآيَةُ : ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ﴾.

---

(١)أخرجه مسلم في كتاب الإيمان- باب بيان كفر من قال مطرنا بالنوء (٧٣).

(٢) سورة الواقعة الآية: ٧٥-٨٣.

قوله:(وَقَالَ بَعْضُهُمْ لَقَدْ صَدَقَ نَوْءُ كَذَا وَكَذَا) فِي هَذَا اللَّفْظِ نِسْبَةُ الْمَطَرِ إِلَى النَّوْءِ أَيْ صَدقَ النوء فِي الْإِتْيانِ بِالْمَطَرِ وَهُوَ مِنَ الألفاظ الْمُسْتَعْمَلَةِ إِلَى يَوْمِ النَّاسِ هَذَا وَفِيه أَنَّ نِسْبَةَ الْمَطَرِ إِلَى النَّجْمِ مِنْ شِرْكِ الألفاظ وقد يكون من الشرك الأكبر كما تقدم في التفصيل السابق.

[٣١]

بَابُ

قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾.

هَذَا شُرُوعٌ مِنَ الإمام – رَحِمَهُ اللهُ – فِي ذِكْرِ وَاجِبَاتِ التَّوْحِيدِ وَمُكَمِّلَاتِهِ، وَبَعْضِ الْعِبَادَاتِ الْقَلْبِيَّةِ، وَابْتَدَأَهَا بِالْمَحَبَّةِ.

وَالْمَحَبَّةُ تَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ :خَاصَّةٍ وَمُشْتَرَكَةٍ فَالأولى: مَحَبَّةُ الْعِبَادَةِ:وَهِيَ الَّتِي تُوجِبُ التَّأله وَالتَّعْظِيمَ وَإِجْلالَ الْمَحْبُوبِ وَامْتِثَالَ أَمْرِهِ وَاجْتِنَابَ نَهْيِهِ، وَالْخَوْفَ مِنْهُ وَالطَّمَعَ فِي ما عِنْدَه وَهِيَ لَا تَصْلُحُ إِلّا لله.

وَالثَّانِيَةُ الْمُشْتَرَكَةُ وَهِيَ أَنْوَاعٌ :

١- مَحَبَّةٌ للهِ وَذَلِكَ بِأَنْ يَكُونَ الدَّافِعُ لَهَا مَحَبَّةَ اللهِ سَواءٌ كَانَتْ لِشَخْصٍ أَوْ عَمَلٍ.

٢- مَحَبَّةُ إِشْفاقٍ وَرَحْمَةٍ كَمَحَبَّةِ الْوَلَدِ.٣- مَحَبَّةُ إِجْلالٍ وَرَحْمَةٍ لَا عِبَادَةَ مَعَهَا كَمَحَبَّةِ الْوَالِدِ.

٤-مَحَبَّةُ طَبِيعِيَّةٌ كَمَحَبَّةِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَالنّكاحِ وَالدَّافِعُ لَهَا التَّلَذُّذُ بِالْمَحْبُوبِ.

قَال السّعْدِيُّ – رَحِمَهُ اللهُ -:(وَلَا يَتِمُّ التَّوْحِيدُ حَتَّى تَكْمُلَ مَحَبَّةُ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ، وَتَسْبِقُ مَحَبَّتُهُ جَمِيعَ المحابِّ وَتَغْلُبُهَا، فَيَكُونُ لَهَا الحُكْمُ عَلَيهَا، بِحَيْثُ تَكُونُ سَائِرُ محابِّ الْعَبْدِ تَبَعاً لِهَذِهِ الْمَحَبَّةِ الَّتِي بِهَا سَعَادَةُ الْعَبْدِ وَفَلاحُهُ)(١).قَوْلُهُ نعالى:(وَمِن النَّاسِ) مِنْ : تَبْعِيضِيَّةٌ،(يتخذ من دون الله أندادا) جَمْعُ نِدٍّ، وَلَيْسَ لله نِدٌّ إِنَّمَا هُوَ فِي اعْتِقَادِ الْمُشْرِكِ (يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ) وفي الآية أَنَّ الْمُشْرِكِينَ يُحِبُّونَ آلِهَتَهُمْ كَحُبِّهِمْ لله كَيْفِيَّةً وَنَوْعاً. قَوْلُهُ (وَالَّذِينَ آمنوا أَشَدُّ حُبّاً لله) لأَنَّ مَحَبَّتَهُمْ خَالِصَةٌ لله وَقَائِمَةٌ عَلَى بُرْهَانٍ صَحِيحٍ .

قَالَ ابن الْقَيِّمِ – رَحِمَهُ اللهُ -:(**الاسْبَابُ الجَالِبَةُ لِلْمَحَبَّةِ عَشْرَةٌ :-**

أَحدُهَا : قِرَاءةُ الْقُرْآنِ بِالتَّدَبُّرِ وَالتَّفَهُّمِ لَمِعَانِيهِ وَمَا أُرِيدَ بِهِ.

الثَّانِي : التَّقَرُّبُ إِلَى اللهِ تَعَالَى بِالنَّوَافِلِ بَعْدَ الْفَرَائِضِ.

الثَّالِثُ : دَوامُ ذِكْرِهِ عَلَى كُلِّ حالٍ بِاللِّسَانِ وَالْقلبِ وَالْعَمَلِ وَالْحَالِ، فَنَصِيبُهُ مِنَ الْمَحَبَّةِ عَلَى قَدْرِ هَذَا.

الرَّابِعُ : إِيْثَارُ محابِّه عَلَى محابِّكَ عِنْدَ غَلَبَاتِ الْهَوَى.

---

(١)القول السديد في مقاصد التَّوحيد، ص: ١٢٧.

الْخَامِسُ : مُطَالَعَةُ الْقَلْبِ لاسْمائِهِ وصفاته وَمُشَاهَدَتُهَا ، وَتَقَلُّبُهُ فِي رِياضِ هَذِهِ الْمَعْرِفَةِ وَمَيَادِينِهَا .

السَّادِسُ : مُشَاهِدَةُ بِرِّهِ وَإِحْسَانِهِ وَنِعَمِهِ الظَّاهِرَةِ وَالْباطِنَةِ.

السّابعُ :- وَهُوَ أَعْجَبُهَا - انْكِسارُ الْقَلْبِ بَيْنَ يَديهِ.

الثَّامِنُ : الْخَلْوَةُ وَقْتُ النُّزُولِ اللإهي، وَتِلاوَةُ كِتَابِهِ ثُمَّ خَتْمُ ذَلِكَ بِالْاسْتِغْفارِ وَالتَّوْبَةِ.

التَّاسِعُ : مُجَالَسَةُ الْمُحِبِّينَ الصَّادِقِينَ، وَالتِقَاطُ أطَايِبِ ثَمَرَاتِ كَلامِهِمْ، وَلَا تَتَكَلَّمُ إِلّا إِذَا تَرَجَّحَتْ مَصْلَحَةُ الْكَلامِ وَعَلِمْتَ أَنَّ فِيه مَزِيدًا لِحالِكَ وَمَنْفَعَةً لِغَيْرِكَ.

الْعَاشِرُ : مُباعَدَةُ كُلِّ سَبَبٍ يَحُولُ بَيْنَ الْقَلْبِ وبَيْنَ اللهِ عزَّ وَجلَّ. فَمِنْ هَذِهِ الاسْبَابِ الْعشْرَةِ وَصَلَ الْمُحِبُّونَ إِلَى مَنَازِلِ الْمَحَبَّةِ، وَدَخَلُوا عَلَى الْحَبِيبِ)[١] .

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [وقوله: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[٢]]

هَذَا أَمْرٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ أَنْ يَتَوَعَّدَ مَنْ أَحَبَّ أَهْلَهُ وَعَشِيرَتَهُ وَأَمْوالَهُ وَمَساكِنَهُ أَوْ واحَداً من هَذِهِ الاشْيَاءِ أَكْثَرَ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ، بِأَنْ يَنْتَظِرَ مَا يَحِلُّ بِهِ مِنْ عَذَابِ اللّهِ، وَفيه أَنَّ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَهُوَ مِنَ الْفَاسِقِينَ، وَهَذَا وَعِيدٌ عَظِيمٌ لَا يَخْلُصُ مِنْه إلّا مَنْ صَحَّ إِيمَانُهُ، وَخَلُصَ لله سِرُّهُ وَإِعْلانُهُ، عَلَى أَنَّ الْمَحَبَّةَ الصَّادِقَةَ تَستَلْزِمُ تَقْدِيمَ مراضِي اللهِ عَلَى هَذِهِ الثَّمَانية، وَتَدُلُّ الْآيَةُ عَلَى وُجُوبِ مَحَبَّةِ اللهِ

(١) مدراج السالكين، ٣/١٧-١٨، الناشر : دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الثانية ، ١٣٩٣ – ١٩٧٣، تحقيق : محمد حامد الفقي .

(٢) سورة التوبة الآية: ٢٤.

وَأَنْ تَكُونَ فَوْقَ كُلِّ مَحَبَّةٍ، وَفِيهَا: أَنَّ تَقْدِيمَ مَحَبَّةِ غَيْرِ اللهِ عَلَى مَحَبَّةِ اللّهِ كَبِيرَةٌ مِنَ الْكبائرِ.وفي الآية أن محبة الله ورسوله ﷺ لا يكتفى فيها بأصل الحب إذ لا بد فيها أن تسبق جميع المحاب وتغلبها.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللّهِ ﷺ قَالَ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاس أَجْمَعِينَ» أَخْرَجَاهُ(١)]

قوله:(لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ) النَّفْي هُنَا: لِكَمَالِ الْإِيمَانِ الْوَاجِبِ، فَلَا يَحْصُلُ هَذَا الْكَمَالُ حَتَّى يَكُونَ الرَّسُولُ ﷺ أَحَبَّ إِلَى العبدِ مِنْ نَفْسِهِ كَمَا فِي حَدِيثِ عُمَرَ عِنْدَ الْبُخَارِيِّ. وَإِذَا كَانَ هَذَا شَأْنُ مَحَبَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَمَا الظَّنُّ بِمَحَبَّةِ اللهِ! قَالَ شَيْخُ الْإِسْلامِ – رَحِمَهُ اللهُ –:(فَمَنْ قَالَ أَنَّ الْمَنْفِيَّ هُوَ الْكَمَالُ فَإِنْ أَرَادَ الْكَمَالَ الْوَاجِبَ الَّذِي يُذَمُّ تارِكُهُ وَيُعَرِّضُ لِلْعُقُوبَةِ فَقَدْ صَدَقَ، وَإِنْ أَرَادَ أَنَّ الْمَنْفِيَّ الْكَمَالُ الْمُسْتَحَبُّ فَهَذَا لَمْ يَقَعْ قَطُّ فِي كَلامِ اللهِ وَكَلامِ رَسُولِهِ ﷺ)(٢).وَفِي الْحَدِيثِ مِنَ الْفَوَائِدِ: أَنَّ الاعْمَالَ مِنَ الْإِيمَانِ ؛ لأَنَّ الْمَحَبَّةَ عَمَلٌ قَلْبِيٌّ، وَأَنَّ مَحَبَّةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَاجِبَةٌ تَابِعَةٌ لِمَحَبَّةِ اللهِ لازِمَةٌ لَهَا، وَأَنَّ نَفْيَ الْإِيمَانِ لَا يَدُلُّ عَلَى الْخُرُوجِ مِنَ الْإِسْلامِ. وَفَرْقٌ بَيْنَ هَذِهِ الْمَحَبَّةِ وَمَحَبَّتِهِ مَعَ اللهِ فَإِنَّ الأولى مِنْ مَحْضِ الْإِيمَانِ وَالثَّانِيَةَ مِنْ مَحْضِ الشِّرْكِ وَالْكُفْرَانِ. وإنما يجب على المسلم أن يحب رسول الله لأن الله اجتباه واصطفاه وأرسله إلينا، ولما قام به من عبادة الله وتبليغ دين الله ، ولأنه سبب هدايتنا إلى الصراط المستقيم، ولعظيم خلقه وكريم خصاله.

(١) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان– باب حب الرسول الله صلى الله عليه وسلم من الإيمان (١٥)، ومسلم في كتاب الإيمان– باب وجوب محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤٤).

(٢) مجموع الفتاوى، ٧/١٥.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [وَلَهُمَا عَنْهُ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ، وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ»(١)]

قوله:(وَلَهُمَا) أَيْ: لِلشَّيْخَيْنِ (عَنْه) أَيْ : عَنْ أَنْسٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ –(ثَلاثٌ) أَيْ: خِصَالٌ (مَنْ كُنَّ فِيه) أَيْ : وُجِدْنَ فيه و(كَانَ) هُنَا تَامَّةٌ،(وَجَدَ بِهِنَّ حَلاوَةَ الإِيمَانِ) أَيْ : هَذِهِ الثَّلاثَةُ شَرْطٌ فِي وُجُودِ حَلاوَةِ الْإِيمَانِ، والْحَلاوَةُ هِي الَّتِي يُعَبَّرُ عَنْهَا بِالذَّوْقِ أَيْ: مَا يَحْصُلُ بِهِ مِنْ لَذَّةِ الْقَلْبِ وَنَعِيمِهِ وَسُرُورِهِ وَهُوَ شَيْءٌ مَحْسُوسٌ يَجِدُهُ أَهْلُ الْإِيمَانِ فِي قُلُوبِهِمْ. قَالَ النَّوَوِيُّ – رَحِمَهُ اللهُ –:(مَعنى حَلاوَةِ الايمانِ اسْتِلْذَاذُ الطَّاعَاتِ وَتَحَمُّلُ الْمَشَقَّاتِ فِي رِضا اللهِ عزَّ وَجلَّ وَرسُولِهِ ﷺ وَإِيثَارُ ذَلِكَ عَلَى عَرَضِ الدُّنْيا)(٢) وقَالَ ابنُ رجبٍ(٣) –رَحِمهُ اللهُ–: (وَكَمَا أَنَّ الْجَسَدَ لا يَجِدُ حَلاوَةَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ إِلّا عِنْدَ صِحَّتِهِ فَإِذَا سَقُمَ لَمْ يَجِدْ حَلاوَةَ مَا يَنْفَعُهُ مِنْ ذَلِكَ، بَلْ قَدْ يَسْتَحْلِي مَا يَضُرُّهُ وَمَا لَيْسَ فِيه حَلاوَةٌ؛ لِغَلَبَةِ السُّقْمِ عَلَيه فَكَذَلِكَ الْقَلْبُ إِنَّمَا يَجِدُ حَلاوَةَ الْإِيمَانِ إِذَا سَلِمَ مِنْ أَسْقَامِهِ وآفاتِهِ، فَإِذَا سَلِمَ مِنْ مَرَضِ الاهْوَاءِ الْمُضِلَّةِ وَالشَّهَوَاتِ الْمُحَرَّمَةِ وَجَدَ حَلاوَةَ الْإِيمَانِ حينئذٍ، وَمَتَى مَرِضَ وَسَقُمَ لَمْ يَجِدْ حَلاوَةَ الْإِيمَانِ بَلْ يَسْتَحْلِي مَا فِيه هلاكُهُ مِنَ الاهْوَاءِ وَالْمَعَاصِي)(٤) وَقَالَ شَيْخُ الْإِسْلامِ – رَحِمَهُ اللهُ –:(فَحَلاوَةُ الْإِيمَانِ الْمُتَضَمِّنَةُ لِلَذَّةِ وَالْفَرَحِ تَتْبَعُ كَمَالَ مَحَبَّةِ الْعَبْدِ للهِ وَذَلِكَ بِثَلاثَةِ أمُورٍ : تَكْمِيلُ هَذِهِ الْمَحبَّةِ وَتَفْرِيعُهَا وَدفعُ ضِدِّهَا، فَتَكْميلُهَا أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيه مِمَّا سِواهُمَا ، فَإِنَّ مَحَبَّةَ اللهِ وَرسُولِهِ لا يُكْتَفَى فِيهَا بِأَصْلِ الْحُبِّ، بَلْ لَا بد أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيه مِمَّا سِواهُمَا، وَتَفْرِيعُهَا أَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلّا للهِ،

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان– باب حلاوة الإيمان (١٦) ومسلم في كتاب الإيمان– باب بيان خصال من اتصف بها وجد حلاوة الإيمان (٤٣).

(٢) شرح النووي على مسلم، ٢/ ١٣، الناشر : دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الثانية ، ١٣٩٢

(٣) هو عبد الرحمن بن أحمد بن رجب البغدادي ثمَّ الدمشقي الحنبلي الحافظ زين الدين.

(٤) فتح الباري لابن رجب ١/ ٥٠

فَإِنَّ مِنْ تَمامِ مَحَبَّةِ الْمَحْبُوبِ مَحَبَّةَ مَحْبُوبِهِ، وَدَفْعَ ضِدِّهَا أَنْ يَكْرَهَ ضِدَّ الْإِيمَانِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ، وَإِنَّمَا كَرِهَ ضِدًّا! الْإِيمَانِ لِمَا قَامَ بِقَلْبِهِ مِنْ مَحَبَّةِ مَحَاسِنِ الْإِسْلَامِ) [1].قوله:(بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ) فِيهَا: رَدٌّ عَلَى مَنْ تَوَهَّمَ أَنَّ صُدُورَ الذَّنْبِ مِنَ الْعَبْدِ نَقصٌ فِي حَقِّهِ وَإِن تَابَ مِنْه. وَفِي رِوَايَةٍ " لَا يَجِدُ أَحَدٌ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى." إِلَى آخِرِه[2]،هَذِهِ الرِّوَايَةُ نَفَتْ بِمَنْطُوقِهَا وُجُودَ حَلاوَةِ الْإِيمَانِ عَمَّن لَمْ يَتَّصِفْ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: (مَنْ أَحَبَّ فِي اللَّهِ، وَأَبْغَضَ فِي اللَّهِ، وَوَالَى فِي اللَّهِ، وَعَادَى فِي اللَّهِ، فَإِنَّمَا تُنَالُ وِلَايَةُ اللَّهِ بِذَلِكَ، وَلَنْ يَجِدَ عَبْدٌ طَعْمَ الْإِيمَانِ – وَإِنْ كَثُرَتْ صَلَاتُهُ وَصَوْمُهُ – حَتَّى يَكُونَ كَذَلِكَ، وَقَدْ صَارَتْ عَامَّةُ مُؤَاخَاةِ النَّاس عَلَى أَمْرِ الدُّنْيَا، وَذَلِكَ لَا يُجْدِي عَلَى أَهْلِهِ شَيْئًا)[3]. رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ]

هذا الأثر ضعيف، وعلته ليث بن أبي سُليم. لكنْ صحَّ مِنَ السُّنةِ ما يُغني عنْهُ فعَنْ أَبِي أَمَامَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ، وَأَبْغَضَ لِلَّهِ، وَأَعْطَى لِلَّهِ، وَمَنَعَ لِلَّهِ، فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ» رواه أبوداودَ[4]، ومَنْ أحبَّ لله أَيْ لِطَاعَتِهِ وَإِيمَانِهِ لَا لحظِّ نَفْسِهِ، وَمَنْ أَبْغَضَ للهِ تَعَالَى أَيْ لِكُفرِهِ وعِصْيَانِهِ، لا لإيذائِهِ لَهُ، وَيُعْطِي مَا يُعْطِي لِثَوابِ اللَّهِ تَعَالَى وَرِضَاهُ، لَا لِمَيْلِ نَفْسِهِ وريائه، وَيَمْنَعُ مَن يَمْنَعُ لأمرِ اللهِ، لَا لِكَرَاهِيَتِهِ لَهُ.

---

(١) الفتاوى الكبرى، ١٩٦/٥،الناشر : دار المعرفة – بيروت، الطبعة الأولى ، ١٣٨٦، تحقيق : حسنين مُحَمَّد مخلوف.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأدب– باب الحب في الله (٦٠٤١).

(٣) أخرجه العدني في «الإيمان» (ص ١٨)، والطبراني في الكبير: (١٣٥٣٧).

(٤) أخرجه أبو داوود برقم (٤٦٨١).

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الاسْبَابُ﴾[1] قَالَ: (الْمَوَدَّةُ).]

وَالْمَوَدَّةُ أَيْ: الْمَحَبَّةُ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيا تَقَطَّعَتْ بِهِمْ وَخَانَتْهُمْ أحْوجَ مَا كَانُوا إِلَيهَا، فَهَذَا حالُ منْ كَانَتْ مَوَدَّتُهُ لِغَيْرِ اللهِ.

(١) أخرجه ابن جرير (٢٧/٣) وابن أبي حاتم في تفسيره (٢٧٨/١) والحاكم (٢٧٢/٢).

[٣٢]

بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ : أَنَّ الإمام – رَحِمَهُ اللهُ – تَكَلَّمَ فِي الْبَابِ السَّابِقِ عَنِ الْمَحَبَّةِ ، وَهِي أَحَدُ أَرْكَانِ الْعِبَادَةِ الْقَلْبِيَّةِ عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ و الْجَمَاعَةِ فَنَاسَبَ أَنْ يَذْكُرَ بَقِيَّتَهَا وَهِي الْخَوْفُ وَالرَّجاءُ ، وَزَعمَتْ الصُّوفِيَّةُ أَنَّهَا تعْبُدُ اللهَ بِالْمَحبَّةِ فَقَط! وَهَذَا مَعَ أَنَّه زَنْدَقَةٌ، فَهُوَ كَذِبٌ لَا حَقِيقَةَ لَهُ، وَعَبَدَتِ الْخَوَارِجُ اللهَ بِالْخَوْفِ فَقَط، كَمَا أَنَّ الْمُرْجِئَة زعموا أنهم يَعْبُدُونَ اللهَ بِالرَّجاءِ فَقَط، وَاتّسَعَتْ قلُوبُ أَهْلِ السُّنَّةِ لِلأَرْكَانِ الثَّلاثَةِ فعبدوا الله بالمحبة والخوف والرجاء.

وَهُوَ ثَلاثَةُ أَقْسَامٍ :

١- خَوْفٌ هُوَ عِبَادَةٌ: وَهُوَ الَّذِي يَحْجُزُ الْعَبْدَ مِنْ مَحَارِمِ اللَّهِ.

٢- خَوْفٌ شِرْكي وَهُوَ مَا يُعْرَفُ بِخَوْفِ السِّرِّ وَهُوَ أَنْ يَخَافَ الْمَخْلُوقُ مِنْ مخلوقٍ من غَيْرِ سَبَبٍ ظاهِرٍ أَوْ هُوَ الْخَوْفُ مِنْه فِي أَمْرٍ لَا يقدرُ عَلَيه إِلّا اللهُ.

٣- خَوْفٌ طَبْعي كَالْخَوْفِ مِنَ الْعَدُوِّ. وَهَذَا الاخِيرُ مُبَاحٌ إِلّا إِذَا حَمَلَ عَلَى تَرْكِ وَاجِبٍ أَوْ فِعْلِ مُحَرَّمٍ ، فَيَحْرُمُ إِذَا لَمْ يَكُن الْعَبْدُ مُكْرَهًا، وَفِي الْحَدِيثِ :(لَا يَمْنَعن رَجُلاً هَيْبَةُ النَّاسِ أَنْ يَقُولَ بِحَقّ إِذَا عَلِمَهُ أَوْ شَهِدَهُ أَوْ سَمِعَهُ)(١).

ومعنى الآية المترجم بها (**يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ**) أي : يُخَوِّفُكُمْ أَوْلِيَاءَهُ ، فَمَفْعُول يُخَوِّفُ الثَّانِي مَحْذُوفٌ.

قَالَ ابن الْقَيِّمِ – رَحِمَهُ اللهُ –: (وَمِنْ كَيْدِ عَدُوِّ اللهِ أَنْ يُخَوِّفَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ جُنْدِهِ وَأَوْلِيَائِهِ ،... وَكُلّما قَوِيَ إِيمَانُ الْعَبْدِ زَالَ مِنْ قَلْبِهِ خَوْفُ أَوْلِيَاءِ الشَّيْطَانِ، وَكُلّمَا ضَعُفَ إِيمَانُ الْعَبْدِ قَوِيَ خَوْفُهُ مِنْهُمْ)(٢)

(١) أخرجه ابن ماجه برقم: (٤٠٠٧) وصححه الألباني في الصحيحة برقم: (١٦٨).

(٢) إغاثة اللهفان، ١/١١٠، الناش، ١٣٩٣ – ١٩٧٣، تحقيق: محمَّد حامد الفقي.

فَأَمَرَ اللَّهُ بِإِخْلاصِ الْخَوْفِ لَهُ وَأَخْبرَ أَنَّ ذَلِكَ شَرْطٌ فِي الإِيمانِ، فَمَنْ لَمْ يَأْتِ بِهِ لَمْ يَأْتِ بِالْإِيمانِ الْوَاجِبِ، فَفِيه: أَنَّ إِخْلاصَ الْخَوْفِ لله مِنَ الْفَرَائِضِ.

قال ابن القيم :"فالخوف من أجلّ منازل الطريق، وخوف الخاصة أعظم من خوف العامة، وهم إليه أحوج، وهو بهم أَليق، ولهم ألزم. فإن العبد إما أن يكون مستقيماً أو مائلاً عن الاستقامة فإن كان مائلاً عن الاستقامة فخوفه من العقوبة على ميله، ولا يصح الإيمان إلا بهذا الخوف وهو ينشأ من ثلاثة أُمور: أحدها: معرفته بالجناية وقبحها. والثاني: تصديق الوعيد وأن الله رتب على المعصية عقوبتها. والثالث: أنه لا يعلم لعله يمنع من التوبة ويحال بينه وبينها وأما إن كان مستقيماً مع الله فخوفه يكون مع جريان الأنفاس، لعلمه بأن الله مقلب القلوب" [مدارج السالكين ١/٥٠٧]

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [وقوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾(١)]

قوله: (إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ) هَذَا يَشْمَلُ الْعَمَارَتَيْنِ الْحِسِّيَّةَ وَالْمَعْنَوِيَّةَ (مِنْ آمَنَ بِاللهِ) أَيْ: وَحَّدَ اللَّهَ، فَإِنَّ الْمُشْرِكَ وَإِن عَمَّرَ الْمَسْجِدَ فَلَا حَقِيقَةَ لِعَمِلِهِ، لذلك نفى الله في الآية السابقة عمارتهم للمسجد فقال (ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر) قوله :(وَالْيَوْمِ الْآخِرِ) يَدْخُلُ فِيه الْإِيمَانُ بِكُلِّ مَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ مِمَّا يَكُونُ بَعْدَ الْمَوْتِ(٢)

وَكَثِيرٌ مَا يُقرِنُ اللهُ بَيْنَ الْإِيمَانِ بِهِ وَالْإِيمانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ؛ لَأَنَّ الْإِيمَانَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ هُوَ الْبَاعِثُ عَلَى الْعَمَلِ.(وَأَقَامَ الصَّلاةَ) أَيْ : أَدَّاهَا تَامَّةً شُرُوطُهَا وَأَرْكَانُهَا وَوَاجِبَاتُهَا،(وءاتى الزَّكَاةَ) مُسْتَحِقِّيهَا.(وَلَمْ يَخْشَ

(١) سورة التوبة الآية: ١٨.

(٢) أفاده شيخ الإسلام، كما في العقيدة الواسطية، ص: ٨.

إِلّا اللهَ) الْخَشْيَةُ أَعْظَمُ مِنَ الْخَوْفِ، إِذْ هِيَ خَوْفٌ مَعَ الْعِلْمِ وَهَذَا مَوْضِعُ الشَّاهِدِ. فالمؤمن يُفرِدُ اللهَ بالخشيةِ (فَعَسَى أولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ المهتدينَ) قَالَ ابن عَبَّاسٍ:(وَكُلُّ " عَسَى "فِي الْقُرْآنِ فَهِي وَاجِبَةٌ)(١) أي: أولئكَ همُ المهتدونَ حقا. وإنما عبَّر بعسى لأن العمل الظاهر قد تصيبه آفات فتحبطه كالعجب والرياء.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [وقوله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾(٢)]

قوله:(وَمِن النَّاسِ) أَيْ: بَعْضُهُمْ يَقُولُ آمَنَّا فَهُوَ آمنَ بلسَانِهِ وَلَمْ يُخَالِطْ الْإِيمَانُ بِشَاشَةَ قَلْبِهِ.(فَإِذَا أوذِيَ فِي اللهِ) و هَذِهِ سُنَّةٌ كَوْنِيَّةٌ لا تَتَغَيَّرُ، فَإِنَّ كُلَّ مَنْ قَالَ آمَنْتُ بِاللهِ ابْتَلَاهُ اللهُ،

قَالَ ابن الْقَيِّمِ – رَحِمَهُ الله –(فَإِنَّ الْإِنْسانَ مَدَنِيُّ الطَّبْعِ لَا بُدَّ لَهُ أَنْ يَعِيشَ مَعَ النَّاسِ، وَالنَّاسُ لهُمْ إِرَادَاتٌ وَتَصَوُّرَاتٌ، فَيَطْلُبُونَ مِنه أَنْ يُوافِقَهُمْ عَلَيهَا، وَإِن لَمْ يُوَافِقْهُمْ آذوهُ وَعَذَّبُوهُ ،...، فَالْمُؤْمِنُونَ لِكَمَالِ بَصيرَتِهِمْ فَرُّوا مِنْ أَلَمِ عَذَابِ الله إِلَى الْإِيمَانِ باللهِ، وَتَحَمَّلُوا مَا فِيه مِنَ الْأَلَمِ الزَّائِلِ الْمُفَارِقِ عَنْ قُرْبٍ، وَهَذَا لِضَعْف بَصيرتِهِ فَرَّ مِنْ أَلَمِ أَعَدَاءِ الرّسُلِ إِلَى مُوافَقَتِهِمْ وَمُتَابعَتِهِمْ، فَفَرَّ مِنْ أَلَمِ عَذَابِهِمْ إِلَى أَلَمِ عَذَابِ اللهِ، فَجَعَلَ أَلَمَ فِتْنَةِ النَّاسِ فِي الْفِرَارِ مِنه بِمَنْزِلَةِ أَلَمِ عَذَابِ اللهِ، وَغَبَنَ كُلَّ الْغَبْنِ إِذْ اسْتَجَارَ مِنَ الرَّمْضاءِ بِالنَّارِ، وفَرَّ مِنَ أَلِمِ سَاعةٍ إِلَى أَلِمِ الْأبدِ ، وَإِذَا نَصَرَ اللهُ جُنْدَهُ وَأَوْلِيَاءَهُ قَالَ: إِنِّي كُنْتُ مَعَكُمْ والله عَلِيمٌ بِمَا انطَوَى عَلَيه صَدْرُهُ مِنَ النِّفَاقِ). (٣) وَفِي الْآيَةِ رَدٌّ عَلَى الْمُرْجِئَةِ وَالْكَرّامِيَّةِ، وَوَجهُهُ أَنَّهُ لَمْ يَنْفَعْ قَوْلُهُمْ آمَنَّا بِاللهِ؛ فَلَا يَنْفَعُ الْقَوْلُ وَالتَّصْدِيقُ بِدونِ الْعَمَلِ، فَلَا يَصْدُقُ الإِيمَانُ الشَّرْعِيُّ إِلّا بِاجْتِمَاعِ

(١) تفسير ابن كثير، ط٢: ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م، (١٢١/٤).

(٢) سورة العنكبوت الآية: ١٠.

(٣) زاد المعاد، ٤/٣.

الثَّلاثَةِ: التَّصْدِيقُ وَالْعَمَلُ وَالْقولُ ، وَفِيهَا الْخَوْفُ مِنْ مُدَاهنَةِ الْخَلْقِ فِي الْحقِّ، وَفِيهَا الْاسْتِعْدَادُ لِلْبَلاءِ إِذْ لَا بدَ مِنْه لِلْعَبْدِ مَعَ سُؤَالِ اللَّه الْعَافِيَةَ.

قَالَ الإمامُ – رَحمَهُ اللهُ – [عَنْ أَبِي سَعِيدٍ ﷺ مَرْفُوعًا إِنَّ مِنْ ضَعْفِ الْيَقِينِ أَنْ تُرْضِيَ النَّاس بِسَخَطِ اللَّهِ، وَأَنْ تَحْمَدَهُمْ عَلَى رِزْقِ اللَّهِ، وَأَنْ تَذُمَّهُمْ عَلَى مَا لَمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ، إِنَّ رِزْقَ اللَّهِ لَا يَجُرُّهُ حِرْصُ حَرِيصٍ، وَلَا يَرُدُّهُ كَرَاهِيَةُ كَارِهٍ (١)]

رَواهُ أَبُو نَعِيمٍ فِي الْحِلْيَةِ وَالْبَيْهَقِيُّ فِي شُعَبِ الْإِيمَانِ وَقَدْ حَكَمَ عَلَيه الْعَلَّامَةُ الألبانِيُّ بِالْوَضْعِ ، وَذَكَرَ أَنَّ آفته مُحَمَّد بْنُ مروَانَ السُدي وَهُوَ متهمٌ بِالْكَذِبِ.

قَالَ الإمامُ – رَحمَهُ اللهُ – [وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : «مَنِ الْتَمَسَ رِضَا اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاس، رضيَ اللهُ عنْهُ وَأَرْضَى عَنْهُ النَّاس، وَمَنِ الْتَمَسَ رِضا النَّاس بِسَخَطِ اللَّهِ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَسْخَطَ عَلَيْهِ النَّاس»(٢) رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ.]

رَوَى التِّرْمذِيُّ أَنَّ رَجُلاً مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ قَالَ :(كَتَبَ مُعاوِيَةُ إِلَى عَائِشَةَ أَنِ اكْتُبِي لِي كِتَابًا تُوصِينِي فِيه وَلَا تُكْثرِي عَلِيَّ، فَكَتَبَتْ عَائِشَةُ إِلَى مُعاوِيَةَ : سلامٌ عَلَيكَ أَمَّا بَعْدُ: فإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: (منَ الْتَمسَ رِضاءَ اللهِ بِسَخطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللَّهُ مؤنةَ النَّاسِ وَمن الْتمَس رِضاءَ النَّاسِ بِسَخَطِ اللهِ وَكَلَهُ اللهُ إِلَى النَّاسِ.وَ السَّلامُ عَلَيكَ)(٣)). (مَنِ الْتَمَسَ) أي: طَلَبَ، (رِضَا اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاس) وإنَّما يُطلَبُ رِضا اللهِ بالعملِ بمرضاتِهِ، قولُهُ "رَضِيَ اللهُ عَنْه " لأنَّهُ طَلَبَ رضَاهُ ، وَاللهُ تَعَالَى لَا أكرَمَ مِنْه، (وَأَرْضَى عَنْه النَّاسَ) وَإِنْ لَمْ يَطْلُبْ ذَلِكَ. وهذا تفضلٌ من اللهِ عليهِ وَفِي الْحَديثِ وُجُوبُ التِمَاسِ رِضا اللهِ، وَ فيه أَنَّهُ

(١) أخرجه أبونعيم الأصبهاني في «حلية الأولياء» (٥/١٠٦)،والبيهقي في «شعب الإيمان»(١/٢٢١/٢٠٧)، راجع الضعيفة برقم: (١٤٨٢).

(٢) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (١/٢٤٧). ورواه الترمذي في السنن وصححه الألباني في الصحيحة برقم (٢٣١١).

(٣) أخرجه الترمذي، برقم: (٢٤١٤) وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم: (٢٢٥٠).

لَايُمْنَعُ مِنَ الْأَخْذِ بِالاسْبَابِ الَّتِي تَدْفَعُ سخطَ النَّاسِ لَكِن بِدونِ سَخَطِ اللهِ. وَالْباءُ فِي قَوْلِهِ :(بِسَخَطِ النَّاسِ) لِلْعِوَضِ وَالْمُقَابَلَةِ، أي من طلب رضا الله وصدق في طلبه حتى نال سخط الناس ثمنا لمطلوبه في أول الأمر لكن كانت عاقبته أن حصل ما قصد وسلم مما يخاف منه الناس قَوْلُهُ :(وَمَنِ التَمَسَ رِضا النَّاسِ بِسَخَطِ اللهِ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيه وَأَسْخَطَ عَلَيه النَّاسَ) قولُهُ (سَخِطَ اللَّهُ عَلَيه) لأنَّه لَمْ يَطْلُبْ رِضاهُ ولم يبالِ بهِ (وَأَسْخَطَ عَلَيه النَّاسَ) لأنَّهُ طَلَبَ رِضاهُمْ بِطْرِيقٍ غَيْرِ مَشْرُوعٍ ، فَعَامَلَهَ اللهُ بِنَقِيضِ قَصْدِه، لقد حرص هذا المسكين على بضاعة مزجاة لكن بثمن غال فنال سخط الله ليحصل له رضا الناس فأسخط معبوده ولم يحصل مقصوده وَالْوَاجِبُ أَنْ يَطْلُبَ رِضا اللهِ، وَلَا يُبَالِي بِالنَّاسِ. قَالَ ابن رَجَبٍ – رَحِمَهُ اللهُ –:(فَمَنْ تَحَقَّقَ أَنَّ كُلَّ مَخْلُوقٍ فَوْقَ التُّرابِ فَهُوَ تُرابٌ، فَكَيْفَ يُقَدِّمُ طَاعَةَ منْ هُوَ تُرابٌ عَلَى طَاعَةِ رَبِّ الْأَرْبَابِ، أَمْ كَيْفَ يُرْضِي التُّرَابَ بِسَخَطِ الْمَلِكِ الْوَهَّابِ، إِنَّ هَذَا لِشَيْءٌ عُجَاب) [1]. وَفِي الْحَدِيثِ مِنَ الْفَوَائِدِ عُقُوبَةُ مَنْ آثَرَ رِضا النَّاسِ عَلَى رِضا اللهِ ، وَفِيه أَنَّ الْعُقُوبَةَ قَدْ تَكُونُ فِي الدِّينِ ، وَفِيه إِثْبَاتُ صِفَتي السّخَط وَالرِّضا لله، وَلَا نَقُولُ أَنَّ السَّخَطَ وَالْغَضَبَ غَلَيَانُ دَمِ الْقَلْبِ؛ لَأنَّ هَذَا إِنَّمَا هُوَ سَخَطُ الْمَخْلُوقِ.

(١) مجموع رسائل ابن رجب ٣/ ١٤٢ ضمن شرح حديث ابن عباس.

[٣٣]

بابُ قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ: ظاهِرَةٌ، وَهِي أَنَّ التَّوَكُّلَ عَلَى اللهِ دَواءٌ لِلْخَوْفِ مِنْ غَيْرِ اللهِ الشركي و المحرم منه، فَبَعْدَ أَنْ شَخَّصَ الدَّاءَ نَاسَب أَنْ يُبَيِّنَ الدَّواءَ.(فَتَوَكَّلُوا) التَّوَكُّلُ: صِدْقُ اعْتِمادِ الْقَلْبِ عَلَى اللهِ فِي جَلْبِ الْمَنَافِعِ وَدَفْعِ الْمَضارِّ الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ مَعَ بَذْلِ الاسْبَابِ. وَقِيلَ هُوَ بَذْلُ الاسْبَابِ مَعَ قَطْعِ النَّظَرِ عَنْهَا. وَقَطْعُ النَّظَرِ عَنِ الاسْبَابِ هُوَ صِدْقُ اعْتِمادِ الْقَلْبِ عَلَى اللهِ. لكن الْاعْتِمادُ عَلَى الاسْبَابِ شِرْكٌ خَفِيٌّ كَمَا أَنَّ تَرْكَ الاسْبَابِ سَفَهٌ فِي الْعَقْلِ وَكَذِبٌ لَيسَ لَهُ حَقِيقَةٌ.

وَحَقِيقَةُ مَعنَى التَّوَكُّلِ تَلْتَئِمُ مِنْ مَجْمُوعِ التَّفْوِيضِ وَالْاعْتِمادَ.

وَهُنَاكَ صُورَةٌ تَقْرِبُ مَعنَى التَّوَكُّلِ وَهِي لَوْ أَنَّ طِفْلاً خَرَجَ مَعَ أَبِيه فِي أَرْضٍ مَهْلَكَةٍ فَإِنَّ هَذَا الطِّفْلَ سَيُفَوِّضُ أَمْرَهُ لِوَالِدِهِ مَعَ عِلْمِهِ أَنَّ أَبَاه لو تَخَلَّى عَنْه لَهَلَكَ وَهو يَعْلَمُ أَنَّ أَبَاه لَا يُمْكِنُ أَنْ يَتَخَلَّى عَنْه لَأنَّه يُحِبُّهُ وَيُحِبُّ لَهُ الْخَيْرَ كما أَنَّهُ يعتقدُ أَنَّ أباهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَحْمِيَهُ ويدفع عنه كل مكروه هَذَا هُوَ حالُ الْعَبْدِ الْمُتَوَكِّلِ عَلَى اللهِ .بل هو أعظم من ذلك لعظيم ثقة المؤمن بالله وكمال معرفته به.

و الآية المترجم بها جزء من كلام رجلين من بني اسرائيل في سورة المائدة قال الله تعالى

﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ فوصف هذين الرجلين بالخوف منه وأن الله أنعم عليهم بالتوفيق إلى قول الحق الذي فعل السبب وهو {ادخلوا عليهم الباب} والتوكل على الله

قولُهُ:(وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا) أَمْرٌ بِالتَّوَكُّلِ وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ التَّوَكُّلَ عِبادَةٌ، وَقَدَّمَ الْجَارَ وَالْمَجْرُورَ: لِيَدُلَّ عَلَى وُجُوبِ إِفْرَادِ اللهِ بِالتَّوَكُّلِ؛ لأَنَّ تَقْدِيمَ مَا حَقُّهُ التَّأْخِيرُ يُفِيدُ الْحَصْرَ، وَأَنَّ تَوَكُّلَ الْعَبْدِ عَلَى غَيْرِ اللهِ فِي ما لَا يَقْدِرُ عَلَيه إِلَّا اللهُ شِرْكٌ أَكْبَرُ قولُهُ:(إِن كُنْتُم مُؤْمِنِينَ) دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ التَّوَكُّلَ على الله وحده

[٣٣] باب قول الله تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

شَرْطٌ فِي صِحَّةِ الْإِيمَانِ، وَيَدُلُّ هَذَا عَلَى أَنَّ انْتِفاءَهُ يَنْفِي أَصْلَ الْإِيمَانِ، وَضَعْفَهُ يَدُلُّ عَلَى ضَعْفِ الْإِيمَانِ.

مَسْأَلَةٌ: لَا يَجُوزُ أَن تَقُولَ: تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ وَعَلَيكَ، وَلَا عَلَى اللهِ ثُمَّ عَلَى فُلَانٍ، وَمِثْلُهَا اعْتَمَدْتُ عَلَى اللهِ ثُمَّ عَلَيكَ. لأنَّ اللهَ كافٍ عبده. بَلْ تَتَوَكَّلُ عَلَى اللهِ وَحْدَهُ. وَإِنْ قَصَدَ أَنَّ فلاناً سَبَبٌ فَيَنبغِي التَّنَبُّهُ لِلَفْظِ فَإِنَّهُ مُشكِلٌ وَمُحْتَمِلٌ لِمعنًى فَاسِدٍ فَيَقُولُ تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ ثُمَّ وَكَلْتُ هَذَا الأمر إِلَى فُلَانٍ. فإنَّ الفعل (وكل) من الوكالة ويجوز فيها أن تسند إلى المخلوق أي أن يقيم الإنسان غيره مقامه

وَفِي الْآيَةِ: أَنَّ التَّوَكُّلَ مِنْ أَسْبَابِ النَّصْرِ.قَالَ شَيْخُ الْإِسْلامِ – رَحِمَهُ اللهُ –:(مَا رَجَا أحَدٌ مَخْلُوقاً وَلَا تَوكَّلَ عَلَيه إلّا خَابَ ظَنُّهُ فِيهِ، فَإِنَّهُ مُشْرِكٌ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ)[١].

قَالَ الإمامُ –رَحِمَهُ اللهُ– [قوله: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[٢]]

يَقُولُ ابن جَرِيرٍ – رَحِمَهُ اللهُ –: (وَبِاللهِ يُوقِنُونَ أَنَّ قَضَاءَهُ فِيهِمْ ماضٍ، فَلَا يَرْجُونَ غَيْرَه وَلَا يَرْهبُونَ سِواهُ)[٣] وَفِي الْآيَةِ تَقْدِيمُ الجار والمجرور الذي حَقُّهُ التَّأْخِيرُ على الفعل لِيُفِيدَ الْحَصْرَ أَيْ: لَا يَتَوَكَّلُونَ إلّا عَلَى اللهِ وَفِي الْآيَةِ أَنَّ التَّوَكُّلَ مِنْ مَرَاتِبِ تَحْقِيقِ الْإِيمَانِ.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[٤]]

قَالَ ابن الْقَيِّمِ – رَحِمَهُ اللهُ –:(أَيْ اللَّهُ وحده كَافِيكَ وَكَافِي أَتبَاعكَ فَلَا تَحْتَاجُونَ معه إِلَى أحَدٍ)[٥] وَبِهَذَا تَتَبَيَّنُ مُطَابَقَةُ الْآيَةِ لِلتَّرْجَمَةِ، فَإِذَا كَانَ هُوَ الْكَافِي لِعَبْدِهِ وَجب ألا يَتوَكل إلّا عَلَيه، وَمَتَى الْتفت الْعَبْدُ

---

(١) الفتاوى الكبرى، ٥/٢٣١، ، تحقيق : حسنين مُحَمَّد مخلوف.

(٢) سورة الأنفال الآية: ٢.

(٣)تفسير الطبري، ، (١٣/٣٨٥).

(٤)سورة الأنفال الآية: ٦٤.

(٥) زاد المعاد، (١/ ٣٥) .

بِقَلْبِهِ إِلَى سِوَاهُ، وَكَلَه اللهُ إِلَى مَا الْتَفَتَ إِلَيهِ، وَفِي الْحَدِيث:(مَنْ تَعَلَّقَ شيئاً وُكِلَ إِلَيه)[1] وَفِي الْآيَةِ أَنَّ الْكِفَايَةَ تَكُونُ بِحَسْبِ الْمُتَابَعَةِ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ فمن كان لسنة رسول الله ﷺ ألزم كانت كفاية الله له أتم.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [وقوله: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾[2]]

هذا تحريض وحض على التوكل على الله أرأيت لو كنت تطلب حاجة أو تخاف شيئا فقال لك ملك من ملوك الدنيا أنا أكفيك حاجتك أو أكفيك ما تخاقه فما قدر الطمأنينة والسكينة والثقة التي تملأ قلبك بعد هذا الكلام. قَالَ ابن الْقَيِّمِ – رَحِمَهُ اللهُ –:(كَافِيهِ، وَمَنْ كَانَ اللهُ كَافِيهِ وَوَاقِيهِ فَلَا مَطْمَعَ فِيهِ لِعَدُوِهِ، وَلَا يَضُرُّهُ إِلَّا أَذىً لَا بدَّ مِنه كَالْحَرِّ وَالْبَرْدِ وَالْجُوعِ وَالْعَطَشِ) [3]،وَمَفْهُومُ الْآيَةِ: أَنَّ مَنْ تَوَكَّلَ عَلَى غَيْرِ اللَّهِ خُذِلَ، وَفِيها: فَضِيلَةُ التَّوَكُّلِ وَأَنَّهُ مِنْ أَعْظَمِ الاسْبَابِ فِي جَلْبِ الْمَنَافِعِ وَدَفْعِ الْمَضَارِّ. وفي الآية أن الله يكفي جميع المتوكلين عليه لأن من ألفاظ العموم.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [وَعَنِ ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ تَعَالَى:﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾[4].قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّار، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالُوا لَهُ:﴿ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا ﴾الآيَةَ[5] رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَالنَّسَائِيُّ.]

هَذَا الْأَثَرُ لَا يُقَالُ مِنْ قِبَلِ الرَّأْيِ، فَلَهُ حُكْمُ الرَّفْعِ (حَسْبُنَا اللَّهُ) أَيْ كَافِينَا فَلَا نَتَوَكَّلُ إِلَّا عَلَيهِ.(وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) اللهُ.نِعْمَ الْوكيل الذي تفوض إليه أمرك. هَذَا مَدْحٌ وَثناءٌ عَلَى الْمُتَوَكِّلِ عَلَيهِ وَلَا أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيه

---

(١)أخرجه أحمد في «مسنده» (٤/٣١٠)،والترمذي في كتاب الطب– باب ماجاء في كراهية التعليق (٢٠٧٢)،وحسنه الألباني في «غاية المرام" برقم: (٢٩٧).

(٢) سورة الطلاق الآية: ٣.

(٣) بدائع الفوائد، (٢/ ٤٦٥).

(٤) سورة آل عمران الآية: ١٧٣.

(٥) أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن– باب {إن النَّاس قد جمعوا لكم فاخشوهم} (٤٥٦٣).

[٣٣] باب قول الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾

الْمَدْحُ مِنَ اللهِ وَهُوَ أَهْلُ الثَّناءِ وَالْمَجدِ والثناء بين يدي الدعاء من أسباب الإجابة كَمَا أَنَّ هَذَا الْمَدْحَ وَالثَّناءَ يَبْعَثُ الطُّمَأْنِينَةَ فِي قَلْبِ الْعَبْدِ وَأَنَّ الْمُتَوَكّلَ عَلَيه جَلِيلُ الصِّفَاتِ عَظِيمُ النُّعُوتِ. قَالَ ابن الْقَيِّمِ – رَحِمَهُ اللهُ – (وَهُوَ حَسَبُ مَنْ تَوكَّلَ عَلَيه وَكَافِي مَنْ لَجَأَ إِلَيهِ، وَهُوَ الَّذِي يُؤَمِّنُ خَوفَ الْخَائِفِ، وَيُجِيرُ الْمُسْتَجِيرَ، وَهُوَ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ، فَمَنْ تَولَاهُ وَتَوكَّلَ عَلَيه، وَانْقَطَعَ بِكُلِّيّتِهِ إِلَيهِ حَفِظَهُ وَحَرَسَهُ، وَصَانَهُ، وَمَنْ خَافَهُ وَاتَّقَاهُ أَمَّنَهُ مِمَّا يَخَافُ وَيحذَرُ وَجَلَبَ إِلَيهِ كُلُّ مَا يَحْتَاجُ إِلَيهِ مِنَ الْمَنَافِعِ)[1].قوله:(قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ) بل هي آخر كلامه حين ألقي في النار فِيهِ: أَنَّ قَوْلَ هَذِهِ الْكَلِمَةِ عِنْدَ الشّدائدِ مِنْ سَنَنِ الْأنبياءِ وقَالَهَا النَّبِيُّ ﷺ عِنْدَ مُنْصَرَفِهِ مِنْ أحُدٍ، لَمَّا بَلَغَهُ أَنَّ أَبَا سُفْيانَ وَمَنْ مَعَه قَدْ أَجْمَعُوا الْكَرَّةَ عَلَيهِمْ، وقد أصابهم ما أصابهم فقالوا هذه الكلمة ورجعوا لملاقاة العدوفلما بلغوا حمراء الأسد وبلغ المشركين خبر المسلمين قذف الله في قلوبهم الرعب فرجعوا إلى مكة وانقلب النبي ﷺ وأصحابه إلى مكة بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء وَفِي الْآيَةِ أَنَّ الْإِيمَانَ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ، وَفِيهَا: أَنَّ التَّوَكُّلَ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ دَفعِ الشَّرِّ.

---

(١) بدائع الفوائد، (٢/٤٦٣) .

[٣٤] بَابُ

قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ: أَنَّ الإمام – رَحِمَهُ اللهُ – عَقَدَ بَابَ التَّوَكُّلِ بَعْدَ بَابِ الْخَوْفِ لِيَدْفَعَ الْخَوْفَ الشِّرْكِي، والخوف المحرم ثُمَّ عَقَدَ هَذَا الْبَابَ لِيُبَيِّن وجوب الخوف من الله، فَذَكَرَ فِيه آيَةَ الاعْرَافِ تَحْذِيرا مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ بِالرَّجاءِ فَقَطّ، وَذكرَ آيَةَ الْحِجرِ تَحْذِيرًا مِنْ عبادةِ اللهِ بِالْخَوْفِ فَقَطّ. و مَعْنَى الْآيَةِ الْمُتَرْجِمِ بِهَا (أفأمنوا مكر الله) الاستفهام معناه هنا الإنكار أي كيف يأمنوا مكر الله (الأَمْنُ) ضِدُّ الْخَوْفِ، و (مَكْرُ الله) هُوَ إيصَالُ الْعُقُوبَةِ إِلَى من يَسْتَحِقُّهَا مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ، فَالأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ اطْمِئْنانُ مَنْ يَسْتَحِقُّ الْعُقُوبَةَ، وَعَدَمُ خَوْفِهِ مِنْ وُقُوعِهَا، وَهو مسْتَلْزِمٌ للاسْتِمْرارِ عَلَى الْمَعَاصِي وَعَدَمُ التَّوْبَةِ. لذلك أخبر أنَّه لا يأمنُ مكر الله إلا الخاسرون.

وَوَصْفُ اللَّهِ بِالْمَكْرِ إِنَّمَا يَكُونُ عَلَى وَجْهِ الْمُقَابَلَةِ، فَاللَّهُ يَمْكُرُ بِمَنْ يَمْكُرُ بِأَوْلِيَائِهِ، وَإِنَّمَا يُوصَفُ اللَّهُ بِهَا عَلَى وَجْهِ الْمُقَابَلَةِ؛ لأَنَّهَا فِي هَذِهِ الْحَالِ تَدُلُّ عَلَى كَمَالِ عِلْمِهِ وَعِزَّتِهِ وَقدرتِهِ وَقَهْرِهِ، وعدلِهِ، وَلَا يُؤْخَذُ مِنْ هَذِهِ الصِّفَةِ اسماً لله؛ لأن الاسم يدل على اتصاف الله بالصفة التي يتضمنها مطلقا.

قال ابن القيم " والْعَبْدُ لَا بُدَّ لَهُ مِنَ الْخَوْفِ؛ لأَنَّه إِمَّا أَنْ يكُونَ مُسْتَقِيمًا أَوْ مَائِلاً، فَإِنْ كَانَ مَائِلَا فَخوفُهُ يَنْشَأ مِنْ مَعْرِفَتِهِ بِالْجِنَايَةِ وَقُبْحِهَا وَتَصْدِيقِهِ بِالْوَعِيدِ وَأَنْ يُحَالَ بَيْنَه وَبَيْنَ التَّوْبَةِ، أَمَّا إِنْ كَانَ مُسْتَقِيمًا فَخوفُهُ مَعَ جَرَيانِ الأَنْفَاسِ ومنشؤه مِنْ علمِهِ أَنَّ الْقلُوبَ بَيْنَ أَصْبُعَيْنِ مِنْ أَصابِعِ الرَّحْمَنِ يقلبها كيف يشاء ." أ. وَيُسْتَفَادُ مِنْ كَلامِهِ أَنَّ سَبَبَ الأَمْنِ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ جَهلُ الْعَبْدِ بِرَبِّهِ، وجَهْلُهُ بِنَفْسِهِ.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [وقوله: ﴿ قَالَ وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾(١).]

سَاقَ الْإِمامُ هذهِ الْآيَةَ مَعَ الَّتِي قبلَهَا ؛ لِيُبَيِّنْ أَنَّ الْخَوْفَ إِنَّمَا يَكُونُ بِقدرٍ، فَلَا يَجُوزُ لَلعبدِ أَنْ يَخَافَ حَتَّى يَقْنَطَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، بَلْ يَكُونُ خَائِفًا رَاجِيًا والرجاء هو النظر إلى سعة رحمة الله وحسن الظن به . فلا بد أن يقارن الرجاء خوف فلا بطمئن أبدا كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ ﴾(٢)

فَالرَّجاءُ مَعَ الْمَعْصِيَةِ وَتَرْكِ الطَّاعَةِ غُرُورٌ .قال تعالى

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢١٨ ﴾ [سورة البقرة]

ومن أسباب الرجاء مطالعة أسماء الله وصفاته التي توحب الرجاء وحسن الظن ثانيا النظر في نصوص الرجاء

وَالْقُنوطُ هُوَ الْيَأْسُ بِحَيْث يَسْتَبْعِدُ حُصُولَ مَطْلُوبِهِ أَوْ كَشْفَ مَكْرُوبِهِ.

مَسْأَلةٌ:

أَيُّهُمَا يُغَلِّبُ الْخَوْفَ أَوْ الرَّجاءَ ؟ التَّحْقِيقُ: أَنْ يُقال لَا يَخْلُو الْعَبْدُ مِنْ حالَيْنِ: الْعَافِيَةُ أَوِ الْمَرَضُ، وَفِي حالِ الْعَافِيَةِ: إِمَّا أَنْ يَكُونَ مُسْتَقِيماً أَوْ مَائِلاً. فَإِنْ كَانَ مَائِلاً غَلَّب جَانِبَ الْخَوْفِ؛ لِيَنْكَفَّ عَنِ الْمَعْصِيَةِ، وإِنْ كانَ مستقيما فيكون بين الخوف الرجاء وَفِي حالِ الْمَرَضِ يُغَلَّبُ جَانِبَ الرَّجاءِ؛ لِقولِهِ عَلَيهِ الصَّلاةُ وَ السَّلامُ :(لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ عزَّ وجلَّ) (٣)

---

(١) سورة الحجر الآية: ٥٦.

(٢) سورة الزمر الآية: ٩.

(٣) أخرجه مسلم،باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت ، برقم: (٢٨٧٧).

و هذه الآية من كلام إبراهيم لما جاءته الملائكة تبشره بإسحق عليهما الصلاة والسلام وتعجب من أن يبشر بالغلام على كبر سنه فقالت له الملائكة بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين فنفى أن يقع القنوط إلا من الجاهلين بالله وأسمائه وصفاته و مَعْنى الْآيَةِ: (وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ) لَا أَحَدَ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلّا الضَّالُّونَ؛ لأنَّ الْقُنُوطَ سُوءُ ظنٍ بِاللهِ، وَطَعْنٌ فِي قُدْرَةِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، وَالْمُؤْمِنُونَ أَبْعدُ النَّاسِ عَنْ ذَلِكَ؛ لِعِلْمِهِمْ بِفَضْلِ اللهِ وَإِحْسَانِهِ وَقُرْبِ رَحْمَتِهِ وَفَرَجِهِ.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [وَعَنِ ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما:«أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سُئِلَ عَنِ الكَبَائِرِ؟ فَقَالَ: الشِّرْكُ بِاللَّهِ، وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ وَالامْنُ مِن مَكْرِ اللَّهُ»[1]]

في هذا الحديث أن الذنوب فيها كبائر وصغائر (الشِّرْكُ بِاللَّهِ) لأنَّ الشِّرْكَ تَنْقُصٌ لِجَنَابِ الْإِلَهِ الْمُتَفَرِّدِ بِالْكَمَالِ وَالنِّعَمِ.(وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ) هُوَ انْقِطاعُ الامَلِ وروحُ الله فرَجُه، ، وَسَبَبُهُ الْجَهْلُ بِفَضْلِ اللهِ وَسَعَةِ رَحْمَتِهِ.(وَالأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ) هُوَ جَهْلٌ بِقُدْرَةِ اللَّهِ وَجَبَرُوتِهِ وَثِقَةٌ بِالنَّفْسِ الضَّعِيفَةِ.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [وَعَنِ ابن مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: (أَكْبَرُ الكَبَائِرِ الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ وَالامْنُ مِن مَكْرِ اللَّهِ، وَالْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ)[2] رَوَاهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ.]

قوله: (أكبر الكَبَائِرُ) جَمعُ كَبِيرَةٍ وَهِيَ مَا رتَّبَ عَلَيهِ الشَّرْعُ عُقُوبَةً فِي الدُّنْيا أَوِ الْآخِرَةَ أَوْ لَعَنَ صَاحِبَهَا. وَفِي الْأَثَرِ إِرْشَادٌ إِلَى الْجَمْعِ بَيْنَ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ. من أسباب القنوط الاسترسال في المعاصي ومنها شدة الخوف كما يكون القنوط من جهة تفريج الكربة(وَالْقُنُوطُ وَالْيَأْسُ) بِمَعْنًى وَاحِدٍ إِذَا افْتَرَقَا، وَإِذَا اجْتَمَعَا افترقا: فَالْقَنُوطُ أَشَدُّ الْيَأْسِ[3] ، وَالْيَأْسُ قطعُ الأمَلِ، فالقنوط أخص من اليأس. وقيل: القُنُوطُ: الإِيَاسُ من الخَيْر. وَعَلَيه فالْيَأْسُ يَكُونُ فِي دَفْعِ الْمَكْرُوهِ وَهَذَا ظاهِرٌ مِنْ حالِ الْخَلِيلِ عَلَيه وَعَلَى نَبِيِّنَا

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٢/٢٥٣/١٣٠٢٣) موقوفًا، وصححه الألباني في الصحيحة برقم: (٢٠٥١).

(٢) أخرجه عبدالرزاق في «مصنفه»(١٠/٤٥٩/١٩٧٠١)، وابن أبي الدنيا في «التوبة» (٣١)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٩/١٥٦/٨٧٨٤).

(٣) أفاده ابن الأثير في النهاية (٤/١٨٨).

الصَّلاةُ وَالسّلامُ فَإِنَّ حُصُولَ الْوَلَدِ لَهُ مِنَ الْخَيْرِ كَمَا أَنَّ لَفْظَ الْيَأْسِ هُوَ الَّذِي يُنَاسِبُ حالَ يَعْقُوب عَلَيه وَعَلَى نَبِيِّنَا الصَّلاةُ وَ السَّلامُ فَإِنَّ رَدَّ اللَّهِ لِابنِهِ له مِنْ دَفْعِ الْمَكْرُوهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى تَوْفِيقِهِ.

فائدة ربما تصير الصغيرة كبيرة بواحد من ثلاثة أشياء عدم المبالاة والاستهانة بالذنب أوالمجاهرة أو الاصرار وعدم التوبة.

[٣٥]

بَابٌ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ الصَّبْرُ عَلَى أَقْدَارِ اللَّهِ

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلأَبْوَابِ قبلَهُ: أَنَّ الْقُنُوطَ وَالْيَأْسَ صِفَاتٌ تَعْقُبُ الْمُصِيبَةَ، فَلَمَّا حَذَّرَ فِي الْبَابِ السَّابِقِ مِنَ الْقُنُوطِ وَالْيَأْسِ، وهي صفات مذمومة نَاسَبَ أَنْ يُرْشِدَ هنا إِلَى الخُلُق الَّذِي ينبغي فِي هَذَا الْمَقَامِ وَهُوَ الصَّبْرُ.

وَمَعْنَى التَّرْجَمَةِ: بَابٌ مِنْ شُعَبِ الْإِيمَانِ الصَّبْرُ عَلَى أَقْدَارِ اللَّهِ والْإِيمَانُ: قَوْلٌ وَاعْتِقادٌ وَعَمَلٌ بِالْقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَالْجوارحِ يَزِيدُ بِالطَّاعَةِ و يَنْقُصُ بِالْمَعْصِيَةِ. والصَّبْرُ لُغَةً: هُوَ الْحَبْسُ، وَشَرْعاً: قَالَ الْخَوَاصُّ : (الصَّبْرُ الثَّباتُ عَلَى أَحْكَامِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ)(١).وَمِنْ تَقْسِيمِ الصَّبْرِ إِلَى ثَلاثَةِ أَنْوَاعٍ: صَبرٍ عَلَى الطَّاعَةِ بالثبات عليها وَصبْرٍ عَنِ الْمَعْصِيَةِ بالكف عنها وَصَبْرٍ عَلَى الاقْدَارِ الْمُؤْلِمَةِ تَظْهَرُ مُطَابَقَةُ تَعْرِيفِ الْخَوَاصِّ لِلصَّبْرِ؛ فإِنَّ هذهِ الثلاثةِ هيَ الدينُ كلُّهُ.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [وقول الله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾(٢)]

أولُ هذهِ الآيةِ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾

(مَا) نَافِيَةٌ، و(مِنْ) زائِدَةٌ إِعْراباً زائِدَةٌ معنىً، مُصِيبَةٍ: نَكِرَةٌ فِي سِياقِ النَّفْي، فَالْآيَةُ نصٌ فِي الْعُمُومِ، فَإِنَّ جَمِيعَ الْمَصَائِبِ بِإِذْنِ اللهِ الكَونِي. قَوْلُهُ:(وَمَنْ يُؤمِنْ بِاللهِ) أَيْ: مَنْ يُؤمِنْ بِأَنَّ اللهَ قَدَّرَ كُلَّ شيءٍ، وَأَنَّ قَضَاءَهُ عَلَى مُقْتَضى حِكْمَتِهِ.(يَهْدِ قَلْبَهُ) أَيْ : يَطْمئِنُ وَيَرْضَى بِمَا قَدَّرَ اللهُ وَقضَى.(وَاللهُ بِكُلِّ شيءٍ عَلِيمٌ) تَنْبِيهٌ أَنَّ ذَلِكَ المقَدَّر إِنَّمَا صَدَرَ عَنْ عِلْمِهِ الْمُتَضَمِّنِ لِحِكْمَتِهِ سبحانه.

---

(١) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين لابن القيم.

(٢) سورة التغابن الآية: ١١.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [قَالَ عَلْقَمَةُ "هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ الْمُصِيبَةُ، فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فَيَرْضَى وَيُسَلِّمُ"(١).]

قوله:(عَلْقَمَةُ) هُوَ ابن قِيس بْنِ عَبْدِ اللَّهِ النَّخَعِيُّ، تَابعيٌّ مُخَضْرَمٌ.(هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ الْمُصِيبَةُ) هَذَا تَفْسِيرٌ بِاللازِمِ؛ لأَنَّهُ جَعَلَ لَازِمَ الْإِيمَانِ الْعِلْمَ بِأَنَّهَا مِنَ اللهِ، وَفَسَّرَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ الْآيَةَ عَلَى ظَاهِرِهَا فَجَعَلَ الصَّبْرَ ثمرةُ الْإِيمَانِ، مَعَ مُلاحَظَةِ أَنَّ الثَّمرةَ بَعْضُ الشَّيْءِ، وَفِي الْآيَةِ مِنَ الْفَوائِدِ: أَنَّ الصَّبْرَ مِنَ الْإِيمَانِ، وَأَنَّ الْعَمَلَ مِنَ الْإِيمَانِ، وَفِيهَا إِثْبَاتُ الْقَدرِ، وَفِيهَا أَنَّ الْهِدَايَةَ مِنْ ثمرات الصَّبْرِ، وَفِيهَا أَنَّ الْمصائِبَ كُلَّهَا مِنَ اللهِ، تقديراً قوله: (فَيَرْضَى وَيُسَلِّمُ) الرِّضا بِالْمُصِيبَةِ مُسْتَحبٌّ، وَبِقَدرِ اللهِ وَاجِبٌ إِذْ لَا حِيلَةَ لِلْعَبْدِ إِلّا التَّسْلِيمَ.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (اثْنَتَانِ فِي النَّاس هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ)(٢).]

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلامِ – رَحِمَهُ اللهُ –:(هَاتَانِ الْخَصْلَتَانِ هُمَا كُفْرٌ قَائِمٌ بِالنَّاسِ، فَنَفْسُ الْخَصْلَتَيْنِ كُفْرٌ، حَيْثُ كَانَتَا فِي أَعْمَالِ الْكفَّارِ، وَهُمَا قَائِمَتَانِ بِالنَّاسِ، وَلَكِنْ لَيْسَ مَنْ قَامَتْ بِهِ شُعْبَةٌ مِنْ شُعَبِ الْكُفْرِ يَصِيْرُ كَافِرًا، حَتَّى تَقُومَ بِهِ حَقِيقَةُ الْكُفْرِ)(٣) قوله: (الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ) يَكُونُ بِعَيْبِهِ أَوْ بِالطَّعْنِ فِي صِحَّتِهِ. قوله: (وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ) هِي رَفْعُ الصَّوْتِ بِالْبُكاءِ، وَتَعْدَادُ فَضَائِلِ الْمَيْتِ، وَفِي الْحَدِيث مِنَ الْفَوَائِدِ : تَحْرِيمُ هَاتَيْنِ الْخَصْلَتَيْنِ ، وَوُجُوبُ الصَّبْرِ، وَأَنَّ مِنَ الْكُفْرِ مَا لَا يُخْرِجُ مِنَ الْمِلَّةِ، وَأَنَّ الْكُفْرَ شُعبٌ ، كَمَا أَنَّ الْإِيمَانَ شُعبٌ.

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (٤٢١/٢٣)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٦٦/٤)، وفي «شعب الإيمان» (٩٩٧٦/١٩٦/٧)، وصححه الشيخ سليمان آل الشيخ في تيسير العزيز الحميد ص: (٣٨٥).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان– باب إطلاق اسم الكفر على الطعن في النسب والنياحة (٦٧).

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم، (١٤٥/٤).

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [وَلَهُمَا عَنِ ابن مَسْعُودٍ ﷺ مَرْفُوعًا: (لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الْخُدُودَ، وَشَقَّ الْجُيُوبَ وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ)[١].]

قوله: (لَيْسَ مِنَّا) هَذَا مِنْ نُصُوصِ الْوَعِيدِ، وَقَدْ جَاءَ عَنْ أَحْمَدَ وَسُفْيانَ الثَّوْرِيِّ كَرَاهَةُ تأويلِها؛ لِتكُونَ أَوْقَعَ فِي النُّفُوسِ وَأَبْلَغَ فِي الزَّجْرِ، وَمَعْنَى لَيْسَ مِنَّا أَيْ: لَيْسَ مِنْ سُنَّتِنَا، وَ لَيْسَ الْمُرَادُ أَنَّه لَيْس بِمُسْلِمٍ، وَتَدُلُّ هَذِهِ الْكَلِمَةُ على أَنَّ الْفِعْلَ الْمُقْتَرِنَ بِهَا مِنَ الْكبائرِ. (مَنْ ضَرَبَ الْخُدُودَ) جمع خد وهو صفحة الوجه أَيْ: عِنْدَ الْمُصِيبَةِ، وَبَقِيَّةُ الْجَسَدِ مِثْلُهُ فِي الْحُكْمِ، إِنَّمَا خَصَّهُ لأَنَّهُ الْغَالِبُ، (وَشَقَّ الْجُيُوبَ) الْجَيْبُ هُوَ فَتْحَةُ الْعُنُقِ، الَّتِي يُدْخَلُ مِنْهَا الرَّأْسُ (وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ) تَشْمَلُ كُلَّ دَعْوَةٍ منشؤها الْجَهْلُ، فَيَدْخُلُ فِيهَا نَدبُ الْمَيْتِ، وَالدَّعْوَةُ إِلَى الْقَبَلِيَّةِ أَوْ الْحِزْبِيَّةِ، وَالْحَدِيثُ يَدُلُّ على تحريم النياحة لا عَلَى تَحْرِيمِ الْبُكاءِ فَقَدْ جَاءَ عَنِ النَّبِيِّ عَلَيه الصَّلاةُ وَ السَّلامُ أَنَّهُ قَالَ يَوْمَ مَاتَ إبراهيمُ:(إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ وَلَا نَقُولُ إِلّا مَا يُرْضِي رَبَّنَا وإنا بِفِرَاقِكَ يا إبراهيم لمحزونون)[٢]،وَقَدْ فَاضَتْ عَيْنَاهُ لَمَّا مَاتَ سِبْطُهُ – ابن ابنته– فَقَالَ سَعْدٌ : مَا هَذَا يا رَسُولَ اللهِ : قَالَ: (هَذِهِ رَحْمَةٌ جَعَلَهَا اللَّهُ فِي قلُوب عِبَادِهِ وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللهُ مِنْ عِبَادِهِ الرّحماءَ)[٣]أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [وَعَنْ أَنَسٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الْخَيْرَ، عَجَّلَ لَهُ بِالْعُقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا، وَإِذَا أَرَادَ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُوَافِيَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)[٤].]

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز– باب ليس منا من ضرب الخدود (١٢٩٧)،ومسلم في كتاب الإيمان– باب تحريم ضرب الخدود، وشق الجيوب،والدعاء بدعوى الجاهلية (١٠٣).

(٢) أخرجه البخاري، باب قول النَّبي ﷺ إنا بك لمحزونون وقال ابن عمر رضي الله عنهما عن النَّبي ﷺ تدمع العين ويحزن القلب، برقم: (١٣٠٣).

(٣) أخرجه البخاري،باب قول الله تبارك وتعالى: (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى) ،برقم: (٧٣٧٧)، ومسلم، باب البكاء على الميت، برقم: (٩٢٣).

(٤) أخرجه الترمذي في كتاب الزهد– باب ماجاء في الصبر على البلاء (٢٣٩٦)،وابن ماجه في كتاب الفتن– باب الصبر على البلاء(٤٠٣١)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٢١١٠).

(إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الْخَيْرَ، عَجَّلَ لَهُ بِالْعُقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا) وَهُنَاكَ خَيْرٌ مِنْ هَذِهِ الدَّرَجَةِ هي أَنْ يَعْفُوَ اللهُ عَنْه، والْعُقُوبَةُ: هِيَ الْمُؤَاخَذَةُ عَلَى الذَّنْبِ، وَالْعُقُوبَةُ قَدْ تَكُونُ فِي النَّفْسِ أَوْ الْمَالِ أَوْ الْأَهْلِ وَأَعْظَمُهَا مَا كَانَ فِي الدِّينِ، فَإِذَا اسْتَحْضَرَ الْعَبْدُ الْمُصَابُ أَنَّ الله أراد به خيرا بتقدير هذه المصيبة فَإِنَّهُ يَتَحَلَّى بِالصَّبْرِ وَيَتْرُكُ التَّسَخُّطَ، وَمَنْ فَعَلَ اللهُ بِهِ ذَلِكَ أي من عجل الله له عقوبته في الدنيا فَقَدْ أَعْظَمَ اللُّطْفَ بِهِ ؛ لأنَّ عُقُوبَةَ الدُّنْيا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ ، وَلأنَّ الْمُصِيبَةَ تَقْتَضِي الْإِنابَةَ وَالتَّوْبَةَ ، فَهِي وَإِنْ كَانتْ مُصِيبَةٌ دُنْيَوِيَّةٌ فَهِيَ نِعْمَةٌ دِينِيَّةٌ، ولأنَّها تكفرُ السيئات وترفع بسببها الدرجات، وَيَحْصُلُ بِسَبَبِهَا الصَّبْرُ الَّذِي هُوَ عِبَادَةٌ عظيمة لله، وَهُوَ سَبَبُ الثَّناءِ وَالرَّحْمَةِ وَالْهِدَايَةِ مِنَ اللهِ، قَالَ تَعَالَى:

﴿أُولَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾(1) وَمِنْ حَسَنَاتِ الْمُصِيبَةِ أَنَّهَا تَدْعُو إِلَى التَّضَرُّعِ وَالدُّعَاءِ ، فَهَذَا كُلُّه مِنَ الْخَيْرِ الَّذِي أَرَادَهُ اللَّهُ بِعَبْدِهِ بِنُزُولِ الْمُصِيبَةِ عَلَيه. (وَإِذَا أَرَادَ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ) فِيهِ: أَنَّ اللهَ يُرِيدُ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ ، لَكِنَّ الشرَّ لَا يُنْسَبُ إِلَيه تأدباً ؛ وَلأَنَّهُ يقدِّرُ الشَّرَّ لِلْخَيْرِ قوله (أَمْسَكَ عَنْه بِذَنْبِهِ) أَيْ: لَمْ يُعَاقِبْهُ عَلَيهِ فِي الدُّنْيا. قولُهُ (حَتَّى يُوَافِيَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) أَيْ : حَتَّى يَأْتِيَ بِذَنْبِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ،وفِي الْحَدِيثِ مِنَ الْفَوائِدِ : أَنَّ الْبَلاءَ بِالْمُؤْمِنِ مِنْ عَلامَةِ الْخَيْرِ، وَفِيه التَّنْبِيهُ عَلَى رَجاءِ اللهِ وَحُسْنِ الظَّنِّ بِهِ ، فِي ما يَقْضِي وَيُقَدِّرُ.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [وَقَالَ النَّبي ﷺ: «إِنَّ عِظَمَ الجْزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ»(2) حَسَّنَهُ التِّرْمِذِيُّ.]

قوله:(إِنَّ عِظَمَ الجْزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلاءِ) إِذَا صَبرَ وَاحْتَسَبَ ، وَفِيهَا مِنَ الْفَوَائِدِ: عَدْلُ اللهِ عزَّ وَجلَّ، وَتَسْلِيَةٌ لِلْمُصَابِ. قوله:(وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ قَوْماً ابْتَلَاهُمْ) صَرِيحٌ فِي حُصُولِ الابْتِلاءِ لِمَنْ أَحَبَّهُمْ الله، وَلَمَّا كَانَ الْأَنبياءُ أَفْضَلَ الاحْبابِ كَانُوا أَشَدَّ بَلاءً وَفِيهِ: إِثْبَاتُ صِفَةِ الْمَحَبَّةِ للهِ، وَأَنَّهَا مِنَ

(١) سورة البقرة الآية: ١٥٧

(٢) أخرجه الترمذي برقم: (٢٣٩٦) وابن ماجه: (٤٠٣١)، وصححه الألباني في الصحيحة برقم: (١٤٦).

الصِّفَاتِ الْفِعْلِيَّةِ،(فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضا) أَيْ : مَنْ رَضيَ بِقَدَرِ اللهِ وَلَمْ يَعْتَرِضْ عَلَى حُكْمِهِ. وَفِي الْجُمْلَةِ إِثْبَاتُ صِفَةِ الرِّضا، وَالرِّضا أَعْلَى دَرَجَةً مِنَ الصَّبْرِ فَهُوَ سُكُونُ الْقَلْبِ وَطُمَأْنِينَتُهُ وَسَلامَتُهُ مِنْ مُنَازَعَةِ الْقَدرِ[1] وَفِيهِ : الجْزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ وَكَذَلِكَ فِي الحديثِ إثباتُ صِفَةِ السُّخْطِ لله تعالى على ما يليق به.

(١) أفاده الشيخ العصيمي .

[٣٦]

بَابُ مَا جَاءَ فِي الرِّيَاءِ

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ :أَنَّ الْإِمَامَ تَكَلَّمَ فِي الأبواب السَّابِقَةِ عَلَى أَعْمَالِ الْقُلُوبِ الَّتِي يَعْظُمُ بِسَبَبِهَا أَثَرُ أَعْمَالِ الجوارحِ وَثَوابُهَا وَأَجرُهَا وَلَمَّا كَانَ الإخلاصُ شرطاً في قبولِ الأعمالِ نَاسَبَ أَنْ يُحَذِّرَ مِنْ ضده بِهَذِهِ التَّرْجَمَةِ فقال:(بَابُ مَا جَاءَ فِي الرِّيَاءِ) أَيْ: مَا جَاءَ مِنَ الْوَعِيدِ في الرياء. والرِّيَاء: مَصْدَرُ رَاءَى يُرائِي إِذَا قصد رُؤْيَةَ النَّاسِ بِعَمَلِهِ. وَالسُّمْعَةُ: أَنْ يَقصدَ سَمَاعَهُمْ بِعَمَلِهِ.

قَالَ الإمامُ – رحمهُ اللهُ – [وقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾(١).]

قَالَ تَعَالَى:(قُلْ) ياأَيُّها النَّبِيُّ لِلنَّاسِ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَأَمره أن يؤَكِّد هَذِهِ الْبَشَرِيَّةَ بِالنَّعْتِ (مِثْلُكُمْ) أَيْ: يَمْرَضُ وَيَحْزَنُ وَيَأْكُلُ وَيَشْرَبُ وَيَمُوتُ. قَولُهُ:(يُوحَى إِلَيَّ) هَذَا هُوَ الْفَرْقُ بينه وبين البشر. وَالْوَحْيُ: لُغَةً الْإِلْهَامُ ، وَشَرْعاً: هُوَ إِعْلَامُ اللهِ بِالشَّرعِ. قوله: (إِنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ) هَذَا أَعْظَمُ شيءٍ أوحِي إِلَى الأنبياءِ وَهُوَ أَنَّ الْمَعْبُودَ بِالْحَقِّ وَاحِدٌ. قَوْلُهُ:(فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ) الرَّجاءُ: النَّظَرُ إِلَى سَعَةِ رَحْمَةِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. وَالْمُرَادُ بِاللِّقَاءِ هُنَا لِقَاءُ إِكْرَامٍ. قَوْلُهُ:(فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً) فِيهِ أَنَّ الرَّجاءَ مُسْتَلْزَمٌ لِلْعَمَلِ. وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ لَهُ شَرْطَانِ أَنْ يَكُونَ خَالِصاً وَأَنْ يَكُونَ صَوَاباً فَالْخَالِصُ : مَا قُصِدَ بِهِ وَجْهُ اللَّهِ ، وَالصَّوَابُ: مَا وَافَقَ السُّنَّةَ. قَولُهُ:(وَلَا يُشْرِكُ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً) :نَكِرَةٌ فِي سِياقِ النَّفْيِ فَتَعُمُّ كُلَّ أحَدٍ، وَيَسْتَحْضِرُ الْعَبْدُ بَشَرِيَّةَ الْخَلْقِ، وَأَنَّهُمْ عَبِيدٌ مَمْلُوكُونَ؛ حَتَّى لَا يَقَعَ فِي الْقَلْبِ شُهُودُ غَيْرِ اللَّهِ عِنْدَ الْعَمَلِ. وَفِي الْآيَةِ مِنَ الْفَوَائِدِ بَشَرِيَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، فلا تشرع عبادته وَفِيهَا أَنَّه يُوحَى إِلَيه فَيَجِبُ تَعْظِيمُ سُنَّتِهِ.(٢)

---

(١) هو الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر أبو علي الإمام القدوة التميمي اليربوعي الخرساني.

(٢) أفاده الشيخ العصيمي.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ مَرْفُوعًا: «قَالَ تَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ مَعِي فِيهِ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ.]

هَذَا حَدِيثٌ إلاهي لَفْظُهُ وَمُعْنَاهُ مِنَ اللهِ. لَمَّا كَانَ الْمُرَائِي قَاصِدًا بِعَمَلِهِ اللهِ تَعَالَى وَغَيْرَهُ، وَاللهُ تَعَالَى غَنِيٌّ وَالشّرَكَاءُ فقراءُ، فَلَا يَلِيقُ بِكَرَمِهِ وَغِنَاهُ وكبريائه أَنْ يَقْبَلَ عَمَلا عمله العبد لله ولغيره، وَفِي الْحَدِيثِ بَيَانُ غِنَاهُ وَكِبْرِيَائِهِ، وَفِيه: تَحْرِيمُ الرياءِ، وَبَراءَةُ اللهِ مِنَ الْعَمَلِ الَّذِي فِيه شِرْكٌ، وَإِثْبَاتُ صِفَةِ الْقَوْلِ لله، ووجُوبُ الْإِخْلاصِ لله تَعَالَى.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ ﷺ مَرْفُوعًا: «الا أخْبِرُكُمْ مَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ؟ قَالُوا بَلَى قَالَ الشِّرْكُ الْخَفِيُّ يَقُومُ الرَّجُلُ فَيُصَلِّي فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهَ، لِمَا يَرَى مِنْ نظَرِ رَجُلٍ إِلَيْهِ»(٢) رَوَاهُ أَحْمَدُ.]

وَسَبَبُ وُرُودِ هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ النَّبِيَّ عَلَيه الصَّلاةُ و السَّلامُ خَرَجَ عَلَى أَصْحَابِهِ فَوَجَدَهُمْ يَتَذَاكَرُونَ الدَّجَّالَ، فَفِيهِ: مَا كَانَ عَلَيه الصَّحَابَةُ مِنْ تَذَاكُرِ أَمْرِ الْآخِرَةِ. فَذكَرَ هَذَا الْحَدِيثَ،(ألا) حَرْفُ تَنْبِيهٍ وَعَرضٍ، وَفِيهِ: التَّرَفُّقُ فِي التَّعْلِيمِ، قوله:(أَخْبِرُكُمْ مَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيكُمْ عِنْدِي) فِيه خَوْفُ النَّبِيِّ عَلَيهِ الصَّلاةُ و السَّلامُ عَلَى أُمَّتِهِ مِنَ الدَّجَّالِ، لَكِنَّ خَوْفَهُ عَلَيهَا مِنَ الشِّرْكِ أشَدُّ؛ وَذَلِكَ لِخَفَائِهِ وَقُوَّةِ الدَّاعِي إِلَيهِ وَعُسْرِ التَّخَلُّصِ مِنْهُ، وَفِيه خَطَرُ الرِّياءِ؛ إِذْ أَنَّ النَّبِيَّ عَلَيه الصَّلاةُ و السَّلامُ خَافَهُ عَلَى الصَّحَابَةِ فَغَيْرُهُمْ أَوْلَى. و فِيه وَصْفُ الْمَسِيحِ بِصفَتَيْنِ الأولى: أَنَّه مَمْسُوحُ الْعَيْنِ، وَالثَّانِيَةُ أَنَّهُ دَجَّالٌ: أَيْ: كَذَّابٌ، وَفِيه حِرْصُ الصَّحَابَةِ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ – عَلَى الْعِلْمِ. وَأَنَّ مَنْ عَرَضَ عَلَيكَ أَنْ يُخْبِرَكَ بِمَا تَحْتَاجُهُ مِنَ الْعِلْمِ فينبغي أَن تُقَابِلَهُ بِالْقَبُولِ. فِي قَوْلِهِ (الشِّرْكُ الْخَفِيُّ) سَمَّاهُ خفياً؛ لأَنَّهُ يَقِلُّ التَّنَبُّهُ لَهُ. وَسَمَّاهُ النَّبِيُّ ﷺ

(١) أخرجه مسلم في كتاب الزهد والرقائق– باب من أشرك في عمله غير الله (٢٩٨٥).

(٢) أخرجه أحمد في«مسنده» (٣/٣٠) ، وابن ماجه في كتاب الزهد– باب الريا والسمعة (٤٢٠٤)،وحسنه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٥٣٣٣).

فِي حَديثٍ آخَر بَشِرْكِ السَّرَائِرِ فَقَالَ:(أَيُّهَا النَّاسُ إِيَّاكُمْ وَشِرْكَ السَّرَائِرِ قَالُوا: يا رَسُولَ اللهِ وَمَا شَرْكُ السَّرَائِرِ ؟ قَالَ: يَقُومُ الرَّجُلُ فَيُصَلِّي فَيُزَيِّنُ صَلاتَهُ جَاهِدًا لِمَا يرى مِنْ نظَرِ النَّاسِ إِلَيهِ فَذَلِكَ شِرْكُ السَّرَائِرِ)[1]. (يَقُومُ الرَّجُلُ) لَا مَفْهُومَ لِلرَّجُلِ هُنَا، فَالْمَرْأَةُ أيضاً يَقَعُ مِنْهَا ذَلِكَ (فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهَ) أي يحسنها،(لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ إِلَيه) اللام للتعليل، لِيُعظِّمَهُ ذَلِكَ الرَّجُلُ وَيَمْدَحُهُ لِلنَّاسِ: وَهَذَا تَفْسِيرٌ بِالْمِثَالِ، وَفِيه : حُسْنُ تَعْلِيمِهِ عَلَيه الصَّلاةُ وَ السَّلامُ.

(١) أخرجه ابن خزيمة، باب التغليظ في المراءاة بتزيين الصلاة وتحسينها، برقم: (٩٣٧)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم: (٣١).

[٣٧]

بَابٌ مِنَ الشِّرْكِ إِرَادَةُ الْإِنْسَانِ بِعَمَلِهِ الدُّنْيَا

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ: أَنَّ الْبَابَ السَّابِقَ فِي الرياء وَهَذَا فِي إِرَادَةِ الْإِنْسانِ الدُّنْيا بِعَمَلِهِ وَهُمَا يَجْتَمِعَانِ فِي الْعَمَلِ لِغَيْرِ اللَّهِ، وَأَنَّهُمَا شِرْكٌ خَفِيٌّ إِلّا أَنَّ إِرَادَةَ الدُّنْيا أَعَمُّ مِنَ الرياءِ. وَمَعْنَى التَّرْجَمَةِ: مِنَ الشِّرْكِ أَنْ يُرِيدَ الْإِنْسانُ الدُّنْيا بِعَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ الْآخِرَةِ.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [وقول الله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾(١)]

قوله: (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيا) أَيْ: يَقْصُدُهَا بِعَمَلِهِ، (وَزِينَتَهَا) الْمَالُ وَالْبَنُونَ،(نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ) أَيْ: نُؤَدِّي إِليهِمْ ثوابهم كَامِلاً،(وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ) أَيْ: لَا يُنْقصُونَ.(أولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلّا النَّارُ) سِياقُ الْآيَةِ فِي الْكفَّارِ الَّذِينَ يعْمَلُونَ أَعْمَالاً مَشْرُوعَةً كَالتَّصَدُّقِ وَنَحْوِهِ ، وَتَشْمَلُ أيضاً الْمُسْلِمَ إِذَا أَرَادَ بِعَمَلِهِ الصَّالِحِ الدُّنْيا، (وَحَبَطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا) أَي: فَسَدَ عَمَلُهُمْ ،

وَتَشْمَلُ الْآيَةُ ثَلاثَةَ أَصْنَافٍ غير الذي سبق ذكره:

١ – مَنْ عَمل الصَّالِحَاتِ رياءً وسمعةً.

٢ – مَنْ عَمل الصَّالِحَاتِ لَكِنَّه يُرِيدُ الْمَالَ فَقَط كَالْحَاجِّ وَالْمُعَلِّمِ.

٣ – مَنْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ لَكِنْ قَامَ بِهِ نَاقِضٌ مِنْ نواقضِ الْإِسْلامَ.

وعَنْ شُفَيّ بنِ ماتعٍ الأصبُحيّ –رَحِمَهُ اللهُ–: (أَنَّه دخل المدينة، فإذا هو برجلٍ قدْ اجتمعَ عليهِ النَّاسُ، فقَالَ: مَنْ هذا؟ فقالوا: أَبو هريرةَ، فَدَنوتُ منه، حتى قَعدتُ بين يديهِ، وهُوَ يُحدِّثُ النَّاسَ، فَلَمَا سكت وخلا، قلتُ له: أَسالكَ بحَقٍ وَحقٍ، لمَا حَدَّثتني حديثا سمعته من رسولِ اللهِ – ﷺ – عَقَلْتَهُ وعَلِمْتَهُ،

(١) سورة هود الآية: ١٥-١٦.

فقال أَبو هريرة: أَفْعَلُ، لأحَدِّثَنَّكَ حديثا حدَّثَنيه رسولُ الله – ﷺ –، عَقَلْتُهُ وعَلِمْتُهُ، ثمَّ نَشَغَ أَبو هريرة نَشْغَةً، فَمَكثْنا قليلاً، ثمَّ أفاق، فقَالَ: لأحَدِّثَنَّكَ حَديثا حَدَّثنيه رسولُ الله – ﷺ – في هذا البيتِ، ما مَعَنا أَحدٌ غيري وغيرُه، ثمَّ نَشَغَ أبو هريرة نَشْغَةً أخرى، ثمَّ أَفَاقَ ومَسَحَ عن وَجْهِهِ، وقال: أَفعلُ، لأحَدِّثَنَّكَ حديثاً حدَّثنيه رسولُ اللهِ – ﷺ –، أَنَا وهوَ في هذا البيتِ، مَا مَعنا أَحَدٌ غَيري وغَيرُهُ، ثمَّ نشغ أبو هُريرةَ نَشْغَةً شديدةً، ثمَّ مَالَ خَارّاً على وجهه، فَأَسْنَدتُهُ طَويلاً، ثمَّ أَفَاقَ: فقال: حدَّثني رسولُ الله – ﷺ – : أَنّ اللهَ إِذَا كانَ يومُ القِيامَةِ يَنزِلُ إِلى العِبادِ لِيَقْضِيَ بَينَهُم، وَكُلُّ أُمَّةٍ جَاثِيَةٌ، فَأَوَّلُ مَن يَدعُو به رجلٌ جَمَعَ القُرآنَ، ورجُلٌ قُتِلَ في سبيل الله، ورجلٌ كثيرُ المالِ، فيقولُ اللهُ للقارئ: أَلم أُعَلِّمْكَ مَا أَنزلتُ على رسولي؟ قال: بلى، يا ربِّ، قال: فماذا عملتَ فيما علمتَ؟ قال: كنتُ أَقومُ به آناءَ الليلِ وآناءَ النَّهارِ، فيقولُ اللهُ لهُ: كَذَبتَ، وتقولُ له الملائكةُ: كذبتَ، ويقولُ اللهُ لَهُ: بَل أَرَدْت أَن يُقَالَ: فُلانٌ قَارئ، وَقَدْ قِيلَ ذَلِك. ويُؤْتَى بِصَاحِبِ المالِ فيقولُ اللهُ: أَلم أُوَسِّعْ عليك، حتَّى لَم أَدَعْكَ تحتاجُ إِلى أَحَدٍ ؟ قالَ: بَلى، يا ربِّ، قالَ: فَمَاذَا عَمِلْتَ في ما آتَيتُكَ ؟ قال: كنتُ أَصِلُ الرَّحِمِ، وَأَتَصدَّق، فيقولُ الله لَهُ: كَذَبْتَ، وتَقُولُ لَهُ الملائِكَةُ: كَذبتَ، ويقولُ اللهُ: بَل أَردت أَن يُقالَ: فلانٌ جَوادٌ، فقيل ذلك . ثمَّ يُؤتى بالذي قُتِلَ في سبيلِ الله، فيقول اللهُ: في ماذا قُتِلتَ ؟ فيقولُ: أَمرتَ بالجهاد في سبيلِكَ، فقاتلتُ حتَّى قُتِلتُ، فيقولُ الله لَهُ: كَذَبتَ، وتقول له الملائكةُ: كَذَبْتَ، ويقولُ اللهُ: بَل أردتَ أَن يُقَالَ: فُلانٌ جَرِيءٌ، فقد قِيلَ ذلك، ثمَّ ضَربَ رسولُ اللهِ – ﷺ– على رُكْبتي، فقال: يا أَبَا هُريرة، أولئك الثلاثة أَوَّلُ خَلقِ اللهِ تُسَعَّرُ بهم النَّار يوم القيامة».قَالَ الْوَلِيدُ أَبُو عُثْمانَ المدائنيُّ: فَأَخْبرَنِي عَقَبَةُ بْنُ مُسْلِمٍ: أَنَّ شُفَيّاً هُوَ الَّذِي دَخَلَ عَلَى مُعاوِيَةَ فَأَخْبَرَهُ بِهَذَا. قَالَ أَبُو عُثْمانَ: وَحَدَّثَنِي الْعَلاءُ بْنُ أَبِي حَكِيمٍ:« أَنَّهُ كَانَ سَيَّافًا لِمُعاوية، فَدَخَلَ عَلَيهِ رَجُلٌ، فَأَخْبَرَهُ بِهَذَا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، فَقَالَ مُعاوِيَةُ: قَدْ فُعِلَ بِهَؤُلَاءِ هَكَذَا، فَكَيْفَ بِمَنْ بَقِيَ مِنَ النَّاسِ؟ ثُمَّ بَكَى مُعاوِيَةُ بكاءً شَدِيدًا، حَتَّى ظَنَنا أَنَّهُ هَالِكٌ، وَقُلْنَا: قَدْ جَاءَ هَذَا الرجلُ بِشَرٍّ، ثُمَّ أَفَاقَ مُعاوِيَةُ، وَمَسَحَ عَنْ وَجْهِهِ، وَقَالَ: صَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ.

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[1])[2].

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ، تَعِسَ عَبْدُ الْخَمِيصَةِ، تَعِسَ عَبْدُ الْخَمِيلَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِي، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ، طُوبَى لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَشْعَثَ رَأْسُهُ، مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ، إِنْ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ، إِنْ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ، وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ)[3]] .أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ

وَفِيه ذِكْرُ الْخَمِيلَةِ، وَلَيْسَ فِيه ذِكْرُ الْقَطِيفَةِ وَهِى: ثَوْبٌ لَهُ خَمَلٌ أَيْ: أَهْدَابٌ وَكِلَاهُمَا بِمَعْنًى وَاحِدٍ. قوله:(تَعِسَ) مَعنَاهُ: خَابَ وَهَلَكَ وَشَقيَ (الدِّينارِ) هُوَ النَّقْدُ الْمَضْرُوبُ مِنَ الذَّهَبِ،(الدِّرْهَمِ) هُوَ النَّقْدُ الْمَضْرُوبُ مِنَ الفِضَّةِ.(الْخَمِيصَةِ) ثَوبَ خزٍ أَوْ صُوفٍ مُعَلَّمٍ، وَلَا تُسَمَّى خَمِيصَةً إِلَّا إِذَا كَانَتْ سَوْداءُ مُعَلَّمَةٌ. قَالَهُ ابن الاثيرِ. وَإِنَّمَا سَمَّاهُ النَّبِيُّ ﷺ عَبْدًا لِهَذِهِ الاشْيَاءِ ؛ لأَنَّهَا هِي مَقْصُودُهُ وَمَطْلُوبُهُ الَّذِي عَمِلَ لَهُ وسَعَى فِي تَحْصِيلِهِ بِكُلِّ مُمْكِنٍ حَتَّى صَارَتْ نِيَّتُهُ مَقْصُورَةً عَلَيه، يَغْضَبُ وَيَرْضَى لَهُ وَلَا يَعْمَلْ إِلَا مِنْ أَجلِهِ، لَا تَتَحَرَّكُ هِمَّتُهُ إلّا بِهِ، وَتَعَلَّقَ بِهِ تَعلُّقَ الْعَبْدِ بِسَيِّدِهِ.(إِنْ أَعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ) هَذِهِ عَلَامَةُ عَبْدِ الدُّنْيا فَيَرْضَى عَنِ اللهِ إِذَا فَتحَ عَلَيه مِنَ الدُّنْيا، وَيَسْخَطُ إِنْ قَبَضَهَا عَنْهُ، وَهَذَا حالُهُ مَعَ خَلْقِ اللهِ، أَمَّا الْمُؤْمِنُ إِنْ أَعْطِي شَكَرَ وَإِنْ لَمْ يُعْطَ صَبَرَ.(تَعِسَ وَانْتَكَسَ) هَذَا دُعَاءٌ عَلَيه مَرَّةً أُخْرَى، أَيْ: تَعِسَ مَنْ هَذَا قَصْدُهُ بِعَمَلِهِ؛ لأَنَّهُ يَذْهَبُ ثَوابُهُ وَيَحْصُلُ لَهُ الإِثْمُ، وَالْانْتِكَاسَةُ هِي عَودُ الْمَرَضِ بَعْدَ تَمَاثُلِ الشِّفَاءِ، وَفِي الْعَادَةِ تَكُونُ أَشَدَّ مِنَ الْمَرَّةِ الأولى،(وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ) أَيْ:إِذَا أَصَابَتْهُ شَوْكَةٌ لَا أَخْرَجَهَا اللهُ مِنْهُ، وانْتَقَشَ استعملَ المنقاشَ فِي إِخراجِ الشَّوكَةِ وَالْمُرَادُ: لَا خَلَّصَهُ اللهُ مِنْ أَذىً أَصابَهُ، وَقِيلَ الْمُرَادُ: إِذَا وَقعَ فِي الْبَلاءِ لَا يُترَحَمُ عَلَيهِ، وَقِيلَ: مَعنَاهَا أَنَّهُ لَا يَصْبِرُ عَلَى الْبَلاءِ وَإِنْ كَانَ خَفِيفاً،

---

(١) سورة هود الآية: ١٤-١٥.

(٢) أخرجه الترمذي، باب ما جاء في الرياء والسمعة، برقم: (٢٣٨٢)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم: (٢٢).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الجهادوالسير- بابالحراسة في الغزو في سبيل الله (٢٨٨٧).

فَهَذِهِ حالُ عَبْدِ الدُّنْيا، وَكُلُّ الجمَلِ السَّابِقَةِ تَحْتَمِلُ الدُّعَاءَ وَتَحْتَمِلُ الْخَبَرِيَّةَ.(طوبى لِعَبْدٍ) طوبى: قِيلَ: شَجَرَةٌ فِي الجَنَّةِ، وَقِيلَ: هِيَ الجَنَّةُ، وهِيَ في اللغة فُعْلَى مِنَ الطِّيبِ أَيْ: هُوَ فِي أَطْيَبِ حالٍ وَلَا تَعارُضَ بَيْنَ هَذِهِ الْمَعَانِي فَيُحْمَلُ عَلَى جَمِيعِ الْمَعَانِي (آخِذٍ بِعِنانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) آخذٍ نعتٌ أول لعبدٍ وَالْعِنانُ:حَبْلُ اللِّجامِ، فَفَرْقٌ بَيْنَ عَبْدِ الدُّنْيا وَعَبْدِ اللهِ، فَذاكَ فِي تَعاسَةٍ وَشَقَاءٍ وَهَذَا فِي طِيبٍ وَهَنَاءٍ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ، وَهَذَا مَوْضِعُ الشَّاهِدِ مِنَ الْحَدِيثِ وَأَنَّ مَنْ كَمُلَ تَوْحِيدُهُ فَهُوَ فِي نَعِيمٍ تامٍ وَمَنْ نَقَصَ تَوْحِيدُهُ نَقَصَ نَعِيمُهُ ومن لم يوحِّد اللهَ شقيَ شقاءً تاماً وكان في جحيم الدنيا و الآخرة. قَالَ تَعَالَى ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴾[1]. قوله:(أَشْعَثَ رَأْسُهُ، مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ) أَشْعَثَ: أي غيرُ مُرجَل الشَّعرِ نَعْتٌ ثَانِي لِلْعَبْدِ، (مُغْبَرَّةٍ) نَعْتٌ ثَالِثٌ، وَالنَّعْتُ الأول (آخِذٍ بِعِنانِ فَرَسِهِ). فَلِشِدَّةِ عِنَايَتِهِ وَانْشِغالِهِ بِالْجِهَادِ غَيْرُ مُتَفَرِّغٍ لِلْعِنَايَةِ بترجيلِ شَعْرِهِ وَدَهْنِهِ وَتَنْظِيفِ بَدَنِهِ، وليس معنى هذا أنه لا يعتني بنظافة ثوبه وبدنه وشعره لكن لا يشتغل بهذه الأشياء عن معالي الأمور وَفِي الْجُمْلَةِ فَضْلُ الْغُبَارِ فِي سَبِيلِ اللهِ. قَوْلُهُ:(إِنْ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ).الْحِراسَةُ هِيَ حِراسَةُ الْجَيْشِ لَيْلاً أَوْ نَهارًا.والسَّاقَةُ مُؤَخِّرَةُ الْجَيْشِ؛ لِيَتَفَقَّدَ الضَّعِيفَ وَالْعَاجِزَ وَهَذَا مِنْ كَمالِ إِخْلاصِهِ فَلَا يَتَحَرَّى الْمَناصِبَ الْعَالِيَةَ، وَتَرْكِيبُ الجُمْلَتَيْنِ يَسْتَعْمِلُ فِي حَقِّ مَنْ قَامَ بِمَا أُسْنِدَ إِلَيه عَلَى الْوَجْهِ الأَتَمِّ وَالاكْمَلِ ، وَفِي الجملة فَضْلُ الْحِرَاسَةِ وَالسَّاقَةِ.(إِنْ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ) أَيْ : إِنْ اسْتَأْذَنَ عَلَى أَصْحابِ الجَاهِ وَالسُّلْطَانِ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ. (وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ) أَيْ إِنْ تَوَسَّطَ لِغَيْرِهِ رُدَّتْ شَفَاعَتُهُ؛ لأَنَّهُ مَغْمُورٌ غَيْرُ مَشْهُورٍ وَفِي الْحَدِيثِ مِنَ الْفَوَائِدِ : تَرْكُ حُبِّ الرئاسةِ وَالشُّهْرَةِ، وَفَضْلُ الْخُمُولِ وَالتَّوَاضُعِ .

(١) سورة الانفطار الآية: ١٣-١٤.

[٣٨]

بَابُ مَنْ أَطَاعَ العُلَمَاءَ وَالأمراءَ

فِي تَحْرِيمِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ أَوْ تَحْلِيلِ مَا حَرَّمَهُ فَقَدْ اتَّخَذَهُمْ أَرْبَابًا

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ: هَذَا شُرُوعٌ مِنَ الإمَامِ فِي مُقْتَضَيَاتِ التَّوْحِيدِ وَلَوَازِمِهِ إذْ اخْتِصَاصُ اللهِ بِالطَّاعَةِ مِنْ لَوَازِمِ تَحْقِيقِ كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ وَمَعْنَى التَّرْجَمَةِ: بَابُ مَنْ أَطَاعَ الْعُلَمَاءَ وَالأمراءَ فِي تَحْلِيلِ الحَرَامِ أَوْ تَحْرِيمِ الحَلالِ اعتقادا فَقَدْ جَعَلَهُمْ آلِهَةً مَعَ اللهِ. والْعُلَمَاءُ وَالأمراءُ : هُمْ أُولُوا الأمر فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ ﴾(١) فَالْعُلَمَاءُ هُمْ أُولُو الأمر فِي الدِّينِ، وَالأمراءُ هُمْ أُولُو الأمر فِي الدُّنْيا، وَإِنَّمَا تَجِبُ طَاعَتُهُمْ إِذَا كَانَ الْعُلَمَاءُ مُبَلِّغِينَ أَمْرَ اللهِ، وَكَانَ الأمراءُ مُنَفِّذِينَ لَهُ، فَتَجِبُ طَاعَتُهُمْ طاعةً لله وَرَسُولِهِ. لحديثِ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ وشرارُ أئمتِكُمْ: الذينَ تبغضونَهُمْ ويبغضونَكُمْ، وتلعنونَهُمْ ويلعنونَكُمْ ». قيل: يا رسول الله!، أفلا ننابذُهُمْ بالسَّيْفِ؟. فَقَالَ: « ما أقامُوا فيكُم الصَّلاةَ. وإذا رأيتم من ولاتِكم شيئاً تكرهونَهُ، فاكرهوا عملَهُ، ولا تنزعوا يداً من طاعةٍ (٢) فَإِذَا أَمروا بِمَعْصِيَةٍ لَا طَاعَةَ لهُمْ فِي ما أمروا به وَلَكِنْ لَا يَجُوزُ الْخُرُوجُ عَلَيهِمْ قوله:(فِي تَحْرِيمِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ) : اعتقاداً (أَوْ تَحْلِيلِ مَا حَرَّمَهُ) : اعتقادا (فَقَدْ اتَّخَذَهُمْ أَرْبَابًا) أي: آلهة.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما يُوشِكُ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْكُمْ حِجَارَةٌ مِنَ السَّمَاءِ، أَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَتقُولُونَ قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ؟!" (٣)].

(١) سورة النساء الآية: ٥٩.

(٢) رواه مسلم.

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٢١٥/٢٠)، وهذا اللفظ ذكره ابن القيم في "إعلام الموقعين" ولم يعزه لأحد، وقد صحَّ بلفظ: (والله ما أراكم منتهين حتى يعذبكم الله، نحدثكم عن رسول الله وتحدثونا عن أبي بكر وعمر) انظر إعلام الموقعين بتحقيق الشيخ مشهور (٥٣٩/٣).

قَالَ ابن عَبَّاسٍ هَذَا الْكَلامُ لَمَّا نَاظَرَهُ بَعْضُهُمْ فِي مُتْعَةِ الحَجِّ، وَمَقْصُودُ ابن عَبَّاسٍ: الا يُعَارَضَ قَوْلُ النَّبِيِّ عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ الظَّاهِرُ مَعناهُ بِقَولِ أحدٍ كَائِنًا مَن كَانَ ، كَمَا قَالَ الشَّافِعِيُّ – رَحِمَهُ اللهُ –:(أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ من اسْتَبَانَتْ لَهُ سُنَّةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَنْ يَدَعَهَا لِقَوْلِ أَحدٍ)(١). فَإِذَا كَانَ هَذَا كَلامُ ابن عَبَّاسٍ لِمَنْ عَارَضَهُ بِقولِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَهُمَا هُمَا فَمَا تَظُنُّهُ يَقُول بِمَنْ عَارَضَ سُنَّةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِقول إمَامِهِ وَصَاحِبِ مَذْهَبِهِ الَّذي يَنْتَسِبُ إِلَيهِ، وَيَجْعَلُ قَوْلَهُ مِعْيَارًا لِلْكِتَابِ وَالسُّنَةِ، فَمَا وَافَقَهُ قَبِلَهُ وَمَا خَالَفَهُ رَدَّهُ أَوْ تَأَوَّلَهُ – وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ –.

وَمَا أحْسَنُ مَا قِيلَ:

فَإِنْ جَاءَهُمْ فِيه الدَّلِيلُ مُوافِقاً *** لِمَا كَانَ لِلْآباءِ إِلَيه ذَهَابُ

قَضَوهُ وَإِلَّا قِيلَ هَذَا مؤوَّلٌ *** وَيُرْكَبُ للتأويلِ فِيهِ صعابُ

وأبوبكر وَعُمَرُ هُمَا خَيْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا وَقَدْ حَثَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى اتِّبَاعِهِمَا فَقَالَ:(فَإِنْ يُطِيعُوا أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرُ يَرْشُدُوا)(٢).وقَالَ: (اقْتَدَوْا بِاللَّذَيْنِ مِنْ بَعْدِي مِنْ أَصْحَابِي أَبِي بِكْرٍ و عُمَر.)(٣)

وقال:(... فَعَلَيكُمْ بسنتى وَسُنَةِ الخُلَفَاءِ الْمَهْدِيينَ الرَّاشِدِينَ تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضَّوا عَلَيهَا بِالنَّوَاجِذِ)(٤)، وَفِي لكن الْأَثَرِ مِنَ الْفَوَائِدِ :

١– التَّحْذِيرُ مِنَ التَّقْلِيدِ الْأَعْمى وَالتَّعَصُّبِ الْمَذْهَبِي.

٢– الحَثُّ عَلَى إتباعِ الشَّرعِ وَالحَذرُ مِنْ إتباعِ الرِّجالَ في ما يُخَالِفُ الشَّرْعَ.

---

(١) نقله عنه ابن القيم في مواضع كثيرة من كتبه .

(٢) أخرجه مسلم، باب قضاء الصلاة الفائتة واستحباب تعجيل قضائها، برقم: (٦٨١).

(٣)كنز العمال في سنن الأقوال والآثار برقم: (٣٢٦٥٧)، وصححه الألباني في الصحيحة برقم: (١٢٣٣).

(٤) أخرجه أبوداود، باب لزوم السنة، برقم: (٤٦٠٩)، وصححه الألباني في المشكاة برقم: (١٦٥).

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [وَقَالَ الإمامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ: "عَجِبْتُ لِقَوْمٍ عَرَفُوا الإِسْنَادَ وَصِحَّتَهُ، وَيَذْهَبُونَ إِلَى رَأْيِ سُفْيَانَ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ:﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (١)

أَتَدْرِي مَا الفِتْنَةُ؟ الفِتْنَةُ الشِّرْكُ لَعَلَّهُ إِذَا رَدَّ بَعْضَ قَوْلِهِ أَنْ يَقَعَ فِي قَلْبِهِ شَيْءٌ مِنَ الزَّيْغِ فَيَهْلَكَ(٢)].

قوله:(عَجِبْتُ لِقَوْمٍ) الْعَجَبُ نَوْعَانِ : عَجَبُ اسْتِحْسانٍ وَعَجَبُ إِنْكارٍ، وَكَلامُ الْإِمَامِ أَحْمَدَ هُنَا مِنْ عَجَبِ الْإِنْكارِ.(عَرَفُوا الإِسْنادَ وَصِحَّتَهُ) فِيهِ: أَنَّ الَّذِينَ بَلَغهم إِسْنادٌ صحيحٌ فِي المسألة المعينة فَالْوَاجِبُ عَلَيهِمْ الْأَخْذُ بِالدَّليلِ.(وَيَذْهَبُونَ إِلَى رَأيِ سُفْيانَ) سُفْيانُ: هُوَ الْإِمَامُ الْفَقِيهُ الزّاهِدُ ابن سَعِيد بْنُ مَسْرُوقِ الثَّوْرِي أَبُوعَبْد اللهِ وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ ﴾: ضُمِّنَ الْفِعْلُ يُخَالِفُونَ مَعْنى يُعْرِضُونَ ؛ لأَنَّ الْفِعْلَ خَالفَ يَتَعَدَّى بِنَفْسِهِ، (الْفِتْنَةُ الشِّرْكُ) بِدَليلِ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى :﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ﴾ (٣)،و قولُهُ: ﴿ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾(٤).

(لَعَلَّهُ إِذَا رَدَّ بَعْضَ قَوْلِهِ أَنْ يَقَعَ فِي قَلْبِهِ شَيْءٌ مِنَ الزَّيْغِ فَيَهْلَكَ) هَذَا تَنْبِيهٌ عَلَى أَنَّ رَدَّ قَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ سَبَبٌ لِزَيْغِ الْقَلْبِ الَّذِي هُوَ سَبَبٌ لِلْهلاكِ، فَإِذَا كَانَتْ إِساءَةُ الْأَدَبِ مَعَهُ بِرفْعِ الصوتِ سَبَبٌ لِحبُوطِ الاعْمَالِ فَرَدُّ قَوْلِهِ عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسّلامُ أَعْظَمُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ

---

(١) سورة النور الآية:٦٣.

(٢) انظر «تيسير العزيز الحميد» (ص ٤٨٣)، وانظر الإبانة الكبرى رقم: (٩٧) ومسائل عبد الله (١٣٥٥/٣)

(٣) سورة البقرة الآية:١٩٣.

(٤) سورة البقرة الآية: ٢١٧.

وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾[1].فَمَا ظَنُّكَ بِرَدِّ أَحْكَامِهِ وَسُنَّتِهِ لِقَوْلِ أحَدٍ مِنَ النَّاسِ كَائِنًا مَنْ كَانَ، وَفِي كَلامِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ إشارَةٌ إِلَى أَنَّ التَّقْليدَ قَبْلَ بُلُوغِ الحجَّة جَائِزٌ، وَإِنَّمَا الْمَذْمُومُ الْإِقامَةُ عَلَى التَّقْليدِ بَعْدَ بُلُوغِهَا، فَالْوَعِيدُ لِمَنْ اسْتحَلَّ الْمُحرَّمَ بِفَتْوَى زَيْدٍ وَعَمْرٍو، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ خِلافُ الشَّرعِ، وَفِي الْآيَةِ أَنَّ الأَصْلَ فِي الأمر الْوُجُوبُ.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [«وَعَنْ عَدِيّ بْنِ حَاتِمٍ ﷺ: أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِي ﷺ يَقْرَأ هَذِهِ الآيَةَ ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[2]فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّا لَسْنا نَعْبُدُهُمْ قَالَ: أليْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ فَتُحَرِّمُونَهُ وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَتُحِلُّونَهُ؟ فَقُلْتُ بَلَى، قَالَ:فَتِلْكَ عِبادَتُهُم»[3] رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ.]

قوله:(وعن عَدِيّ بْنِ حَاتِمٍ) ابن عَبْدِ اللهِ بْنِ سَعْد بْن حَشْرَج، كَنْيتُهُ أَبُو طَرِيفٍ، مَاتَ سَنَةَ ٦٨هـ وَلَهُ مِائَةٌ وَعِشْرُونَ سَنَةً.(اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ) الضَّمِيرُ يَعُودُ إِلَى الْيَهُودِ. وَالاحْبارُ جمعُ حَبْرٍ وَهُوَ الْعَالِمِ. (وَرُهْبَانَهُمْ) الرُّهْبَانُ جمعُ رَاهِبٍ وَهُوَ الْعابِدُ.(أَرْبابًا) الْأَرْبَاب جمعُ رَبٍّ وَهُوَ الْخَالِقُ الْمَالِكُ الْمُدَبِّرُ، وَقَدْ بَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ مَعْنَى عِبَادَتِهِمْ لَهُمْ كَمَا فِي هَذَا الْحَدِيثِ.وَالتَّحْليلُ وَالتَّحْرِيم حقٌّ لَهُ مَحْضٌ سُبْحَانَه. وتَمامُ الْآيَةِ قَوْلُهُ تعالَى: ﴿ مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ قوله:(وَالْمَسِيحُ ابن مَرْيَمَ) اتَّخَذَهُ النَّصارَى معبوداً، وَهُوَ لَمْ يُحَلِّلْ مَا حَرَّمَ اللهِ لَكِنَّهُمْ عَبدُوهُ مَعَ اللهِ. (وَمَا أَمروا إِلَّا أَنْ يَعبدُوا إِلهًا

---

(١) سورة الحجرات الآية: ٢.

(٢) سورة التوبة الآية: ٣١.

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن- ومن سورة التوبة (٣٠٩٥)، والطبراني في التاريخ الكبير (٠ ١٧/ رقم:٢١٨،٢١٩) والحديث لم يخرجه أحمد في مسنده انظر (٢٥٦/٤-٢٥٩)، وعزو الحديث إليه سهو وحسنه الألباني في الصحيحة برقم: (٣٢٩٣).

وَاحِدًا) أَيْ لَمْ يُؤمَرُوا بِغَيْرِ التَّوْحِيدِ ووجهُ حَصْرِ الْمَأْمُورَاتِ فِي التَّوْحِيدِ أَنَّ اللهَ لَا يَقْبَلُهَا إِلّا بِهِ. وَالْعِبَادَةُ: هِي الْخُضُوعُ وَالتَّذَلُّلُ بِفِعْلِ الْأوامرِ وَتَرْكِ النَّوَاهِي.(لَا إِلَهَ إِلّا هُوَ) هَذِهِ كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ وَقَدْ اشْتَمَلَتْ عَلَى رُكْنَي التَّوْحِيدِ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ.(سُبْحَانَه) هَذَا تَنْزِيهٌ لَهُ عَنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيقُ بِهِ.قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: (فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ) صَرِيحٌ فِي تَسْمِيَةِ طَاعَةِ الْعُلَمَاءِ فِي تَحْلِيلِ الْحَرَامِ وعكسِهِ عِبَادَةٌ لَهُ.قال شيخ الإسلام—رحمه الله-:(وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا - حَيْثُ أَطَاعُوهُمْ فِي تَحْلِيلِ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَتَحْرِيمِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ يَكُونُونَ عَلَى وَجْهَيْنِ أَحَدِهمَا: أَنْ يَعْلَمُوا أَنَّهُمْ بَدَّلُوا دِينَ اللَّهِ فَيَتْبَعُونَهُمْ عَلَى التَّبْدِيلِ فَيَعْتَقِدُونَ تَحْلِيلَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَتَحْرِيمَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ اتِّبَاعًا لِرُؤَسَائِهِمْ مَعَ عِلْمِهِمْ أَنَّهُمْ خَالَفُوا دِينَ الرُّسُلِ فَهَذَا كُفْرٌ وَقَدْ جَعَلَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ شِرْكًا - وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا يُصَلُّونَ لَهُمْ وَيَسْجُدُونَ لَهُمْ - فَكَانَ مَنْ اتَّبَعَ غَيْرَهُ فِي خِلَافِ الدِّينِ مَعَ عِلْمِهِ أَنَّهُ خِلَافُ الدِّينِ وَاعْتَقَدَ مَا قَالَهُ ذَلِكَ دُونَ مَا قَالَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ؛ مُشْرِكًا مِثْلَ هَؤُلَاءِ وَ(الثَّانِي) أَنْ يَكُونَ اعْتِقَادُهُمْ وَإِيمَانُهُمْ بِتَحْرِيمِ الْحَلَالِ وَتَحْلِيلِ الْحَرَامِ[١] ثابتاً لَكِنَّهُمْ أَطَاعُوهُمْ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ كَمَا يَفْعَلُ الْمُسْلِمُ مَا يَفْعَلُهُ مِن الْمَعَاصِي الَّتِي يَعْتَقِدُ أَنَّهَا مَعَاصي؛ فَهَؤُلَاءِ لَهُمْ حُكْمُ أَمْثَالِهِمْ مِنْ أَهْلِ الذُّنُوبِ] كَمَا ثَبَتَ فِي " الصَّحِيحِ " عَنِ النَّبِي ﷺ أَنَّهُ قَالَ:{إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ}وَقَالَ:{عَلَى الْمُسْلِمِ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ في ما أَحَبَّ أَوْ كَرِهَ مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِمَعْصِيَةٍ })[٢][٣]

(١) كذا في الأصل ولعل الصواب: بتحليل الحلال وتحريم الحرام.

(٢) مجموع الفتاوى (٧/٧٠).

(٥) وقد ذكر صاحب التيسير في هذا الباب الفرق بين التمذهب والتعصب فليراجع، وقد ذكر ابن عثيمين تقسيم الحاكم بغير ما انزل الله في هذا الباب فليراجع.

[٣٩]

بَابُ

قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ۝٦٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ۝٦١ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴾(١)

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ: أَنَّ الْبَابَ السَّابِقَ فِي إِفْرَادِ اللهِ بِالطَّاعَةِ وَهَذَا الْبَابُ فِي إِفْرَادِ اللهِ بِالْحُكْمِ، فَالأول أَعَمُّ؛ لأنَّ الحُكْمَ أحدُ أَفْرَادِ الطَّاعَةِ، وَكِلَاهُمَا مِنْ مُقْتَضَيَاتِ *التَّوْحِيدِ وَلَوَازِمِهِ*. وَمَعْنَى التَّرْجَمَةِ: بَابُ مَا جَاءَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: (أَلَمْ تر) فَائِدَةُ الاسْتِفْهَامِ التَّعجبُ. (إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ) عَبَّرَ بِالزَّعْمِ لِيُشِيرَ إِلَى كَذِبِهِمْ فِي دَعْواهُمْ. لأَنَّهُمْ ادَّعَوا الْجَمْعَ بَيْنَ النَّقِيضَيْنِ وَهُمَا: مَحَبَّةُ تَحْكِيمِ الطَّاغُوتِ، وَالْإِيمَانُ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ.

تَنبِيهٌ: إِنَّ التَّنَاقُضَ هُوَ فِي مَحَبَّةِ التَّحَاكُمِ لِغَيْرِ اللهِ وَلَيْسَ فِي التَّحَاكُمِ دُونَ مَحَبَّتِهِ لَا سيَّما مَعَ الْاضْطِرَارِ. (وَقَدْ أمِرُوا أَنْ يَكْفرُوا بِهِ) بَلْ هُوَ أَحَدُ رُكْنِي التَّوْحِيدِ، (وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ) (ال) : فِي الشَّيْطَانِ هُنَا جِنْسِيَّةٌ، وَفِيهِ: أَنَّ التَّحَاكُمَ إِلَى الطَّاغُوتِ مِمَّا يُحِبهُ الشَّيْطَانُ وَأَنَّهُ ضلالٌ بعيدٌ، (وَإِذَا قِيلَ لَهُم تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ) أَيْ: إِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا نَتَحَاكَمُ إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، (رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ) فِيهِ دَلِيلٌ أَنَّ مَنْ دُعِيَ إِلَى التَّحَاكُمِ إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَأَبَى فَهُوَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ. أَفَادَهُ ابن الْقَيِّمِ، (يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا) أَيْ:

(١) سورة النساء الآية: ٦٠-٦٢.

يَعْرِضُونَ، وَفِيه: أَنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَقْبَلُونَ النَّصْحَ. (فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ) أيضاً الإستفهامُ هُنَا فَائِدَتُهُ التَّعَجُّبِ، (بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ) أَيْ: بِسَبَبِ مُخَالَفَتِهِمْ لِلشَّرعِ،(ثُمَّ جَاؤُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللهِ) فِيهِ: أَنَّ كَثْرَةَ الْحَلْفِ مِنْ صِفَاتِ الْمُنَافِقِينَ. (إِنْ أَرَدْنَا إلا إحْسَانًا وَتَوْفِيقاً) إِنْ: هُنَا نَافِيَةٌ، أَيْ : مَا أَرَدْنَا إِلّا الْإِحْسَانَ وَالتَّوْفِيقَ، وَهَذَا مَا يُقَالُ فِيه الْعُذْرُ أَقْبَحُ مِنَ الذَّنْبِ ، فَهَلْ فِي التَّحَاكُمِ إِلَى غَيْرِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ إِحْسَانٌ وَتَوْفِيقٌ أَمْ إِسَاءةٌ وَتَلْفِيقٌ؟

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [وقوله: ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾(١)]

قَالَ أَبُو بَكْرِ بْنِ عَيّاشٍ – رحِمَهُ اللهُ –:(إِنَّ اللهَ بَعْثَ مُحَمَّداً إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ وَهُمْ فِي فَسَادٍ فَأَصْلَحُهُمْ اللهِ بِمُحَمَّدٍ ﷺ ، فَمَنْ دَعَا إِلَى خِلافِ مَا جاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ فَهُوَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ) (٢) أ هـ.

(وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ) قِيلَ: بِالشِّرْكِ وَالْمَعَاصِي، قَالَ ابن الْقَيِّمِ – رَحِمَهُ اللهُ –:(وَالشِّرْكُ بِهِ هُوَ أَعْظَمُ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ، بَلْ فَسَادُ الْأرْضِ فِي الْحَقِيقَةِ إِنَّمَا هُوَ بِالشِّرْكِ بِاللهِ وَمُخَالَفَةِ أَمْرِهِ)(٣).

وَقَالَ – رَحِمَهُ اللهُ –:(وَمَنْ تَدَبَّرَ أَحْوالَ الْعَالَمِ وَجَدَ كُلَّ صَلاحٍ فِي الْأَرْضِ فَسَبَبُهُ تَوْحِيدُ اللهِ وَعِبَادَتُهُ وَطَاعَةُ رَسُولِهِ ، وَكُلَّ شرٍ فِي الْعَالَمِ وَفِتْنَةٍ وَبَلاءٍ وَقَحْطٍ وَتَسَلُّطِ عَدْوٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ فَسَبَبُهُ مُخَالَفَةِ رَسُولِهِ وَالدَّعْوَةِ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ). (٤)،قوله (بَعْدَ إِصْلاحِهَا) هذا مِنْ تَأْكِيدِ التَّوْبِيخِ ، إِذْ الْإِفْسَادُ بَعْدَ الْإِصْلاحِ غَايَةٌ فِي الْوَقَاحَةِ وَالْخُبْثِ. وَمُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِلتَّرْجَمَةِ: أَنَّ مَنْ يَدْعُو إِلَى التَّحَاكُمِ إِلَى غَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللهُ فَقَدْ أَتَى بِأَعْظَمِ فَسَادٍ.

---

(١) سورة الأعراف الآية: ٥٦.

(٢) رواه أبن أبي حاتم في تفسيره

(٣) بدائع الفوائد، (٣/٥٢٥).

(٤) المرجع السابق

قَالَ الإمامُ – رحمَهُ اللهُ – [وقوله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾(١)]

قولُهُ:(قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصَلِّحُونَ) أَيْ: نَحْنُ لَا يَأْتِيَ مِنْ قِبَلِنَا إلّا الْإِصْلاحُ، لِنِفَاقِهِمْ وَضلالِهِمْ انْقَلَبَتْ عَلَيهِمْ الْأُمُورُ فَهُمْ يَرْونَ الْفَسَادَ إِصْلاحًا، وَالشِّرْكَ تَوْحِيدًا، والمعصية طاعةً، وَرَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِقولِهِ :(أَلا إِنَّهُمْ هُمْ الْمُفْسِدُونَ) (٢) (ألا)حَرْفُ تَنْبِيهٍ،(إِنَّهُمْ) إِنَّ: حَرْفُ تَوْكِيدٍ، هُمْ: ضَمِيرُ فَصْلٍ يُفِيدُ الْحَصْرَ، فَنبَّهَ وَأَكَّدَ وَحصَرَ الْفَسَادَ فِيهِمْ، فَلَا مُفْسِدَ سِواهُمُ.

وَمُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِلبَابِ: أَنَّ التَّحَاكُمَ إِلَى غَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ، وَفِي الْآيَةِ: تَركُ الرَّأْيِ إِذَا وَرَدَتْ السُّنَّةُ، وَفِيهَا: الْحَذرُ مِنَ الْعُجبِ بِالرَّأْيِ.

قَالَ الإمامُ –رحمَهُ اللهُ– [قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾(٣)]

قوله:(أَفَحُكْمَ) الْهَمْزَةُ لِلْاسْتِفْهامِ وَفَائِدَتُهُ التَّوْبِيخِ ، وَفِي إضافَتِهِ إِلَى الْجَاهِلِيَّةِ زِيادَةُ تَنْفِيرٍ، وحكم مفعول به مقدم (يَبْغُونَ) أَيْ: يَطْلُبُونَ، فوبخهم اللهُ جلَّ وعلا كيفَ يطلبون ويحرصونَ على حكمِ الجاهليةِ. (ومنْ أحْسنُ) الْاسْتِفْهامُ هُنَا بِمَعْنَى النَّفْيِ، أَيْ: لَا أَحَدَ أَحْسَنُ حُكْماً مِنَ اللهِ وَهَذَا يَشْمَلُ حُكْمَهُ الشَّرْعِيَّ وَالْقدرِيَّ، لَكِنَّ هَذَا الْحُسْنَ لَا يَظْهَرُ لِكُلِّ أحدٍ بَلْ لَا يُدْرِكُهُ إِلّا الْمُوقِنُونَ، لِهَذَا قَالَ (لِقَومٍ يُوقِنُونَ) وفي الآية كُلَّمَا ازْدادَ الْعَبْدُ يَقِيناً وَإِيمَانا كلما ظهرِ له حُسْنِ أَحْكَامِ اللَّهِ. وَمُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِلبَابِ: أَنَّ فِيهَا تَوْبِيخاً لِمنْ ابْتَغَى حُكْماً غَيْرَ حُكْمِ اللهِ وَرَسُولِهِ.

---

(١) سورة البقرة الآية: ١١.

(٢) سورة البقرة الآية: ١٢.

(٣) سورة المائدة الآية: ٥٠.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ»[١] قَالَ النَّوَوِيُّ "حَدِيثٌ صَحِيحٌ رُوِّيْنَاهُ فِي كِتَابِ "الْحُجَّة" بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ"[٢].]

قد حكمَ أهلُ على هذا الْحَديثِ بالضَعفِ، ويغني عنه حديث أنس في الصحيحين قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ، وَوَالِدَيْهِ، وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ» والمحبة دليلها المتابعة قال تعالى ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾[سورة آل عمران: ٣١]

قوله:(في كِتَابِ الحجَّة) هُوَ كِتَابُ الْحُجَّةِ عَلَى تارِكِ الْمَحجَّةِ يَتَضَمَّنُ ذِكْرَ أصولِ الدِّينِ عَلَى قَوَاعِدِ أَهْلِ الْحَديثِ وَالسُّنَةِ، لِلْإِمَامِ أَبِي الْفَتْحِ نَصْرِ بْنِ إبراهيمَ الْمَقْدِسِيِّ الشَّافِعِيِّ الْفَقِيهِ الزَّاهِدِ، نَزِيلِ

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [وَقَالَ الشَّعْبِيُّ كَانَ بَيْنَ رَجُلٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَرَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ خُصُومَةٌ، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ نَتَحَاكَمُ إِلَى مُحَمَّدٍ عرفَ أَنَّهُ لَا يَأْخُذُ الرِّشْوَةَ، وَقَالَ الْمُنَافِقُ نَتَحَاكَمُ إِلَى الْيَهُودِ: لِعلْمِهِ أَنَّهُمْ يَأْخُذُونَ الرِّشْوَةَ، فَاتَّفَقَا أَنْ يَأْتِيَا كَاهِنًا فِي جُهَيْنَةَ فَيَتَحَاكَمَا إِلَيْهِ، فَنَزَلَتْ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ ﴾[٤].)[٥].] الحديث ضعيفٌ مرسلٌ.

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (١٤)، والحديث صححه النووي في الأربعين حديث رقم: (٤٠)، وضعفه ابن رجب في جامع العلوم والحكم (٢/٣٩٣-٣٩٤)، والألباني في ظلال الجنّة (ص:١٢-١٣).

(٢) أخرجه الواحدي في «أسباب النزول» (ص ١٠٧).

(٣) ترجمته في السير (١٩/١٣٦).

(٤) سورة النساء الآية: ٦٠.

(٥) أخرجه الواحدي في «أسباب النزول» (ص ١٣٧) عن الشعبي به مرسلاً، والشعبي تابعي لم يدرك النَّبي ﷺ، وقد أشار الإمام –رحمه الله– إلى ضعفه بقوله: (وقيل)، وانظر: (الاستيعاب في بيان الأسباب) "١/٤١٩".

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [وَقِيلَ "نَزلَتْ فِي رَجُلَيْنِ اخْتصَمَا، فَقَالَ أَحَدُهُمَا نَترَافَعُ إِلَى النَّبي ﷺ وَقَالَ الْآخَرُ إِلَى كَعْبِ بْنِ الاشْرَفِ، ثُمَّ تَرَافَعَا إِلَى عُمَرَ ﷺ، فَذَكَرَ لَهُ أَحَدُهُمَا الْقِصَّةَ فَقَالَ لِلَّذِي لَمْ يَرْضَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَكَذَلِكَ؟ قَالَ: نَعَمْ فَضَرَبَهُ بِالسَّيْفِ فَقَتَلَهُ"[(١)].]

إِسْنادُهُ ضَعِيفٌ ، وَقَالَ الشَّيْخُ ابن بَازٍ – رَحِمَهُ اللهُ –:(وَفِي الْقِصَّتَيْنِ نَظَرٌ لَكِنَّ الْمَعْنى صَحِيحٌ)[(٢)]أ.هـ.

وقد جاء في معجم الطبراني عن ابن عباس كان أبوبرزة كاهنا يقضي بين اليهود فيما يتنافرون فيه فتنافر إليه ناس من المشركين فأنزلَ اللهُ عزَّ وجَل (ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك) إلى قَوْلِهِ، {إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا} [النساء: ٦٢] "صححه العلامة الوادعي في الصحيح المسند لأسباب النزول .

(الشَّعْبِيُّ) هُوَ عَامِر بْنُ شراحيل كَانَ ذَا فنُونٍ يَقُولُ: مَا كَتَبْتُ سَوْداءَ فِي بَيْضاءِ. وَفِي هذه الْقِصَّةِ مِنَ الْفَوائِدِ : ١ – أَنَّ الْمُنَافِقِينَ شرٌ مِنَ الْيَهُودِ. ٢ – وأَنَّ التَّحاكُمَ إِلَى غَيْرِ شَرع اللَّهِ مِنْ صِفَاتِ الْمُنَافِقِين ٣– وَفِيهَا مَعْرِفَةُ أَعْدَاءِ الرسُلِ بِمَا كَانَ عَلَيه النَّبِيُّ ﷺ مِنَ الْعَدْلِ.

(الرِّشْوَة) – مُثَلَّثَةُ الرّاءِ – وَهِي دَفْعُ مَالٍ إِلَى التَّوصُّلِ إِلَى شيءٍ مَا، وَهِي مُحَرَّمَةٌ بَلْ مِنَ الْكبائرِ، أَمَّا مِنَ اضْطَرَّ لِدَفْعِ مَالِهِ لِيَتَوصَّلَ إِلَى حقٍ مُنعَ مِنْهُ أَوْ لِيَدْفعَ عَنْه بَاطِلاً فيأثَمُ الآخذُ وَلَا يأثمُ الْمُعْطِي.[(٣)]

---

(١) علقه البغوي في تفسيره (٤٤٦/١)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص ١٣٦)، وقال الحافظ في الفتح"٣٧/٥": (وهذا الإسناد وإن كان ضعيفاً لكنه يتقوى بطريق مجاهد، ولا يضره الاختلاف؛ لإمكان التعدد).

(٢) شرح كتاب التَّوحيد، ص: ١١٤، الناشر: مكتبة الرشد –الرياض–، الطبعة الأولى: ١٤١٥هـ–١٩٩٥م.

(٣) فائدة منهجية وفي هذا الباب ذكر الفوزان التفصيل في مسألة الحكم بغير ما انزل الله في كتابه إغاثة المستفيد.

[٤٠]

بَابُ مَنْ جَحَدَ شَيْئًا مِنَ الأسماء وَالصِّفَاتِ

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ: أَنَّ الْبابَ السَّابِقَ فِي إِفْرَادِ اللهِ بِالْحُكْمِ وَهُوَ مِنْ مُقْتَضَيَاتِ التَّوْحِيدِ وَلَوَازِمِهِ وَهَذَا الْبَابُ فِي إِفْرَادِ اللهِ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ، وَهُوَ أيضاً مِنْ مُقْتَضَيَاتِ التَّوْحِيدِ كما أَنَّهُ من بَرَاهِينِهِ. وَمعَنى التَّرْجَمَةِ: بَابٌ في حكم مَنْ أَنْكَرَ شَيْئًا مِنَ الأسماء وَالصِّفَاتِ، وَلَمْ يذْكُرِ الْإِمَامُ – رَحِمَهُ اللهُ- الْحُكْمَ فِي التَّرْجَمَةِ لِما فِيه مِنَ التَّفْصِيلِ.

وَالْإِنْكارُ نَوْعَانِ: إِمَّا أَنْ يَكُونَ عَنْ تَكْذيبٍ أَوْ تأويلٍ.

– فَإِنْ كَانَ إِنْكارُهُ عَنْ تَكْذيبٍ لِقَطْعِيّ الدَّلالَةِ وَالثّبوتِ فَإِنَّهُ يَكْفُرُ. كإنكار المشركين لاسم الرحمن

– أَمَّا إِنْ كَانَ إنكاره لِمَا خَفِيتْ دَلالَتُهُ عليه أو أنه لم يثبت عنده كمن توقف في اسم المسعر أو اسم الحفي أَوْ لَمْ يَقْطَعْ بِثُبُوتِهِ عنده كاسم المحسن عند بعض أهل العلم فَإِنَّ هذا محلُّ اجتهاد وهم بين الأجر والأجرين.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [وقول الله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾[(١)]]

الْمُرَادُ: يكفُرونَ بِهَذَا الِاسْمِ ، وَفِي الْآيَةِ دَليلٌ عَلَى أَنَّ مَنْ أنكَرَ اسما مِنْ أَسْمائِهِ ثَابِتاً قطعاً دَلالَةً وَسَنَدًا فَإِنَّه يَكْفُرُ، وَهَذا مَحَلُّ الشَّاهِدِ مِنَ الْآيَةِ.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ–[وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ قَالَ عَلِيٌّ ﷺ "حَدِّثُوا النَّاس بِمَا يَعْرِفُونَ، أَتُرِيدُونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ؟!" [(٢)]]

قَالَ الْعَلَّامَةُ ابن بَازٍ – رَحِمَهُ اللهُ -:(وَالْمَعنَى: أَنَّه يَجِبُ عَلَى الْوَاعِظِ والمذكِّر أَنْ يُذَكِّرَ النَّاسَ بِالألفاظ الَّتِي يَعْرِفُونَهَا، وَالاساليبِ الَّتِي يَعْقِلُونَهَا حَتَّى يَسْتَفِيدُوا وَيَنْتَفِعُوا)[(١)].

---

(١) سورة الرعد الآية: ٣٠.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب العلم- باب من خص بالعلم قومًا دون قوم (١٢٧).

(بِمَا يَعْرِفُونَ) أَي : بِمَا يَفْهَمُونَ ،(أَتُرِيدُونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ؟!) لأَنَّ حَديثَ النَّاسِ بِمَا لَا يفْهَمُونَ وَسِيلَةً إِلَى تَكْذيبِهِمْ اللهَ وَرَسُولَهُ، فَفِي الْأَثَرِ مِنَ الْفَوَائِدِ: دَلالَةٌ عَلَى قَاعِدَةِ سَدِّ الذَّرائِعِ، وَأَنَّ دَرْءَ الْمَفَاسِدِ مُقَدَّمٌ عَلَى جَلْبِ الْمَصَالِحِ، وَفِيه دَليلٌ عَلَى أَنَّ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَا يَصْلُحُ لِكَلِّ أحَدٍ، فَإِنَّ مِنَ الْعِلْمِ مَا هُوَ خاصٌ بِأَهْلِهِ، وَإِنْ كَانَ نَافِعاً فِي نَفْسِهِ وَمِنْ أُمُورِ التَّوْحِيدِ. وَفِيه تَرْكُ الْحَديثِ بِمَا لَا يَفْهَمُ السَّامِعُ. وَمُنَاسَبَةُ الْأَثَرِ لِلبَابِ: أَنَّ مِنْ أَسْبَابِ جَحْدِ الأسماء وَالصِّفَاتِ أَنْ يُحَدِّثَ الْمَرْءُ النَّاسَ بِمَا لَا يَعْقلُونَهُ مِنْهَا، فَإِنَّ لِلْعَامَّةِ إِيمَاناً إجمالياً يَصِحُّ بِهِ تَوْحِيدُهُمْ وَإِسْلامُهُمْ، فَالْوَاجِبُ عَلَى الدَّاعِيَةِ وَطَالِبِ الْعِلْمِ مُرَاعَاةُ أَحْوالِ الْمُخَاطبِينَ ، وَأَنْ يَحْذَرَ أَنْ يَكُونَ فِتْنَةً لِبَعْضِ النَّاسِ كَمَا قَالَ ابن مَسْعُودٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْه –:(مَا أَنْتَ بِمُحَدِّثٍ قَوْماً حَديثاً لَا تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ إلا كَانَ لِبَعْضِهِمْ فِتْنَةً) (٢).

وقد بَوّبَ البخاريُّ على أثرِ البابِ: (بَاب مَنْ خَصَّ بِالْعِلْمِ قَوْماً دُونَ قَوْمٍ كَرَاهِيَةَ أَنْ لَا يَفْهَمُوا)

فَإِنْ قِيلَ: هَلْ نَدَعُ الْحَديثَ بِمَا لَا تَبْلُغُهُ عُقُولُ النَّاسِ، وَإِنْ كَانُوا فِي حاجَةٍ إِلَيهِ ؟ الْجَوَابُ: أننا لَا نَدَعُهُم وَلَكِنَّا نحدثهم بِطَرِيقٍ تَبْلُغُهُ عُقُولَهُمْ، وَذَلِكَ بِأَنْ ننقلهم رُوَيْدَا رُوَيْدا حَتَّى يَتَقَبَّلُوا هَذَا الْحَديث وَيطْمَئِنُّوا إِلَيهِ، وَمِثْلُ ذَلِكَ الْعَمَلُ بِالسُّنَةِ الَّتِي ما اعْتَادَهَا النَّاسُ فَإِنَّنَا نخبرهم بِهَا أَوَلَا حَتَّى تَقْبَلَهَا نُفُوسُهُمْ ثُمَّ نَعْمَلُ بِهَا ، وَفِي الْأَثَرِ : أَهمِّيَةُ الْحِكْمَةِ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللهِ.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنِ ابْنِ طَاوُسٍ عَنْ أَبِيهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما "أَنَّهُ رَأَى رَجُلاً انْتَفَضَ لَمَّا سَمِعَ حَدِيثًا(٣) عَنِ النَّبي ﷺ فِي الصِّفَاتِ اسْتِنْكَارًا لِذَلِكَ، فَقَالَ مَا فَرَقُ هَؤُلَاءِ؟ يَجِدُونَ رِقَّةً عِنْدَ مُحْكَمِهِ وَيَهْلِكُونَ عِنْدَ مُتَشَابِهِهِ؟!" انْتَهَى(١).]

(١) شرح كتاب التَّوحيد، ص: ١١٦، الناشر: مكتبة الرشد –الرياض–، الطبعة الأولى: ١٤١٥هـ–١٩٩٥م.

(٢) أخرجه مسلم، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع برقم: (٥).

(٣) هذا الحديث هو: (أن الله خلق آدم على صورته) وهو حديث صحيح مخرج في الصحيحة (٨٦٠) نبه على ذلك الشيخ الألباني – رحمه الله– في "حاشية ظلال الجنَّة في تخريج السنة" (ص:٢١٣).

أَخْرَجَهُ ابن أَبِي عَاصِمٍ وَصَحَّحَهُ الألباني. (عَبْدُ الرَّزَّاقِ) بْنُ هَمامٍ الصَّنْعَانيُّ الْإِمَامُ الْحَافِظُ ، رَوَى عَنْه أَحْمَدُ وَيَحْيى بْنُ مَعِينٍ.(مَعْمَرٍ) بْنُ رَاشِدٍ الأزدي نَزِيلُ الْيَمَنِ. وَابن طَاوُوسٍ هُوَ عَبْدُ اللهِ بْنُ طَاوسٍ الْيَمَانِيّ ، قَالَ مَعْمَرٌ : كَانَ ابن طَاوسٍ مِنْ أعْلَمِ النَّاسِ بِالْعَرَبِيَّةِ ، وَأَبُوه طَاوُوسُ بْنُ كِيسَانِ الْيَمَانِيُّ الْجَنَدِيُّ ، إمَامُ عَلمٍ ، مِنْ أجِلَّةِ أَصحَابِ ابن عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا –. وَقَالَ الشَّيْخُ ابن بَازٍ – رَحِمَهُ اللهُ –: (هَذَا سَنَدٌ عَظِيمٌ)(٢). (أَنَّهُ رَأَى رَجُلاً انْتَفَضَ لَمَّا سَمِعَ حَدِيثًا عَنِ النَّبي ﷺ فِي الصِّفَاتِ اسْتِنْكَارًا لِذَلِكَ): وَهَذَا خِلافُ الْوَاجِبِ، فَعَلَى الْمُسْلِمِ إِذَا صَحَّ عندَهُ شَيْءٌ عَنِ اللهِ وَرَسُولِهِ أَنْ يُقِرَّ بِهِ وَيُصَدِّقَ، وَهَذِهِ طَرِيقَةُ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ.(فَقَالَ: مَا فَرَقُ هَؤُلَاءِ ؟) تُضْبَطُ عَلَى أَكْثَرِ مِنْ وجه، الأول: مَا فَرَقُ هَؤُلَاءِ، أَي: مَا خَوْفُ هَؤُلَاءِ أَيْ : مَا الَّذِي أَوجَبَ خَوْفَهُمْ ، فَلَيْسَ فِي النُّصُوصِ مَا يُوجِبُ الْخَوْفَ، الضَّبْطُ الثَّانِي: مَا فَرَّقَ هَؤُلَاءِ ، مَا: نَافِيَةٌ أَيْ : مَا فَرَّقَ هَؤُلَاءِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، فَاستَنْكَرُوا الْحَقَّ.

(يَجِدُونَ رِقَّةً عِنْدَ مُحْكَمِهِ) أَيْ: يَخْشَعُونَ عِنْدَ الْمُحْكَمِ، (وَيَهْلكُونَ عِنْدَ مُتَشَابِهِهِ ؟!) وَيهْلَكُونَ بِالْإِنْكارِ وَالشَّكِّ عِنْدَ وُرُودِ الْمُتَشَابِهِ. ووجهُ الدَّلالَةِ مِنَ الْأَثَرِ الْإِنْكارُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ شيئاً مِنَ الصِّفَاتِ

والمحكم لَهُ مَعْنيانِ: الأول: هُوَ الْمُتْقَنُ الَّذِي لَيْسَ فِيه خَلَلٌ، وَعَلَيه فَكِتَابُ اللهِ كُلُّه مُحْكَمٌ .

وَالثَّانِي : الْوَاضِحُ الَّذِي لَا يَخْفَى مَعْنَاهُ عَلَى سَامِعِهِ.

وَالْمُتَشَابِهُ أيضاً لَهُ مَعْنيانِ : الأول : يَشْبَهُ بَعْضُه بَعْضاً فِي جَوْدَتِهِ وَكَمالِهِ وَإِحْكَامِهِ.

وَالثَّانِي: هُوَ الَّذِي يَخْفَى مَعناهُ عَلَى سَامِعِهِ ، فَيَحْتَاجُ أَنْ يَنْظُرَ فِي غَيْرِهِ حَتَّى يَفْهَمَهُ ، فَعَلَى الْمَعْنَى الأول للكلمتين: فَالْقُرْآنُ كُلُّه مُحْكَمٌ ، وَهُوَ مُتَشَابِهٌ فِي ذَلِكَ الْإِحْكَامَ.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» (٢٠٨٩٥/٤٢٣/١١)، وصححه الشيخ الألباني –رحمه الله– في "حاشية ظلال الجنَّة في تخريج السنة" (ص:٢١٢).

(٢)شرح كتاب التَّوحيد، ص: ١١٦، الناشر: مكتبة الرشد –الرياض–، الطبعة الأولى: ١٤١٥هـ–١٩٩٥م.

قَالَ تَعَالَى ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾(١) و قَالَ تَعَالَى ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ﴾(٢)، وعلى المعْنَى الثَّاني لهما: فالقرآنُ منْهُ محكمٌ ومنْه مُتشابهٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾(٣). وَالتَّشَابُهُ نوعان: مُطْلَقٌ ونسْبِي ، فَالنِّسْبِيُّ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُهُ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ، وَالْمُطْلَقُ لَا يَعْلَمُهُ إِلّا اللهُ. قَالَ ابن كَثِيرٍ – رَحِمَهُ اللهُ –: (يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ فِي الْقُرْآنِ آياتٍ مُحْكَمَاتٍ أَيْ: بَيِّنَاتٍ وَاضِحَاتِ الدَّلالَةِ لَا التِبَاسَ فِيهَا عَلَى أحدٍ، وَمِنْهُ آياتٌ أُخَرُ فِيهَا اشْتِباهٌ فِي الدَّلالَةِ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ أَوْ بَعْضِهِمْ ، فَمَنْ رَدَّ مَا اشْتَبَهَ عَلَيهِ إِلَى الْوَاضِحِ مِنْهُ، وَحَكَّمَ مُحْكَمَهُ عَلَى مُتَشَابِهِهِ عِنْدَه، فَقَدْ اهْتَدَى، وَمنْ عَكَسَ انْعَكَسَ، وَلِهَذَا قَالَ:(هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ) الَّذِي يُرْجِعُ إِلَيه عِنْدَ الاشْتِباهِ)(٤).

إِشْكَالٌ لَوْ قِيلَ إِنَّ هَذَا الْأَثَرَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ آيات الصِّفَاتِ مِنَ الْمُتَشَابِهِ! الْجَوابُ أَنْ يُقَالَ إِنْ كُنْتَ تُرِيدُ التَّشابُهَ الَّذِي اخْتصَّ اللهُ بِعِلْمِهِ فَلَا وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ التَّشَابُهَ النِّسْبِي أَي بِالنِّسْبَةِ لِبَعْضِ النَّاسِ دُونَ بَعْضٍ فَنَعَمْ فَإِنَّ نُصُوصَ الصِّفَاتِ مُحْكَمَةُ الْمَعَانِي لَكِنْ لَا مَانِعَ أَنْ يشْتَبِهَ بعضُها عَلَى بَعْضِ النَّاسِ دون بعضٍ.

---

(١) سورة هود الآية: ١.

(٢) سورة الزمر الآية: ٢٣.

(٣) سورة آل عمران الآية: ٧.

(٤) تفسير ابن كثير، (١/٤٢٤).

– مَسْألةٌ– :

مِنَ النَّاسِ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّ آيات الصِّفَاتِ مِنَ الْمُتَشَابِهِ المطلق. وَالصَّوَابُ أَنَّ مَنْ زَعَمَ ذَلِكَ إِنْ أَرَادَ الْكَيْفَ فَنَعَمْ، بَلْ هِي مِنَ الْمُتَشَابِهِ الْمُطْلَقِ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ إِلّا اللهُ ، أَمَّا إِذَا أَرَادَ مَعْنى الصِّفَاتِ فَلَا بَلْ هِي مِنَ الْمُحْكَمِ. وَقَدْ ذَكَرَ شَيْخُ الْإِسْلامِ أَنَّ تَفْسِيرَ الْمُتَشَابِهِ بآيات الصِّفَاتِ مِنْ كَلامِ الْمُتَأَخرِينَ (١).

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [وَلَمَّا سَمِعَتْ قُرَيْشٌ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ أَنْكَرُوا ذَلِكَ فَأَنْزَلَ اللهُ فِيهِمْ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ﴾(٢) (٣)] رَوَاهُ ابن جَرِيرٍ عَنْ مُجَاهِدٍ وَمِثْلُه عَنْ قَتادَةَ بِإِسْنادٍ صَحِيحٍ ، وَلَكِنَّهُ مُرْسَلٌ.

وَقد ثبت إنكارهم اسم الرحمن كما في حديث مُكَاتَبَةِ الْحُدَيْبِيَّةِ مَعَ سُهَيْل بْنِ عَمْرٍو وقد رواه الشيخان وَتَقَدَّمَ الْكَلامُ عَلَى الْآيَةِ فِي أَولَ الْبَابِ بِمَا أَغْنى عَنْ تَكْرارِهِ.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٧/٤٢٣).

(٢) سورة الرعد الآية: ٣٠.

(٣) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٦/٤٤٥).

[٤١]

بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[١].

من هذا الباب شرع الإمام في الكلام عن ألفاظ تنقصُ التوحيدَ وتنافي كمالَهُ مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ: أَنَّ الْبَابَ السَّابِقَ فِي تَفَرُّدِ اللهِ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ، وَهَذَا الْبَابُ فِي تَفَرُّدِ اللهِ بِالنِّعَمِ، وَتَفَرُّدُهُ بكلٍ مِنْهُمَا بُرْهَانٌ عَلَى تَفَرُّدِهِ بِالْأُلُوهِيَّةِ. وَمَعْنَى الْآيَةِ الْمُتَرْجِمِ بِهَا: (يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا) أَيْ :يَعْرِفُونَ أَنَّ هَذِهِ النِّعَمَ مِنَ اللهِ بقلوبهم ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا بِنِسْبَتِهَا إِلَى غَيْرِ اللَّهِ (وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ) الْكُفْرُ تَبعٌ لِلْإِنْكارِ، فَإِنْ أنْكَرَ بِقَلْبِهِ وَلِسَانِهِ فَهُوَ كُفْرٌ أَكْبَرُ، وَإِنْ أَنْكَرَ بَلسَانِهِ وحصل له نوع التفاتٍ بِقَلْبِهِ إلى غير اللهِ فَهُوَ كُفْرٌ أَصْغَرُ مع علمه أنَّ الله هو المنعم حقيقة و الْغَالِبُ فِي كُفْرِ النِّعْمَةِ أَنَّهُ مِنَ باب الْكُفْرِ الأصْغَرِ؛لأَنَّه مُقَابلٌ لِلشُّكْرِ، وَفِي نِسْبَةِ النِّعَمِ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ تعلقٌ بِغَيْره، وَفِي الْآيَةِ اجْتِمَاعُ الضِّدَّيْنِ فِي الْقَلْبِ، وَهُمَا الْمَعْرِفَةُ وَالْإِنْكارُ، كَاجْتِمَاعِ الْفُسُوقِ وَالْإِيمَانِ كَمَا هُوَ مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [قَالَ مُجَاهِدٌ مَا مَعْنَاهُ "هُوَ قَوْلُ الرَّجُلِ هَذَا مَالِي، وَرِثْتُهُ عَنْ آبَائِي"[٢].]

مُجَاهِدٌ: هُوَ شَيْخُ التَّفْسِيرِ ابْنُ جَبْرٍ الْمَكِّيُّ مَوْلَى بَنِي مخزومٍ، قَالَ عَرَضْتُ التَّفْسِيرَ عَلَى ابن عَبَّاسٍ ثَلاثَ مِرَارٍ، أُوقِفُهُ عِنْدَ كُلِّ آيَةٍ وَأَسْالهُ فِيمَ نَزَلْتْ وَكَيْفَ مَعنَاهَا تَوَفَّاهُ اللَّهُ سَنَةَ ١٠٣هـ وَهُوَ سَاجِدٌ. وَهُنَاكَ فَرْقٌ بَيْنَ أَنْ يَقُولَ هَذَا القولَ تَبجُّحاً وَتَعَاظُماً وَهُوَ غَافِلٌ عَنِ الْمُنْعِمِ حَقِيقَةً، وَبَيْنَ أَنْ يَقُولَ ذَلِكَ بِقَصْدِ الْإِخْبَارِ عَنِ السَّبَبِ. كمن سئل من أين لك هذا المال؟ فأخبر بالسبب وكلام مجاهد من باب إضافة النعمة للسبب وهذا شرك خفي إذا التفت بقلبه للسبب وهو وراثته للمال عن آبائه قَالَ ابن الْقَيِّمِ – رَحِمَهُ اللهُ –:(لَمَّا أَضَافُوا النِّعْمَةَ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ أَنْكَرُوا نِعْمَةَ اللهِ بِنِسْبَتِهَا إِلَى غَيْرِه، وَكَوْنُهَا

---

(١) سورة النحل الآية: ٨٣.

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» بنحوه (١٧/٢٧٣).

مَوْرُوثَةً عَنِ الْآباءِ أَبْلَغُ فِي الْإِنْعامِ عَلَيهِمْ، إِذْ أَنَعَمَ بِهَا عَلَى آبائِهِمْ ثُمَّ وَرَّثَهَمْ إِيَّاهَا فَتَمَتَّعُوا هُمْ وَآباؤُهُمْ بِنِعَمِهِ)(١).

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [وَقَالَ عَوْنُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ "يَقُولُونَ لَوْلَا فُلَانٌ لَمْ يَكُنْ كَذَا"(٢).]

رَوَاهُ ابن جَرِيرٍ وَفِي إِسْنادِهِ ضَعْفٌ. لَكِنَّ أَهْلَ التَّفْسِيرِ لَا يَتَشَدَّدُونَ فِي صِحَّةِ الْإِسْنادِ لَا سِيمَا إِذَا كَانَ الْمَعْنَى صَحِيحاً (عَوْنٌ) هُوَ ابن عَبْدِ اللهِ بْنِ عَتَبَةَ بْنِ مَسْعُودٍ. قَالَ ابن الْقَيِّمِ – رَحِمَهُ اللهُ –:(هَذَا يَتَضَمَّنُ قَطْعَ إِضافَةِ النِّعْمَةِ عمَّن لوَلاهُ لَمْ تَكُنْ، وَإِضافَتُهَا إِلَى منْ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ ضراً وَلَا نَفْعاً، فَضْلاً عَنْ غَيْرِهِ، وَغَايَتُهُ أَنْ يَكُونَ جُزْءاً مِنْ أَجْزَاءِ السَّبَبِ، أَجْرَى اللَّهُ نِعْمَتَهُ عَلَى يَدِهِ، وَالسَّبَبُ لَا يَسْتَقِلُّ بالإيجاد، وَجَعْلُهُ سَبَبًا هُوَ مِنْ نِعَمِ اللهِ عَلَيهِ، فَهُوَ الْمُنْعِمُ بِتِلْكَ النِّعْمَةِ، وَهُوَ الْمُنْعِمُ بِمَا جعَلَهُ مِنْ أَسْبَابِهَا، فَالسَّبَبُ وَالْمُسَبَّبُ مِنْ إِنْعامِهِ، وَهُوَ تَعَالَى كَمَا أَنَّهُ قَدْ يُنْعِمُ بِذَلِكَ السَّبَبِ فَقَدْ يُنْعِمُ بِدونِهِ، وَلَا يكُون لَهُ أَثَرٌ، وَقَدْ يَسْلُبُهُ سَبَبِيَّتَهُ، وَقَدْ يَجْعَلُ لَهَا مُعارِضاً يُقَاوِمُهَا، وَقَدْ يُرَتِّبُ عَلَى السَّبَبِ ضِدَّ مقتضاهُ، فَهُوَ وَحْدَهُ الْمُنْعِمُ عَلَى الْحَقِيقَةِ)(٣).

قوله: (يقولون لَوْلَا) لِهَذِهِ اللَّفْظَةِ ثَلاثَةُ أَحْوالٍ: الأولى أَنْ تَقْتَرِنَ بِمَا لَيْسَ سَبَباً؛ كَأَنْ يَقُولَ: لَوْلَا الْوَلِيُّ الْفُلانِي مَا نَزَلَ الْمَطَرُ ، فَهَذَا شِرْكٌ أَكْبَرُ الثَّانِيَةُ : أَنْ يُضِيفَهَا إِلَى سَبَبٍ ثَابِتٍ شَرْعًا أَوْ قَدرًا وَيَنْسَى الْمُنْعِمَ حَقِيقَةً ولا يَسْتحْضِرُ ذكر الله فَهَذا شِرْكٌ خَفِيٌّ. الثَّالِثَةُ: أَنْ يُضِيفَهَا إِلَى سَبَبٍ ثَبَتَ شَرْعًا أَوْ

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل .

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» بنحوه (٢٧٣/١٧)، وفي إسناده ليث بن أبي سليم ضعيف، والأثر ذكره السيوطي في الدر المنثور (٩٤/٩) وزاد نسبته لسعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) شفاء العليل، ص: ٣٧

قَدرًا أَنَّهُ سَبَبٌ فَهَذَا جَائِزٌ بِشَرْطِ أَلا يَعْتَقِدَ أَنَّ السَّبَبَ مؤثِّرٌ دُونَ تَقْدِيرِ اللهِ، وأن يستحضر المنعِمَ حقيقةً، وَمِنْ ذَلِكَ: قَولُهُ ﷺ لَوْلَا أَنا كَمَا فِي قِصَّةِ أَبِي طَالِبٍ.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [وَقَالَ ابن قُتَيْبَةَ يَقُولُونَ "هَذَا بِشَفَاعَةِ آلِهَتِنَا"[(١)].]

ابن قُتَيْبَةَ هُوَ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ اللهِ بْنُ مُسْلِم بْنِ قُتَيْبَةَ الدينوري النَّحْوِيّ اللُّغَوِيّ، سَمِعَ الْحَدِيثَ مِنْ إسحقَ بْنِ راهويهِ. وكلام ابن قتيبة هذا من إضافة النعمة لمن ليس سببا فيكون مثالا للشرك الأكبر قَالَ ابن الْقَيِّمِ – رَحِمَهُ اللهُ –:(هَذَا يَتَضَمَّنُ الشِّرْكَ مَعَ إضافَةِ النِّعْمَةِ إِلَى غَيْرِ وَلِيِّهَا، فَالْآلِهَةُ الَّتِي تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ أَحْقَرُ وَأَذَلُّ مِنْ أَنْ تَشْفعَ عِنْدَ اللهِ، وَهِيَ مُحْضَرَةٌ فِي الْهَوانِ وَالْعذابِ مَعَ عابِدِيهَا، فَالشَّفَاعَةُ بِإِذْنِهِ مِنْ نعَمِهِ، فَهُوَ الْمُنْعِمُ بِالشَّفَاعَةِ، وَهُوَ الْمُنْعِمُ بِقَبُولِهَا، وَهُوَ الْمُنْعِمُ بتأهيلِ الْمَشْفُوعِ لَهُ، إِذْ لَيْسَ كُلُّ أَحدٍ أَهْلاً أَنْ يُشْفَعَ لَهُ، فَمَن المنعِمُ عَلَى الْحَقِيقَةِ سِواهُ! قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾[(٢)] فَالْعَبْدُ لَا خُرُوجَ لَهُ عَنْ نِعْمَةِ اللهِ، وَفَضْلِهِ وَمِنَّتِهِ وَإِحْسَانِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ لَا فِي الدُّنْيا وَلَا فِي الْآخِرَةِ، وَلِهَذَا ذَمَّ سُبْحَانَه وَتَعَالَى مَنْ آتَاهُ شيئاً مِنْ نعَمِهِ فَقَالَ: ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ ﴾[(٣)])[(٤)]

---

(١) ذكره الطبري غير معزو (٧/٦٣٠) ط:دار الكتب العلمية.

(٢) سورة النحل الآية: ٥٣.

(٣) سورة القصص الآية: ٧٨.

(٤) شفاء العليل، ٣٧

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[وَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ بَعْدَ حَدِيثِ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ ﷺ الَّذِي فِيهِ وَأَنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ(١) الْحَدِيثِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ "وَهَذَا كَثِيرٌ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، يَذُمُّ سُبْحَانَهُ مَنْ يُضِيفُ إِنْعَامَهُ إِلَى غَيْرِهِ وَيُشْرِكُ بِهِ"(٢)]

وَإِنَّمَا كَانَ هَذَا مَذْمُوماً ؛ لأَنَّهُ لَوْ أَتَى إِلَيكَ عَبْدُ فُلَانٍ بِهَدِيَّةٍ مِنْ سَيِّدِهِ، فَشَكَرْتَ الْعَبْدَ دُونَ السَّيِّدِ، كَانَ هَذَا سُوءَ أَدَبٍ مَعَ السَّيِّدِ، وَكُفْرَاناً لِنِعمَتِهِ، وَلأَنَّ الْخَالِقَ لِهَذِهِ الاسْبَابِ هُوَ اللهُ، وَلأَنَّ السَّبَبَ قَدْ يَكُونُ لَهُ مَانِعٌ يَمْنَعُ مِنْ تَأْثِيرِهِ وَبِهَذَا عُرِفَ بُطلَانِ إضافَةِ الشَّيْءِ إِلَى سَبَبِهِ دُونَ الْالتِفَاتِ إِلَى مَنْ جَعَلَهُ سَبَبًا جَلَّ وَعَلا. قَالَ ﷺ :(لَيسَتْ السَّنَةُ بِأَن لَا تُمْطَرُوا وَلَكِنَّ السَّنَةَ أَنْ تُمْطَرُوا وَتُمطَرُوا وَلَا تُنْبِتُ الْأَرْضُ شيئاً)(٣).فالمطرُ وإن كانَ سبباً لكنْ قد يسلبُ اللهُ المطرَ الأثرَ وهو الإنباتُ.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ هُوَ كَقَوْلِهِمْ :كَانَتِ الرِّيحُ طَيِّبَةً، وَالْمَلَّاحُ حَاذِقًا. وَنَحْوَ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ جَارٍ عَلَى السِنَةٍ كَثِيرَةٍ) أ.هـ] يقولُ هذا مَن ركبَ سفينةً وينسى قولَ اللهِ تعالى ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمۡ فِى ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾ يونس:٢٢ (حَاذِقًا) أَي: يُجِيدُ مِهْنَتَهُ، ومثله كانت السيارة حديثة والسائق حاذقا فالسائق قد يذهب حذقه أو نحو ذلك.

وَفِيهِ دِقَّةُ السَّلَفِ فِي الألفاظ وَعِنَايَتُهُمْ بِهَا، وَحِرْصُهُمْ عَلَى شُكْرِ اللهِ وَالاعْتِرَافُ لَهُ سُبْحَانَه وَتَعَالَى بِنِعَمِهِ، وَفِيه كَثْرَةُ كُفْرِ النِّعَمِ فِي النَّاسِ

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجمعة – باب قول الله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ (١٠٨٣)،ومسلم في كتاب الإيمان- باب بيان كفر من قال مطرنا بالنوء.

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٣٣/٨).

(٣) أخرجه مسلم،باب في سكنى المدينة وعمارتها قبل الساعة، برقم: (٢٩٠٤).

[٤٢]

بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[١].

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ: هَذَا الْبَابُ فِي شِرْكِ الألفاظ وَهُوَ أَعَمُّ مِنَ الْبَابِ السَّابِقِ، فَإِنَّ الْبَابَ السَّابِقَ فِي أَلفَاظٍ مُعَيَّنَةٍ. وهذا القدر من الآية نتيجة لمقدمات ستة قبلها هي الذي خلقكم والذين من قبلكم والذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ثم ذكر هذه النتيجة قَالَ ابن الْقَيِّمِ – رَحِمَهُ اللهُ – فِي مَعْنى هَذِهِ الْآيَةِ :(فَتَأْملْ هَذِهِ النَّتِيجَةَ وَشِدَّةَ لُزُومِهَا لِتِلْكَ الْمُقَدِّمَاتِ قبلَهَا، وَظَفْرَ الْعَقْلِ بِهَا بِأَوَّلِ وَهْلَةٍ، وَخُلُوصِهَا مِنْ كُلِّ شُبْهَةٍ وَرِيبَةٍ وَقَادِحٍ، إِذَا كَانَ اللهُ وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي فَعَلَ هَذِهِ الأَفْعَالَ فَكَيْفَ تَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا وَقَدْ عَلِمْتُم أَنَّهُ لَا نِدَّ لَهُ يُشَارِكُهُ فِي فِعْلِهِ)[٢]، وقد ذكرَ ابنُ كثيرٍ[٣] فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ حَدِيثاً يَزِيدُ الْمَعْنَى وُضُوحاً وَهُوَ حَدِيثُ الْحَارِثِ الأشعري عن النبيِّ ﷺ :(إِنَّ اللهَ أَمَرَ يَحْيى بْنَ زَكَرِيا بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أولَاهُنَّ: أَنْ تَعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شيئاً فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ اشْتَرَى عَبْدًا مِنْ خَالِصِ مَالِهِ بِذَهَبٍ أَوْ وَرِقٍ، فَجَعَلَ يَعْمَلُ وَيُؤَدِّي غَلَّتَهُ إِلَى غَيْرِ سَيِّدِهِ فَأَيُّكُمْ يسرُّهُ أَنْ يَكُونَ عَبْدُهُ كَذَلِكَ ، وَإِنَّ اللهَ خَلَقَكُمْ وَرَزَقَكُمْ فَاعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شيئاً)[٤].وَفِي الْآيَةِ : أَنَّ الْإِقْرَارَ بِالرُّبُوبِيَّةِ لَا يَكْفِي فِي الْإِسْلَامِ إِلّا بَعْدَ الْإِقْرَارِ بِالْأُلُوهِيَّةِ، وَفِيهَا : الْاسْتِدْلالُ بالآيات الَّتِي نَزَلَتْ فِي الشِّرْكِ الْأَكْبَرِ عَلَى الشِّرْكِ الأَصْغَرِ.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما فِي الْآيَةِ "الْأَنْدَادُ هُوَ الشِّرْكُ، أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ عَلَى صَفَاةٍ سَوْدَاءَ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ، وَهُوَ أَنْ تَقُولَ وَاللَّهِ، وَحَيَاتِكَ يَا فُلَانُ، وَحَيَاتِي،

(١) سورة البقرة الآية: ٢٢.

(٢) بدائع الفوائد، ٤/٩٤٥.

(٣) تفسير ابن كثير، ١/٧٧.

(٤) أخرجه أحمد برقم: (١٧٢٠٩)، وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع برقم: (١٧٢٤).

وَتَقُولَ: لَوْلَا كُلَيْبَةُ هَذَا لاتَانَا اللُّصُوصُ، وَلَوْلَا الْبَطُّ فِي الدَّارِ، لاتَى اللُّصُوصُ، وَقَوْلُ الرَّجُلِ لِصَاحِبِهِ مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ، وَقَوْلِ الرَّجُلِ لَوْلَا اللَّهُ وَفُلَانٌ، لَا تَجْعَلْ فِيهَا فُلانًا، هَذَا كُلُّهُ بِهِ شِرْكٌ"(١) رَوَاهُ ابن أَبِي حَاتِمٍ.]

مَعْلُومٌ أَنَّ تَفْسِيرَ الصَّحَابِي لَهُ حُكْمُ الرَّفْعِ لَا سِيمَا وَأَنَّهُ لَا يُقَالُ مِنْ قِبَلِ الرَّأْيِ قوله الأنداد هو الشرك هذا تفسير بالمعنى فإن الأنداد جمع ندٍ والنِدُّ هو المثيل وتعالى الله عن النديد لكن المشرك يعتقد بقلبه أنَّ لله أندادا وَقَدْ ضَرَبَ ابن عَبَّاسٍ مَثَلاً لِخَفَاءِ الشِّرْكِ بِمَا هُوَ أخفى شيءٍ ، وَهُوَ أَثَرُ النَّمْلِ فَكَيْفَ إِذَا كَانَ عَلَى صَفَاةٍ ، وَكَيْفَ إِذَا كَانَتْ سَوْداءَ، وَكَيْفَ إِذَا كَانَتْ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى شِدَّةِ خَفَائِهِ، وَسُمِّيَ خفيَا؛ لَأنَّهُ يَقِلُّ من يَتَنَبَّهْ لَهُ، وَقَدْ جَاءَ كَلَامُ ابن عَبَّاسٍ هَذَا مَرْفُوعَا مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسى قَالَ: خَطَبَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ فَقَالَ :(يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا هَذَا الشِّرْكَ فَإِنَّهُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ، فَقَالَ لَهُ مَنْ شَاءَ اللهُ أَنْ يَقُولَ وَكَيْفَ نَتَّقِيهِ وَهُوَ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ يا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ قَولُو : اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ نُشْرِكَ بِكَ شيئاً نَعْلَمُهُ ونستغفرك لِما لَا نَعْلَمُهُ)(٢).

وَالشِّرْكُ الخَفِيُّ نَوْعَانِ :

١- شِرْكُ الْمَقَاصِدِ وَالنِّيَّاتِ.

٢- وَشِرْكُ الألفاظ – وَهُوَ مَقْصُودُ هَذَا الْبَابِ.-

ثم ضرب أمثلة لشرك الألفاظ فقال : (وَهُوَ أَنْ تَقُولَ وَاللَّهِ، وَحَيَاتِكَ يَا فُلَانُ، وَحَيَاتِي) حلف في هذه الجملة بالله وبحياة المخاطب وبحياة نفسه و الحلف بغير الله شرك أصغر وسيأتي الكلام عليه وقوله (لَوْلَا

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥٨/١)، و الأثر حسنه الشيخ مقبل الوادعي –رحمه الله– في تحقيقه لتفسير ابن كثير (١١٤/١)، وجود إسناده الشيخ سليمان آل الشيخ في التيسير (ص:٤٤٢)، وضعفه الألباني في تحقيق كتاب الإيمان لأبي عبيد (ص: ٨٧).

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط برقم: (٣٤٧٩)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم: (٣٦).

كُلَيْبَةُ هَذَا: لاتَانَا اللُّصُوصُ) الْمُرَادُ أَنَّ الْكُلِيبَةَ إِذَا رَأَتْ السُّرَّاقَ نبحتْهُمْ فَاسْتَيْقَظَ أَهْلُهَا، وَرُبَّمَا امْتَنَعُوا مِنَ الْإِتْيانِ خَوْفًا مِنْهَا. وَرَوَى ابن أَبِي الدُّنيا عَنِ ابن عَبَّاسٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا –:(إِنَّ أحَدَكُمْ لَيُشْرِكُ حَتَّى يُشْرِكَ بِكَلْبِهِ يَقُولُ: لوَلَاهُ لسُرِقْنَا اللَّيْلَةَ)[1] وَالْوَاجِبُ نِسْبَةُ الْفَضْلِ وَالْحِفْظِ إِلَى اللهِ، فَهُوَ الَّذِي يَحْفَظُ عِبَادَهُ، وَإِنَّمَا هَذِهِ الاشْيَاءُ أَسْبَابٌ خَلَقَهَا سُبْحَانَه لِيَحْفَظَنَا بِهَا وَلَوْ شَاءَ لَحَفِظَنَا بِدونِهَا فلا نتعلق بها ونترك التعلق به

قَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِالَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴾[2] وَقَدْ سَبَقَ الْكَلامُ فِي لَوْلَا . قَوْلُهُ :(لَا تَجْعَلْ فِيهَا فُلاناً) بِمَجْمُوعِ النُّصُوصِ يَظْهَرُ أَنَّ هُنَاكَ دَرَجَتَيْنِ جائزتين فِي هذهِ اللفظةِ الأولى: الدَرَجَةُ الكَامِلَةُ: أَن تَقُولَ لَوْلَا اللهُ مَا حَصَلَ كَذَا.

الثَّانية: الدَرَجَةُ الجَائِزَةُ أَن تَقُولَ: لَوْلَا اللهُ ثُمَّ فُلَانٌ.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ»[3] رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ، وَصَحَّحَهُ الْحَاكِمُ.]

قوله: (عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ) قَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ اللهِ صاحب كتاب تيسير العزيز الحميد هَكَذَا وَقَعَ فِي الْكِتَابِ وَصَوَابُهُ عَنِ ابن عُمَرَ رضي الله عنهما .(مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ) الْحَلْفُ : هُوَ تَأْكِيدُ الْكَلامِ بِمُعَظَّمٍ بَيْنَ الْمُتَكَلِّمِ وَالْمُخَاطِبِ قَال أَبُو عُمَرَ ابن عَبْدِ الْبَرِّ: (لَا يَنْبَغِي لأحدٍ أَنْ يَحْلِفَ بِغَيْرِ اللهِ لَا بِهَذِهِ الأَقْسَامِ وَلَا غَيْرِهَا؛ لِإِجْمَاعِ الْعُلَمَاءِ أَنَّ مَنْ وَجَبَتْ لَهُ يَمِينٌ عَلَى آخَر فِي حَقٍّ قِبَلَهُ أَنَّهُ لَا يَحْلِفُ لَهُ إِلَّا

(١) في كتاب الصمت برقم ٣٥٧.

(٢) سورة الأنبياء الآية: ٤٢.

(٣)أخرجه أحمد في «مسنده» (٢/١٢٥)، وأبوداود في كتاب الأيمان والنذور- باب في كراهية الحلف بالآباء (٣٢٥١)،والترمذي في كتاب الأيمان والنذور- باب ماجاء في كراهية الحلف بغير الله (١٥٣٥)،والحاكم في «المستدرك على الصحيحين» (١/٦٥)،والبيهقي في«السنن الكبرى» (١٠/٢٩)،وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٩٥٢).

بِاللّه)[١] بَلْ هُوَ شِرْكٌ أصغَرُ وَقَدْ يَصِلُ إِلَى الْأَكْبَرِ فِي بَعْضِ أَحْوالِهِ ، كَأَنْ يَقُومَ بِنَفْسِ الحالفِ تَعْظِيمٌ وَخَوْفٌ مِنَ المحلوفِ بِهِ لَا يَلِيقُ إِلّا بِاللهِ. كَأَنْ يَقْدُمَ على الْحَلْفِ بِاللهِ كَاذِبًا وَلَا يَجْرأُ عَلَى الْحَلْفِ بِغَيْرِ اللَّهِ كَاذِباً خوفاً مِنَ انْتِقامِ الْآلِهَةِ الْبَاطِلَةِ (فَقَدْ كفرَ أَوْ أَشْرَكَ) أَوْ: بِمَعْنَى الواو وَهُمَا بِمَعْنَى وَاحِدٍ وقيل: هذا التردد من الراوي وقد روي فقد أشرك فقط وروي قد كفر وروي بالواو فقد كفر وأشرك، لَكِنَّ الْكُفْرَ أَعَمُّ مِنَ الشِّرْكِ ، وَالْإِشْراكُ إِيمَانٌ بِأَكْثَرَ مِنْ إلَهٍ. وَقَدْ قَالَ النَّبي ﷺ: (مَنْ حلَفَ فَقَالَ فِي حَلِفِهِ وَاللَّاتِ وَالْعُزَّى فَلْيَقُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) [٢].

إشْكالٌ وجَوابُهُ :

جَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ قَوْلُ النَّبي عَلَيه الصَّلاةُ وَالسّلامُ لِلرَّجُلِ الَّذِي سَأل عَنْ أَرْكَانِ الْإِسْلامِ :(أَفْلَحَ وَأَبِيه إِنْ صَدَقَ) [٣]،وَجَاءَ فِي الصَّدَقَةِ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ :(أَما وَأَبِيكَ لِتُنَبَّأَنَّهُ) [٤] الْجَوَابُ: عَلَى هَذه الْأَحَادِيثِ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنْ وُجُوهٍ أَحْسنُهَا أَرْبَعَةً:

الأول: أَنَّهَا شَاذَّةٌ، فَقَدْ جَاءَتْ الرِّوايَةُ الْمَحْفُوظَةُ:(أَفْلَحَ – وَاللهِ – إِنْ صَدَقَ). قَالَ ابن عَبْدِ الْبَرّ فِي التَّمْهِيدِ [٥] مُجِيباً عَنْ هذهِ الزّيادَةِ :(هَذِهِ لَفْظَةٌ غَيْرُ مَحْفُوظَةٍ فِي هَذَا الْحَدِيثِ مِنْ حَديثِ مَنْ يَحْتَجُّ بِهِ، وَقَدْ رَوَى هَذَا الْحَدِيثَ مَالِكٌ وَغَيْرُه عَنْ أَبِي سُهَيْلٍ ؛ لَمْ يَقُولُوا ذَلِكَ فِيهِ. وَقَدْ رُوِيَ عَنْ إسماعيلَ بْنِ جَعْفَرٍ هَذَا الْحَدِيثَ وَفِيهِ :" أَفْلَحُ – وَاللهِ !– إِنْ صَدَقَ " أَوْ:" دَخَلَ الْجَنَّةَ – وَاللهِ !– إِنْ صَدَقَ "، وَهَذَا أَوْلَى مِنْ رِوايَةِ مَنْ رَوَى :" وَأَبِيهِ "؛ لَأَنَّهَا لَفْظَةٌ مُنْكَرَةٌ ، تَرُدهَا الْآثَارُ الصِّحاحُ ".

---

(١) الاستذكار ٢٠٣/٥.

(٢) أخرجه البخاري، بَاب (أَفَرَأَيْتُمْ اللَّاتَ وَالْعُزَّى) برقم: (٤٨٦٠).

(٣) أخرجه مسلم، باب بيان الصلوات التي هي أحد أركان الإسلام، برقم: (١١).

(٤) أخرجه مسلم، باب بيان أن أفضل الصدقة صدقة الصحيح الشحيح برقم: (١٠٣٢).

(٥) التمهيد ٣٦٧/١٤.

أما رواية :(أَمَا وَأَبِيكَ لِتُنَبّأَنَّهُ) فهذه الرواية منكرة. قال الألباني وهذا من أوهام شريك عندي، والصواب رواية الأسود إن كانت محفوظة عن عمارة في هذه الجملة؛ لأنها لم ترد عند الثقات كما يأتي. وقال الحافظ في "الفتح" (١٠/ ٣٢٩-٣٣٠) عقبها: "فلعلها تصحفت"! وأقول:بل الأقرب أنها من شريك نفسه - وهو ابن عبد الله القاضي -؛ فإنه سيىء الحفظ، فاضطرب في ضبط هذه الجملة، فقال مرة: "والله". وأخرى:وأبيه. (١)

الثَّانِي : أَنَّه تَصْحِيفٌ لَا سيَّما وَكَانُوا لَا يَنْقُطُونَ. فَإِنَّهُمَا يَشْتَبِهَانِ، وَهَذَا لَا يَتَعَارَضُ مَعَ الْوَجْهِ السَّابِقِ.

الثَّالِثُ : أَنَّ ذَلِكَ كَانَ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ ثُمَّ نُهِيَ عَنْهُ. فإنَّ النبيَّ ﷺ قد أخَّر النهي عن بعض دقائق المسائل كما في حديث الطفيل " قال: وَأَنَّكُمْ قُلْتُمْ كَلِمَةً يَمْنَعُنِي كَذَا وَكَذَا أَنْ أَنْهَاكُمْ عَنْهَا "

الرَّابِعُ : أَنَّهَا كَلِمَةٌ الْمُرَادُ لَفْظُهَا دُونَ مَعْنَاها.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [وَقَالَ ابن مَسْعُودٍ ﷺ "لأنْ أَحْلِفَ بِاللَّهِ كَاذِبًا أَحبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَحْلِفَ بِغَيْرِهِ صَادِقًا" (٢)]

الْحَلْفُ بِاللهِ كَاذِباً مُحَرَّمٌ مِنْ وَجْهَيْنِ: الأول: أَنَّ الْكَذِبَ مُحَرَّمٌ وَلَوْ لَمْ يُقَارِنْهُ حَلْفٌ، وَالثَّانِي اقْتِرانُهُ بِالْحَلْفِ فَصَارَ حَرَاماً فَوْقَ حَرامٍ. أَمَّا الْحَلْفُ بِغَيْرِ اللَّهِ فَهُوَ مُحَرَّمٌ مِنْ جِهَةٍ وَاحِدَةٍ لَكِنَّهُ شِرْكٌ أَصْغرُ، وَفِي هَذَا الْأَثَرِ أَنَّ الشِّرْكَ الأصْغَرَ أَعْظَمُ مِنَ الْكبائرِ، وَفِيه شَاهِدٌ لِلْقَاعِدَةِ الْمَشْهُورَةِ وَهِي: ارْتِكَابُ أَدْنَى الْمفْسدَتَيْن بِتَفْوِيتِ أَعْلَاهُمَا.

---

(١) سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، ط١:دار المعارف –الرياض–، (١٠/ ٧٦٨).

(٢) أخرجه عبد الرزاق برقم: (١٥٩٢٩)، وابن أبي شيبة برقم: (١٢٢٧٩)، وصححه الألباني في الإرواء برقم: (٢٥٦٢) وقال: " صحيحٌ على شرط الشيخين".

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [وَعَنْ حُذَيْفَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَقُولُوا مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ فُلَانٌ وَلَكِنْ قُولُوا مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ شَاءَ فُلَانٌ»(١) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ.]

قوله: (لَا تَقُولُوا مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ فُلَانٌ) لَا: نَاهِيَةٌ، وَالنَّهْيُ لِلتَّحْرِيمِ، بَلْ هُوَ شِرْكٌ أَصْغَرُ. وَقَوْلُهُ:(وَشَاءَ فُلَانٌ)؛ لأَنَّ الواوَ لِمُطْلَقِ الجَمْعِ فَقَدْ تَقْتَضِي التَّسْوِيَةَ (وَلَكِنْ قُولُوا مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ شَاءَ فُلَانٌ) إذا كان فلانٌ سبباً لأَنَّ (ثُمَّ) تَقْتَضِي التَّرْتِيبَ مَعَ التَّرَاخِي، وَالأَحْسَنُ أَنْ تَقُولَ: مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ ، وَفِي الحَدِيثِ مِنَ الْفَوَائِدِ: إِثْبَاتُ الْمَشِيئَةِ لِلْمَخْلُوقِ خِلافًا لِلْجَبْرِيَّةِ، وَفِيه كَمَالُ الشَّرِيعَةِ، حَيْثُ لَمْ تَسدَّ بَابًا عَلَى النَّاسِ إِلَّا فَتَحَتْ بابا أَحْسَنَ مِنْه، وَفِي هَذَا رَفْعُ الحَرَجِ عَنِ النَّاسِ.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [وَجَاءَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ: "أَنَّهُ يَكْرَهُ أَعُوذُ بِاللَّهِ وَبِكَ، وَيَجُوزُ أَنْ يَقُولَ بِاللَّهِ ثُمَّ بِكَ" قَالَ "وَيَقُولُ لَوْلَا اللَّهُ ثُمَّ فُلَانٌ، وَلَا تَقُولُوا لَوْلَا اللَّهُ وَفُلَانٌ"(٢)]

قوله: "أنَّه يكرهُ أن يقول " الكراهة عند المتقدمين لا تنافي التحريم لأنَّ هذه الكلمة من شرك الألفاظ وَالْاسْتِعاذَةُ هنا المرادُ بها الاستعاذة بِالْمَخْلُوقِ في ما يَقْدِرُ عَلَيه الْمَخْلُوق.وتقدم الكلام على " لولا " .

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/٣٨٤، ٣٩٤)،وأبوداود في كتاب الأدب- باب لايقال خبثت نفسي (٤٩٨٠)، وانظر الصحيحة برقم: (١٣٧).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» (١١/٢٧/١٩٨١١) بإسناد فيه مغيرة بن مقسم وكان يدلس عن إبراهيم .

[٤٣]

بَابُ مَا جَاءَ فِي مَنْ لَمْ يَقْنَعْ بِالْحَلِفِ بِاللَّهِ

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ: ظاهِرَةٌ، وَهِي أَنَّ الْبَابَ السَّابِقَ مِنَ الْغَايَاتِ وَهَذَا مِنَ الْوَسَائِلِ، إذ أَنَّ عَدَمَ الْقَنَاعَةِ بِالْحَلْفِ بِاللهِ ذَرِيعَةٌ لِلْحَلْفِ بِغَيْرِه.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [عن ابنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:«لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، مَنْ حَلَفَ بِاللَّهِ فَلْيَصْدُقْ، وَمَنْ حُلِفَ لَهُ بِاللَّهِ فَلْيَرْضَ، وَمَنْ لَمْ يَرْضَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ»(١) رَوَاهُ ابن مَاجَهْ بِسَنَدٍ حَسَنٍ.]

قوله: (لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ) لَا: نَاهِيَةٌ، وَالنَّهْي لِلتَّحْرِيمِ،– وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّهُ شِرْكٌ أصْغَرُ –. وذكر الآباء لا مفهوم لأنه هو الغالب عندهم فلا يجوز الحلف بغير الله مطلقا كما في الحديث «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ» (مَنْ حَلَفَ بِاللَّهِ فَلْيَصْدُقْ) فيه: وُجُوبُ الصِّدْقِ عَلَى مَنْ حَلَفَ بِاللهِ وَهُوَ وَاجِبٌ وَإِنْ لَمْ يَحْلِفْ، فَإِذَا حلفَ صَارَ أَوْجَب.قوله: (وَمَنْ حُلِفَ لَهُ بِاللَّهِ، فَلْيَرْضَ) الرِّضا بالحلف بالله وَاجِبٌ فِي حالتين: "الأولى إذَا كَانَ ظاهِرُ الْحالفِ الصِّدق، وَالدَّليلُ عَلَى التَّقْييدِ أَنَّ النَّبي ﷺ أَمَرَ الحالفَ أَولاً أَنْ يَصْدُقَ، ثُمَّ أَمَرَ المحلوفَ لَهُ بِالرِّضا. وَمِن الْأدلةِ عَلَى تَقْييدِ وُجُوبِ الرِّضا بِمَنْ ظاهِرُهُ الصِّدْقِ حَديثُ الْقَسامَةِ وَفِيه أَنَّ أَوْلِيَاءَ الدَّمِ حين وجدوا قتيلهم فِي قَلِيبٍ مِنْ قُلُبِ خَيْبَرَ وَلَا نَدْرِي مَنْ قَتَلَهُ , وَنَحْنُ نَظُنُّ أَنَّهُ يَهُودُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَتَحْلِفُ لَكُمْ يَهُودُ فَتُبْرِئُكُمْ خَمْسُونَ رَجُلًا مِنْهُمْ عَلَى خَمْسِينَ يَمِينًا أَنَّهُمْ بَرَاءٌ مِنْ قَتْلِ صَاحِبِكُمْ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ , (كَيْفَ نَرْضَى بِأَيْمَانِ يَهُودُ)(٢) فأقرَّهُمْ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم عَلَى عَدَمِ رِضاهُمْ بِأَيْمَانِ؛الْيَهُودِ لأَنَّ ظاهِرَهُمْ الْكَذِبُ. وَالثانية يَجِبُ قَبُولُ الحُكْمِ بِيَمِينِ مَنْ كَانَ ظاهِرُهُ الْكَذِبُ فِي الْخُصُوماتِ أَمامَ الْقَضاءِ، وَذَلِكَ لِتَفْرِيطِ المحلوفِ لَهُ فِي إقامَةِ الْبَيِّنَةِ،لأن هذا حكم الله

---

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب الكفارات– باب من حلف له بالله فليرض (٢١٠١)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه».

(٢)أخرجه عبد الرزاق في مصنفه برقم: (١٨٢٦٠).

وَحقُّهُ ثَابِتٌ فِي الْآخِرَةِ أَمَّا مَنْ لَمْ يَكُنْ ظاهِرُهُ الصِّدْق فَيُسْتَحَبُّ أَنْ يُصَدّق؛ وَذلِكَ لِحَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ عَن النَّبِي ﷺ قالَ: (رَأَى عِيسَى ابْنُ مَرْيَم رَجُلاً يَسْرِقُ فَقَالَ لَهُ: أَسَرَقْتَ؟ قالَ: كَلَّا وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَقَالَ عِيسَى: آمَنْتُ بِاللَّهِ وَكَذَّبْتُ عَيْنِي)[١].قَالَ ابن الْقَيِّم – رَحِمَهُ اللهُ –:(إِنَّ اللهَ تَعَالَى كَانَ فِي قَلْبِ عِيسَى عَلَيه السّلامُ أَجَلَّ مِنْ أَنْ يَحْلِفَ بِهِ أَحَدٌ كَاذِباً)[٢].فلما حلف له بالله عاد بالتهمة على عينه فلعل الرجل أخذ حقا هو له وعيسى عليه وعلة نبينا الصلاة والسلام لم يكن يدري

(وَمَنْ لَمْ يَرْضَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ) فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ مِنَ الْفَوَائِدِ: أَنَّ عَدَمَ الرِّضا بِالْحَلْفِ بِاللهِ لِمَنْ ظاهِرُهُ الصِّدْقُ مِنَ الْكبائرِ. و أَنَّ مَنْ بُذِلَتْ لَهُ الْيَمِينُ فَلَمْ يَرْضَ إِلّا بِالْحَلْفِ بالطَّلَاقِ وَنَحْوِهِ فَهُوَ دَاخِلٌ فِي هَذَا الْوَعِيدِ؛ لِسُوءِ أَدَبِهِ وَضَعْفِ تَعْظِيمِهِ لِرَبِّهِ. وَفِي الْحَدِيث دَعْوَةٌ إِلَى التَّوَاضُعِ وَإِحْسَانِ الظَّنّ بِالنَّاسِ وَالْعَمَلِ عَلَى أَسْبَابِ اجْتِمَاعِ الْقُلوبِ، وَفِيه سَمَاحَةُ هَذِهِ الشَّرِيعَةِ وَأَنَّهَا إِذَا حَرَّمَتْ شيئاً حَرَّمَتْ أَسْبَابَهُ.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، برقم: (٣٤٤٤).ومسلم في صحيحه برقم (٢٣٦٨)

(٢) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، ١١٥/٢.

[٤٤]

بَابُ قَوْلِ:مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ : ظاهِرَةٌ ، وَهِي أَنَّ هَذِهِ اللَّفْظَةَ مِنْ شِرْكِ الألفاظ.

–قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [عَنْ قُتَيْلَةَ ﵂ أَنَّ يَهُودِيًّا أَتَى النَّبِي ﷺ فَقَالَ إِنَّكُمْ تُشْرِكُونَ، تَقُولُونَ مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ، وَتَقُولُونَ وَالْكَعْبَةِ فَأَمَرَهُمُ النَّبِي ﷺ إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَحْلِفُوا أَنْ يَقُولُوا وَرَبِّ الْكَعْبَةِ وَأَنْ يَقُولُوا مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ شِئْتَ (١) رَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَصَحَّحَهُ.]

قوله: (عن قُتَيْلَةَ) بِنْتُ صَيْفِي صَحَابِيَّةٌ مُهَاجِرَةٌ لَيْسَ لَهَا فِي سُنَنِ النَّسَائِيِّ غَيْرُ هَذَا الْحَدِيثِ.

وَفِي الْحَدِيثِ مِنَ الْفَوَائِدِ:

١– أَنَّ مَعْرِفَةَ الْحَقِّ لَا تَسْتَلْزِمُ الْإِيمَانَ بِهِ فَفِيه رَدٌّ عَلَى غُلاةِ الْمُرْجِئَةِ الَّذِينَ جَعَلُوا الْإِيمَانَ هُوَ الْمَعْرِفَةَ

٢– وَفِيه قَبُولُ الْحَقِّ مِمَّنْ جَاءَ بِهِ. ٣– وَفِيه أَنَّ الْحَلْفَ بِغَيْرِ اللَّهِ شِرْكٌ أَصْغَرُ.

٤–وَفِيه أَنَّ قَوْلَ:(مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ) شِرْكٌ أَصْغَرُ؛ لأن الواو لمطلق الجمع فقد تقتضي المساواة بين الله وبين العبد . ٥– وَفِيه إِثْبَاتُ الْمَشِيئَةِ لِلْمَخْلُوقِ.

٦–وَفِيه إِرْشَادُ الدَّاعِيَةِ إِلَى بَدِيلٍ شَرْعِيٍّ عَمَّا يَنْهَى عَنْه؛ لِرَفْعِ الْحَرَجِ إِنْ وُجِد.

٧–وَفِيه فَهْمُ الْيَهُودِ لِلشِّرْكِ الأَصْغَرِ .

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [وَلَهُ أَيْضًا عن ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ رَجُلاً قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: (مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ، فَقَالَ "أَجَعَلْتَنِي لِلَّهِ نِدًّا؟ بَلْ! مَا شَاءَ اللَّهُ وَحْدَهُ)(٢).]

(١) أخرجه النسائي في كتاب الأيمان والنذور– باب الحلف بالكعبة (٣٧٧٣)، وصححه الألباني الصحيحة برقم: (١٣٦).

(٢) أخرجه النسائي في «عمل اليوم والليلة» (٩٨٨)، وصححه الألباني في الصحيحة برقم: (١٣٩).

ولفظ النسائي عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ رَجُلًا، أَتَى النَّبِيَّ ﷺ: فَكَلَّمَهُ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ، فَقَالَ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: " أَجَعَلْتَنِي لِلَّهِ عَدْلًا؟ قُلْ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَحْدَهُ "وَفِي الْحَدِيثِ إِنْكَارُ الْمُنْكَرِ لَا سيّما إِنْ كَانَ مِمَّا لَهُ تَعَلُّقٌ بِالْاعْتِقَادِ، وَفِي الْحَدِيثِ السَّابِقِ قَالَ:(قُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ شَاءَ فُلَانٌ) وَهُنَا قَالَ:(مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ) فَالأولى جَائِزَةٌ وَالثَّانِيَةُ أَكْمَلُ وَأَفْضَلُ، وَقَدْ تَتَعَيَّنُ فِي ما لَيْسَ لِلْعَبْدِ فِيه مَشِيئَةٌ. وَيَلْحَقُ بِهَذَا اللَّفْظِ : مِنْ بَرَكَاتِ اللهِ وبركاتك ومثله مالي إلا الله وأنت. وفي الحديث حرص النبي صلى الله عليه وسلم على حماية جناب التوحيد

قَالَ الإِمَامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [وَلِابْنِ مَاجَهْ عَنِ الطُّفَيْلِ ﷺ أَخِي عَائِشَةَ لِأُمِّهَا: قَالَ: «رَأَيْتُ كَأَنِّي أَتَيْتُ عَلَى نَفَرٍ مِنَ الْيَهُودِ: قُلْتُ: إِنَّكُمْ لأَنْتُمُ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ قَالُوا: وَأَنْتُمْ لأَنْتُمُ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ ثُمَّ مَرَرْتُ بِنَفَرٍ مِنَ النَّصَارَى فَقُلْتُ: إِنَّكُمْ لأَنْتُمُ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ قَالُوا: وَإِنَّكُمْ لأَنْتُمُ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ فَلَمَّا أَصْبَحْتُ أَخْبَرْتُ بِهَا مَنْ أَخْبَرْتُ، ثُمَّ أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ، قَالَ: "هَلْ أَخْبَرْتَ بِهَا أَحَدًا؟" قُلْتُ: نَعَمْ قَالَ: فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: "أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّ طُفَيْلاً رَأَى رُؤْيَا أَخْبَرَ بِهَا مَنْ أَخْبَرَ مِنْكُمْ وَأَنَّكُمْ قُلْتُمْ كَلِمَةً يَمْنَعُنِي كَذَا وَكَذَا أَنْ أَنْهَاكُمْ عَنْهَا: فَلَا تَقُولُوا مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ، وَلَكِنْ قُولُوا مَا شَاءَ اللَّهُ وَحْدَهُ»[(١)].

قوله: (الطُّفَيْلِ) هُوَ ابن الْحَارِثِ وَقِيلَ : ابن عَبْدِ اللهِ بْنِ سخبرة ، قَدِمَ أَبُوه مَكَّةَ وَحَالَفَ أَبَا بِكْرٍ، فَمَاتَ وَتَزَوَّجَ أَبُو بَكْرٍ أُمَّ رُومانِ زوجته، فَوَلَدَتْ لَهُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ وَعَائِشَةَ. قَوْلُهُ: (رَأَيْتُ) أَيْ: فِي الْمَنَامِ، (نفرٍ مِنَ الْيَهُودِ) النَّفَرُ اسم جَمْعٍ يَقَعُ عَلَى الْجَمَاعَةِ مَا بَيْنَ الثَّلَاثَةِ إِلَى الْعَشْرَةِ، (إِنَّكُمْ لأَنْتُمُ الْقَوْمُ) هَذَا

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/٧٢) واللفظ له، وابن ماجه في كتاب الكفارات- باب النهي أن يقال ما شاء الله وشئت (٢١١٨)، وقال شعيب الأرناؤوط: «حديث صحيح» وصححه الشيخ الألباني في الصحيحة برقم: (١٣٨)، والشيخ مقبل الوادعي في الصحيح المسند (١/٤٤٥).

الإسلوب فِيه تَعْظِيمُ الْمُخَاطَبِ، (لَوْلَا أَنَّكُمْ) لَوْلَا: حَرْفُ امْتِناعٍ لِوُجُودٍ، فَيَمْتَنِعُ مَدْحُكُمْ لِوُجُودِ الشِّرْكِ مِنْكُم، وَفِيه: التَّلَطُّفُ فِي الْإِنْكارِ وَإِنْ عَظُمَ الْمُنْكر، وَفِيه انتباه أَهْلِ الْبَاطِلِ لِمَا يَقَعُ فِيه أَهْلُ الْحَقِّ مِنْ تَقْصيرٍ وَإِنْ دَقَّ، وَفِيه أَنَّه يلزمُهُمْ أَنْ يُقِرُّوا بِفَضْلِ هَذِهِ الْأُمَّةِ إِنْ هِي تَركَتِ الشِّرْكَ، (فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيه) الْحَمْدُ: وَصَفُ اللَّهِ بِالْكَمَالِ، وَالثَّنَاءُ: تَكْرارُ الْمَحَامِدِ.(يَمْنَعُنِي كَذَا وَكَذَا) جاء عند المروزي في تعظيم قدر الصلاة بيان هذا المبهم وفيه (وَإِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَقُولُونَ كَلِمَةً كَانَ يَمْنَعُنِي الْحَيَاءُ مِنْكُمْ أَنْ أَنْهَاكُمْ فَلَا تَقُولُوا مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ» قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: فَدَلَّ قَوْلُهُ كَانَ يَمْنَعُنِي الْحَيَاءُ مِنْكُمْ أَنْ أَنْهَاكُمْ غَيْرَ أَنَّهُ قَدْ كَانَ يَكْرَهُ أَنْ يُقَالَ ذَلِكَ وَيَسْتَحِي أَنْ يَنْهَاكُمْ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ جَاءَهُ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى نَهْيٌ عَنْ ذَلِكَ فَلَمَّا رَأَى طُفَيْلٌ الرُّؤْيَا اسْتَدَلَّ بِذَلِكَ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ كَرِهَ ذَلِكَ فَنَهَاهُ عَنْهُ) قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ: إِنَّهُ لَمْ يوح إليه شيء فِي النهي عَنْهُ لكنه كرهه فمنعه الحياء أن ينهاهم من نفسه. ثُمَّ أُمِرَ بِالْإِنْكارِ[١] بعد رؤية الطفيل وَإِنَّمَا وَقَعَ النَّهْي فِي أَوَّلِ الْإِسْلامِ عَنِ الشِّرْكِ الْأَكْبَرِ ثُمَّ جَاءَ النَّهْي عَنِ الشِّرْكِ الْأَصْغَر

وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّ الرُّؤْيَا قَدْ تَكُونُ سَبَباً فِي التَّشْرِيعِ فِي حَيَاتِهِ ﷺ فَقَط وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا تَشْرِيعا بَعْدَ وفاته لأَنَّ الشَّرِيعَةَ قَدْ تَمَّتْ فِي حياتِه[٢]

(١) كنت قد ذكرت في الطبعة الأولى من هذا الكتاب و لَا ينبغي أَنْ يُقَالَ مَنعَهُ الْحَيَاءُ مِنْ ذَلِكَ. ثم اطلعت على هذه الرواية التي أثبتها الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

(٢) أفدتها من الشيخ العصيمي – حفظه الله-.

[٤٥]

بَابُ مَنْ سَبَّ الدَّهْرَ فَقَدْ آذَى اللَّهَ

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ: ظاهِرَةٌ؛ لأنَّ سَبَّ الدَّهْرِ مِن الألفاظ الَّتِي تُنْقِصُ التَّوْحِيدَ وَتُنَافِي كَمَالَهُ. وَمَعْنَى التَّرْجَمَةِ:(مَنْ سَبَّ الدَّهْرَ) السبُّ هُوَ الشَّتْمُ وَاللَّعْنُ وَالدُّعَاءُ، وَلَا يَدْخُلُ فِي سبِّه وَصفُهُ بِالشِّدَّةِ، كما في قولِهِ﴿ وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ [سورة هود] قوله (فَقَدْ آذَى اللَّه) لأنَّ ذَلِكَ يُغْضِبُهُ وَلَا يَلْزَمُ مِنَ الأذى الضَّرَرُ لِحَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ – ﷺ –:(إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي) رواه مسلم

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [وقول الله تعالى: ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾(١)] هَذَا قَوْلُ الدَّهْرِيَّةِ الَّذِينَ لَا يُؤمِنُونَ بِالْبَعْثِ، فَمَنْ سَبَّ الدَّهْرَ فَقَدْ شابَهَهُمْ فِي نِسْبَةِ الْهَلاكِ إِلَى الدَّهْرِ وَإِنْ لَمْ يُوَافِقْهُمْ فِي اعْتِقادِهِمْ.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبي ﷺ قَالَ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: (يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ)(٢)، وَفِي رِوَايَةٍ:(لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ؛ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ)(٣).]

قوله: (يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ) فيه: أنَّ اللهَ يتأذى بِأَفْعَالِ عِبَادِهِ السَّيِّئَةِ. قوله (يسب الدهر) بيان لسبب الأذى. قَالَ ابن الْقَيِّمِ – رَحِمَهُ اللهُ –:(فِي السَّبِّ ثَلاثَةُ مَفَاسِدَ: أَحدُهَا: سَبُّهُ مَنْ لَيْسَ أَهْلًا لِلسَّبِّ، الثَّانِيَةُ: أَنَّ سَبَّهُ مُتَضَمِّنٌ لِلشِّرْكِ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا سَبَّهُ لِظَنِّهِ أَنَّهُ يَضُرُّ وَيَنْفَعُ، وَأَنَّهُ مَعَ ذَلِكَ ظَالِمٌ. الثَّالِثَةُ: أَنَّ السَّبَّ مِنْهُمْ إِنَّمَا يَقَعُ عَلَى مَنْ فَعَلَ هَذِهِ الأَفْعَالَ ... فَسابُّ الدَّهْرِ دائِرٌ بَيْنَ أَمْرَيْنِ لا بدَ مِنْ

---

(١) سورة الجاثية الآية: ٢٤.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن- باب {وما يهلكنا إلا الدهر} (٤٨٢٦)، ومسلم في كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها- باب النهي عن سب الدهر (٢٢٤٦).

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها باب النهي عن سب الدهر (٢٢٤٦)

أَحَدِهِمَا: إِمَّا مَسَبَّةُ اللهِ تَعَالَى أَوْ الشِّرْكُ بِهِ، فَإِنَّهُ إِنِ اعْتَقَدَ أَنَّ الدَّهْرَ فَاعِلٌ مَعَ اللهِ فَهُوَ مُشْرِكٌ، وَإِنْ اعْتَقَدَ أَنَّ اللهَ وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي فَعَلَ ذَلِكَ وَهُوَ يَسُبُّ مَنْ فَعَلَهُ فَهُوَ سابٌّ لله تَعَالَى)[١]. وإذا اعتقد أن الفاعل هو الله والدهر سبب مؤثر فيكون من الشرك الأصغر[٢] وإن سبه ولم يعتقد ما سبق فيكون محرم فقط (وَأَنَا الدَّهْرُ أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ): قَالَ الْخَطَّابِيُّ – رَحِمَهُ اللهُ –:(إِنَّمَا كَانُوا يَسُبُّونَ الدَّهْرَ عَلَى أَنَّه هُوَ الْمُلِمُّ بِهِمْ فِي الْمَصَائِبِ وَالْمَكَارِهِ وَيُضِيفُونَ الْفِعْلَ فِي ما يَنَالُهُمْ مِنْهَا إِلَيه ثُمَّ يَسبُّون فَاعِلَهَا فَيَكُونُ مَرْجِعُ السَّبِّ فِي ذَلِكَ إِلَى اللهِ سُبْحَانه إِذْ هُوَ الْفَاعِلُ لَهَا فَقِيلَ عَلَى ذَلِكَ لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الدَّهْرُ، أَيْ إِنَّ اللهَ هُوَ الْفَاعِلُ لِهذِهِ الْأُمُورِ الَّتِي تُضِيفُونَهَا إِلَى الدَّهْرِ.)[٣]

وَتَبَيَّنَ بِهَذَا خَطَأُ مَنْ عَدَّ الدَّهْرَ فِي أَسْماءِ اللَّهِ كَابن حَزْمٍ وَذَلِكَ مِنْ أَوْجُهٍ : الأول: أَنَّ الدَّهْرَ اسم جَامِدٌ لَا حُسْنَ فِيه، وَأَسْماءُ اللَّهِ كُلُّهَا حسنى.الثَّانِي : أَنَّ المقلِّب بِالْكَسْرِ غَيْرُ المقلَّب بِالْفَتْحِ .

الثَّالِثُ: أَنَّه لَوْ كَانَ الدَّهْرُ مِنْ أَسْماءِ اللَّهِ لاسْتَلْزَمَ إِيمَانَ الدَّهْرِيَّةِ وَمَا لَزِمَ مِنْه بَاطِلٌ فَهُوَ بَاطِلٌ.

---

(١) زاد المعاد، ٢/ ٣٢٣.

(٢) أفدتها من شرح الشيخ العصيمي – حفظه الله– .

(٣) معالم السنن ٤/١٥٨

[٤٦]

بَابُ التَّسَمِّي بِقَاضِي الْقُضَاةِ وَنَحْوِهِ

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ: أَنَّ الإمامَ – رَحِمَهُ اللهُ – مَا زَالَ يُحَذِّرُ مِنَ الألفاظ الَّتِي تُنْقِصُ التَّوْحِيدَ وَتُنَافِي كَمَالَهُ، فَمِنْهَا التسمّي بِهَذَا الِاسْمِ وَمَا هُوَ فِي حُكْمِهِ مِنَ الأسماء الْمُخْتَصَّةِ بِهِ كَالرَّحْمَنِ وَالله فَهَذِهِ الأسماء لَا يُجَوِّزُ التسمي بِهَا.

– قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِي ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَخْنَعَ اسم عِنْدَ اللَّهِ رَجُلٌ تَسَمَّى مَلَكَ الامْلَاكِ، لَا مَالِكَ إِلَّا اللَّهُ»(١). قَالَ سُفْيَانُ: مِثْلُ شَاهَانْ شَاهْ. وَفِي رِوَايَةٍ: «أَغْيَظُ رَجُلٍ عَلَى اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَخْبَثُهُ»(٢). قَوْلُهُ " "أَخْنَعُ " يَعْنِي أَوْضَعَ.]

قوله: (فِي الصَّحِيحِ) هذا الْحَدِيثُ فِي الصَّحِيحَيْنِ ،(إِنَّ أَخْنَعَ) أَيْ: أَوْضَعَ وَأَذَلَّ،(إِنَّ أَخْنَعَ اسم عِنْدَ اللَّهِ رَجُلٌ تَسَمَّى مَلِكَ الأَمْلاكِ) لَما كان قصده غير مشروع عاملَهُ اللهُ بِنَقِيضِ قَصْدِهِ؛ لأَنَّهُ أَرَاد التَّعَاظُمَ فَوَضَعَهُ اللَّهُ، تَسَمَّى: بِنَفْسِهِ، وَيُرْوَى يُسَمَّى أَيْ: سَمَّاهُ غَيْرُه وَرَضِيَ بِذَلِكَ؛ لأَنَّ مَلِكَ الأَمْلاكِ هُوَ اللهُ وَحْده فَهُوَ الَّذِي اخْتَصَّ بِهِ وَيَحْرُمُ عَلَى الْعَبْدِ الْمَمْلُوكِ أَنْ يُنَازِعَ اللهَ فِي أَسْمَائِهِ الَّتِي اخْتَصَّ بها فَمِن الأسماء الَّتِي لَا يُسَمَّى بِهَا غَيْرُه الرَّحْمَنُ وَاللهُ وَالْقُدُّوسُ لِما فِي هذهِ الأسماء مِنَ مَعَانِي الكمال الَّذي لَا يلِيقُ إِلّا بِهِ سُبْحَانَه. وَلِهَذَا كَانَ أَحَبُّ الأسماء إِلَى اللهِ (عَبْدَ اللهِ وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ) لِمَا فِيهَا مِنَ التَّوَاضُعِ وَالْاعْتِرَافِ بِالْعُبُودِيَّةِ.(لَا مَالِكَ إلّا اللَّهُ) الْمَالِكُ: هُوَ الَّذِي نَفَذَ أَمْرُهُ وَسَيْطَرَتُهُ، فَلَا مَالِكَ حَقِيقَةً إِلّا اللهُ؛ لأَنَّ مُلْكَهُ مُطْلَقٌ وَلَهُ فِيه التَّصرُّفُ الْمُطْلَقُ. وَغَيْرُهُ مُلْكُهُ مُقَيَّدٌ، وَلَيْسَ لَهُ فِيه التَّصرُّفُ الْمُطْلَقُ. قَوْلُهُ:(قَالَ سُفْيانُ : مِثْلُ شَاهَانْ شَاهْ) سُفْيانُ: هُوَ ابن عيينة. وَمُرَادُهُ أَنَّ النَّهْي لَا يَنْحَصِرُ فِي مَلِكِ

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأدب- باب أبغض الأسماء إلى الله(٦٢٠٦)،ومسلم في كتاب الآداب- باب تحريم التسمي بملك الأملاك وبملك الملوك (٢١٤٣).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الآداب- باب تحريم التسمي بملك الأملاك بملك الملوك (٢١٤٣).

الأمْلاكِ بَلْ كُلُّ مَا أَدَّى مَعْنَاهُ، بأيِّ لِسَانٍ كَانَ فَهُوَ مُرَادٌ بِالذَّمِّ، فَيُقَاسُ عَلَيه: سِتُّ الْكَلِّ، وَسَيِّدُ النَّاسِ، وملكُ الملوكِ وسيّدُ الساداتِ وحاكمُ الحكامِ والخالق والخلاق والمهيمن والأحد والصمد والقيوم وَلَا يَخْفَى مَا فِي هذهِ الأسماء مِنَ الْجُرْأَةِ عَلَى اللهِ، فَإِنْ قَصَدَ حَقِيقَةَ هَذِهِ الْمَعَانِي فَهُوَ كُفْرٌ أكبُر وَإِنْ لم يقْصدِ المعنى فَتَكُونُ مِنْ شِرْكِ الألفاظ وَفِي الأثر: أَنَّه مَتَى وَقعَ فِي كَلامِ الْعَجَمِ معنى مَنْهِيٌّ عَنْه فِي كَلامِ الْعَرَبِ فَإِنَّه يَكُونُ مَنْهِيّاً عَنْه أيضا [١] وفيه: إِثْبَاتُ صِفَةِ الْغَيْظِ للهِ عزَّ وَجَلَّ وَهُوَ شِدَّةُ الْغَضَبِ.

(١) أفادها الشيخ العصيمي – حفظه الله- .

[٤٧]

بَابُ احْتِرَامِ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَغْيِيرُ الِاسْمِ لأَجْلِ ذَلِكَ

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ: أَنَّ الإِمامَ – رَحِمَهُ اللهُ – حَذَّرَ فِي الْبَابِ السَّابِقِ مِن التَّسَمِي بِأَسْماءٍ يَخْتَصُّ بِهَا اللهُ وَحْدَهُ لِمَا فِيهَا مِنْ سُوءِ الْأَدَبِ مَعَ اللهِ، وَفِي هَذَا الْبَابِ يُرْشِدُ إِلَى تَرْكِ التَّسَمِي بِأَسْماءِ اللَّهِ وَإِنْ لَمْ يَخْتَصَّ اللهُ بِهَا وَذَلِكَ إِذَا لُوحِظَ فِيهَا مَعْنَى الصِّفَةِ وَمَعْنَى التَّرْجَمَةِ: بَابُ وُجُوبِ رعايةِ حرمةِ وجنابِ أَسْماءِ اللَّهِ تَعَالَى وَالْحَذرِ مِنَ امْتِهانِهَا وَاحْتِقَارِهَا، وَتَغْيِيرُ الِاسْمِ لأَجْلِ احْتِرَامِهَا.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ ﷺ : «أَنَّهُ كَانَ يُكنى أَبَا الْحَكَمِ فَقَالَ لَهُ النَّبي ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَكَمُ وَإِلَيْهِ الْحُكْمُ، فَقَالَ: إِنَّ قَوْمِي إِذَا اخْتَلَفُوا فِي شيءٍ أَتَوْنِي، فَحَكَمْتُ بَيْنَهُمْ، فَرَضِي كِلَا الْفَرِيقَيْنِ فقَالَ: مَا أَحْسَنَ هَذَا، فَمَا لَكَ مِنَ الْوَلَدِ؟ قُلْتُ: شُرَيْحٌ وَمُسْلِمٌ وَعَبْدُ اللَّهِ، قَالَ: فَمَنْ أَكْبَرُهُمْ؟ قُلْتُ: شُرَيْحٌ قَالَ: فَأَنْتَ أَبُو شُرَيْحٍ»[(١)] رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ.]

(عن أَبِي شُرَيْحٍ) هُوَ هانِي بْنُ يَزِيدَ الْكِنْدِي، يُكْنَى بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ، وَالتَّخْفِيفُ أفْصَحُ.(إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَكَمُ وَإِلَيه الْحُكْمُ) الجُمْلَةُ الأولى فِيهَا أَنَّ اللهَ هُوَ الْحَكَمُ أَيْ الْحَاكِمُ وَحدَهُ ؛لأَنَّ ضَمِيرَ الْفَصْلِ يُفِيدُ الْحَصْرَ، فَهُوَ الَّذِي يحكمُ بَيْنَ الْخَلائِقِ وَحْدَهُ. وَفِيها أَنَّ الْحَكَمَ مِنْ أَسْماءِ اللَّهِ الحسْنَى (وَإِلَيه الحكْمُ) أَيْ: إِنَّ الْحكْمَ فِي الْأُمُورِ يَرْجِعُ إِلَيِهِ وَحْدَهُ؛ لِتَقْدِيمِ مَا حَقُّهُ التَّأْخِيرُ، والحكْمُ: مَصْدَرٌ (فَقَالَ: إِنَّ قَوْمِي إِذَا اخْتَلَفُوا فِي شيءٍ أَتَوْنِي، فَحَكَمْتُ بيْنَهُمْ) هَذَا بَيَانٌ لِسَبَبِ كُنْيَتِهِ وَأَنَّهُ لَمْ يَكُنِ نَفْسَهُ. وَأَنَّها لَمْ تُكنْ تَسْمِيَةً مُجَرَّدَةً عَنِ المعنى. بل كانت لسبب قصده من سماه بهذه الكنية(فَرَضِيَ كِلَا الْفَرِيقَيْنِ) أي أنَّه يصلح بَيْنَهُمْ وَيَقْبَلُونَ حُكْمَهُ. قولُهُ (فَقَالَ: مَا أَحْسَنَ هَذَا!) فِيه: استحباب الْإِصْلاحِ بَيْنَ النَّاسِ،

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الأدب- باب في تغيير الاسم القبيح (٤٩٥٥)، والنسائي في كتاب أداب القضاة- باب إذا حكموا رجلاً فقضى بينهم (٥٣٨٧)، وصححه الألباني في «صحيح سنن النسائي».

وَفيه الثناءُ على المحسنِ. قولُهُ:(فَمَا لَكَ مِنَ الْوَلَدِ ؟) يشمل الْوَلَدُ لغةً الذَّكْرِ وَالْأنْثَى. وَفِيه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ. (قُلْتُ: شُرَيْحٌ وَمُسْلِمٌ وَعَبْدُ اللَّهِ) فِي هذهِ الجُمْلَةِ مِنَ الْفَوَائِدِ : أَنَّ الواو لَا تُفِيدُ التَّرْتِيب، إِذْ لَوْ كَانَتْ تُفِيدَ التَّرْتِيبَ لَمَا سَأَلهُ عَنْ أَكْبَرِهِمْ، (قَالَ: فَمَنْ أَكبرُهُمْ ؟ قُلْتُ: شُرَيْحٌ)فيها استحبابُ الْكُنْيَةِ بِالْأَكْبَرِ مِنَ الأولادِ. وَغَيَّرَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ كنيتَهُ لَأنَّهُ لُوحِظَ فِي كُنْيَتِهِ مَعنى الصِّفَةِ فَلَيْسَتْ هِي عَلماً مَحْضاً، بلْ تَضمنتْ معنىً مقصودا وبذلك يكونُ قد شاركَ الله في هذا الاسمِ لذلكَ نُهي عنهُ وَلِهَذَا لَمْ يُغَيّرْ النَّبي ﷺ مَنِ اسمهُ الْحكْمِ مِنَ الصَّحَابَةِ؛ كَالحَكَمِ بْنِ الْحَارِثِ وَالْحكَمِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الثَّقفِي وقد أورد ابن حجر في الإصابة ثلاثة وعشربن بهذا الاسم وَحَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ وَغَيْرِهِمْ؛ وقد أورد ابن حجر تسعة من الصحابة من اسمه حكيم وثلاثة من كنيته أبو الحكم لَأنَّهُ لَمْ يُلْحَظْ فِي أسمائهم ذَلِكَ. وَفِيه الْمَنْعُ مِنَ التسمي بِأَسْماءِ اللَّهِ تَعَالَى إِذَا لُوحِظَ فِيهَا مَعنَى الصِّفَةِ وإن لم تكن مختصة به.

[٤٨]

بَابُ مَنْ هَزَلَ بشيءٍ فِيهِ ذِكْرُ اللَّهِ أَو الْقُرْآنِ أَوْ الرَّسُولِ ﷺ

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ: أَنَّ الإمام – رَحِمَهُ اللهُ – مَا زَالَ يُحَذِّرُ مِنَ الألفاظ الَّتِي تُنْقصُ التَّوْحِيدَ أَوْ تُنَافِي كَمالَهُ. وَمعنَى التَّرْجَمَةِ: (مَنْ هَزَلَ) أَيْ: سَخِرَ وَاسْتَهْزَأَ على وجهِ المزاحِ، وَلَمْ يَذْكُرْ جَوابَ الشَّرْطِ وَهُو: (فَقَدْ كَفَرَ) فَإِذَا هَزَلَ بِاللهِ أَوْ رَسُولِهِ أَو الْقُرْآنِ فَإِنَّهُ يكْفُرُ كُفْراً يُخْرِجُ مِنَ الْمِلَّةِ، وَإِذَا هَزَلَ بِشيءٍ لَا يَعْلَمُ أَنَّهُ يَرْجِعُ إِلَى اللهِ أَوْ رَسُولِهِ أَوْ الْقُرْآنِ فَإِنَّهُ يُعَلَّمُ بِذَلِكَ فَإِنْ سَخِرَ كَفَرَ.

مَسْأَلَةٌ: فِي تَوْبَةِ مَنْ سَبَّ اللهَ أَوْ رَسُولَهُ ﷺ أَوْ كِتَابَهُ. قَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ أَنَّ مَنْ سَبَّ اللهَ أَوْ كِتَابَهُ يُسْتَتَابُ فَإِنْ تَابَ لَا يقْتَلُ، وَ أَمَّا مَنْ سَبَّ الرَّسُولَ ﷺ فَإِنَّهُ يُقْتَلُ وَإِنْ تَابَ، وَالْقَبُولُ لِلَّهِ وَحْدَهُ.

قَالَ الإمامُ – رحمَهُ اللهُ – [وقول الله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾(١)]

قَولُهُ :(وَلَئِنْ سَأَلتَهُمْ) الْخِطَابُ للنَّبيِّ ﷺ (ليقولن إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ) الْخَوْضُ: هُوَ الْكَلامُ الْبَاطِلُ، وَفِي الْجُمْلَةِ بَيانُ عِلْمِ اللهِ السَّابِقِ، وَأَنَّهُ يَعْلَمُ مَا لَمْ يَكُنْ وَلَوْ كَانَ كَيْفَ يَكُونُ، (قُلْ أَبِاللهِ وآياتِهِ وَرَسُولِهِ) الْاسْتِفْهامُ إِنْكاري، أي كيفَ تسخرونَ من أصحابِ النَّبي ﷺ الذينَ مدحَهُمْ اللهُ فِي كتابِهِ ومدحَهُم النَّبيُّ ﷺ (لَا تَعْتَذِرُوا) فِيه: أَنَّه لَمْ يَقْبَلْ اعْتِذارَهُمْ؛ لأَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ فِيه، (قَدْ كَفَرْتُم) فِيه: أَنَّ الْاسْتِهْزاءَ بِاللهِ وآياتِه وَرَسُولِهِ كُفْرٌ،(بَعْدَ إِيمَانِكُمْ) فِيه: أَنَّهُمْ كَانَ عِنْدَهُمْ إِيمَانٌ ضَعِيفٌ. قَالَ تَعالَى

﴿ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةَۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾(٢)

(١) سورة التوبة الآية: ٦٥-٦٦.

(٢) سورة التوبة الآية: ٦٦.

عَفَا اللهُ عَنِ الَّذِينَ جَلَسُوا وَكَانَ عِنْدَهُمْ كَرَاهِيَةٌ لَكِنَّهُمْ دَاهَنُوا، وَفِي الْآيَةِ، قَبُولُ تَوْبَةِ الْمُسْتَهْزِئِ، و فيها أَنَّ مِنَ الاعْذَارِ مَا لَا يَقْبَلُ ، وفيها الْحَذرُ مِنْ مَزَالِقِ اللِّسَانِ.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما وَمُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ وَزَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ وَقَتَادَةَ: "دَخَلَ حَدِيثُ بَعْضِهِمْ فِي بَعْضٍ أَنَّهُ قَالَ رَجُلٌ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ: مَا رَأَيْنَا مِثْلَ قُرَّائِنَا هَؤُلَاءِ: أَرْغَبَ بُطُونًا، وَلَا أَكْذَبَ ألسُنًا، وَلَا أَجْبَنَ عِنْدَ اللِّقَاءِ (يَعْنِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابَهُ الْقُرَّاءَ) فَقَالَ لَهُ عَوْفُ بْنُ مَالِكٍ: كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ مُنَافِقٌ، لَأُخْبِرَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَذَهَبَ عَوْفٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم لِيُخْبِرَهُ فَوَجَدَ الْقُرْآنَ قَدْ سَبَقَهُ، فَجَاءَ ذَلِكَ الرَّجُلُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَدْ ارْتَحَلَ وَرَكِبَ نَاقَتَهُ، فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَتَحَدَّثُ حَدِيثَ الرَّكْبِ نَقْطَعُ بِهِ عَنَاءَ الطَّرِيقِ" قَالَ ابن عُمَرَ كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ مُتَعَلِّقًا بِنِسْعَةِ نَاقَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَإِنَّ الْحِجَارَةَ تَنْكُبُ رِجْلَيْهِ، وَهُوَ يَقُولُ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ فَيَقُولُ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾[(١)].مَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ وَمَا يَزِيدُهُ عَلَيْهِ[(٢)].]

قوله:(مُحَمَّد بْنُ كَعْبٍ) بْنِ سَلِيم بْنِ حَمْزَةَ الْقُرَظِي الْمَدَنِيّ (وَزَيْد بْنُ أَسْلَمَ) مَوْلَى عُمَر بْن الْخَطَّابِ.(دَخَلَ حَدِيثُ بَعْضِهِمْ فِي بَعْض) أَيْ: أَنَّ الْحَدِيثَ مَجْمُوعُ رواياتِهِم.(مَا رَأَيْنا مِثْلَ قُرَّائِنَا) الْقُرَّاءُ جمعُ قارِيءٍ وَهُمْ عِنْدَ السَّلَفِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ وَيَفْهَمُونَ مَعَانِيَهُ، أَمَّا قِرَاءتُهُ مِنْ غَيْرِ فَهْمٍ لِمَعْنَاهُ فَإِنَّهَا لَمْ تَكُنْ عِنْدَ السَّلَفِ، وَإِنَّمَا حَدَثَتْ بَعْدَ ذَلِكَ (أَرْغَبَ بُطوناً) أَيْ: أَوْسَع،قوله: (فَقَالَ لَهُ عَوْف بْنُ مَالِكٍ: كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ مُنَافِقٌ) فِيهِ الْمُبَادَرَةُ إِلَى الْإِنْكارِ، وَفِيهِ وصْفُ مَنْ طَعَن فِي رَسُولِ الله ﷺ بِالنِّفَاقِ.(لَأُخْبِرَنَّ

(١) سورة التوبة الآية: ٦٥.

(٢) إسناد ابن عمر حسنه الشيخ مقبل في الصحيح المسند من أسباب النزول، ص: ٧١، وباقي الروايات مرسلة رواها ابن جرير (١٦٩٢٨) وابن أبي حاتم (١٠٠٤٧) وأورده الواحدي في أسباب النزول ص:٢٥٠.

رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَذَهَبَ عَوْفٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِيُخْبِرَهُ). وَفِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ مِنَ الْفَوَائِدِ: أَنَّ مِنَ النُّصْحِ لِوُلَاةِ الأمر إِخْبَارُهُمْ بِمَقَالَاتِ الْمُفْسِدِينَ؛ لِيَأْخُذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ، وَفِيه الْفَرْقُ بَيْنَ النَّمِيمَةِ وَالنَّصِيحَةِ.

(فَوَجَدَ الْقُرْآنَ قَدْ سَبَقَهُ) فِيهِ: سَعَةُ عِلْمِ اللهِ، وَفِيهِ: عَلَمٌ مِنْ أَعْلَامِ النُّبُوَّةِ ،(فَجَاءَ ذَلِكَ الرَّجُلُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَدْ ارْتَحَلَ وَرَكِبَ نَاقَتَهُ، فَقَالَ يا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَتَحَدَّثُ حَدِيثَ الرَّكْبِ نَقْطَعُ بِهِ عَنَاءَ الطَّرِيقِ)، قَوْلُهُ:(مُتَعَلِّقاً بِنِسْعَةِ نَاقَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ) بنسعة أَيْ : حَبلُ أَوْ زِمامُ نَاقَتِهِ، وَفِي الْحَدِيثِ مِنَ الْفَوَائِدِ: الْخَوْفُ مِنَ النِّفَاقِ ، وَأَنَّ الإِنْسانَ قَدْ يَكْفُرُ بِكَلِمَةٍ، وَأَنَّ الْوَقِيعَةَ فِي أَهْلِ الْعِلْمِ نِفَاقٌ.

[٤٩]

بَابُ

ما جاء في قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾[(١)].

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ: أَنَّ الإمام – رَحِمَهُ اللهُ – مَا زَالَ يُحَذِّرُ مِنَ الألفاظ الَّتِي تُنْقِصُ التَّوْحِيدَ وَتُنَافِي كَمَالَهُ. وَمِنْهَا: نِسْبَةُ نِعَمِهِ سبحانه إِلَى النَّفْسِ الضَّعِيفَةِ، أَوْ نِسْبَتُهَا إِلَى اللهِ مَعَ اعْتِقَادِ أَنَّهُ مُسْتَحِقٌّ لَهَا. وَهَذَا مِنَ الْعُجْبِ والإِدْلالِ عَلَى اللهِ الَّذِي يُنَافِي كَمَالَ العبودية.(لَئِنْ أَذَقْنَاهُ) الضَّمِيرُ يَعُودُ إِلَى الْإِنْسانِ الْمَذْكُورِ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ، وَالْمُرَادُ بِهِ: جِنْسُ الْإِنْسانِ إِلّا مَنْ عَصَمَهُ اللهُ بِالْإِيمانِ.(رَحْمَةً) أَيْ: غِنًى وَعَافِيَةً.(مِنَّا) أَضَافَهَا إِلَيه لِتَمامِ مِنَّتِهِ بِهَا.(مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ) فَقْرٍ أَوْ مَرَضٍ.(مَسَّتْهُ) أَي: حسَّ بِهَا وَأَثَّرَتْ فِيه، وَالنِّعْمَةُ بَعْدَ الْفَقْر، وَالْعَافِيَةُ بَعْدَ الْمَرَضِ لَذَّتُهَا أَتَمُّ وَالسُّرُورُ بِهَا أَعظَمُ،(هَذَا لِي) أَيْ: بِحَوْلِي وَقُوتي، (وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً) بَعْدَ أَنَّ انْغَمَسَ فِي نعم الدُّنْيا نَسِيَ الْآخِرَةَ، بَلْ أَنْكَرَهَا (وَلَئِنْ رُجِعْتُ إلى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَه لَلْحُسْنَى) أَيْ: عَلَى فَرْضِ رُجُوعِي فَإِنَّ اللهَ سَيُحْسِنُ إليَّ؛ لأَنَّهُ أَحْسَنَ إليَّ هُنَا (فلَنُنبئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا) أَظْهَرَ فِي مَقَامِ الْإِضْمارِ لِيُبَيِّنُ الْحكْمَ وَلِيَشْمَلَ غَيْرَه مِمنْ وافقَهُ فِي الاعتقَادِ وَأَنَّ مَنْ أَنْكَرَ الْبَعْثَ أَوْ شَكَّ فِيه فَإِنَّه يُكَفَّرُ.

قَالَ الإِمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[قَالَ مُجاهِدٌ: "هَذَا بِعَمَلِي وَأَنَا مَحْقُوقٌ بِهِ"[(٢)].]

(١) سورة فصلت الآية: ٥٠.

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (٢١/٤٩١).

(هَذَا بِعَمَلِي وَأَنَا مَحْقُوقٌ بِهِ) أيْ: هَذَا بِجُهْدِي وَكَسْبِي وَأَنَا مستحقٌ لَهُ، وَهَذَا مِنْ كَلامِ ضعفاءِ الْإِيمَانِ مِمَّنْ لَمْ يُحَقِّقْ التَّوْحِيدَ، فَالْوَاجِبُ عَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ فَقِيرٌ غَيْرُ مُسْتَحِقٍ لِشيءٍ وَأَنَّ اللهَ هُوَ المتفضلُ عَلَيهِ بِكُلِّ نِعْمَةٍ.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[وَقَالَ ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما : "يُرِيدُ مِنْ عِنْدِي"[١].]

فَيَنْسُبُهَا لِنَفْسِهِ، فظَهَرَ بِهَذَا أَنَّ الْآيَةَ تَشْمَلُ نَوْعَيْنِ: الأول: مَنْ نَسَبَ النِّعْمَةَ إِلَى اللهِ وَلَكِنْ زَعَمَ أَنَّهُ مُسْتَحقٌ لَهَا وَهُوَ أَهْلٌ لَهَا، وَالثَّانِي: مَنْ نَسَبهَا إِلَى نَفْسِهِ، وَفِي كِلَا الْحَالَيْنِ لَا يَخْلُو مَنْ تَكلَّمَ بِهَذَا مِنْ نَوْعِ غُرُورٍ أَوْ شِرْكٍ بِاللهِ جَلَّ وَعَلَا، فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَعْلَمُ أَنَّ اللهَ يَرْحَمُ عَبْدَهُ وَلَوْ حاسَبَهُ عَلَى عَمَلِهِ لَمْ تَقُمْ عباداتُهُ وَعَمَلُهُ بِنِعْمَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ النِّعَمِ الَّتِي أَسْداهَا اللهُ جَلَّ وَعَلا لَهُ.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[وقوله: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾[٢]. قَالَ قَتَادَةُ "عَلَى عِلْمٍ مِنِّي بِوُجُوهِ الْمَكَاسِبِ"[٣].]

وهذا كفرٌ بالنعم وإعجابٌ بِالنَّفْسِ واللهُ تَعَالَى هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّبَبَ وَجَعَلَهُ مؤثراً، فَهُوَ الْمُنْعِمُ ابتداءً وانتهاءً فَالْوَاجِبُ عَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَتَخَلَّصَ مِنْ رُؤْيَةِ نَفْسِهِ، وَأَنْ يَعْلَمَ ألا حَوْلَ لَهُ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[وَقَالَ آخَرُونَ: (عَلَى عِلْمٍ مِنَ اللهِ أَنِّي لَهُ أَهْلٌ)[٤] وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ مُجَاهِدٍ "أوتيتُهُ عَلَى شَرَفٍ"[٥].]

فَدَارَ مَعْنَى الْآيَةِ عَلَى النَّوْعَيْنِ السَّابِقَيْنِ

---

(١) ذكره أبو عبد الله الزرعي في «شفاء العليل» (ص ٣٨).

(٢) سورة القصص الآية: ٧٨.

(٣) أخرجه ابن جرير (١٨/٣٢٥-٣٢٦) من طريق معمر، وابن أبي حاتم (٩/٣٠١٢) من طريق قتادة، وذكره القرطبي في «تفسيره» (١٥/٢٦٦)، ورواية معمر عن قتادة صححها شيخ الإسلام في "الرد على البكري" (١/٥٧٧) فالأثر صحيح والحمد لله.

(٤) منهم السدي كما عند أبي حاتم (٩/٣٠١٢)، وذكره الخطيب الشربيني في «تفسيره» (٩/٣٩٣).

(٥) ذكره ابن جرير الطبري في «تفسيره» (٢١/٣٠٤).

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ ثَلَاثَةً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَبْرَصَ وَأَقْرَعَ وَأَعْمَى، فَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَكًا فَأَتَى الأَبْرَصَ فَقَالَ أَيُّ شيءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ "لَوْنٌ حَسَنٌ وَجِلْدٌ حَسَنٌ وَيَذْهَبُ عَنِّي الَّذِي قَدْ قَذِرَنِي النَّاس بِهِ" قَالَ "فَمَسَحَهُ، فَذَهَبَ عَنْهُ قَذَرُهُ، فَأعْطِيَ لَوْنًا حَسَنًا وَجِلْدًا حَسَنًا قَالَ فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ الْإِبِلُ أَوْ الْبَقَرُ (شَكَّ إِسْحَاقُ) فَأُعْطِيَ نَاقَةً عُشَرَاءَ، وَقَالَ بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيهَا" قَالَ "فَأَتَى الأَقْرَعَ فَقَالَ أَيُّ شيءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ شَعْرٌ حَسَنٌ، وَيَذْهَبُ عَنِّي الَّذِي قَدْ قَذِرَنِي النَّاس بِهِ فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ، وَأُعْطِيَ شَعْرًا حَسَنًا فَقَالَ أَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ الْبَقَرُ أَوْ الْإِبِلُ فَأُعْطِيَ بَقَرَةً حَامِلاً، قَالَ بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيهَا».

«فَأَتَى الأَعْمَى، فَقَالَ أَيُّ شيءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ أَنْ يَرُدَّ اللَّهُ إِلَيَّ بَصَرِي فَأُبْصِرُ بِهِ النَّاس فَمَسَحَهُ فَرَدَّ اللَّهُ إِلَيْهِ بَصَرَهُ قَالَ فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ الْغَنَمُ فَأُعْطِيَ شَاةً وَالِدًا فَأَنْتَجَ هَذَانِ وَوَلَّدَ هَذَا، فَكَانَ لِهَذَا وَادٍ مِنَ الْإِبِلِ وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الْبَقَرِ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الْغَنَمِ».

قَالَ: «ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الأَبْرَصَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فَقَالَ رَجُلٌ مِسْكِينٌ وَابْنُ سَبِيلٍ قَدْ انْقَطَعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي: فَلَا بَلَاغَ لِيَ الْيَوْمَ إِلَّا بِاللَّهِ ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي أَعْطَاكَ اللَّوْنَ الْحَسَنَ وَالْجِلْدَ الْحَسَنَ وَالْمَالَ: بَعِيرًا أَتَبَلَّغُ بِهِ فِي سَفَرِي فَقَالَ الْحُقُوقُ كَثِيرَةٌ فَقَالَ لَهُ كَأَنِّي أَعْرِفُكَ! أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ يَقْذَرُكَ النَّاس، فَقِيرًا، فَأَعْطَاكَ اللَّهُ الْمَالَ؟ فَقَالَ إِنَّمَا وَرِثْتُ هَذَا الْمَالَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ فَقَالَ إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتَ" قَالَ "ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الأَقْرَعَ فِي صُورَتِهِ، فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ لِهَذَا، وَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا رَدَّ عَلَيْهِ هَذَا، فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا: فَصَيَّرَكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتَ قَالَ "وَأَتَى الأَعْمَى فِي صُورَتِهِ فَقَالَ رَجُلٌ مِسْكِينٌ وَابْنُ سَبِيلٍ قَدْ انْقَطَعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي: فَلَا بَلَاغَ لِيَ الْيَوْمَ إِلَّا بِاللَّهِ ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ: شَاةً أَتَبَلَّغُ بِهَا فِي سَفَرِي فَقَالَ قَدْ كُنْتُ أَعْمَى فَرَدَّ اللَّهُ إِلَيَّ

بَصَرِي، فَخُذْ مَا شِئْتَ، وَدَعْ مَا شِئْتَ فَوَاللَّهِ لَا أَجْهَدُكَ الْيَوْمَ بِشيءٍ أَخَذْتَهُ لِلَّهِ فَقَالَ أَمْسِكْ مَالَكَ: فَإِنَّمَا ابْتُلِيتُمْ: فَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْكَ، وَسَخِطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ» (١) **أَخْرجَاهُ.**

(أَخْرجَاهُ) البخاري ومسلم، (قَذَرَنِي النَّاس بِهِ) أي: عدوني قذراً. والشَّاهدُ من الحديثِ أنَّ الأقرعَ والأبرصَ جحدا نعمةَ اللهِ بنسبتِها إلى غيرِه، ولم يؤديا حقَّ اللهِ فيها، واعترفَ الأعْمى بنعمةِ اللهِ ونسبَها إليهِ، وأدَّى حقَّ اللهِ فيها، وَفِي الْحَديثِ مِنَ الْفَوائِدِ: بَيَانُ قُدْرَةِ اللهِ عزَّ وَجلَ ، وَأَنَّ اللهَ يَبْتَلِي بِالنِّعَمِ كَمَا يَبْتَلِي بِالنِّقَمِ، وَفيه حُسْنُ الْأَدَبِ فِي السُّؤَالِ فِي قَوْلِهِ: (لَا بَلاغَ لِي إلّا بِاللهِ ثُمَّ بِكَ)، وَأَنَّ مَنْ جَحَدَ نِعَمَ اللَّهِ وَلَمْ يَعْتَرِفْ بِهَا وَنسبَها إِلَى غَيْرِهِ فَقَدْ تَعَرَّضَ لِسَخَطِ اللهِ، وَأَنَّ مَنِ اعْتَرَفَ بِنِعَمِ اللَّهِ وَنَسَبَهَا إِلَيه وَأَدَّى حَقَّ اللَّهِ فِيهَا فَقَدْ وَفَّقَهُ اللهُ لِنَيلِ رِضاَهُ، وَفِيه إِثْبَاتُ صِفتي السُّخْطِ وَالرِّضا لله عزَّ وَجلَ.

(١) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء- باب حديث أبرص وأعمى وأقرع في بني إسرائيل (٣٤٦٤)،ومسلم في كتاب الزهد والرقائق (٢٩٦٤).

[٥٠]

بَابُ

قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾(١)

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ : أَنَّ الإمام – رَحِمَهُ اللهُ – مَا زَالَ يُحَذِّرُ مِنَ الألفاظ الَّتِي تَنْقُضُ التَّوْحِيدَ أوتُنَافِي كَمَالَهُ. ومن ذلك نِسْبَةُ النِّعْمَةِ إِلَى غَيْرِ اللهِ تَعَالَى.

أولُ هذهِ الآيةِ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَاۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾(٢).

قَوْلُهُ: (فَلَمَّا تَغَشَّاهَا) كِنَايَةٌ عَنِ الْجِمَاعِ. قَوْلُهُ (حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً) هَذَا الْحَمْلُ فِي الأَشْهُرِ الأولى؛ لأَنَّهُ يَكُونُ نُطْفَةً ثُمَّ عَلَقَةً ثُمَّ مُضْغَةً. قَوْلُهُ:(فَلَمَّا أَثْقَلَتْ) يَكُونُ ذَلِكَ فِي آخِرِ الْحَمْلِ. قَوْلُهُ:(دَعَوَا اللهَ رَبَّهُمَا) قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ: الْمُرَادُ آدَمُ وَحَوَّاءُ، وَالصَّحِيحُ أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ جِنْسُ الزَّوْجَيْنِ اللَّذَيْنِ يَقَعُ مِنْهُمَا الشِّرْكُ. قَوْلُهُ:(لَئِنْ آتيتنا صَالِحًا) سوياً سَالِمًا. قَوْلُهُ:(لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ) فِيهَا أَنَّ النَّذْرَ لَا يَأْتِي بِخَيْرٍ. قَوْلُهُ:(جَعَلَا لَهُ شركاءَ فِي ما آتهما) شِرْكُ أَلفَاظٍ كَأَنْ يُضِيفَ سَلَامَةَ الْمَوْلُودِ إِلَى اهْتِمَامِ أُمِّهِ أَوْ عِنَايَةِ الطَّبِيبِ، وَشِرْكٌ أَكْبَرُ كَأَنْ يَعْتَقِدَ أَنَّ الْوَلِيَّ الْفُلَانِي هُوَ الَّذِي أَعْطَاهُ ذَلِكَ الْمَوْلُودَ. قَوْلُهُ (فَتَعَالَى اللهُ عَمَّا يَشْرَكُونَ) فَجَمَعَ الضَّمِيرَ هُنَا؛ لأَنَّ الْمُرَادَ بِالتَّثْنِيَةِ جِنْسُ الذَّكَرِ وَالْأُنْثَى لَا آدَمَ وَحَوَّاءَ عليهما السَّلَامُ، وَمِن الْأَدلةِ عَلَى ذَلِكَ، أَنَّهُ عَبَّرَ بِالْفِعْلِ الْمُضَارِعِ الَّذِي يَدُلُّ عَلَى الْحَالِ أَوْ الاسْتِقْبَالِ، وَمِنْ

---

(١) سورة الأعراف الآية: ١٩٠.

(٢) سورة الأعراف الآية:١٨٩-١٩٠.

أَقْوَى الْأَدلةِ عَلَى أَنَّهُمَا غَيْرُ مُرَادَيْنِ: أَنَّ الْأَنْبياءَ مَعْصُومُونَ مِنَ الْكبائرِ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْعِلْمِ فَضْلاً عَنِ الشِّرْكِ.

. قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[قَالَ ابن حَزْمٍ(١) **: "اتَّفَقُوا عَلَى تَحْرِيمِ كُلِّ اسم مُعَبَّدٍ لِغَيْرِ اللَّهِ: كَعَبْدِ عَمْرٍو وَعَبْدِ الكَعْبَةِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، حَاشَا عَبْدِ الْمُطَّلِبِ"**(٢)**.]**

قوله: (اتَّفَقُوا) أَيْ: أَجَمَعُوا.(حَاشَا عَبْد المطَّلِبِ) فَإِنَّهُ مُسْتَثْنى مِنَ الْإِجْمَاعِ أَيْ: فِيهِ خِلافٌ، وَالْحجَّةُ مَعَ مَنْ منع إِذْ سَبَبُ التَّحْرِيمِ قَائِمٌ وَهُوَ التَّعْبِيدُ لِغَيْرِ اللَّهِ، وَلَا حُجَّةَ لِمَنْ جَوَّزَهُ مستدلاً بقولِ النَّبيِّ ﷺ:(أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبَ أَنَا ابن عَبْدِ الْمُطَّلِبِ) (٣) لأنَّ هذا إخبارٌ لا إقرارٌ، ثمَّ إنَّه إنَّما سُمِيَّ عبدَ المطَّلِب؛ لأنَّهُم كَانُوا يَظُنُّونَهُ عَبْدًا لِلْمَطَّلِبِ أخيه،أي مملوكا للمطلب. لأنَّ أمَهُ ليستْ منْهُم وقد أتى به كبيراً فَالرَّاجِحُ والأحوطُ تَجَنُّبُ هَذَا الِاسْمِ.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[وَعَنِ ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما –في معنى الآية – قَالَ: لَمَّا تَغَشَّاهَا آدَمُ حَمَلَتْ، فَأَتَاهُمَا إِبْلِيسُ، فَقَالَ إِنِّي صَاحِبُكُمَا الذِي أَخْرَجَكُمَا مِنَ الجنَّة، لَتُطِيعَانِنِي أَوْ لاجْعَلَنَّ لَهُ قَرْنَيْ إِيِّلٍ، فَيَخْرُجُ مِنْ بَطْنِكَ، فَيَشُقُّهُ، وَلأَفْعَلَنَّ: يُخَوِّفُهُمَا، سَمِّيَاهُ عَبْدَ الحَارِثِ، فَأَبَيَا أَنْ يُطِيْعَاهُ فَخَرَجَ مَيِّتًا ثمَّ حَمَلَتْ فَأَتَاهُمَا، فَذَكَرَ لَهُمَا، فَأَدْرَكَهُمَا حُبُّ الوَلَدِ، فَسَمَّيَاهُ عَبْدَ الحَارِثِ: فَذَلِكَ قَوْلُهُ:﴿ جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ﴾(٤)**.رَوَاهُ ابن أَبِي حَاتِمٍ**(٥)**.]**

---

(١) هو علي بن احمد بن سعيد بن حزم الظاهري، أبو محمَّد، عالم الأندلس في عصره أصله من الفرس أول من أسلم من أسلافة جد له كان يدعي يزيد مولى ليزيد بن أبى سفيان –رضي الله عنه– كانت لابن حزم الوزارة وتدبير المملكة فانصرف عنها إلى التأليف والعلم (٣٨٤ – ٤٥٦ هـ) {الأعلام للزركلي ٥/٥٩}.

(٢) انظر: «مراتب الإجماع» لابن حزم (ص ١٥٤).

(٣) أخرجه البخاري، بَاب مَنْ قَادَ دَابَّةَ غَيْرِهِ فِي الْحَرْبِ، برقم: (٢٨٦٤).

(٤) سورة الأعراف الآية: ١٩٠.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/٣١٠).

قَالَ ابن كَثِيرٍ بَعْدَ أَنْ أَوْرَدَ عِدَّةَ أسانيدَ لِهَذَا الْأَثَرِ :(هَذِهِ الْآثَارُ يَظْهَرُ عَلَيهَا – وَاللهُ أَعْلَمُ – أَنَّهَا مِنْ آثَارِ أَهْلِ الْكِتَابِ) (١) (٢).

وَحُكمُ الاسْرائيلياتِ أَنْ تُكَذَّبَ إِذَا وُجِدَ فِي دِينِنَا مَا يُكَذِّبُهَا، وقدْ وُجِدَ وهو أَنَّ الأنبياءَ معصومونَ من الكبائرِ فضلاً عن الشركِ.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[وَلَهُ بِسَنَدٍ صَحِيْحٍ عَنْ قَتَادَةَ قَالَ شُرَكَاءُ فِي طَاعَتِهِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي عِبَادَتِهِ(٣).]

هَذَا الْأَثَرُ صَحِيحُ الْإِسْنادِ وَإِنَّمَا احْتَاجَ إِلَى هَذَا التَّأْوِيلِ مَنْ أَرْجَعَ الضَّمِيرَ إِلَى آدمَ وَحَوَّاءَ وَحَتَّى شِرْكِ الطَّاعَةِ لا نسلم به إلا أن تحمل طاعة الشيطان على صغائر الذنوب لأنَّ اللهَ قَدْ عَصَمَ آدَمَ مِنَ الْكبائرِ بِاتِّفَاقٍ وهو محملٌ حسنٌ.

وَمِن الْأدلةِ عَلَى أَنَّ الضَّمِيرَ في الآيةِ لَايعُودُ لأَبِينَا آدمَ وَأُمِّنَا حَوَّاءَ أَنَّ اللهَ حينما ذَكَرَ أَكلَهُمَا مِنَ الشَّجَرَةِ ذكرَ تَوْبَتَهُ عَلَيهِمَا وَاجْتَبَاهُمَا بَعْدَ تَوْبَتِهِمَا فكيفَ يذكرُ وقوعَهُمَا في الشِّركِ ولا يَذْكُرُ تَوْبَتَهُ عليهما مِنْ هَذَا الشِّرْكِ وَإِنْ سَمَّيْنَاهُ شِرْكَ طَاعَةٍ كَذَلِكَ لَمْ يَذْكُرْ آدمُ عليهِ وعلى نبينا الصلاة و السَّلامُ فِي حَديثِ الشَّفَاعَةِ هَذَا الشِّرْكَ.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[وَلَهُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ، فِي قَوْلِهِ ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾ قَالَ: أَشْفَقَا ألا يَكُونَ إِنْسَانًا(٤)].

(١) تفسير ابن كثير، ٢/٣٣٦

(٢) راجع كلام الألباني على نحو هذا الأثر في الضعيفة برقم: (: ٣٤٢).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/)٣١٠)، وابن جرير في تفسيره (١٥٥٢١) بسند صحيح.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣٠٧/٦).

هَذَا الْأَثَرُ إِسْنادُهُ ضَعِيفٌ؛ لأَنَّ فِيه يَحي بْنَ يمانٍ. قَالَ عَنْه الْحافِظُ: (صَدُوقٌ عَابِدٌ يُخْطِئُ كَثِيرا وَقَدْ تَغَيَّرَ)[1]

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[وَذَكَرَ مَعْنَاهُ عَن الحَسَنِ[2] وَسَعِيدٍ وَغيْرِهِمَا[3]]

أَثَرُ الْحسَنِ ضَعِيفُ الْإِسْنادِ؛ للانقطاعِ بَيْنَ الْحسنِ وَبَيْنَ الرَّاوِي عَنْه. وَأَثَرُ سَعِيدٍ صَحِيحُ الْإِسْنادِ (وَسَعِيد) هُوَ ابن جُبَيْرٍ التَّابِعِيِّ، وَكَلامُ التَّابِعِيِّ لَا تَثْبتُ بِهِ مِثْلُ هَذِهِ الْقَصَصِ، فَالظَّاهِرُ أَنَّهُ مِنَ الإسرائيليات – أيضاً.–

(١) انظر التقريب (٧٦٧٩).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨٦٥٠) وابن جرير (١٥٥١٧) بإسناد ضعيف؛ للإنقطاع بين الحسن وبين الراوي عنه معمر.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨٦٥١) وابن جرير في تفسيره (١٥٥٢٢) بإسناد صحيح.

[٥١]

بَابُ

قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾(١).

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ: أَنَّ الإمام – رَحِمَهُ اللهُ – حَذَّرَ في الأبوابِ السَّابقةِ مِنَ الألفاظِ الَّتِي تُنْقِصُ التَّوْحِيدَ وَتُنَافِي كَمَالَهُ.– وفي هَذَا الْبَابِ يُبَيِّنُ مَا هُوَ الْوَاجِبُ فِي حَقِّ أسماءِ اللهِ تَعَالَى مَعَ التَّحذيرِ مِن الإلحادِ فِيْها : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝﴾ لأنَّ الْوَاجِبَ التَّعَبُّدُ للهِ تَعَالَى بِالأسماءِ الْحسنَى.(ولله) جَارٌ وَمَجْرُورٌ خَبَرٌ مُقَدَّمٌ. (الأسماء) مُبْتَدَأٌ،(الحسنى) نَعْتٌ، وَتَقْدِيمُ مَا حَقُّهُ التَّأْخِيرُ يُفِيدُ الحَصْرَ، أَيْ: أَنَّ الأسماء الحسنَى لِلَّهِ وَحْدَهُ،لَا يُشَارِكْهُ فِيهَا أحَدٌ، وَحُسْنَى: أَيْ بالِغَةٌ فِي الحسْنِ غَايَتَهُ، فَهِي أَفْعَلُ تَفْضِيلٍ مُؤَنَّثُ أَحْسَنَ.(فَادْعُوهُ بِهَا) دُعَاءُ اللهِ بِأَسْمائِهِ نَوْعَانِ: الأول: دُعَاءُ مَسْالةٍ : فَيَتَوَسَّلُ بِالْاسم الْمُنَاسِبِ لِمَطْلُوبِهِ، كَأَنْ يَقُولَ: يا رَزَّاقُ أرْزُقنِي وَنَحْوَه. الثَّانِ: دُعَاءُ الْعِبَادَةِ: قَالَ السِّعْدِيُّ – رَحِمَهُ اللهُ –:(وَأفْضلُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَدْعُوَهُ بِأَسْمائِهِ وصفاتِهِ دُعَاءَ الْعِبَادَةِ، وَذَلِكَ بِاسْتِحْضَارِ مَعَانِي الأسماء الحسْنَى وَتَحْصِيلِهَا فِي الْقُلُوبِ حَتَّى تَتَأَثَّرَ الْقُلُوبُ بِآثَارِهَا وَمُقْتَضَيَاتِهَا، وَتَمْتَلِئَ بِأَجَلِّ الْمَعَارِفِ. فَمَثَلاً أَسْمَاءُ الْعَظمَةِ وَالْكِبْرِيَاءِ وَالْمجدِ وَالجَلالِ وَالْهَيْبَةِ تَمْلَأُ الْقُلُوبَ تَعْظِيماً للهِ وَإِجْلالاً لَهُ. وَأَسْمَاءُ الجَمَالِ وَالْبَرِّ وَالْإِحْسَانِ وَالرَّحْمَةِ وَالجُودِ تَمْلَأُ الْقَلْبَ محبةً للهِ وَشَوْقًا لَهُ وَحَمْدًا لَهُ وَشُكْرًا. وَأَسْمَاءُ الْعِزِّ وَالحِكْمَةِ وَالعلمِ وَالْقدرةِ تَمْلَأُ الْقَلْبَ خُضُوعاً للهِ وَخُشُوعاً وَانْكِسارًا بَيْنَ يديهِ. وَأَسْمَاءُ الْعِلْمِ وَالخِبْرَةِ وَالْإِحَاطَةِ وَالْمُرَاقَبَةِ وَالْمُشَاهدَةِ تَمْلَأُ الْقَلْبَ

---

(١) سورة الأعراف الآية: ١٨٠.

مُرَاقِبَةً للهُ فِي الْحَرَكَاتِ وَالسَّكِنَاتِ ، وَحِراسَةً لِلْخَوَاطِرِ عَنِ الافْكَارِ الرَّديةِ وَالْإِرَادَاتِ الْفَاسِدَةِ. وَأَسْماءُ الْغِنى وَاللُّطْفِ تَمْلَأُ الْقَلْبَ افْتِقَارًا وَاضْطِراراً إِلَيهِ، وَالتِفَاتاً إِلَيهِ كُلَّ وَقْتٍ، وَفِي كُلِّ حالٍ. فَهَذِهِ الْمَعَارِفُ الَّتِي تَحْصُلُ لِلْقلُوبِ بِسَبَبِ مَعْرِفَةِ الْعَبْدِ بِأَسْمائِهِ وصفاتِهِ، وَتَعَبُّدُهُ بِهَا للهِ لَا يُحَصِّلُ الْعَبْدُ فِي الدُّنْيا أَجَلَّ وَلَا أَفْضَلَ وَلَا أَكْمَلَ مِنْهَا، وَهِي أَفْضَلُ الْعَطَايَا مِنَ اللهِ لِعَبدِهِ، وَهِي رُوحُ التَّوْحِيدِ وَرَوْحُهُ. وَمِنْ انْفَتحَ لَهُ هَذَا الْبَابُ انْفَتحَ لَهُ بَابُ التَّوْحِيدِ الْخَاصِّ ، وَالإيمَانُ الْكَامِلُ الَّذِي لَا يَحْصُلْ إِلَّا لِلْكُمَّلِ مِنَ الْمُوَحِّدِينَ ، وَإِثْبَاتُ الأَسْماء وَالصِّفَاتِ هُوَ الأَصْلُ لِهَذَا الْمَطْلَبِ الْأَعْلَى)(١) أهـ.

(وَذَرُوا الَّذِينَ) أَيْ: اتْرُكُوهُمْ و لَا تَسْلُكُوا مَسْلَكَهُمْ ، وَفِي هَذَا تَهْدِيدٌ لهُمْ.(يُلْحِدُونَ) الْإِلْحَادُ لُغَةً : الْمَيْلُ، وَشَرْعاً: هُوَ الْمَيْلُ بِهَا عَمَّا يَجِبُ فِيهَا.

أنواعُ الإلحادِ:

الأول: أَنْ يُنْكِرَ مِنْهَا شيئاً أَوْ يُنْكِرَ شيئاً مِمَّا دَلَّتْ عَلَيه مِنَ الأَحْكَامِ أَوْ الصِّفَاتِ وَمِنْهُ مَا رَوَاهُ ابن أَبِي حاتِمٍ عَنِ ابن عَبَّاسٍ ، قَوْلَهُ :"{ الَّذين يُلْحِدُونَ فِي أَسْمائِهِ } التَّكْذيبُ " (٢)،

الثَّانِي: أَنْ يُسَمِّيَ اللهَ بِمَا لَمْ يُسَمِّ بِهِ نَفْسه وَمِنه تَسْمِيَةُ النَّصَارى لَهُ بِالأَبِ.

الثَّالِثُ: أَنْ يدعِّي أَنَّهَا تَدُلُّ عَلَى التَّمْثِيلِ.

الرَّابِعُ: أَنْ يَشْتَقَّ مِنْهَا أَسَمَاءً لِلْآلِهَةِ الْبَاطِلَةِ لِمَا رَوَاهُ ابن جَرِيرٍ ، عَنْ مُجَاهِدٍ :"{ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمائِهِ} قَالَ: اشْتَقُّوا الْعُزَّى مِنَ الْعَزِيزِ، وَاشْتَقُّوا اللاتَ مِنَ اللَّهِ ".

الْخَامِسُ: أَنْ يُحَرِّفَهَا عَمَّا دَلَّتْ عَلَيهِ مِنَ الْمَعَانِي.(سيجزون مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) إشارَةٌ إِلَى عَدْلِهِ وَأَنَّه سيجازيهم على إلْحَادِهِمْ

(١) القول السديد في مقاصد التَّوحيد، ص: ١٧٦-١٧٧.

(٢) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره برقم (٨٥٨٣).

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[ذَكَرَ ابن أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما ﴿يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦ﴾ يُشْرِكُونَ وَعَنْهُ سَمُّوا اللَّاتَ مِنَ الإِلَهِ، وَالْعُزَّى مِنَ العَزِيزِ"[(١)].]

قَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ اللهِ الحفيد:(هَذَا الْأَثَرُ لَمْ يَرْوِهِ ابن أَبِي حاتِمٍ عَنِ ابن عَبَّاسٍ وَإِنَّمَا رَوَاهُ عَنْ قَتادَةَ،وَلَا شَكَّ أَنَّ الْإِلْحَادَ فِي أَسْمائِهِ شِرْكٌ) وَهَذَا هُوَ النَّوْعُ الرّابعُ مِنْ أَنْوَاعِ الْإِلْحَادِ الَّتِي مَضَتْ.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[وَعَنِ الأَعْمَشِ "يُدْخِلُونَ فِيهَا مَا لَيْسَ مِنْهَا"[(٢)].]

قوله:(الأَعْمَشِ)هُوَ سُلَيْمَانُ بْنُ مِهْرَانَ أَبُو مُحَمَّدٍ الْفَقِيهُ حافِظٌ وَرِعٌ ، مَاتَ سَنَةَ ١٤٧هـ. وَقَدْ مَضَى أَنَّ هَذَا هُوَ النَّوْعُ الثَّانِي مِنْ أَنْوَاعِ الْإِلْحَادِ الَّتِي ذُكِرَتْ.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/٢٩٢).

(٢) المصدر السابق.

[٥٢]

بَابٌ لَا يُقَالُ السَّلَامُ عَلَى اللَّهِ

مُناسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ: أَنَّ قَوْلَ السّلامِ عَلَى اللهِ مِنَ الْجَهْلِ بِأَسْماءِ اللَّهِ الْحسْنَى، إذ أَنَّ السَّلام اسمٌ مِنْ أَسْماءِ الله فكيفَ يُقالُ السَّلامُ على اللهِ وهو السّلامُ ومعناهُ: السَّالِمُ مِنْ كُلِّ نَقْصٍ وَعَيبٍ، الَّذِي يُسَلِّمَ غَيْرَه مِنَ الآفاتِ وَالنَّقَائِصِ وَالْعُيُوبِ.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[فِي الصَّحِيحِ: «عَنِ ابن مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: كُنَّا إِذَا كُنَّا مَعَ النَّبِي ﷺ فِي الصَّلَاةِ: قُلْنَا السَّلَامُ عَلَى اللَّهِ مِنْ عِبَادِهِ، السَّلَامُ عَلَى فُلَانٍ وَفُلَانٍ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ "لَا تَقُولُوا السَّلَامُ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّلَامُ»(١).]

قَوْلُهُ:(فِي الصَّلاةِ) الْمُرادُ فِي التَّشَهُّدِ، وَالنَّهْي يَشْمَلُ فِي الصَّلاةِ وَخَارِجِهَا (لَا تَقُولُوا السّلامُ عَلَى اللَّهِ) فِيه: تَحْرِيمُ قَولِ:السَّلامُ عَلَى اللهِ؛ لأَنَّهُ يَقْتَضِي أَنَّ اللهَ فَقِيرٌ إِلَى منْ يُسَلِّمُهُ،(فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ السّلامُ) صَرِيحٌ فِي أَنَّ السّلامَ اسم مِنْ أَسْماءِ اللَّهِ، وَمَعناهُ أَنَّ اللّهَ متصفٌ بِالْكَمالِ، وَمَا كَمُلَ مَنْ كَمُلَ إِلّا بِتَكْميلِ اللهِ لَهُ، وَفِي الْحَدِيثِ مِنَ الْفَوائِدِ: حُسْنُ تَعْلِيمِ النَّبِيِّ ﷺ حَيْثُ قَرَنَ الْحُكْمَ بِعِلَّتِه، وَفِي قَرْنِ الحَكَمِ بِعِلَّتِهِ طُمَأْنِينَةُ الْمُكَلَّفِ لِلْحُكْمِ، وَبَيَانُ سُمُوِّ الشَّرِيعَةِ وَأَنَّهَا تَشْتَمِلُ عَلَى الْحِكْمَةِ فِي الأمر وَالنَّهْيِ، وَمَشْرُوعِيَّةُ الْقِيَاسِ، وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّ مَنْ فَعَلَ محرماً جَاهِلاً لَا شَيْءَ عَلَيه.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجمعة– باب من سمى قومًا أوسلم في الصلاة على غيره (١٢٠٢)،ومسلم في كتاب الصلاة– باب التشهدفي الصلاة (٤٠٢).

[٥٣]

بَابُ قَوْلِ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ: أَنَّ الإمام – رَحِمَهُ اللهُ – مَا زَالَ يُحَذِّرُ مِنَ الألفاظ الَّتِي تُنْقِصُ التَّوْحِيدَ وَتُنَافِي كَمَالَهُ.فقد نهى في الباب السابق عن قول السلام على الله لأنَّه غنيٌّ عن طلب السلام له لكماله وغناه وَفِي هَذَا الْبَابِ نَهَى عَنْ تعليقِ الدُّعاءِ الَّذِي يَدُلُّ عَلَى اسْتِغْنَاءِ الْعَبْدِ عَنِ اللهِ وَعَدَمِ حاجَتِهِ إِلَى مَغْفِرَةِ رَبِّهِ ورحمتِهِ، وَهَذَا يَتَنَافَى مَعَ كَمَالِ خُضُوعِ العبد للهِ،كَمَا أَنَّهُ يُشْعِرُ أَنَّ اللهَ قد تثْقُلُ عَلَيه المغْفِرَةُ لِعَبدِهِ ، وَهَذَا يَتَنَافَى مَعَ سَعَةِ مُلكِهِ وَكَمَالِ قُدْرَتِهِ وُجُودِهِ وَكَرَمِهِ.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ لِيَعْزِمِ المَسْالَةَ: فَإِنَّ اللَّهَ لَا مُكْرِهَ لَهُ»[١].]

(لَايقُلْ أحَدُكُمْ) لَا: نَاهِيَةٌ وَالنَّهْيُ لِلتَّحْرِيمِ قَوْلُهُ: (اغْفِرْ لِي) مَعنَاهُ طَلَبُ الْعَبْدِ السِّتْرَ وَالتَّجَاوُزَ،فهُوَ يَتَضَمَّنُ اعْتِرافاً بِالذَّنبِ. قَوْلُهُ:(إِنْ شِئْتَ) يُشْعِرُ أَنَّ الْعَبْدَ ضَعِيفُ الرَّغْبَةِ فِي مَا يَطْلُبُهُ أَوْ أَنَّ ذَلِكَ الْمَطْلُوبَ عَظِيمٌ عَلَى اللهِ و عَزِيزٌ عَلَيه. قَوْلُهُ:(لِيَعْزِمِ الْمَسْالَةَ) أَيْ : لِيُؤَكِّدْ مَسْأَلتَهُ وَلِيُظْهِرْ حِرْصَهُ، وَلَا يُعَلِّقُ السُّؤَالَ بِالْمَشِيئَةِ.قَوْلُهُ:(اللَّهُمَّ ارْحَمني إِنْ شِئْتَ) وتَعْلِيقُ طلبِ الرَّحْمَةِ بِالْمَشِيئَةِ يَدُلُّ على جَهْلِ الْعَبْدِ بِنَفْسِهِ فَإِنَّهُ لَا غِنَىً لَهُ عَنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ. قَوْلُهُ: (فَإِنَّ اللهَ لَا مُكْرِهَ لَهُ) هَذَا تَعْلِيلٌ آخرُ ؛ فَإِنَّ تَعْلِيقَ الدُّعاءِ بالمشيئةِ يُشْعِرُ بِأَنَّ اللهَ رُبَّمَا يَفْعَلُ الشَّيْءَ مُكْرَهاً.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[وَلِمُسْلِمٍ : «وَلْيُعَظِّمْ الرَّغْبَةَ: فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ أَعْطَاهُ»[٢].]

(١) أخرجه البخاري في كتاب الدعوات- باب ليعزم المسألة فإنه لامكره له(٦٣٣٩)،ومسلم في كتاب الذكر والدعاء- باب العزم بالدعاء ولايقل إن شئت(٢٦٧٩).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء- باب العزم بالدعاء ولايقل إن شئت(٢٦٧٩).

(وَلْيُعَظِّمْ الرَّغْبَةَ): قَالَ الْقُرْطُبِيُّ – رَحِمَهُ اللهُ –:(لأَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى فُتُورِ الرَّغْبَةِ وَقِلَّةِ الاهْتِمَامِ بِالْمَطْلُوبِ وَكَأَنَّ هَذَا الْقَولَ يَتَضَمَّنُ أَنَّ هَذَا الْمَطْلُوبَ إِنْ حَصَلَ ، وَإِلَّا اسْتَغْنَى عَنْهُ وَمَنْ كَانَ هَذَا حالُهُ لَمْ يَتحَقَّقْ مِنْ حالَةِ الافْتِقَارِ وَالاضْطِرارِ الَّذِي هُوَ روحُ عِبادَةِ الدُّعاءِ وَكَانَ ذَلِكَ دَليلاً عَلَى قِلَّةِ اِكْتِراثِهِ بِذُنُوبِهِ وَبِرَحْمَةِ رَبِّهِ أيضاً). [١]

وَتَعْلِيقُ الْمَشِيئَةِ يَدُلُّ عَلَى جَهْلِ الْعَبْدِ بِذُنُوبِهِ وَجهلِهِ بِسَعَةِ رَحْمَةِ اللهِ، كَمَا أَنَّ فِي تَعْلِيقِ الدُّعَاءِ بِالْمَشِيئَةِ إِسَاءَةَ الظَنِ بِجُودِهِ وَكَرَمِهِ، فَاللهُ تَعَالَى لَا يَلِيقُ بِهِ ذَلِكَ لِكَمَالِ سُلْطَانِهِ وَكَمَالِ جُودِهِ وَكَرَمِهِ، فَالْخَلْقُ جَمِيعُهُمْ فَقراءُ إِلَيهِ لا غِنَىً لَهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَفِي الْحَدِيثِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ:(قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ وَقَالَ: يَدُ اللَّهِ مَلأَى لَا تَغِيضُهَا نَفَقَةٌ سَحَّاءَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَقَالَ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاءَ وَالأَرْضَ فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَدِهِ)[٢]. وَهُوَ الْمَحْمُودُ عَلَى النِّعَمِ كُلِّهَا فَهُوَ الَّذِي شاءَهَا وَقَدَّرَهَا وَأَجْرَاهَا قال الله تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾[٣].

لكن يَرِدُ على حديث الباب بعض النصوص التي فيها تعليق الدعاء بالمشيئة الأول حديث دعاء الاستخارة وحديث تمني الموت . وَدُعَاءُ الاسْتَخَارَةِ؛ ليس فيه تعليق للدعاء بل فيه تفويض العبد ربه في الاختيار وكذا في دعاء تمني الموت فإنَّ الْعَبْدَ لا يدري عَاقِبَتَهَا وَلَا رُجْحانَ نَفْعِهَا عَلَى ضَرَرِهَا ، فَإِنَّ كَمَالَ الْعُبُودِيَّةِ تَعْلِيقُهَا ، وَتَفْوِيضُ الرَّبِّ سُبْحَانَه فِي اخْتِيَارِ الْخَيْرِ لِلْعَبْدِ.

(١) المفهم (٢٩/٧).

(٢) أخرجه البخاري،بَاب قَوْلِهِ: (وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ)، برقم: (٤٦٨٤).

(٣) سورة النحل الآية: ٥٣.

و منها دعاء عيادة المريض وفيه قولُ النبي ﷺ للأعرابي (لا بأس، طهور إن شاء اللَّه) ومعناه ليس بك بأس وهذا من باب تسلية المريض وطهرت ذنوبك بما أصابك فهي جملة خبرية و لولا قرنها بالمشيئة لكانت جزم له بالطهور فتعليق الدعاء بالمشيئة دلَّ على أنَّ هذه الجملة معناها الدعاء وإن كانت صيغتها صيغة الخبرفالمريض قد يحصل له التطهير بالمرض وقد لا يحصل له. وذلك إذا لم يصبر على قدر الله فإنَّ الجزع يذهب أجر المصيبة.

[٥٤]

بَابٌ لَا يَقُولُ عَبْدِي وَأَمَتِي

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ: أَنَّ هَذَا الْبَابَ مِنْ جِنْسِ الأبواب السَّابِقَةِ فِي التَّحْذِيرِ مِنَ الألفاظ الَّتِي تُنْقِصُ التَّوْحِيدَ وَتُنَافِي كَمَالَهُ.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ أَطْعِمْ رَبَّكَ، وَضِّئْ رَبَّكَ وَلْيَقُلْ سَيِّدِي وَمَوْلَايَ وَلَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ عَبْدِي وَأَمَتِي وَلْيَقُلْ فَتَايَ وَفَتَاتِي وَغُلَامِي»[(١)].]

لفظ الرب له ثلاث حالات :

الأولى: أن يكون معرفا بـ(ال) فهذا يختص بالله وحده كما في الحديث (فَأَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبّ)[(٢)]

الحالة الثانية: أن يضاف لغير العاقل من المتاع والدواب فهذا جائز نحو قوله في ضالة الإبل:(حَتَّى يَجِدَهَا رَبُّهَا) [(٣)]

الحالة الثالثة : أن يضاف للإنسان سواء كان لضمير متكلم أو مخاطب أو غائب وهو ما جاء فيه حديث الباب (لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ أَطْعِمْ رَبَّكَ، وَضِّئْ رَبَّكَ)لَا: نَاهِيَةٌ، وَالأَصْلُ فِي النَّهْيِ التَّحْرِيمُ، وَمِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ مَنْ حَمَلَهُ عَلَى الْكَرَاهَةِ. و الْمَحْظُورُ فِي هَذَا اللَّفْظِ أَنَّ فِيه إِشْعارًا للعبدِ بِالذُّلِّ. فَإِذَا سَلِمَ مِنْ ذلكَ

(١) أخرجه البخاري في كتاب العتق- باب كراهية التطاول على الرقيق وقوله: عبدي (٢٥٥٢)،ومسلم في كتاب الألفاظ من الأداب وغيرها- باب حكم إطلاق لفظة العبد و الأمة و المولى والسيد (٢٢٤٩).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب العتق- باب كراهية التطاول على الرقيق وقوله: عبدي (٢٥٥٢)،ومسلم في كتاب الألفاظ من الأداب وغيرها- باب حكم إطلاق لفظة العبد و الأمة و المولى والسيد (٢٢٤٩).

(٣) أخرجه البخاري، بَاب ضَالَّةِ الْغَنَمِ، برقم: (٢٤٢٨)، ومسلم، كتاب اللقطة، برقم: (٤٥٩٩).

فهوَ جَائزٌ. مِثلُ قَوْله عَلَيه الصَّلاةُ وَالسّلامُ: (إذا وَلَدَتِ الأمَةُ رَبَّهَا)[1].كَقَوْلِ يوسفَ – عَلَيهِ السلامُ -: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَاىَ﴾[2].

قوله: (وَلْيَقُلْ سَيِّدِي وَمَوْلَايَ) السَّيّدُ : مِنَ السِّيادَةِ وَهي عُلُوُّ الْمَنْزِلَةِ وَالشَّرَفِ وَالْجَاهِ، وَالسَّيِّدُ معرفاً بـ (ال) عَلَى وَجْهِ الْإِطْلَاقِ لَا يُقَالُ إِلّا للهِ عزَّ وَجَلَّ أَمَّا إِذَا أضِيفَ فَيَجُوزُ إِطْلَاقُهُ عَلَى غَيْرِهِ بشرطين الأول أن يكون من أطلق عليه أهلاً لذلك لقولِهِ:(لَا تَقُولُوا لِلْمُنَافِقِ سَيِّدُنَا)[3] مَفْهُومُهُ أَنَّه يَجُوزُ أَنَّ نُقُولَ لِغَيْرِ الْمُنَافِقِ سَيِّدُنَا . والثاني ألا يوقع القائل في الغلو. ولا المخاطب به في العجب .

تَنْبِيهٌ :

اشْتهَرَ عِنْدَ بَعْضِ النَّاسِ إِطْلَاقُ السَّيِّدَةِ عَلَى الْمَرْأَةِ ، وَهَذَا قَلْبٌ لِلْحَقَائِقِ ؛ لأنَّ السِّيادَةَ حَقُّ الرِّجَالِ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾[4].أَفَادَهُ ابن عُثَيْمِين.

قوله: (وَمَوْلَايَ) هَذِهِ اللَّفْظَةُ لَهَا معانٍ كَثِيرَةٌ مِنْهَا : النَّصِيرُ ، وَالْعَتِيقُ ، وَالسَّيِّدُ ، وَالْعَبْدُ ...

قوله: (وَلَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ عَبْدِي وَأَمَتِي)

لَفظُ الْعَبْدِ وَالْأَمَةِ لَهُ حالَتَانِ:

الأولى : أَنْ يُضِيفَهُ إِلَى غَيْرِ الْمُتَكَلِّمِ فَهَذَا جَائِزٌ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡ﴾[5]، وفي الحديث: (لَيْسَ عَلَى الْمُسْلِمِ فِي عَبْدِهِ وَلا فَرَسِهِ صَدَقَةٌ)[6].

(١) أخرجه البخاري، بَاب سُؤَالِ جِبْرِيلَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ وَالْإِحْسَانِ وَعِلْمِ السَّاعَةِ...، برقم: (٥٠).

(٢) سورة يوسف الآية: ٢٣.

(٣) أخرجه أحمد، برقم: (٢٢٩٣٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم: (٧٤٠٥).

(٤) سورة النساء الآية: ٣٤.

(٥) سورة النور الآية: ٣٢.

(٦) أخرجه مسلم، باب لا زَكَاةَ عَلَى الْمُسْلِمِ فِي عَبْدِهِ وَفَرَسِهِ، برقم: (٢٣٢٠).

الثَّانِيَةُ : أَنْ يُضِيفَهُ المتكلم إلى نفسه وَهَذَا منهي عنه سيما إن أشْعر بِتَكَبُّرٍ أَوْ إِذْلالٍ لِلْعَبْدِ. فَيكون حراماً وإلا فمكروه .

قوله :(وَلْيَقُلْ فَتَايَ وَفَتَاتِي وَغُلامِي) فِيه : سَمَاحَةُ هَذِهِ الشَّرِيعَةِ حَيْثُ أَنَّهَا تَرْفَعُ الْحَرَجَ فَمَا نَهَتْ عَنْ شيءٍ إلّا أَمَرَتْ بِأَحْسَنَ مِنْه.

[٥٥]

بَابٌ لَا يُرَدُّ مَنْ سَأَل بِاللَّه

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ: أَنَّ هَذَا الْبَابَ فِيه تَعْظِيمٌ لله جَلَّ وَعَلا بِالْفِعْلِ وَالأبواب السَّابِقَةُ فِي تَعْظِيمِ اللهِ جَلَّ وَعَلا بِالْقَوْلِ.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[عَنِ ابن عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ سَأل بِاللَّهِ: فَأَعْطُوهُ، وَمَنِ اسْتَعَاذَ بِاللَّهِ: فَأَعِيذُوهُ وَمَنْ دَعَاكُمْ فَأَجِيبُوهُ: وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ: فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ» (١) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ.]

قَولُهُ:(مَنْ سَأل بِاللَّهِ: فَأَعْطُوهُ) يَجِبُ إِعْطَاءُ السَّائِلِ ما سَأَلَ يشروط أن يسَأَلَ مُعِينا حاجَةً مُعَيَّنَةً، وَألا يُوْجبُ سُؤَالُهُ إثْماً ،وأن تكونَ حاجَتُهُ فِي قُدْرَةِ الْمَسْؤُولِ. قَولُهُ: (وَمَنِ اسْتَعَاذَ بِاللَّهِ) أَيْ: من طَلَبَ مِنَ اللهِ الْعَوْذَ. وهو الحمايةُ قَولُهُ:(فَأَعِيذُوهُ) فِعْلُ أَمْرٍ، أَيْ: يَجِبُ عَلَيكُمْ أَنْ تَدْفَعُوا عَنْه الشَّرَّ الَّذِي اسْتَعَاذَ مِنْه بِاللَّهِ مَا لَمْ توجب اسْتِعاذَتُهُ إِسْقاطاً لِوَاجِبٍ، كَمَنْ أصَابَ حداً ثُمَّ اسْتَعَاذَ بِاللهِ فلا يسقط عنه الحدُّ قَولُهُ: (وَمَنْ دَعَاكُمْ فَأَجِيبُوهُ) ظاهِرُ الْحَدِيثِ أَنَّ إِجَابَةَ الدَّعْوَةِ وَاجِبَةٌ مُطْلَقاً ، وَخَصَّهَا جُمْهُورُ أَهْلِ الْعِلْمِ بِوَلِيمَةِ الْعُرْسِ لحديث ابْنِ عُمَرَ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِذَا دُعِيَ أَحَدُكُمْ إِلَى وَلِيمَةِ عُرْسٍ، فَلْيُجِبْ» (٢)

وَاشْتَرَطُوا فِي وُجُوبِ إِجَابَتِهَا أَرْبَعَةَ شُرُوطٍ :

١– أَلَّا تَشْتَمِلَ الدَّعْوَةُ عَلَى مُنْكرٍ.

٢– أَنْ يَكُونَ الْمَدْعُو قَادِراً ، فَلَا تَجِبُ عَلَيهِ إِنْ كَانَ بَعِيدًا أَوْ مَرِيضاً.

---

(١) أخرجه أبوداود في كتاب الزكاة– باب عطية من سأل بالله (١٦٧٢)،والنسائي في كتاب الزكاة– باب من سأل بالله عز وجل (٢٥٦٧)،من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما، وحسنه الألباني في«صحيح الجامع» (٦٠٢١).

(٢) أخرجه.مسلم، باب الأمر بإجابة الداعي إلى دعوة برقم: (١٤٢٩).

٣- أَنْ يَخُصَّهُ بِالدَّعْوَةِ ، فَلَا تَجِبُ الدَّعْوَةُ الْعَامَّةُ.

٤- أَنْ يَكُونَ الدَّاعِي مُسْلِماً، فَلَا تَجِبُ دَعْوَةُ الْكَافِرِ لِحَدِيثِ(حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ) (١)

هَذِهِ الشُّرُوطُ أَفَادَهَا ابن عُثَيْمِين فِي الْقَوْلِ الْمُفِيدِ (٢).قَوْلُهُ: (وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفاً فَكَافِئُوهُ) إِنَّمَا شُرِعَتْ الْمُكَافأةُ؛ لأنَّ الْقُلوبَ جُبِلَتْ عَلَى مَحَبَّةِ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيهَا وَالْخُضُوعِ لَهُ، فَيحصل بالْمُكَافَأةِ تَحْقِيقٌ لِلتَّوْحِيدِ ولا يبقى فِي الْقَلْبِ نَوْعُ ذُلٍ لِلْمُحْسِنِ ،والمكافأة مِنْ أخْلاقِ الْكرامِ ، وَعَدَمُهَا مِنْ أخْلاقِ اللّئامِ ، وَمِن الْكرامِ منْ يُكَافِئ عَلَى الْإِسَاءةِ إحْسَانًا ، وَمِن اللّئامِ منْ يُكَافِئ عَلَى الْمَعْرُوفِ إِسَاءَةً (فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ : فَأَدْعُوَا لَهُ) فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ الْمُكَافأةَ لَزِمَهُ الدُّعَاءُ. (حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ)- بِالْفَتْحِ - أَيْ : حَتَّى تَعْلَمُوا ، وَبِالْضَّمِّ أَيْ : حَتَّى تَظُنُوا. وَفِي الْحَدِيثِ حِرْصُ الشَّرِيعَةِ عَلَى أَسْبَابِ الإلفةِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ. وأفضل شيْءٍ يقوله له المسلم في هذا الباب ما جاءت به السنة عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ [مَنِ اصْطُنِعَ إِلَيْهِ مَعْرُوفٌ فَقَالَ لِفَاعِلِهِ جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا فَقَدْ أَبْلَغَ فِي الثَّنَاءِ]رواه الترمذي وإسْناده حسن

---

(١) أخرجه البخاري، بَاب الْأَمْرِ بِاتِّبَاعِ الْجَنَائِزِ، برقم: (١٢٤٠)، ومسلم، باب مِنْ حَقِّ الْمُسْلِمِ لِلْمُسْلِمِ رَدُّ السَّلَامِ، برقم: (٥٧٧٦).

(٢) انظر القول المفيد، ٣٥١.

[٥٦]

بَابٌ لَا يُسْأل بِوَجْهِ اللَّهِ إِلَّا الجنَّة

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ: ظاهِرَةٌ، وَهِي أَنَّ هَذَا الْبَابَ مِنَ الأَسْبَابِ وَالْبَابُ السَّابِقُ من الغايات، فَإِذَا كَانَ إعْطَاءُ السَّائِلِ وَاجِباً فَلَا يجوزُ لِلسَّائِلِ أَنْ يُقْحِمَ غَيْرَه فِي الْوُجُوبِ ؛ لَأَنَّهُ قَدْ لا يَقعُ منه امْتِثَالٌ فَيَقَعُ فِي الْحَرَامِ.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا يُسْأَلُ بِوَجْهِ اللهِ إِلَّا الجنَّة»(١) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ.]

قَالَ الشَّيْخُ سُليمَانُ بْنُ عَبْدِ اللهِ: (فِي الْحَديثِ سُليمَانُ بْنُ مَعَاذٍ، قَالَ فِيه يَحْيى بْنُ مَعِينٍ: " لَيْسَ بِشيءٍ"

قَالَ الشَّيْخُ الألبانيُّ – رَحِمَهُ اللهُ –:(وَيَدُلُّ عَلَى تَحْرِيمِ السُّؤَالِ بِهِ تَعَالَى حَديثُ :" لَا يسْأل بِوَجْهِ اللَّهِ إِلّا الْجَنَّة"، وَلَكِنَّهُ ضَعِيفُ الْإِسْنادِ، كَمَا بينهُ الْمُنْذِرِيُّ وَغَيْرُهُ، وَلَكِنَّ النَّظَرَ الصَّحِيح يَشْهَدُ لَهُ، فَإِنَّهُ إِذَا ثَبتَ وُجُوبُ الْإعْطَاءِ لِمَنْ سَأل بِهِ تَعَالَى كَمَا تَقَدَّمَ، فَسُؤَالُ السَّائِلِ بِهِ قَدْ يُعَرّضُ الْمَسْؤُولَ لِلْوُقُوعِ فِي الْمُخَالَفَةِ وَهُوَ عَدَمُ إِعْطَائِهِ مَا سَأل، وَهُوَ حَرامٌ، وَمَا أَدَّى إِلَى مُحَرَّمٍ فَهُوَ مُحَرَّمٌ فَتَأَمَّل!)(٢).

وَهَذَا النَّظَرُ الصَّحِيحُ مِنَ الْعَلامَةِ الألباني- رحمه الله- قَدْ وَافَقَ نصاً صَرِيحا صَحَّحَهُ الألباني فِي السِّلْسلَةِ الصَّحِيحَةِ بِرَقْمِ:(٢٢٩٠) وَلَمْ يَذْكُرْهُ فِي هذا الْمَوْضِعِ: عَنْ أَبِي مُوسى عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ :(مَلْعُونٌ مَنْ سَأل بِوَجْهِ اللَّهِ ، وَمَلْعُونٌ مَنْ يُسْأل بِوَجْهِ اللَّهِ ثُمَّ مَنعَ سَائلهُ مَا لَمْ يَسْألهُ هُجْراً). رواه الطبراني في

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الزكاة- باب كراهية المسألة بوجه الله تعالى (١٦٧١)، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٥٠٦).

(٢) الصحيحة (٤٥٧/١).

المعجم الكبير أَيْ مَا لَمْ يَسْأل شيئاً مُحَرَّماً أَوْ باطِلاً. وَثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيّ أَنَّ النَّبي ﷺ لَمَّا نزَلَ قَوْلُهُ ﴿ قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ ﴾[1]، قال: (أعوذُ بوجهك)[2]. وَمِنْ هَذِهِ النُّصُوصِ الصَّحِيحَةِ الصَّرِيحَةِ نَسْتَفِيدُ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ سُؤَالُ الْمَخْلُوقِ بالله ولا بِوَجْهِ اللَّهِ مُطْلَقاً، وَفِيهَا: إِثْبَاتُ صِفَةِ الْوَجْهِ كَمَا يَلِيقُ بِجَلالِهِ وَكَمَالِهِ، وَلَا يَلْزَمُ مِنَ الْإِثْبَاتِ التَّمْثِيلَ. قَالَ نُعيم بْنُ حَمَّادٍ – رَحِمَهُ اللهُ -:(مَنْ شَبَّهَ اللهَ بِخَلْقِهِ فَقَدْ كَفَرَ، وَمَنْ جَحَدَ مَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسُه فَقَدْ كَفَرَ وَلَيْسَ فِي مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، وَلَا رَسُولُهُ تَشْبِيهًا)[3].

---

(١) سورة الأنعام الآية: ٦٥.

(٢) أخرجه البخاري، باب:(قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ) برقم: (٤٣٥٢).

(٣) رواه اللالكائي في شرح السنة (٩٣٦). والذهبي في "العلو" ص ١١٦ وصححه الألباني.

[٥٧]

بَابُ مَا جَاءَ فِي الـ(لَوْ)

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ: أَنَّه مِنْ جِنْسِ الأبواب السَّابِقَةِ فِي تَعْظِيم اللَّهِ تَعَالَى والتَّحذِيرِ مِنَ الألفاظ الَّتِي تُنْقِصُ التَّوْحِيدَ وتُنَافِي كمالَهُ، فَإِنَّ لَفْظَ (لَوْ) اعْتِراضٌ عَلَى الْقَدرِ. والتفات للأسباب وَمَعْنَى التَّرْجَمَةِ: بَابُ مَا جَاءَ فِي اللَّفْظِ (لَوْ)، وَلَمْ يَذْكُرِ الإمام – رَحِمَهُ اللهُ – الْحُكْمَ فِي التَّرْجَمَةِ؛ لأَنَّهُ لَيْسَ وَاحِداً، فَمِنْهَا الْمَشْرُوعُ: وَذَلِكَ إِذَا كَانَ الْفِعْلُ مُسْتَقْبَلاً لِتَمَنِّي الْخَيْرِ، كَمَا فِي الْحَدِيثِ:(لَوْ أَنَّ لِي مَالاً لَعَمِلْتُ فِيه بِعَمَلِ فُلَانٍ فَهُوَ وَنِيَّتُهُ فَأَجرُهُمَا سَوَاءٌ.)(١) وَ منها الْمَمْنُوعُ وهو مَا كَانَ فِي فِعْلٍ وَقَع فِي الْمَاضِي؛ لِمَا فِيه مِنَ التَّحَسُّرِ وَالْاعْتِرَاضِ عَلَى الْقَدرِ.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [وقول الله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾(٢)]

قولُهُ: (يقُولُونَ) ضَمِيرُ الْفَاعِلِ يَعُودُ إِلَى الْمُنَافِقِينَ ،(لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأمر شَيْءٌ) الأمر: وَاحِدُ الْأُمُورِ أَيْ:الشَّأْنُ، وَشَيْءٌ : أَيْ : مَشُورَةٌ وَرَأْيٌ ،(مَا قُتِلْنَا هَا هُنَا) أَيْ: مَا قُتِلَ بَعْضُنَا فِي أُحُدٍ ، وَفِي هَذَا تَزْكِيَةٌ لأنْفُسِهِمْ وَتَسْفِيهٌ لِرَأْيِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَاعْتِرَاضٌ عَلَى الْقَدرِ، فَرَدَّ اللهُ قَوْلَهُمْ هَذَا بِقولِهِ:

﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾

(لِبَرَز) أَيْ : لخَرَجَ ،(إِلَى مَضَاجِعِهِمْ) إِلَى مَصَارِعِهِمْ ، أَيْ: هَذَا قَدرٌ مقدرٌ مِنَ اللهِ – عَزَّ وَجلَ – وَحُكْمٌ لازِمٌ لَا مَفرَّ مِنْهُ، فَمَنْ كُتِبَ عَلَيه شَيْءٌ لَا بدَّ أَنْ يَنَالَهُ وَلَا يُغْنِي عَنْه قَوْلُ (لَوْ) إِلّا الْحَسْرَةَ وَالنَّدَامَةَ، وَالْوَاجِبُ فِي هَذِهِ الْحَالِ الْإِيمَانُ بِاللهِ، وَالتَّعزِّي بِقَدَرِهِ مَعَ مَا يَرْجُو مِنْ حُسْنِ ثَوابِهِ ، وَذَلِكَ عَيْنُ

(١) أخرجه الترمذي، باب ما جاء مثل الدنيا مثل أربعة نفر، برقم: (٢٣٢٥)، وصححه الألباني في "صحيح سنن الترمذي".

(٢) سورة آل عمران الآية: ١٥٤.

الْفلاحِ فِي الدُّنيا وَالْآخِرَةِ ، وَفِي الْآيَةِ أَنَّ قَوْلَ (لَوْ) مِنْ خِصَالِ الْمُنَافِقِينَ، وَأَنَّ مَا قَدَّرَهُ اللَّهُ وَاقِعٌ وَلَوْ لَمْ تَقُمْ أَسْبَابُهُ.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[وقولُهُ: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ ﴾[1].]

قَوْلُهُ (الَّذِينَ قَالُوا) هُمْ الْمُنَافِقُونَ،(لإخوانِهِم) هُمْ الْمُسْلِمُونَ الْمُجاهِدُونَ، وَسُمُّوا إِخْوَانُهُمْ بِحَسبِ الظَّاهِرِ ، وَقِيلَ : فِي النَّسيب.(لَوْ أَطَاعُونا) أَيْ: لَوْ سمعُوا مَشُورَتَنَا عَلَيهِمْ بِعَدَمِ الخُرُوجِ، (مَا قُتَلُوا) قال تعالى ﴿قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ "فَإِنْ كَانَ الْقُعُودُ يَسْلَمُ بِهِ الشَّخْصُ مِنَ الْقَتْلِ وَالْمَوْتِ فَينْبغِي الا تَمُوتُوا، وَالْمَوْتُ لَا بُدَّ آتٍ إِلَيكُمْ وَلَوْ كُنْتُم فِي بُروجٍ مُشَيَّدَةٍ، فَادْفَعُوا عَنْ أَنَفسِكُمْ الْمَوْتَ إِنْ كنْتُم صَادِقِينَ." [2] قَالَهُ ابن كَثِيرٍ. فَقَولُ:(لَوْ) فِي مِثْلِ هَذَا الْمَقَامِ لَا يُجْدِي شيئاً إِذْ الْمُقَدَّرُ قَدْ وَقَعَ فَلَا سَبِيلَ لِدَفْعِهِ أَبَدًا. وَفِي الْآيَةِ مِنَ الْفَوائِدِ: أَنْ قَوْلَ (لَوْ) مِنْ صِفَاتِ الْمُنَافِقِينَ. وَفِيهَا خُطُورَةُ أَهلِ النِّفَاقِ فِي الْوَسَطِ الْمُؤْمِنِ ؛ إِذْ أَنَّهُمْ يَخْذُلُونَهُمْ عَنِ الطَّاعَةِ.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجَزَنْ، وَإِنْ أَصابَكَ شَيْءٌ: فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذا، لَكَانَ كَذَا وَكَذا، وَلَكِنْ قُلْ قَدَّرَ اللَّهُ وَمَا شاءَ فَعَلَ: فَإِنَّ (لَوْ) تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»[3].]رَواهُ مُسْلِمٌ، وَأَوَّلُ هَذَا الْحَدِيثِ :(الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ). الْمُرادُ بِالْقَوِيِّ هُنَا : قَوِيُّ الْإِيمَانُ ؛ لأنَّ الْقَوِيَّ وَصْفٌ عَائِدٌ عَلَى الْمَوْصُوفِ وَهُوَ الْمُؤْمِنُ ، مَعَ أَنَّ قُوَّةَ الْبَدَنِ نِعْمَةٌ إِذَا اسْتُعْمِلَتْ فِي طَاعَةِ اللَّهِ. (خَيْرٌ) أَيْ: فِي تَأْثِيرِهِ وَآثَارِهِ. (وَأَحبُّ إِلَى اللهِ) فِيهِ إِثْبَاتُ صِفَةِ الْمَحَبَّةِ لله تَعَالَى، وَفِيه: تَفَاوتُ الْإِيمَانِ بين أصحابه.(وَفِي كلٍ خَيْرٌ) هَذَا يُسَمَّى عندَ البلاغيين احْترَازٌ أَيْ: لَا

---

(١) سورة آل عمران الآية: ١٦٨.

(٢) تفسير ابن كثير، ٥٢٣/١.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب القدر– باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة (٢٦٦٤).

تَظُنَّ أَنَّ الْمُؤْمِنَ الضَّعِيفَ لَا خَيْرَ فِيهِ. (احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ) الْحِرْصُ: هُوَ بذْلُ الْوُسْعِ وَاسْتِفْرَاغُ الْجُهْدِ لِإِدْرَاكِ أَمْرٍ مَقْصُودٍ، وَكَمَالُ الْإِنسانِ فِي مَجْمُوعِ هَذَيْنِ الأمرِيْنِ: أَنْ يَكُونَ حَرِيصاً وَأَنْ يَكُونَ حِرْصُهُ عَلَى مَا يَنْفَعُهُ، فَيَفُوتُهُ مِنَ الْكَمَالِ بِحَسْبِ مَا يَفُوتُهُ مِنْ هَذَيْنِ الأمرِيْنِ. أَفَادَهُ ابن الْقَيِّمِ[١] (وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجَزَنْ) الْاسْتِعانَةُ: هِي طَلَبُ الْعَوْنِ مِنَ اللهِ، وَتَكُونُ بِاللِّسَانِ وَبِالْقَلْبِ، بِأَنْ تَعْتَرِفَ بِقَلْبِكَ وَلِسَانِكَ أَنَّكَ بِحاجَةٍ إِلَى رَبِّكَ، أَيْ: لَا تَعْتَمِدْ عَلَى الْحِرْصِ فَقَط، فَإِنَّكَ مَهْمَا بَذَلْتَ مِنَ الأَسْبَابِ فَإِنَّهَا لَا تَنْفَعُ إِلّا بِإِذْنِ اللهِ. أَفَادَهُ العلامة الْفَوْزانُ[٢]، (وَإِنْ أَصابَكَ شَيْءٌ) أَيْ: إِنْ وَقَعَ خِلافُ مَقْصُودِكَ (فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا) كِنَايَةٌ عَنْ مُبْهَمٍ هُوَ مَفْعُولُ فَعَلْتُ.(لَكَانَ كَذَا وَكَذَا) كِنَايَةٌ عَنْ مُبْهَمٍ هُوَ فَاعِلُ كَانَ. قَالَ ابن الْقَيِّمِ – رَحِمَهُ اللهُ -:(وَلَمَّا كَانَ حِرْصُ الْإِنْسانِ وَفِعْلُهُ إِنَّمَا هُوَ بِمَعُونَةِ اللَّهِ وَمَشِيئَتِهِ وَتَوْفِيقِهِ أَمَرَهُ أَنْ يَسْتَعِينَ بِاللهِ لِيَجْتَمِعَ لَهُ مَقَامُ {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}. فَإِنَّ حِرْصَهُ عَلَى مَا يَنْفَعُهُ عِبَادَةٌ لله تَعَالَى. وَلَا يَتِمُّ إِلّا بِمَعُونَتِهِ فَأَمَرَهُ أَنْ يَعْبُدَهُ وَأَنْ يَسْتَعِينَ بِهِ. فَالْحَرِيصُ عَلَى مَا يَنْفَعُهُ، الْمُسْتَعِينُ بِاللهِ ضِدُّ الْعَاجِز. فَهَذَا إِرْشَادٌ لَهُ قَبْلَ وُقُوعِ الْمَقْدُورِ إِلَى مَا هُوَ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ حُصُولِهِ، وَهُوَ الْحِرْصُ عَلَيه مَعَ الْاسْتِعانَةِ بِمَنْ أَزِمَّةُ الْأُمُورِ بِيَدِهِ وَمُصْدرُهَا مِنْهُ وَمَرَدُّهَا إِلَيهِ. فَإِنْ فَاتَهُ مَا لَمْ يُقَدَّرْ لَهُ فَلَهُ حالَتَانِ: عَجْزٌ. وَهُوَ مِفْتَاحُ عَمَلِ الشَّيْطَانِ، فَيُلْقِيهُ الْعَجْزُ إِلَى قَوْلِ:" لَوْ" وَلَا فَائِدَةَ مِنْ " لَوْ " هَاهُنَا، بَلْ هِي مِفْتَاحُ اللَّوْمِ وَالْعجزِ وَالسُّخْطِ وَالأسَفِ وَالْحزنِ، وَذلِكَ كُلُّه مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ. فَنَهَاهُ ﷺ عَنِ افْتِتَاحِ عَمَلِهِ بِهَذَا الافْتِتَاحِ، وَأَمَرَهُ بالْحَالَةِ الثَّانِيَةِ: وَهِي النَّظَرُ إِلَى الْقَدَرِ وَمُلاحَظَتِهِ ، وَأَنَّه لَوْ قُدِّرَ لَهُ لَمْ يَفُتْهُ وَلَمْ يَغْلِبْهُ عَلَيهِ أحَدٌ، فَلَمْ يَبْقَ لَهُ هَاهُنَا أَنْفَعُ مِنْ شُهُودِ الْقَدَرِ، وَمَشِيئَةِ الرَّبِّ النَّافِذَةِ الَّتِي تُوجِبُ وُقُوعَ الْمَقْدُورِ، وَإِنْ انْتَفَتْ امْتنَعَ وُجُودُهُ؛ وَلِهَذَا قَالَ:" فَإِنْ غلبَكَ أَمْرٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ ". فَأَرْشَدَهُ إِلَى مَا يَنْفَعُهُ فِي الْحَالَتَيْنِ : حالَةِ حُصُولِ

(١) شفاء العليل، ١٣/٥، الناشر:دار المعرفة، بيروت، لبنان، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

(٢) إعانة المستفيد شرح كتاب التَّوحيد، ص:٢٣٣.

الْمَطْلُوبِ، وَحالَةِ فَوَاتِهِ، فَلِهَذَا كَانَ هَذَا الْحَدِيثُ مِمَّا لَا يَسْتَغْنِي عَنْه الْعَبْدُ أَبَداً، بَلْ هُوَ أَشَدُّ إِلَيه ضَرُورَةً، وَهُوَ يَتَضَمَّنُ إِثْبَاتَ الْقَدَرِ وَالْكَسْبِ وَالْاخْتِيَارِ، وَالْقِيَامَ بِالْعُبُودِيَّةِ ظاهِراً وَباطِناً فِي حالَتَي حُصُولِ الْمَطْلُوبِ وَعَدَمِهِ وَبِاللهِ التَّوْفِيقِ)[١].

وَفِي الْحَدِيثِ غَيْرُ مَا ذَكَرْنَا مِنَ الْفَوَائِدِ : وُجُوبُ الْإِيمَانِ بِالْقَدرِ . وَفِيه الْحَثُّ عَلَى الْقِيَامِ بِالأَسْبَابِ وَعَدَمُ الْاعْتِمادِ عَلَيهَا . وَفِيه أَنَّ الشَّرِيعَةَ جَاءَتْ بِتَحْقِيقِ الْمَصَالِحِ وَتَكْمِيلِهَا . وَفِيه مَشْرُوعِيَّةُ الْاحْتِجَاجِ بِالْقَدَرِ فِي الْمَصَائِبِ لَا المعائب.

(١) شفاء العليل، ص:١٩، الناشر : دار الفكر – بيروت ، ١٣٩٨ – ١٩٧٨، تحقيق : مُحَّد بدر الدين أبو فراس النعساني الحلبي.

[٥٨]

بَابُ النَّهْيِ عَنْ سَبِّ الرِّيحِ

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ: أَنَّه مِنْ جِنْسِ الأبواب السَّابِقَةِ فِي التَّحَفُّظِ مِنَ الأَقْوَالِ وَالألفاظ الَّتِي تُنْقِصُ التَّوْحِيدَ وَتُنَافِي كَمَالَهُ ؛إِذْ سَبُّ الرِّيحِ سبٌ لِمُرْسِلِهَا وَاعْتِراضٌ عَلَيه، فَهُوَ يَشْبَهُ الْبَابَ السَّابِقَ فِي الْاعْتِراضِ عَلَى أَفْعَالِ اللهِ، وَالْوَاجِبُ الرِّضا وَالتَّسْلِيمُ بمَا قَضَى وَفعل سبحانه.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ –ﷺ– أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَسُبُّوا الرِّيحَ: فَإِذَا رَأَيْتُمْ مَا تَكْرَهُونَ: فَقُولُوا اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلكَ مِنْ خَيْرِ هَذِهِ الرِّيحِ وَخَيْرِ مَا فِيهَا وَخَيْرِ مَا أُمِرَتْ بِهِ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ هَذِهِ الرِّيحِ وَشَرِّ مَا فِيهَا وَشَرِّ مَا أُمِرَتْ بِهِ»[١] صَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ.]

قوله:(عن أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ) : هُوَ ابن قِيس بْنِ عُبيد بْنِ زَيْدٍ النِّجَارِي الأَنْصارِي الْخَزْرَجِي، أَبُو الْمُنْذِرِ، بدريٌّ مِنَ الْقراءِ. (لَاتَسُبُّوا الرِّيحَ) النَّهْي لِلتَّحْرِيمِ. قَالَ السِّعْدِي – رَحِمَهُ اللهُ –:(... وَمَعَ تَحْرِيمِهِ فَإِنَّه حُمْقٌ وَضَعْفٌ فِي الْعَقْلِ وَالرَّأْيِ، فَإِنَّ الريحَ مُصَرَّفَةٌ مُدَبَّرَة بِتَدْبِيرِ اللهِ وَتَسْخِيرِهِ، فَالسَّابُّ لَهَا يَقَعُ سَبُّهُ عَلَى مَنْ صَرَّفَهَا، وَلَوْلَا أَنَّ الْمُتَكَلِّمَ بِسَبِّ الرِّيحِ لَا يَخْطُرُ هَذَا الْمَعْنَى فِي قَلْبِهِ غَالِباً لَكَانَ الأمر أَفْظَعَ مِنْ ذَلِكَ ، وَلَكِنْ لَا يَكَادُ يَخْطُرُ بِقَلْبِ مُسْلِمٍ)[٢]. فَالْوَاجِبُ التَّوْبَةُ وَاللُّجُوءُ إِلَى اللهِ عِنْدَ التَّضَرُّرِ بِهَا، وَهِي تَأْدِيبٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى لِعِبَادِهِ، وَلَيْسَ مِنْ سَبِّهَا وَصْفُهَا بِأَنَّهَا قَوِيَّةٌ أَوْ شَدِيدَةٌ.(فَإِذَا رَأَيْتُم مَا تَكْرَهُونَ) أَيْ: مِنْ شِدَّتِهَا وَحَرِّهَا أَوْ بُرودَتِهَا. (فَقُولُوا اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلكَ) فَالرُّجُوعُ إِلَى خَالِقِهَا وآمِرِهَا هُوَ الدَّوَاءُ، فَمَا اسْتُجْلِبَتْ نِعْمَةٌ بِمِثْلِ طَاعَتِهِ وَشُكْرِهِ، وَلَا اسْتُدْفِعَتْ نقمةٌ بِمِثْلِ الْالتِجَاءِ إِلَيه وَالتَّعَوُّذِ بِهِ، (مِنْ خَيْرِ هَذِهِ الرِّيحِ) أَيْ: مِنْ خَيْرِهَا فِي نَفْسِهَا كَتَلْطِيفِ الْجوِّ، فَقَدْ جَاءَ عَنْ كَعْبٍ أَنَّهُ قَالَ:(لَوْ حَبَسَ اللَّهُ الرِّيحَ عَنِ

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب الفتن– باب ماجاء في النهي عن سب الرياح(٢٢٥٢)، وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح» (١٥١٨).

(٢) القول السديد في مقاصد التَّوحيد، ص: ١٨٨.

النَّاسِ ثَلاثَةَ أيَّامٍ لأنتنَ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ والارض) (١) (وَخَيْرِ مَا فِيهَا) أَيْ: خير مَا تَحْمِلُهُ مِنْ تَلْقيحِ الثِّمارِ وَالرّوائحِ الطَّيِّبَةِ (وَخَيْرِ مَا أمِرَتْ بِهِ) مِنْ سَوقِ السَّحَابِ حَيْثُ شَاءَ اللهُ، (وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ هَذِهِ الرِّيحِ) أَيْ: نَحْتَمِي بِكَ مِنْ شَرِّ هَذِهِ الرِّيحِ فِي نَفْسِهَا؛ كَقِلْعِ الاشْجَارِ وَنَحْوِهِ.(وَشَرِّ مَا فِيهَا) أَيْ: مَا تَحْمِلُهُ مِنَ الاوْبِئَةِ وَالأمراضِ. (وَشَرِّ مَا أمِرَتْ بِهِ) مِنَ الْإِهْلاكِ وَالتَّدْمِيرِ. وَوَردتْ فِي الرّيحِ أَحادِيثُ أخرى فَفِيهَا عُبُودِيَّةٌ للهِ وَطَاعَةٌ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ ، وتعرضٌ لِفَضْلِ اللهِ وَنِعمِهِ فَهَذَا حالُ أَهْلِ التَّوْحِيدِ وَالْإيمَانِ خِلافاً لأَهْلِ الْفُسُوقِ وَالْعِصْيَانِ. كحديث أبي هريرة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول الريح من روح الله قال سلمة فروح الله تأتي بالرحمة وتأتي بالعذاب فإذا رأيتموها فلا تسبوها وسلوا الله خيرها واستعيذوا بالله من شرها.رواه أبوداود وابن ماجه وصححه الألباني

(١) رواه أبونعيم في حلية الأولياء ٣٧٨/٥ .

[٥٩]

بَابُ

قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَـٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾(١).

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ: أَنَّ الأبواب السَّابِقَةَ فِي التَّحْذِيرِ مِنْ أَقْوَالٍ وَأَفْعَالٍ تُنْقِصُ التَّوْحِيدَ وَتُنَافِي كَمَالَهُ، ثم عقد هَذَا الْبَابَ فِي عَمَلٍ قَلْبِيٍّ، هُوَ مَصْدَرُ تِلْكَ الأَقْوَالِ وَالأَفْعَالِ الَّتِي لَا تَلِيقُ بِاللهِ جَلَّ وَعَلا ألا وَهُوَ سُوءُ الظَّنِّ بِاللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَسُوءُ الظَّنِّ بِاللهِ تَعَالَى مراتبُ لأنَّه قَدْ يُنَافِي أَصْلَ التَّوْحِيدِ وَقَدْ يُنَافِي كَمَالَهُ. قَوْلُهُ (يَظُنُّونَ بِاللهِ) ضَمِيرُ الْفَاعِلِ يَعُودُ إِلَى الْمُنَافِقِينَ، و(غَيْرَ الحَقِّ) هُوَ الْبَاطِلُ، و(ظَنَّ الجَاهِلِيَّةُ) عَطْفُ بَيَانٍ عَلَى قَوْلِهِ:(غَيْرَ الحَقّ) والظَّنُّ هُنَا بِمَعْنَى الاعْتِقَادِ.(يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأمر شَيْءٌ) هَذَا الْقَوْلُ ثَمرَةُ الظَّنِّ الْفَاسِدِ، أَيْ: لَيْسَ لَنَا مِنَ الأمر شيءٌ ، وَلَوْ كَانَ لَنَا من الأمر شيءٌ لَمَا أَصَابَهُمُ الْقَتْلُ، فَأَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺ أَنْ يُخبِرهُمْ بقولِهِ:(قُلْ إِنَّ الأمر كُلَّه لله) وَأَنَّهُ لا يكُونُ إِلَّا مَا سَبق بِهِ قَضَاؤُهُ وَقَدرُهُ وَجَرَى بِهِ قَلَمُهُ وَكِتَابُهُ السَّابِقُ ، فَفِي الْآيَةِ: رَدٌّ عَلَى الْقَدَرِيَّةِ النُّفاةِ الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّه يَقَعُ فِي كَوْنِهِ مَا لَا يُرِيدُ، وَسَبَقَ الْكَلَامُ عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ فِي بَابِ (لَوْ)،(وَلِيَبْتَلِي اللهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ) أَيْ: إِنَّمَا وَقَعَتْ الْهَزِيمَةُ لِحِكَمٍ مِنْهَا: لِيَمْتَحِنَ اللهُ مَا فِي الْقُلُوبِ مِنَ الْإِيمَانِ وَالنِّفَاقِ، وَفِي هَذَا رَدٌّ عَلَى مَنْ ظَنَّ أَنَّ أَفْعَالَ اللهِ لَيْسَتْ مُعَلَّلَةً وَهُمْ الأشاعرة (وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ) أَيْ: لِيُهْذِبَهَا وَيُطَهِّرَهَا مِنْ مَيْلِ النُّفُوسِ وَتَزْيِينِ الشَّيْطَانِ، وَاسْتيلاءِ الْغَفْلَةِ ، فَإِنَّهَا لَوْ تُرِكَتْ فِي عَافِيَةٍ مُسْتَمِرَّةٍ ونصرةٍ دَائِمَةٍ لَمْ تَتخَلَّصْ

(١) سورة آل عمران الآية: ١٥٤.

مِنْ هَذِهِ الْمَخَاطِرِ كَالْعُجْبِ وَنَحْوِهِ مِنَ الأمراضِ، فَلَهُ سُبْحَانَه الحكمَةُ التَّامَّةُ فِي النُّصْرَةِ وَالْهَزِيمَةِ، (وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) أَيْ: بِمَا فِيهَا ،والمعْنَى أَنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا فِي الصُّدُورِ قَبْلَ أَنْ يمْتَحِنَكُمْ، لَكِنْ لِيُظْهِرَ لَكُمْ الْعَمَل الذي يقع عليه الجزاء.

قال الإمامُ –رحمَهُ اللهُ– [وقوله: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾(١)].

قوله: (الظانين بِاللهِ) نعتٌ لِلْمُشْرِكِينَ و الْمُنَافِقِينَ ، قَالَ ابن كَثِيرٍ – رَحِمَهُ اللهُ –:(أَي : يَتَّهِمُونَ اللهَ فِي حُكْمِهِ، وَيظُنُّونَ بِالرَّسُولِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ أَنْ يُقْتَلُوا وَيَذْهَبُوا بِالْكُلِّيَّةِ)(٢).قوله:(عَلَيهِمْ دَائِرَةُ السَّوءِ) السَّوءُ الَّذِي ظَنُّوهُ بِالنَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ - أَنَّهُمْ لَنْ يَنْقَلِبُوا إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَداً — وهُوَ الْهَلاكُ ، وَهُوَ مُحِيطٌ بِهِمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، قَولُهُ: (وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم) فِيه: إِثْبَاتُ صِفَةِ الْغَضَبِ، قَولُهُ:(وَلَعَنَهُمْ) أَبْعَدَهُمْ فأقصاهم مِنْ رَحْمَتِهِ. قَولهُ:(وَأعدَّ لهُمْ جهَنَّمَ) أَي : هَيَّأَهَا، وَفِيه أَنَّ النَّارَ مَخْلُوقَةٌ الْآنَ قَوْلُهُ :(وَسَاءَتْ مَصِيراً) أَي: سَاءَتْ جَهَنَّمُ منْزِلَا يصِيرُ إِلَيه هَؤُلَاءِ، وَفِي الْآيَةِ أَنَّ ظَنَّ السَّوءِ مِنْ صِفَاتِ الْمُشْرِكِينَ وَالْمُنَافِقِينَ.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[قَالَ ابن القَيِّمِ فِي الآيَةِ الأولى: (فُسِّرَ هَذَا الظَّنُّ بِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَا يَنْصُرُ رَسُولَهُ، وَأَنَّ أَمْرَهُ سَيَضْمَحِلُّ، وَفُسِّرَ بِأَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ بِقَدَرِ اللهِ وَحِكْمَتِهِ، فَفُسِّرَ بِإِنْكَارِ الحِكْمَةِ وَإِنْكَارِ القَدرِ وَإِنْكَارِ أَنْ يُتِمَّ أَمْرَ رَسُولِهِ ﷺ وَأَنْ يُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ، وَهَذَا هُوَ ظَنُّ السَّوْءِ الذِي ظَنَّهُ المُنَافِقُونَ وَالْمُشْرِكُونَ فِي سُورَةِ الفَتْحِ، وَإِنَّمَا كَانَ هَذَا ظَنَّ السُّوءَ لأَنَّهُ ظَنُّ غَيْرِ مَا يَلِيقُ بِهِ سُبْحَانَهُ وَمَا يَلِيقُ بِحِكْمَتِهِ وَحَمْدِهِ وَوَعْدِهِ الصَّادِقِ. فَمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ يُدِيلُ البَاطِلَ عَلَى الحَقِّ إِدَالَةً مُسْتَقِرَّةً يَضْمَحِلُّ مَعَهَا الحَقُّ أَوْ أَنْكَرَ أَنَّ مَا جَرَى بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، أَوْ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ قَدَرُهُ لِحِكْمَةٍ بَالِغَةٍ يَسْتَحِقُّ عَلَيْهَا الحَمْدَ، بَلْ زَعَمَ أَنَّ ذَلِكَ لِمَشِيئَةٍ مُجَرَّدَةٍ: فَذَلِكَ ظَنُّ الذِينَ كَفَرُوا، فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ

---

(١) سورة الفتح الآية: ٦.

(٢) تفسير ابن كثير، ٤/٢٢٤.

كَفَرُوا مِنَ النَّار، وَأَكْثَرُ النَّاس يَظُنُّونَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ فِي مَا يَخْتَصُّ بِهِمْ، وَفِي مَا يَفْعَلُهُ بِغَيْرِهِمْ وَلَا يَسْلَمُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا مَنْ عَرَفَ اللَّهَ وَأَسْمَاءَه وَصِفَاتِهِ وَمُوجِبَ حِكْمَتِهِ وَحَمْدِهِ، فَلْيَعْتَنِ اللَّبِيبُ النَّاصِحُ لِنَفْسِهِ بِهَذَا، وَلْيَتُبْ إِلَى اللَّهِ، وَلْيَسْتَغْفِرْهُ مِنْ ظَنِّهِ بِرَبِّهِ ظَنَّ السَّوْءِ. وَلَوْ فَتَّشْتَ مَنْ فَتَّشْتَ لَرَأَيْتَ عِنْدَهُ تَعَنُّتًا عَلَى القَدَرِ وَمَلَامَةً لَهُ وَأَنَّهُ كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ كَذَا وَكَذَا: فَمُسْتَقِلٌّ وَمُسْتَكْثِرٌ، وَفَتِّشْ نَفْسَكَ هَلْ أَنْتَ سَالِمٌ؟

فَإِنْ تَنْجُ مِنْهَا تَنْجُ مِنْ ذِي عَظِيمَةٍ * وَإِلَّا فَإِنِّي لَا إِخَالُكَ نَاجِيًا[1].]**

ذَكَرَ ابن الْقَيِّمِ هَذَا الْكَلامَ فِي الْحِكَمِ الْمُسْتَفادَةِ مِنْ غزْوَةِ أُحُد (فُسِّرَ هَذَا الظَّنُّ بِأَنَّه سُبْحانَه لا يَنْصُرُ رَسُولَهُ ، وَأَنَّ أَمْرَهُ سَيَضْمَحِلُّ) لا شَكَّ أَنَّ هَذَا سُوءُ ظَنٍّ بِاللهِ،إذ كَيْفَ يُسْلِمُ خَلِيلَهُ وَصَفِيَّهُ وَحَبِيبَهُ، وَلَوْ ظُنَّ هَذَا الظَّنُّ بِآحَادِ النَّاسِ لَكَانَ هَذَا سُوءُ ظَنٍّ بِهِ، (وَفُسِّرَ بِأَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ بِقَدَرِ اللهِ وَحِكْمَتِهِ. فَفُسِّرَ بِإِنْكارِ الْحِكْمَةِ وَإِنْكارِ الْقَدرِ) وَهُوَ أَنْ يَقَعَ فِي كَوْنِهِ مَا لا يُرِيدُهُ ، وَلا شَكَّ أَنَّه سُوءُ ظَنٍّ بِاللهِ ؛ لأَنَّ هَذَا يَتَضَمَّنُ أَنْ يَكُونَ فِي مُلْكِهِ مَا لا يُرِيدُ، وَلَوْ وُصِفَ مَنْ لَهُ الْقِوامَةُ عَلَى بَيْتِهِ بِذَلِكَ لَكَانَ سُوءُ ظَنٍّ بِهِ.(وَحِكْمَتِه) وَهَذَا وَصْفٌ لِأَفْعَالِ اللهِ بِالسَّفَهِ، وَأَنَّه يَفْعَلُ الْأَشْيَاءَ لِغَيْرِ حِكْمَةٍ، وَقَدْ نَزَّهَ اللهُ نَفْسَهُ عَنْ ذَلِكَ كَمَا قَالَ تَعَالَى﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾[2]وَهَذا هُوَ مَذْهَبُ الجَهْمِيَّةِ وَالجَبْرِيَّةِ أَنَّ اللهَ يُقَدِّرُ الْأَشْيَاءَ بَلَا حِكْمَةٍ وَغايَةٍ.(فَمَنْ ظَنَّ أَنَّه يُدِيلُ الْبَاطِلَ عَلَى الْحَقِّ) أَيْ مَن ظَنَّ تَكُونُ الدَّوْلَةُ وَالْغَلَبَةُ لِلْبَاطِلِ عَلَى الْحَقِّ مُطْلَقًا فقد أساء الظن بالله لأَنَّ هذا الظنَّ خلاف وعد الله للمتقين فإنه قد أخبرهم أن العاقبة لهم.

---

(١) انظر: «زاد المعاد» لابن القيم (٣/٢٠٤).

(٢) سورة المؤمنون الآية: ١١٥-١١٦.

وَمن الحِكَمِ الَّتِي كَانَتْ فِي هَزِيمَةِ أُحدٍ:- تعْرِيفُ الصَّحَابَةِ سُوءَ عَاقِبَةِ الْفَشَلِ وَالتَّنَازُعِ. وتَمْيِيزُ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ. تَهْذِيبُ نُفُوسِ الْمُؤْمِنِينَ.قوله:(وَأَكْثَرُ النَّاسِ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ فِي ما يَخْتَصُّ بِهِمْ) فَمَنْ ظَنَّ أَنَّ لَهُ وَلَداً أَوْ شَرِيكاً، أَوْ أَنَّ أَحَدًا يَشْفَعُ عِنْدَهُ بِدُونِ إِذْنِهِ، أَوْ أَنَّ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلْقِهِ وَسَائِطَ يَرْفَعُونَ حَوَائِجَهُمْ إِلَيْهِ، أَوْ أَنَّهُ نَصَبَ لِعِبَادِهِ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ يَتَقَرَّبُونَ بِهِمْ إِلَيْهِ وَيَتَوَسَّلُونَ بِهِمْ إِلَيْهِ وَيَجْعَلُونَهُمْ وَسَائِطَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ فَيَدْعُونَهُمْ وَيُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّهِ وَيَخَافُونَهُمْ وَيَرْجُونَهُمْ كخوفِهِم منه ورجائِهِم لهُ فَقَدْ ظَنَّ بِهِ أَقْبَحَ الظَّنِّ وَأَسْوَأَهُ. وَمَن قَنِطَ مِنْ رَحْمَتِهِ وَأَيِسَ مِنْ روحِهِ فَقَدْ ظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوءِ ، وَمِنْ ظَنَّ أَنَّه إِذَا تَرَكَ شيئاً لله لَمْ يُعَوِّضْهُ خَيْرًا مِنه فَقَدْ ظَنَّ بِاللهِ ظَنَّ السَّوءِ ، وَمِنْ ظَنَّ أَنَّه إِذَا صَدَقَ فِي الرَّغْبَةِ وَالرّهبةِ وَتَضَرَّعَ إِلَيه وَسَأَلهُ وَاسْتَعَانَ بِهِ وَتوكلَ عَلَيه أَنَّه يُخَيِّبهُ فَقَدْ ظَنَّ بِهِ ظَنَّ السَّوءِ

قوله:(وَفِي ما يَفْعَلُهُ بِغَيْرِهِمْ) فَمَنْ حَسَدَ صَاحِبَ نِعْمَةٍ فَقَدْ ظَنَّ بِاللهِ ظَنَّ السَّوءِ، وَمَنْ رَأَى رَجُلاً صَالِحاً قَدْ أُبْتُلِيَ فَظنَّ أَنَّ لَا يَسْتَحِقُّ ما قدره اللهُ عليهِ، فَقَدْ ظَنَّ بِاللهِ ظَنَّ السَّوءِ ، وَأَكْثَرُ مَنْ وقعَ فِي ذَلِكَ أَهْلُ الْبِدَعِ كَالْمَلاحِدَةِ كَاعْتِرَاضِهِمْ عَلَى رِزْقِ الْأَحْمَقِ وَكَوْن بَعْضِ الْعُقَلاءِ فَقِيراً كَقَوْلِ ابن الرّاوَنْدِي [١]

إِذَا كَانَ لَا يَحْظَى بِرِزْقِكَ عَاقِلٌ *** وَتَرْزُقُ مَجْنُونًا وَتَرْزُقُ أَحْمَقاً

فَلَا ذَنْبَ يا ربَّ السَّمَاءِ عَلَى امرِئٍ *** رَأَى مِنْكَ مَا لايُنتهى فَتَزَنْدَقا

وغُلاةُ الْقدرِيَّةِ يَظُنُّونَ أَنّه لَا يَعْلَمُ الْأَشْيَاءَ إِلّا بَعْدَ وُقُوعِهَا، وَالْجَبْرِيَّةُ يَظُنُّونَ أَنَّ اللهَ يُجْبِرُ الْعَبْدَ عَلَى فِعْلِ مَا لَا يُرِيدُ ثُمَّ يُعَذِّبُهُ عَلَى مَا جَبْرَهُ عَلَيه فَيَصِفُونَ اللهَ بِالظُّلْمِ، وَالْخوارِجُ وَالْمُعْتَزِلَةُ ظَنُّوا أَنَّ اللهَ يُحْبِطُ طَاعَاتِ الْعُمرِ الْمَدِيدِ الْخَالِصِ الصَّوَابِ بِكَبِيرَةٍ وَاحِدَةٍ، وَالْجَهْمِيَّةُ ظَنُّوا أَنَّ اللهَ لَا سَمْعَ لَهُ وَلَا بَصَرَ وَلَا كَلامَ وَلَا عِلْمَ وَلَا إِرَادَةَ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ فَوْقَ عَرْشِهِ فَمعبودهُمْ أَبْكَمُ أَعْمَى أَصَمُّ فِي كُلِّ مَكَانٍ طَيِّبٍ وَخبيثٍ، وَكَذَلِكَ ظَنَّتْ طَائِفَةٌ مِنَ الأشاعرة أَنّه فِي كُلِّ مَكَانٍ.(وَلَا يَسْلَمُ مِنْ ذَلِكَ إِلّا مَنْ عرفَ اللهَ وَأَسْمَاءَهُ وَصِفَاتِهِ وَمُوجِبَ حِكْمَتِهِ وَحَمْدِهِ) هَذَا هُوَ الدَّواءُ وَذَلِكَ هُوَ الدَّاءُ الَّذِي انْتَشَرَ.(وَلَوْ فَتَّشْتَ مَنْ فَتَّشْتَ لَرَأَيْتَ عِنْدَه تَعَنُّتاً عَلَى الْقَدرِ وَمَلَامَةً لَهُ) وَاقْتِراحاً عَلَيه خِلافَ مَا جَرَى بِهِ ، قَالَ الشَّيْخُ صَالِحُ آلُ

---

(١) هو أبو الحسن أحمد بن يحي بن اسحق، الملحد عدوُّ الدِّين.

الشَّيْخ :(فَخَلِّصْ قَلْبَكَ مِنْ كَلِّ ظَنِّ سُوءٍ بِاللهِ جَلَّ وَعَلا، فَلَا تَظُنَنَّ فِي أَمْرٍ قدَّرَ اللهُ وُجُودَهُ أَنَّ غَيْرَه أَفَضْلُ مِنْه، وَأَنَّ عَدَمَ حُصُولِهِ أَصْلَحُ، وَلَا فِي أَمْرٍ قَدَّرَ اللهُ عَدَمَ كَوْنِهِ أَنَّ وُجُودَهُ أوْلَى فَإِنَّ كُلَّ ذَلِكَ سُوءُ ظَنٍ بِاللهِ جَلَّ وَعَلا) [1].

(فَمُسْتَقِلٌّ وَمُسْتَكْثِرٌ) : مبتدآن خَبَرُ كُلِّ مِنْهُمَا مَحْذُوفٌ، مستقلٌ مِنْ هَذَا ومستكثرٌ مِنْه.

(١) التمهيد لشرح كتاب التَّوحيد، ص:٢٦٣/١، الطبعة : الأولى، الناشر : دار التَّوحيد، تاريخ النشر : ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

[٦٠]

بَابُ مَا جَاءَ فِي مُنْكِرِي القَدَرِ

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ: أَنَّ إِنْكَارَ الْقَدرِ مِنْ سُوءِ الظَّنِّ بِاللهِ، فَالْبَابُ السَّابِقُ أَعمُّ مِنْ هَذَا الْبَابِ. وَالْإِيمَانُ بِالْقَدرِ يَدْخُلُ فِي أَنْوَاعِ التَّوْحِيدِ الثَّلاثَةِ. الْقَدرُ لُغَةً: مَصْدَرُ قَدَرَ يَقْدُرُ الشَّيْءَ إِذَا عَلمَ بِمِقْدَارِهِ ، وَيُقَالُ أيضاً: قَدَّرَ يُقَدِّرُ تَقْديرًا، وَالْقَدَرُ شَرْعاً: هُوَ إِحَاطَةُ اللهِ بِالْأَشْيَاءِ عِلْماً وكتابةً وَخَلْقاً ومشيئةً .

فَالْقَدَرُ أَرْبَعُ مَرَاتِب :

١- الْعِلْمُ وَمَعناهُ : أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا كَانَ وَمَا يَكُونُ وَمَا سيكون وَمَا لَنْ يَكُونَ وَلَوْ كَانَ كَيْفَ يَكُونُ. وَدَلِيلُ هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ قولُهُ تَعالى:﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾(١).

٢- الكتابةُ ومعناها: كتابةُ ذلكَ المعلومِ عندَهُ في الأزلِ، والآيةُ السَّابقةُ دليلٌ على هذهِ المرتبةِ، ومن السنة حديث عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو ابْنِ الْعَاصِ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- يَقُولُ:(كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلاَئِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلفَ سَنَةٍ)(٢).

٣- المشيئةُ ومعنَاها: أنَّهُ لا خروجَ لكائنٍ عنْ مشيئتهِ سبحانهُ كما لا خروجَ لهُ عن علمهِ وأن ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وأن لله مشيئة وللمخلوق مشيئة و لكنها تبع لمشيئة الخالق قال تعالى ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(٣).

٤- الخلقُ: ومعناها أنَّ الله خالقُ كلِّ شيء فقد خلق العياد وأعمالهم.

---

(١) سورة الحج الآية: ٧٠.

(٢) أخرجه مسلم، باب حِجَاجِ آدَمَ وَمُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلاَمُ،برقم: (٦٩١٩).

(٣) سورة التكوير الآية: ٢٩.

ودليلها قولهُ تعالَى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾[1] وقولهُ تعالَى: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾[2]

تنبيهٌ: هناكَ عدةُ تقديراتٍ:

التقديرُ الأول: قبلَ أن يخلقَ السماواتِ والأرضَ بخمسينَ ألفَ سنةٍ، وفيه حديثُ عبدِ اللهِ بنِ عمرٍو – رضي الله عنهما– الذي سبق ذكره في مرتبة الكتابة.

التقديرُ الثَّاني: في ليلة القدر من كلِّ عامٍ، ودليلُه قولُه تعالَى: ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾[3].

التقدير الثالثُ: تقديرٌ عُمري يقعُ بعدَ أربعةِ أشْهُرٍ لكلِّ مولودٍ في بطنِ أمِّهِ، ودليلُهُ حديثُ ابنِ مسعودٍ في الصحيحينِ وفيه (ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بكتْبِ رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد.)

والنَّاسُ في القَدرِ ثلاثُ طوائفَ:

١– القدريةُ: وهؤلاءِ غَلَو في إثباتِ المشيئةِ للمخلوقِ حتى نفَوا عن اللهِ العلمَ والكتابة، وقالوا:إنَّ الله لا يعلم كل شيء ولم يعلم كلَّ شيءٍ، وهم بذلك قد نفوا مشيئة الله وخلقه وهؤلاء هم غلاتهم وطائفة منهم اثبتت العلم والكتابة أنكروا عموم خلقه وعموم مشيئه وزعموا أنَّ العبدَ خَلَقَ أفعالَه بنفسِهِ، وشاءها فراراً وتنزيهاً من نسبةِ الشرِّ إلى الله، وكلامهم باطل لقول اللهِ تعالى:

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾[4]، ويُقالُ لهمْ أيضاً: إنَّ العبدَ يفعلُ الفعلَ بإرادةٍ جازمةٍ وقدرةٍ تامةٍ، واللهُ تعالى هو الذي خلقَ فيهِ القدرةَ والإرادةَ، ولكنْ فعلُ العبدِ له تعلقانِ: المباشرةُ والخلقُ،

(١) سورة الصافات الآية: ٩٦.

(٢) سورة الزمر الآية: ٦٢.

(٣) سورة الدخان الآية: ٤.

(٤) سورة الصافات الآية: ٩٦.

فالله هو الخالقُ للفعلِ، والعبدُ هو المباشرُ للفعلِ فيُحاسبُ العبدُ على مباشرةِ الشر الذي خلقه الله ونهاه عن مباشرته.

٢- الجبريةُ: وهؤلاءِ غلَوا في إثباتِ القدرِ حتى نفَوا المشيئةَ والإرادةَ عن المخلوقِ، وقالوا : العبدُ كالريشةِ في مهبِّ الريحِ ليس له اختيار، وهذا أيضا باطل لأنَّ العبد يدرك بالضرورة أنَّ له مشيئةً واختياراً قال تعالى﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [سورالتكوير]

٣- أهلُ السُّنة والجماعة: وهؤلاء جمعوا بين الأدلة وسلكوا طريقَ خير ملة، فأثبتوا القدر لله تعالى وأثبتوا المشيئة للمخلوق، وهذا هو سبيل النجاة.

٤- و اعلم أنَّ السنة ألَّا يخاض في هذا الباب إلا بقدر الحاجة ، و يقول أهل العلم: القدر سرُّ الله في خلقه لم يطلع عليه ملك مقرَّب ولا نبي مرسل، وقال النَّبي عليه الصلاة والسلام: «إِذَا ذُكِرَ الْقَدَرُ فَأَمْسِكُوا، وَإِذَا ذُكِرَ أَصْحَابِي فَأَمْسِكُوا، وَإِذَا ذُكِرَ النُّجُومُ فَأَمْسِكُوا»(١)

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[وَقَالَ ابن عُمَرَ رضي الله عنهما:"وَالذِي نَفْسُ ابن عُمَرَ بِيَدِهِ، لَوْ كَانَ لأحَدِهِمْ مِثْلُ أحُدٍ ذَهَبًا، ثمَّ أَنْفَقَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا قَبِلَهُ اللَّهُ مِنْهُ، حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ" ثمَّ اسْتَدَلَّ بِقَوْلِ النَّبي ﷺ: «الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»(٢) رَوَاهُ مُسْلِمٌ.]

ساق الإمام مسلم هذا الحديث من طريق يحي بن يعمر وحميد بن عبد الرحمن قال يحي كَانَ أَوَّلَ مَنْ قَالَ فِى الْقَدَرِ بِالْبَصْرَةِ مَعْبَدٌ الْجُهَنِىُّ. فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَحُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمنِ الْحِمْيَرِىُّ حَاجَّيْنِ أَوْ مُعْتَمِرَيْنِ فَقُلْنَا: لَوْ لَقِينَا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَسَأَلْنَاهُ عَمَّا يَقُولُ هؤُلَاءِ فِى الْقَدَرِ. فَوُفِّقَ لَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ دَاخِلاً الْمَسْجِدَ، فَاكْتَنَفْتُهُ أَنَا وَصَاحِبِى، أَحَدُنَا عَنْ يَمِينِهِ، وَالآخَرُ عَنْ شِمَالِهِ،

(١) أخرجه اللالكائي في شرح أصول الاعتقاد وصححه الألباني في الصحيحة ٣٤.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان- باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان (٨).

فَظَنَنْتُ أَنَّ صَاحِبِي سَيَكِلُ الْكَلَامَ إِلَيَّ، فقُلْتُ: أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، إِنَّهُ قَدْ ظَهَرَ قِبلَنَا نَاسٌ يَقْرَؤونَ الْقُرْآنَ ويَتَقَفَّرُونَ الْعِلْمَ. وذَكَر من شَأنِهِمْ، وَأَنهُمْ يَزْعُمُونَ أَنْ لَا قَدَرَ، وَأَنَّ الأمر أنُفٌ. قَالَ: فَإِذَا لَقِيتَ أولئِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِنْهُمْ، وَأَنَّهُمْ بُرَآءُ مِنِّي ثمَّ ذكر الحديث وهو حديث جيريل الطويل ذكر الإمام هنا موضع الشاهد

وفيه:- أنَّ بدعة القدر من أول البدع ظهوراً. وفيه الرجوع إلى كبار أهل العلم عند الفتن. وفيه أدب طلبة العلم في سيرهم مع كبيرهم، ومخاطبتهم له. وفيه الإنصاف عند التحاكم، ولو كان الرجل من أهل البدع بخلاف مقام الجرح والتعديل؛ فإنَّه لا تصلح فيه الموازنة. قوله: (أني بريءٌ منهم وأنهم برءاء مني) صريحٌ في كفر القدرية الغلاة، وقد قال بعض السلف: (ناظروهم بالعلم، فإن أقروا به خُصِموا وإن جحدوه كفروا). ثمَّ استدل ابن عمر بحديث جبريل: وفيه: أنَّ ابن عمر لم يحكم بهذا الحكم من نفسه إنَّما من السنة، فإنَّ انتفاء ركن من أركان الإيمان انتفاءٌ للإيمان؛ لقوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗا ﴾[(١)].

والشاهد من الحديث قوله: (وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ)، أعاد الفعل (تؤمن) لطول الفصل، وقيل: لأهمية المسألة لأنَّ الإيمان بالقدر من الإيمان بالله، فذكر الخاص بعد العام يشعر بأهمية الخاص. قوله:(خيره وشرِّه) "الخير" هنا ما يلائم العبد كالغنى والعافية، و"الشر" ما لا يلائمه كالفقر والمرض.

(١) سورة النساء الآية: ١٥٠-١٥١.

وإذا قيل: كيف يقدِّر الله الشر؟ الجواب أن يقال: الشر في مقدورات الله وليس في تقديره؛ وذلك لأنَّ الله يقدِّرُ الشرَّ والمراد منه الخير، كما في قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾(١) .

فالقحط والبلاء وإن كان شراً إلا أنَّ الله جلَّ وعلا يريد منه الخير وهو الرجوع إليه والتضرع بين يديه ، ومثال ذلك: لو انكسر الولد وكواه الوالد بالنَّار لقيل: هذا أبٌ رحيم ، ولا يقال: أبٌ قاسٍ نظراً للعاقبة والمآل والمقصد، وكما أنَّ استمرارَ النعم بالمرء ربما تحمله على البطر والعجب.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[وَعَنْ عُبَادَةَ بنِ الصَّامِتِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ لِابْنِهِ يَا بُنَيَّ: إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ الإِيمَانِ حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ فَقَالَ لَهُ أُكْتُبْ فَقَالَ رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ أُكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شيءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ» يَا بُنَيَّ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:«مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ هَذَا فَلَيْسَ مِنِّي»(٢).وَفِي رِوَايَةٍ لأَحْمَدَ: (إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ تَعَالَى الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ أُكْتُبْ، فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ (٣).]

قوله في حديث عبادة:(يا بني إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ الإِيمَانِ) فيه: النصح للأبناء والتلطف بهم، وفيه أنَّ للإيمان حلاوة وطعماً من ذاقها تسلَّى بها عن الدنيا.و فيه أن الإيمان بالقدر من أسباب وجود حلاوة الإيمان (حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ) أي: ما أصابك من المصائب لا تعتقد أنَّه كان من الممكن ألا يصيبك، فإنَّ المقدَّرَ واقعٌ مهما بذلت من أسباب. (وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ) أي: ما

(١) سورة الروم الآية: ٤١.

(٢) أخرجه أبوداود في كتاب السنة- باب في القدر (٤٧٠٠)،والترمذي في كتاب القدر- باب ماجاء في الرضا بالقضاء (٢١٥٥)،وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٢٠١٨).

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣١٧/٥)، وقال شعيب الأرناؤوط: «حديث صحيح»، وهذا الحديث ساقط من التيسير.

فاتك من النعم لم يكن لك أن تدركه؛ لأنَّ المقدر واقعٌ، وهاتان الجملتان تفسير عملي لكيفية للإيمان بالقدر، وقد جاءت مرفوعة عن النَّبي ﷺ كما في حديث ابن عباس –رضي الله عنهما–.

قوله:(إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ) : بين السلف وعلماء الخلف خلافٌ في العرش والقلم أيهما خُلِقَ أولاً: فقد قال ابن القيم –رحمه الله–:

والنَّاس مختلفون في القلم الذي *** كُتِبَ القضاءُ به من الديَّان

هل كان قبل العرش أو هو بعده *** قولان عن أبي العلا الهمداني

والحق أن العرش قبل لأنه *** قبل الكتابة كان ذا أرركان

وجمهور أهل العلم على أنَّ العرش خُلِقَ أولاً وفيهم شيخ الإسلام [(١)] وابن القيم، واستدلوا بحديث البخاري (قال: كان الله ولم يكن شيء غيره وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء وخلق السموات والأرض) وذهب الإمام محمد بن عبد الوهاب كما في مسائله إلى أنَّ القلم خلق أولاً، وبه قال الشيخ الألباني كما في الصحيحة [(٢)] تحت هذا الحديث.

قوله: (قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شيءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ) فيه: دليل على مرتبتي العلم والكتابة.(مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ هَذَا فَلَيْسَ مِنِّي) أي: مَن مات وهو يعتقد أنَّ الله لم يعلم ولم يكتب كل شيء فليس مني، أي: أنا بريءٌ منه لكفره، وفي الحديث من الفوائد: أنَّه ينبغي أن يلقن الأبناء الأحكام بأدلتها، وأنَّ كل ما يجري في الكون مكتوب، وفيه قبول توبة القدري إذا تاب قبل موته، وفيه ردٌّ على من يقول: أول ما خلق الله النور المحمدي ويستدلون بحديث موضوع: (أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر) [(٣)].

(١) انظر مجموع الفتاوى لابن تيمية، (١٨/ ٢١٣).

(٢) انظر السلسلة الصحيحة، برقم: (١٣٣).

(٣)كشف الخفاء للعلجوني، برقم: (٨٢٧)، والآثار المرفوعة في الأخبار الموضوعه لعبد الحي اللكنوي، ص: ٤٢.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[وَفِي رِوَايَةٍ لِابْنِ وَهْبٍ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ أَحْرَقَهُ اللَّهُ بِالنَّار»[(١)].](ابْنِ وَهْبٍ) هو عبد الله بن وهب بن مسلم القرشي مولاهم، الفقيه، ثقةٌ إمام من أصحاب مالك، مات سنة ١٩٧هـ.(أَحْرَقَهُ اللَّهُ بِالنَّار) : لكفره إن أنكر الكتابة والعلم، ولبدعته إن أقرَّ بالعلم وأنكر الخلق.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[وَفِي "المُسْنَدِ " و"السُّنَنِ" عَنِ ابْنِ الدَّيْلَمِيِّ: قَالَ: أَتَيْتُ أُبَيَّ بْنِ كَعْبٍ ﷺ فَقُلْتُ فِي نَفْسِي شَيْءٌ مِنَ القَدَرِ: فَحَدِّثْنِي بِشيءٍ لَعَلَّ اللَّهَ يُذْهِبُهُ مِنْ قَلْبِي فَقَالَ: لَوْ أَنْفَقْتَ مِثْلَ أحُدٍ ذَهَبًا، مَا قَبِلَهُ اللَّهُ مِنْكَ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ وَلَوْ مِتَّ عَلَى غَيْرِ هَذَا لَكُنْتَ مِنْ أَهْلِ النَّار قَالَ فَأَتَيْتُ عَبْدَ للهِ بْنَ مَسْعُودٍ وَحُذَيْفَةَ بْنَ اليَمَانِ وَزَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ ﷺ، فَكُلُّهُمْ حَدَّثَنِي بِمِثْلِ ذَلِكَ عَنِ النَّبِي صلى الله عليه وسلم [(٢)] حَدِيثٌ صَحِيحٌ رَوَاهُ الحَاكِمُ فِي "صَحِيحِهِ"[(٣)].]

قوله: (عن ابْنِ الدَّيْلَمِيِّ) هو عبد الله بن فيروز، ثقة من كبار التابعين، ونسبته إلى جبل الديلم، وهو قاتل الأسود العنسي. قوله: (أَتَيْتُ أُبَيَّ بْنِ كَعْبٍ فَقُلْتُ فِي نَفْسِي شَيْءٌ مِنَ القَدَرِ) فيه: الرجوع إلى أهل العلم عند ورود الشبهات. قوله: (فَحَدِّثْنِي بِشيءٍ لَعَلَّ اللَّهَ يُذْهِبُهُ مِنْ قَلْبِي) فيه: أنَّ العلم شفاءٌ لمرض الشبهات. (فَأَتَيْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ وَحُذَيْفَةَ بْنَ اليَمَانِ وَزَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ) : هؤلاء الذين أتاهم ثلاثتهم من القراء، وحذيفة صاحب سِر رسول الله ﷺ، (فَكُلُّهُمْ حَدَّثَنِي بِمِثْلِ ذَلِكَ عَنِ النَّبِي ﷺ) :

---

(١) أخرجه عبد الله بن وهب في «القدر» (٢٦)، ورواه أيضاً ابن أبي عاصم في السنة (١١١) وهو صحيح راجع تخريج السنة.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٨٢/٥)، وأبو داود في كتاب السنة- باب في القدر (٤٦٩٩)، وابن ماجه في كتاب المقدمة- باب في القدر (٧٧)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه»، وفي تخريج السنة ص:١٠٩.

(٣) فائدة: لعله سبق قلم من المؤلف فعزاه إلى الحاكم بدل ابن حبان، والدليل على أنه قال: "في صحيحه" وقد رواه ابن حبان في صحيحه (٧٢٧) ولم يروه الحاكم.

لأنَّهم يأخذون من مصدرٍ واحد، وفيه: جواز سؤال أكثر من عالم في المسألة الواحدة إذا كان المقصود التثبت لا ضرب أقوال العلماء بعضها ببعض، ومن الأحاديث السابقة نعلم شناعة إنكار القدر؛ لشدة الوعيد مثل براءة رسول الله ﷺ منه ، وعدم قبول عمله، وتوعده بالنَّار.

[٦١]

بابُ ما جاءَ في المُصوِّرينَ

مُناسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ: أَنَّ الْبَابَ السَّابِقَ فِي الْقدرِيَّةِ الَّذِينَ يَدَّعُونَ أَنَّ الْعَبْدَ خَالِقٌ فِعْلَهُ بِنَفْسِهِ، وَهَذَا الْبَابُ فِي الْمُصَوِّرِينَ الَّذِينَ يقْصُدُونَ مُشَابَهَةَ الله في خَلْقِه، وَكِلَا الأمرَيْنِ تَنقُّصٌ لِجَنَابِ الرُّبُوبِيَّةِ. ومنازعة لله في خصائصه وَمَعْنَى التَّرْجَمَةِ: بَابُ مَا جَاءَ مِنَ الْوَعِيدِ الشَّدِيدِ فِي الْمُصَوِّرِينَ.

.قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ اللهُ تَعَالَى:(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي؛ فَلْيَخْلُقُوا ذرةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا شَعِيْرَةً)[١] أَخْرَجَاهُ.]

قوله (قَالَ اللهُ تَعَالَى) هَذَا حَديثٌ إلاهي.فِيه: إِثْبَاتُ الْقَوْلِ للهِ تَعَالَى. قولُهُ:(وَمَنْ أَظْلَمُ) مَنْ: اسم اسْتِفْهامٍ وَهُوَ اسْتِفْهامُ إِنْكارِيٍ بِمَعْنَى النَّفْي. أي لا أحد أظلم منه. قولُهُ: (ذَهَبَ) بِمَعْنَى: قَصدَ، أَيْ:لَا أَحَدَ أَظْلَمُ مِمَّنْ قَصدَ أَنْ يَخْلُقَ كَخَلْقِ اللهِ.قولُهُ: (فَلْيَخْلُقُوا ذرةً) اللامُ لَامُ الأمر، وَالذَّرةُ وَاحِدَةُ الذَّرِّ وَهُوَ النَّمْلُ. قولُهُ:(أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً) أيضاً اللامُ لَامُ الأمر، وَالْحَبَّةُ وَاحِدَةُ الْحَبِّ، وَهِي الْبِذْرُ، أَيْ: حبةٌ فِيهَا خَصَائصُ الْحَبِّ مِنَ الْإِنْبَاتِ وَالطَّعِمِ. قولُهُ:(أَوْ لِيَخْلُقُوا شَعِيْرَةً) عَلَى حَقِيقَتِهَا فِيهَا خَصَائصُ الشَّعِيرِ، وَالأمر هُنَا لِلتَّحدِّيْ، وَالْمُرَادُ بِهِ التَّعْجِيزُ. وَفِي الْحَدِيثِ مِنَ الْفَوَائِدِ: بَيَانُ الْعِلَّةِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ التَّصْوِيرَ مِنْ أَجلهَا وَهِي قصدُ الْمُضَاهَاةِ، وَفِيه بَيَانُ قُدْرَةِ اللَّهِ وَغِنَاهُ وَفَقْرِ الْعَبْدِ وَعَجْزِهِ . وَفِيهِ أَنَّ التَّصْوِيرَ مِنَ الْكبائرِ؛ لَأنَّ صَاحِبَهُ وُصفَ بِالظُّلْمِ

.

(١) أخرجه البخاري في كتاب التَّوحيد- باب قول الله تعالى: {والله خلقكم وماتعملون} (٧٥٥٩)،ومسلم في كتاب اللباس والزينة- باب تحريم تصوير صورة الحيوان وتحريم اتخاذ ما فيه صورة(٢١١١).

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[وَلَهُمَا عَنْ عَائِشَةَ ﵂ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (أَشَدُّ النَّاس عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِينَ يُضَاهِئُونَ بِخَلْقِ اللَّهِ)[1].]

سَبَبُ هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ عَائِشَةَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهَا – قَالَتْ :(قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ سَفَرٍ وَقَدْ سَتَرْتُ بِقِرَامٍ لِي سهوةً فِيهِ تَصَاوِيرُ فَهَتكَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ) ثُمَّ ذَكَرَ الْحَدِيثَ. الْقِرامُ: هُوَ ثَوْبٌ خَفِيفٌ، والسَّهْوة: فَتْحَةٌ فِي الْجِدارِ وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّ التَّصْوِيرَ كُلَّه حَرامٌ مَا لَهُ ظِلٌّ وَمَا لَا ظِلَّ لَهُ. قَالَ الشَّيْخُ ابن بَازٍ – رَحِمَهُ اللهُ –:(وَأَجْمَعَ الْأَئِمَّةُ الأَرْبَعَةُ وَالْجُمْهُورُ عَلَى أَنَّهُ مُحَرَّمٌ أيضاً كَالَّذِي لَهُ ظِلٌّ ، وَهَذَا هُوَ الصَّوَابُ؛ لأَنَّ الأَحادِيثَ تَعُمُّ مَا كَانَ لَهُ ظِلٌّ وَمَا لَا ظِلَّ لَهُ، وَتَشْمَلُ التَّصْوِيرَ الشَّمْسِيَّ وَغَيْرَهَا)[2]. أي الفتوغرافي

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[وَلَهُمَا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: (كُلُّ مُصَوِّرٍ فِي النَّار يُجْعَلُ لَهُ بِكُلِّ صُورَةٍ صَوَّرَهَا نَفْسٌ يُعَذَّبُ بِهَا فِي جَهَنَّمَ)[3].]

قوله:(كُلُّ مصور) لَفْظٌ عَامٌّ يَشْمَلُ كُلَّ مَنْ صَحَّ إِطْلاقُ لفْظِ المصَورِ عَلَيهِ، سَواءٌ كَانَ تَصْوِيرُهُ لَهُ ظِلٌّ أَوْ لَا ظِلَّ لَهُ. وَقَدْ فَهِمْنَا أَنَّ عِلَّةَ النَّهْيِ هِي قصدُ الْمُضَاهَاةِ. وَهِي فِي التَّصْوِيرِ الْفُوتُوغرافِيِّ أَوْ الشَّمْسِي أَظْهَرُ وُجُودًا مِنْ غَيْرِه.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[وَلَهُمَا عَنْهُ رضي الله عنهما مَرْفُوعًا: (مَنْ صَوَّرَ صُورَةً فِي الدُّنْيَا كُلِّفَ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ وَلَيْسَ بِنَافِخٍ).]

هَذَا الْحَدِيثُ ذَكَرَهُ ابن عَبَّاسٍ لِسَبَبٍ هُوَ أَنَّه: (أَتَاهُ رَجُلٌ فَقَالَ يَا أَبَا عَبَّاسٍ إِنِّي إِنْسَانٌ إِنَّمَا مَعِيشَتِي مِنْ صَنْعَةِ يَدِي وَإِنِّي أَصْنَعُ هَذِهِ التَّصَاوِيرَ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ لَا أُحَدِّثُكَ إِلَّا مَا سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ،

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب اللباس- باب ما وطئ من التصاوير(٥٩٥٤)،ومسلم في كتاب اللباس والزينة- باب تحريم تصوير الحيوان(٢١٠٧).

(٢) شرح كتاب التَّوحيد، ص: ١٥٥، .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب اللباس- باب من صور صورة كلف يوم القيامة أن ينفخ وما هو بنافخ (٥٩٦٣)،ومسلم في كتاب اللباس- باب تحريم تصوير صورة الحيوان (٢١١٠) واللفظ له.

سَمِعْتُهُ يَقُولُ: فذكر الحديث قال:(فَرَبَا الرَّجُلُ رَبْوَةً شَدِيدَةً واصْفَرَّ وَجْهُهُ فَقَالَ وَيْحَكَ إِنْ أَبَيْتَ إِلَّا أَنْ تَصْنَعَ فَعَلَيْكَ بِهَذَا الشَّجَرِ كُلِّ شيءٍ لَيْسَ فِيهِ رُوحٌ) (١).هَذَا لَفْظُ الْبُخَارِيِّ . وَفِي الْحَدِيثِ : أَنَّ الْمُحَرَّمَ مِنَ الصُّورِ ذَوَاتُ الأَرْواحِ ؛ لأَنَّ هَذَا فَهْمُ ابن عَبَّاسٍ رَاوِي الْحَدِيثِ ، ثُمَّ بَيَّنَ كَيْفِيَّةَ التَّعْذِيب بقوله (كُلِّفَ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ وَلَيْسَ بِنَافِخٍ) فَيُلْزَمَ بِأَنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرّوحَ، وَهُنَا تَأْتِي قَاعِدَةُ :(تَرْكُ الاستفصال فِي مَقَامِ الْاحْتِمَالِ يُنَزَّلُ مَنْزِلَةَ الْعُمُومِ فِي الْمَقَالِ) لأَنَّ ابن عَبَّاسٍ لَمْ يستفصله هَلْ تَصْوِيرُهُ لَهُ ظِلٌّ أَمْ لَيْسَ لَهُ ظِلٌّ.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[وَلِمُسْلِمٍ عَنْ أَبِي الهَيَّاجِ قَالَ: قَالَ لِي عَلِيٌّ ﷺ أَلا أَبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ؟ الا تَدَعَ صُورَةً إِلَّا طَمَسْتَهَا وَلَا قَبْرًا مُشْرِفًا؛ إِلَّا سَوَّيْتَهُ (٢).]

(عن أَبِي الهَيَّاجِ) هُوَ حَيَّانُ بْنُ حُصِينِ الْكُوفِي، كَاتِبُ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ. (الا أَبْعَثُكَ) ألا: حَرْفُ عَرْضٍ، أَبْعَثُكَ: أَرْسِلُكَ، وفِيه: التَّرَفُّقُ فِي التَّعْلِيمِ.(ألا تَدَعَ) أَيْ: لَا تَتْرُكَ.(صُورَةً) نَكِرَةٌ فِي سِياقِ النَّهْي فَتَعُمُّ كُلَّ صُورَةٍ.(إِلّا طمستَهَا) الطَمْسُ: هُوَ إِخْفَاءُ الْمَعَالِمِ.(وَلَا قَبْراً) أيضاً نَكِرَةٌ فِي سِياقِ النَّهْيِ فيعُمُّ، كُلَّ قَبْرٍ مُشْرِفٍ (مُشْرِفاً) أَي: عَالِياً. وَفِي الْحَدِيثِ: تَحْرِيمُ اِقْتِناءِ الصُّورِ، ومناسبة اقْتِرانِ الْقُبُورِ مَعَ الصُّورِ إشارَةٌ إِلَى أَنَّهُمَا مِنْ أَعْظَمِ وَسَائِلِ الشِّرْكِ.

---

(١) أخرجه البخاري – بَاب بَيْعِ التَّصَاوِيرِ الَّتِي لَيْسَ فِيهَا رُوحٌ وَمَا يُكْرَهُ مِنْ ذَلِكَ، برقم: (٢٢٢٥).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الجنائز– باب الأمر بتسوية القبر (٩٦٩).

[٦٢]

بَابُ مَا جَاءَ فِي كَثْرَةِ الحَلِفِ

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ: أَنَّ التَّصْوِيرَ فِيه جرأة عَلى اللهِ جلَّ وَعلَا و تَطَاوُلٌ عَلَى خَصَائصِهِ بِالْفِعْلِ، وَكَثْرَةُ الحَلْفِ فِيهَا جرأة عَلى اسم اللهِ جلَّ وَعلَا وَاسْتِهانَةٌ به.

وقول الله تعالى: ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ﴾[1].

قوله:(وَاحْفَظُوا) فَعْلُ أَمْرٍ ، وَالأمر لِلْوُجُوبِ. قوله:(أَيمانَكُمْ) الأَيْمَانُ جمعُ يَمِينٍ، وَهِي الحَلْفُ.

وَحِفْظُهَا على ثَلاثِ مَرَاتِب:

١- حِفْظُهَا ابتداءً بِعَدَمِ الحْلْفِ.

٢- حِفْظُهَا وَسَطًا بِعَدَمِ الحْنْثِ إِذَا حَلَفَ، إلّا إِذَا رَأَى أَنَّ غَيْرَهَا خَيْرٌ مِنْهَا.

٣- حِفْظُهَا انتهاءً بِالْكَفَّارَةِ بَعْدَ الحِنْثِ.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «الحَلِفُ مُنَفِّقَةٌ لِلسِّلْعَةِ، مُمْحَقَةٌ لِلْكَسْبِ» [2] أَخْرَجَاهُ.]

قولُهُ (الحَلْفُ مُنَفِّقَةٌ لِلسِّلْعَةِ) أَيْ: سَبَبُ رَوَاجِهَا وَخُرُوجِهَا مِنْ يَدِ بَائِعِهَا، وَذَلِكَ لِتَعْظِيمِ النَّاسِ اسم اللهَ جَلَّ وَعِلَا، وَثِقَتِهِمْ بِمَنْ يَحْلِفُ باللهِ. (مُمْحَقَةٌ لِلْكَسْبِ) أَيْ: مَنْقَصَةٌ مُتْلِفَةٌ لِلْبَرَكَةِ. وَهَذَا التَّلَفُ قَدْ يَكُونُ حِسّياً بِأَن تُصِيبَ الْمَالَ آفَةٌ مِنَ الآفاتِ، وَقَدْ يَكُونُ معنوياً بألّا يَنْتَفِعَ صَاحِبُهُ بِهِ فِي دِينِهِ وَلَا فِي دُنْيَاهُ.

---

(١)سورة المائدة الآية: ٨٩.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب البيوع- باب يمحق الله الربا ويربي الصدقات (٢٠٨٧)،ومسلم في كتاب المساقاة- باب النهي عن الحلف في البيع(١٦٠٦).

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[وَعَنْ سَلْمَانَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ اليمٌ أشَيمِطٌ زَانٍ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ، وَرَجُلٌ جَعَلَ اللَّهَ بِضَاعَتَهُ: لَا يَشْتَرِي إِلَّا بِيَمِينِهِ، وَلَا يَبِيعُ إِلَّا بِيَمِينِهِ» [1] **رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ.]**

قوله:(عن سَلْمَانُ) هُوَ الْفَارِسِيُّ، قَالَ عَنْهُ الذَّهَبِيُّ – رَحِمَهُ اللهُ –:(ابن الْإِسْلَامِ أَبُو عَبْدِ اللهِ كَانَ لَبِيباً حازِماً مِنْ عُقَلاءِ الرِّجَالِ وَفُضَلائِهِمْ ونبلائِهِمْ) [2] وَثَبَتَ عَنِ النَّبِي ﷺ أَنَّه قَالَ :(لَوْ كَانَ الْإِيمَانُ عِنْدَ الثُّرَيَّا لَنالَهُ رَجُلٌ مِنْ هَؤُلَاءِ ، وَأَشَارَ إِلَى سلمَان) مُتَّفَقٌ عَلَيه. قَوْلُهُ: (ثَلاثَةٌ) لَيْسَ الْمُرادُ الْحَصر، لَكِنَّ هَؤُلَاءِ اتَّفَقُوا فِي سَبَبِ الْعَذَابِ وَهُوَ اسْتِخْفَافُهُمْ بِاللهِ عزَّ وَجل.(لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ) أَيْ: كَلامَ تَكْرِيمٍ وَرِضىً؛ لِأَنَّهُ قَدْ جَاءَ فِي الصَّحِيحِ: (مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ لَيْس بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ وَلَا حِجَابٌ يَحْجُبُهُ) [3].فَفِيهِ: إِثْبَاتُ صِفَةِ الْكَلامِ (وَلَا يُزَكِّيهِمْ) أَيْ: لَا يُثْنِي عَلَيهِمْ، وَفِي الْإِجْمَالِ قَبْلَ التَّفْصِيلِ تَشْوِيقٌ إِلَى التفصيل. (أُشَيمِطٌ زَانٍ) أشَيمِط: تَصْغِيرُ أَشْمَط، وَهُوَ مَنْ شَابَ رَأْسُهُ وَلِحْيَتُهُ، وَصَغَّرَهُ النَّبِي عَلَيه الصَّلاةُ وَالسّلامُ تَحْقِيرًا لَهُ، وَخُصَّ مِنْ بَيْنَ الزّناةِ لِضَعْفِ دَاعِي الْمَعْصِيَةِ عِنْده مِمَّا يَدُلُّ عَلَى حُبِّهِ لِلْمَعْصِيَةِ، وَضعف خَوْفِهِ مِنَ اللهِ.(وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ) الْعَائِلُ: الْفَقِيرُ. والمستكبر هو الْمُتَرَفِّعُ عَنِ الْحَقِّ وَالْخلقِ. وَخُصَّ مِنْ بَيْنَ الْمُتَكَبِّرِينَ لِضَعْفِ دَاعِي الْمَعْصِيَةِ عِنْده أيضاً.(وَرَجُلٌ جَعَلَ اللَّهَ بِضاعَتَهُ) هَذَا مَوْضِعُ الشَّاهِدِ ،- بِنَصْبِ الْاسم الشَّرِيفِ – وَهَذَا مُجْمَلٌ بَيَّنَهُ قَوْلُهُ:(لَا يَشْتَرِي إِلّا بِيَمِينِهِ، وَلَا يَبِيعُ إِلّا بِيَمِينِهِ) أَيْ: أَنَّهُ مُلازِمٌ لِلأَيْمَانِ فِي بَيْعِهِ وَشرائِهِ، فَهُوَ يُشَارِكُ الأولينَ فِي ضَعْفِ الدَّاعِي إِلَى الْحَلْفِ،

---

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٦١٢٤/٢٤٦/٦)، وفي «المعجم الأوسط» (٥٥٧٧/٣٦٧/٥)، وفي «المعجم الصغير» (٨٢١/٨٢/٢)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٨٥٢/٢٢٠/٤)، وذكره الهيثمّي في «مجمع الزوائد» (٦٣٣٥/١٣٧/٤)، وقال: «رواه الطبراني في معاجمه الثلاثة إلا أنه قال في الصغير والأوسط: «ثلاثةلايكلمهم الله ولايزكيهم ولهم عذابأليم». فذكره ورجاله رجال الصحيح».

(٢) سيرأعلام النبلاء (٣٠٩/٣).

(٣) أخرجه البخاري.

فَإِنْ كَانَ فِي حَلْفِهِ صَادِقاً فَكَثْرَةُ الْحَلْفِ اسْتِخْفَافٌ بِاللهِ وَقَدْ تُؤَدِّي إِلَى الْحَلْفِ الْكَاذِبِ ، وَإِنْ كَانَ كَاذِباً فَهِي كَبِيرَةٌ عَلَى كَبِيرَةٍ مع ضعف الداعي إليها.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[وَفِي "الصَّحِيحِ" عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي، ثُمَّ الذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الذِينَ يَلُونَهُمْ (قَالَ عِمْرَانُ: فَلَا أَدْرِي أَذَكَرَ بَعْدَ قَرْنِهِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا؟) ثُمَّ إِنَّ بَعْدَكُمْ قَوْماً يَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ، وَيَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمَنُونَ، وَيَنْذِرُونَ وَلَا يُوفُونَ، وَيَظْهَرُ فِيهِمْ السِّمَنُ» (١).]

قوله:(عن عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ) هُوَ وَأَبُوه صَحَابِيَّانِ.(خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي) أُمَّةُ النَّبِيِّ ﷺ خَيْرُ الْأُمَمِ، وَالصَّحَابَةُ خَيْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ فَهُمْ خَيْرُ النَّاسِ، وَقَدْ جَاءَ هَذَا صَرِيحًا فِي حَدِيثِ ابن مَسْعُودٍ ، وَكَيْفَ لَا يَكُونُونَ خَيْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَقَدْ جَاهَدُوا مَعَ رَسُولِ اللهِ وَنَصَرُوهُ وَشَاهَدُوا التَّنْزِيلَ وَتَلَقَّوهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وبلغُوهُ مَنْ بَعْدَهُمْ.(ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ) التَّابِعُونَ؛ لأنَّ الْإِسْلَامَ فِي عَهْدِهِمْ كَانَ ظَاهِراً مَعَ كَثْرَةِ الدَّاعِي إِلَيه وَالرَّاغِبِ فِيه، وَالْبِدْعَةُ وَأَهْلُهَا كَانُوا فِي غَايَةِ الذُّلِّ وَالْمَقْتِ، بَلْ قُتِلَ مَنْ لَمْ يَتُبْ مِنَ الْمُبْتَدِعَةِ.(ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ) أَيْ: الْقَرْنُ الثَّالِثُ دُونَ الأولينَ فِي الْخَيْرِيَّةِ بِظُهورِ الْبِدَعِ لَكِنَّ الْعُلَمَاءَ كَانُوا مُتَوَافِرِينَ، وَكَانَ الْإِسْلَامُ ظاهِرًا وَالْجِهَادُ قَائِمًا. قَالَ عِمْرَان: (فَلَا أَدْرِي أَذَكَرَ بَعْدَ قَرْنِهِ مرتَيْنِ أَوْ ثَلَاثاً ؟) قَالَ الشَّيْخُ ابن بَازٍ – رَحِمَهُ اللهُ –:(لَكِنَّ الْمَحْفُوظَ مِنْ حَدِيثِ عُمَرَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – فِي الْمُسْنَدِ أَنَّهُ مرَّتَيْنِ، وَمِنْ حَدِيثِ ابن مَسْعُودٍ كَذَلِكَ كَمَا هُوَ هُنَا)(٢). (ثُمَّ إِنَّ بَعْدَكُمْ قَوْماً) : ضُبطَ قومٌ بِالرَّفْعِ عَلَى أَنَّه خَبَرُ إِنَّ وَاسمها ضَمِيرُ الشَّأْنِ مَحْذُوفٌ.(يَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ) أَيْ : يَقُولُ أحدُهُمْ : أُشْهِدُ اللهَ مَا حَصَلَ كَذَا وَكَذَا، أَوْ حَصَلَ كَذَا وَكَذَا، عَلَى مَعْنَى الْيَمِينِ، وَقَدْ جَاءَتْ الشَّهَادَةُ بِمَعْنَى الْيَمِينِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الشهادات- باب لايشهد على شهادة جور إذا شهد(٢٦٥١)،ومسلم في كتاب فضائل الصحابة- باب فضل الصحابةرضي الله تعالى عنهم(٢٥٣٥).

(٢) شرح كتاب التَّوحيد، ص: ١٥٨-١٥٩.

﴿ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍ بِٱللَّهِ ﴾(١)

فَالْمَعْنَى : يَحْلِفُونَ وَلَا يُسْتَحْلَفُونَ؛ وَذَلِكَ لِرِقةِ دِينِهِمْ ، وَاسْتِخْفَافِهِمْ بِالْحَلْفِ.(وَيَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمَنُونَ) أَيْ: لأنَّهُمْ أَهْلُ خِيانَةٍ، وَلِكَثْرتِهَا عِنْدَهُمْ وَشُهْرَتِهِمْ بِهَا لَا يأتمنُهم النَّاسُ.(وَيَنْذِرُونَ وَلَا يُوفُونَ) تَقَدَّمَ أَنَّ عَقْدَ النَّذْرِ مَكْرُوهٌ وَالْوَفَاءُ بِهِ وَاجِبٌ ، فَهُمْ يَفْعَلُونَ الْمَكْرُوهَ بَلْ الْمُحَرَّمَ وَيَتْرُكُونَ الْوَاجِبَ.(وَيَظْهَرُ فِيهِمْ السِّمَنُ) هَذِهِ الْجُمْلَةُ مَحَلُّ إِشْكَالٍ؛ لأنَّ السِّمْنَ لَيْسَ مِنَ اِخْتِيَارِ الْعَبْدِ، فَكَيْفَ يُذَمُّ الْعَبْدُ عَلَى مَا لَيْسَ مِنْ كَسْبِهِ؟ قَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ:(الْمُرَادُ الاعْتِنَاءُ بِأَسْبَابِ السِّمنِ مِنَ الْمَطَاعِمِ وَالْمَشَارِبِ). وَفِي الْحَدِيثِ: عَلَمٌ مِنْ أَعْلَامِ النُّبُوَّةِ.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[وَفِيهِ عَنِ ابن مَسْعُودٍ ﷺ : أَنَّ النَّبِي ﷺ قَالَ: « خَيْرُ النَّاس قَرْنِي، ثمَّ الذِينَ يَلُونَهُمْ، ثمَّ الذِينَ يَلُونَهُمْ، ثمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ »(٢).]

قوله: (خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي) هَذَا صَرِيحٌ فِي خَيْرِيَّةِ الصَّحَابَةِ عَلَى جَمِيعِ النَّاسِ، فَهُمْ خَيْرٌ مِنْ حَوَارِيِ عِيسَي عَلَيهِ وعلى نبيّنا الصَّلاةُ السّلامُ وَخَيْرٌ مِنْ نُقَبَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ. وَفِيهِ: أَنَّ الْقُرُونَ الْمُفَضَّلَةَ ثَلاثَةٌ. (ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَه وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ) قَالَ ابن حَجَرٍ – رَحِمَهُ اللهُ –:(وَقِيلَ : الْمُرَادُ التَّسَرُعُ إِلَى الشَّهَادَةِ وَالْيَمِينِ وَالْحِرْصُ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى لَا يَدْرِي بِأَيِّهِمَا يَبْدَأ لِقِلَّةِ مُبَالاتِهِ)(٣).

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ:(كَانُوا يَضْرِبُونَنَا عَلَى الشَّهَادَةِ وَالْعَهْدِ وَنَحْنُ صِغَارٌ).]

(١) سورة النور الآية: ٦.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الشهادات– باب لايشهد على شهادة جور إذا أشهد (٢٦٥٢)،ومسلم في كتاب فضائل الصحابة– باب فضل الصحابة رضي الله تعالى عنهم ثمَّ الذين يلونهم (٢٥٣٣).

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ١١/ ٥٤٤، الناشر : دار المعرفة – بيروت ، ١٣٧٩، للحافظ أحمد بن علي بن حجر أبي الفضل العسقلاني الشافعي.

(إِبْرَاهِيمُ): هُوَ النَّخَعِي. وَالضَّمِيرُ (كَانُوا) يَعُودُ إِلَى من يَصْلُحُ مِنْهُمْ ذَلِكَ كَأَوْلِيَاءِ الْأُمُورِ والمرَبِّين.(كَانُوا يَضْرِبُونَنَا عَلَى الشَّهَادَةِ وَالْعَهْدِ وَنَحْنُ صغارٌ) أَيْ : عَلَى التَّسَرُعِ فِيهِمَا. وَفِيه مِنَ الْفَوائِدِ : عِنَايَةُ السَّلَفِ بِتَرْبِيَةِ الابْنَاءِ. وَعِظَمُ أمْرِ الشَّهَادَةِ وَالْيَمِينِ؛ لأَنَّهَا مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي يُضْرَبُ عَلَيهَا. وَأَنَّ الضَّرْبَ مِنْ وَسَائِلِ التَّرْبِيَةِ. وَيَشْتَرطُ أَنْ يَكُونَ مِمَّنْ يَصْلُحُ مِنه ذَلِكَ، وَأَنْ يَكُونَ الْقَصْدُ التَّأْدِيبَ لَا الْانْتِقام، وَأَنْ يَنْتَفِعَ بِهِ الصَّغِيرُ،وَألا يَزِيدُ عَنِ الْعَشْرَةِ؛ لِحَدي:(لَا يُجْلَدُ فَوْقَ عَشْرِ جَلَدَاتٍ إِلَّا فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ) [(١)]

أفادها ابن عثيمين.

---

(١) أخرجه البخاري–بَاب كَمْ التَّعْزِيرُ وَالْأَدَبُ؟، برقم: (٦٨٤٨)، ومسلم بلفظ: (لا يُجْلَدُ أَحَدٌ فَوْقَ عَشَرَةِ أَسْوَاطٍ إِلاَّ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ)، باب قَدْرِ أَسْوَاطِ التَّعْزِيرِ، برقم:(٤٥٥٧).

[٦٣]

بَابُ مَا جَاءَ فِي ذِمَّةِ اللَّهِ وَذِمَّةِ نَبِيِّهِ

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ: أَنَّ الْبَابَ السَّابِقَ فِي تَعْظِيمِ اللَّهِ فِي حالِ مُعَامَلَةِ المسْلِمِينَ بَعْضِهِمْ بَعْضاً، وَهَذَا الْبَابُ فِي حالِ مُعَامَلَةِ المسْلِمَينَ الْكفَّارَ فِي الْعُهُودِ وَالْمَوَاثِيقَ فَالْوَفاءُ بِالْعَهْدِ لَا يَخْتَصُّ بِالْمُسْلِمِ بَلْ هُوَ مَعَ الْكفارِ أولَى لِيَدْعُوهُمْ ذَلِكَ لِلنَّظَرِ فِي عَدْلِ الْإِسْلامِ وَسَمَاحَتِهِ وَأَنَّ ذَلِكَ لَا يَخْتَصُّ بِأَهْلِ الْإِسْلامِ بَلْ مَعَ كُلِّ أَحَدٍ.

وَمَعْنَى التَّرْجَمَةِ : بَابُ مَا جَاءَ فِي عَهْدِ اللَّهِ وَعَهدِ رَسُولِهِ ﷺ مِنْ تَعْظِيمِهِمَا وَعَدَمِ إخفارِهِمَا بَلْ وَعَدَمِ جَعْلِهِمَا لِلنَّاسِ؛ لأنَّ ذَلِكَ وَسِيلَةٌ لإخفارِهِمَا.

قَالَ الإمامُ – رحمهُ اللهُ –[وقول الله تعالى ﴿ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا ﴾[١]]

قوله: (وأوفو بِعَهْدِ اللَّهِ)الأمر لِلْوُجُوبِ، وَعَهْدُ اللَّهِ: مُفْرَدٌ يَشْمَلُ عَهْدَ الْعَبْدِ مَعَ رَبِّهِ وَعَهِدَهُ مَعَ النَّاسِ، سَواءٌ قَالَ: عَهْدُ اللَّهِ عَلَيَّ، أَوْ قَالَ: أعَاهِدُكَ، إلّا أَنَّ الأول أشَدُّ. (وَلَا تَنْقَضُّوا الأيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا) النَّقْضُّ :هُوَ حَلُّ المعقودِ ، وَتَوْكِيدُهَا: يَكُونُ بِاسم اللَّهِ.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[عَنْ بُرَيْدَةَ ﷺ قَالَ: (**كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْصَاهُ بِتَقْوَى اللَّهِ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا. فَقَالَ: «أغْزُوَا بِسْمِ اللَّهِ، فِي سَبِيلِ اللَّهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ أغزُوَا، وَلَا تَغلُّوا، وَلَا تَغدِرُوا، وَلَا تُمَثِّلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيداً، وَإِذَا لَقِيت عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ (أَوْ خِلَالٍ)، فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجابُوك، فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ ثُمَّ أدْعُهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ فَإِنْ أَجَابُوكَ " فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، ثُمَّ أدْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ**

(١) سورة النحل الآية: ٩١.

وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ، وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ، فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللَّهِ تَعَالَى وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ شَيْءٌ، إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا، فَاسْأَلْهُمُ الْجِزْيَةَ، فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ، فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا، فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَقَاتِلْهُمْ. وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ، فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، فَلَا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، وَلَكِنِ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ، فَإِنَّكُمْ أَنْ تَخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تَخْفِرُوا ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ، فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ، فَلَا تُنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصِيبُ فِيهِمْ حُكْمَ اللَّهِ أَمْ لَا»[(١)] رَوَاهُ مُسْلِمٌ.]

قوله: (عن بُرَيْدَةَ) هُوَ ابن الحُصَيبِ بْنِ الْحَارِثِ الأَسْلَمِي .(أَمَّرَ أَميراً) أَي : نَصبَ أَميراً.(عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ) وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا فِي الْعَدَدِ.فهي دون الجيش عددا وَفِيهِ: أَنَّ تَجْيِيشَ الْجُيُوشِ وَنَصْبَ الأمراءِ مِنْ مهامّ الْإِمَامِ الأعْظَمِ، وَلَيْسَ لِآحَادِ النَّاسِ أَنْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنَ الْفَوْضَى.(أَوْصَاهُ بِتَقْوَى اللَّهِ) وهِي التَّحَرُّزُ بِطَاعَةِ اللَّهِ مِنْ عُقُوبَتِهِ.(وَمَنْ مَعَه مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا) أَيْ: أَوْصَاهُ بِالرِّفْقِ بِهِمْ وَالْإِحْسَانِ إِلَيهِمْ.(فَقَالَ: اغْزُوا بِسْمِ اللَّهِ) أَي : مُسْتَعِينِينَ بِاللهِ مُتَوَكِّلِينَ عَلَيهِ. (قَاتِلُوا مَنْ كفرَ بِاللَّهِ) الْكُفْرُ هُوَ سَبَبُ الْقِتَالِ (اغْزُوا، وَلَا تَغُلُّوا) مِنَ الْغُلُولِ: وهُوَ أَخْذُ شيءٍ مِنَ الْغَنِيمَةِ قَبْلَ قِسْمَتِهَا، وَهُوَ مِنَ الْكبائرِ.(وَلَا تُمَثِّلُوا) الْمُثْلَةُ: تَشْوِيهُ الْقَتِيلِ بِقَطْعِ شيءٍ مِنْ جَسَدِهِ.(وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا) أَيْ: صَغيراً ذكرا أو أنثى.(وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ) أي خيرهم بين هذه الخصال الثلاثة (ثُمَّ أُدْعُهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ) هَكَذَا جَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ، وَالصَّوَابُ إِسْقَاطُهَا كَمَا فِي سَنَنِ أَبِي داوُدَ. أفاده النجدي في حاشية كتاب التوحيد (فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ، فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ فَإِنْ أَجَابُوكَ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ) قَالَ النَّوَوِيُّ – رَحِمَهُ اللهُ -: التَّحَوُّلُ مِنْ دارِهِمْ إِلَى الْمَدِينَةِ

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الجهاد والسير– باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث ،ووصيته إياهم بآداب الغزو وغيرها (١٧٣١).

مُسْتَحَبٌّ،لأنَّ دَارَهُمْ صَارَتْ أَرْضَ إِسْلامٍ.(وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ) أَيْ: لهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ.(وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ) أَيْ : عَلَيهِمْ الدِّفَاعُ عَنْ أرْضِ الْإِسْلامِ.(فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرابِ الْمُسْلِمِينَ) أَيْ : لَيْسَ لَهُمْ نَصِيبٌ فِي الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ. وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا أَنَّ الْغَنِيمَةَ مَا أُخذَ مِنَ الْكفَّارِ بِقِتَالٍ وَالْفَيْءَ مَا أُخذَ مِنَ الْكفَّارِ بِغَيْرِ قِتَالٍ منصبح أو معاهدة (إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ) فَيَكُونُ لهُمْ نَصِيبٌ فِي الْغَنِيمَةِ دُونَ الْفَيْءِ.(فَإِنْ هُمْ أَبَوْا) أَيْ : الْإِسْلامَ.(فَاسْأَلْهُمْ الجِزْيَةَ) وَهِي مَالٌ مَدْفُوعٌ مِنْ كَافِرٍ لِتَأْمِينِهِ وَإِقَامَتِهِ بِدَارِ الْمُسْلِمِينَ، وَمِنْ حِكْمَتِهَا تَمَكُّنُ الْكفَّارِ مِنَ التَّعَرُّفِ عَلَى الْإِسْلامِ وَسَمَاحَتِهِ. وَبَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ خِلافٌ فِي منْ تُفْرَضُ عَلَيْهِمْ الجِزْيَةُ، فَقَدْ خَصَّهَا بَعْضُهُمْ بِأَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمَجُوسِ، وَبَعْضُهُمْ يرى أَنَّهَا عَامَّةٌ فِي الْكفَّارِ.(فَإِنْ هُمْ أَبَوْا) فِيه وُجُوبُ مُقَاتِلَةِ مَنْ أَبَى الْإِسْلامَ وَدَفْعَ الجِزْيَةِ بِشَرْطِهِ.(وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ) الْحِصَارُ: التَّضْيِيقُ، وَحِصَارُ الحِصْنِ تَطْوِيقُهُ مِنْ كلِّ مُنَفَذٍ بِحَيْثُ يُمْنَعُ مِنْ فِيه مِنَ الْخُرُوجِ، وَهُوَ مِنَ الْخُطَطِ الْحَرْبِيَّةِ.قولُهُ (فَأَرَادُوكَ أَنْ تجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ) أَيْ: طلبُوا مِنْكَ ذَلِكَ. (فَلَا تجْعَلْ لهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ) هَذَا مَوْضِعُ الشَّاهِدِ مِنَ الْحَدِيثِ، قَالَ ابن عُثَيْمِين:(النَّهْي لِلتَّحْرِيمِ.)(١) (وَلَكِنِ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ، فَإِنَّكُمْ أَن تَخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تَخْفِرُوا ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ) قَال السِّعْدِيُّ – رَحِمَهُ اللهُ –:(الْمَقْصُودُ مِنْ هَذِهِ التَّرْجَمَةِ: الْبُعْدُ وَالْحَذَرُ مِنَ التَّعَرُّضِ لِلأحْوالِ الَّتِي يُخْشَى مِنْهَا نَقْضُ الْعُهُودِ وَالْإِخْلالِ بِهَا، بعدما يَجْعَلُ لِلاعْدَاءِ المعاهدين ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ. فَإِنَّهُ مَتَى وَقَعَ النَّقْضُ فِي هَذِهِ الحْالِ كَانَ انْتِهاكاً مِنَ الْمُسْلِمِينَ لِذِمَّةِ اللَّهِ وَذِمَّةِ نَبِيه ، وَتَرْكاً لِتَعْظِيمِ اللَّهِ، وَارْتِكَاباً لِأَكْبَرِ الْمفْسدَتَيْنِ كَمَا نَبَّهَ عَلَيهِ ﷺ ، وَفِي ذَلِكَ أَيضاً تَهْوِينٌ لِلدِّينِ وَالْإِسْلامِ وَتَزْهِيدٌ لِلْكَفَّارِ بِهِ، فَإِنَّ الْوَفَاءَ بِالْعُهُودِ خُصُوصاً الْمُؤَكّدَةِ بأغلظِ الْمَوَاثِيقِ مِنْ مَحَاسِنِ الْإِسْلامِ الدَّاعِيَةِ لِلاعْدَاءِ الْمُنْصِفِينَ إِلَى تَفْضِيلِهِ

(١) القول السديد في مقاصد التَّوحيد، ص: ١٨٥.

وَاتِّبَاعِهِ)[1]. (فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ، فَلَا تُنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِك) أَيْ : إِنْ طَلَبُوا مِنْكَ حُكْمَ اللهِ فأنزلهُم عَلَى اجْتِهَادِكَ، فَإِنْ أَصَبْتَ فَمِنَ اللَّهِ وَإِنْ أَخْطَأْت فَمِنْ نَفْسِكَ وَلَا يُنْسَبُ الْخَطَأ إِلَى اللهِ، وَفِي الْحَدِيثِ مِنَ الْفَوَائِدِ: الْحَذرُ وَالْحيطَةُ مِنْ نِسْبَةِ السُّوءِ إِلَى اللهِ، وَأَنَّ طَالِبَ الْعِلْمِ يَحْذَرُ الْإِسَاءَةَ حَتَّى لَا تُنْسَبُ إِلَى الْعِلْمِ وَأهلِهِ.(فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصِيبُ فِيهِمْ حُكْمَ اللَّهِ أَمْ لَا) وَفِيه دَليلٌ عَلَى أَنَّ الْمُصِيبَ مِنَ الْمُجْتَهِدِينَ وَاحِدٌ، وَلَيْسَ كُلُّ مُجْتَهِدٍ مُصِيباً. وَفِيه وُجُوبُ وَرَعِ الْعَالِمِ فَيَقُولُ فِي ما لَا نَصَّ فِيه هَذَا اجْتِهَادِي وَعِلْمِي، وَفِي ما فِيه النَّصُّ قَالَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ وَالصَّوَابُ. وَفِيه دَليلٌ عَلَى مَشْرُوعِيَّةِ الْاجْتِهَادِ. وَفِيه ارْتِكَابُ أَدْنَى الْمفْسدَتَيْنِ بِتَفْوِيتِ أَعْلَاهُمَا. وَفِيه أَنَّ حُكْمَ اللهِ حَقٌّ مُطْلَقاً، وَحُكْمَ الْعُلَمَاءِ قَدْ يَكُونُ صَوَاباً وَقَدْ يَكُونُ خَطَأً. وَفِيه دَليلٌ عَلَى قَاعِدَةِ سَدِّ الذَّرائِعِ.

(١) القول السديد في مقاصد التَّوحيد، ص: ١٨٥.

[٦٤]بابُ ما جاء في الإقسام على الله

(مُناسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ) أَنَّ الإمام – رَحِمَهُ اللهُ – حَذَّرَ فِي الْبَابِ السَّابِقِ مِنْ إعْطَاءِ الْكفَّارِ ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ لِما فِيه مِنْ مُنافاةِ تَعْظِيمِ اللَّهِ ؛ لأنَّهُ وَسِيلَةٌ لِلْاسْتِهانَةِ بِهِ وَنِسْبَةِ السُّوءِ إِلَيه، وَهُنَا يُحَذِّرُ مِنَ الإقسامِ عَلَى اللهِ لِمَا فِيه – أيضاً – مِنَ الْاسْتِهانَةِ بِهِ وَالجُرْأَةِ عَلَيه. وَلَمْ يَذْكُر الإمام – رَحِمَهُ اللهُ – حُكْمَ الإقسام فِي التَّرْجَمَةِ؛ لأنَّ الإقسام لَهُ حالَتَانِ: الأولى: أَنْ يُقْسِمَ عَلَى اللهِ لِقُوةِ رَجائِهِ وَحُسنِ ظَنِّهِ بِرَبِّهِ، مَعَ شِدَّةِ افْتِقَارِهِ وَخُضُوعِهِ، وَهَذَا يَقَعُ مِنَ الصَّالِحِينَ، وَقَدْ وَقَعَ مِنْهُمْ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ عَلَيه الصَّلاةُ وَالسّلامُ، وقدْ قَالَ النَّبِيُّ عَلَيه الصَّلاةُ وَالسّلامُ : (إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لابَرَّهُ مِنْهُمْ أَنَسُ بن النَّضْر)[١]

الثَّانِيَةُ : أَنْ يُقْسِمَ عَلَى اللهِ على وجهِ الحجْرِ مَعَ سُوءِ ظَنِّهِ بِرَبِّهِ واعجابهِ بِنَفْسِهِ، وَاحْتِقَارِهِ للآخرين، وَهُوَ الْمَقْصُودُ فِي هَذَا الْبَابِ.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[عَنْ جُنْدُبِ بنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَالَ رَجُلٌ وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لِفُلَانٍ، فَقَالَ اللَّهُ عز وجل: (مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلى عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ ؟ إِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ)[٢] رَوَاهُ مُسْلِمٌ.]

قوله: (قَالَ رَجُلٌ وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لِفُلَانٍ):هَذَا الْقَوْلُ فِيه جُرْأَةٌ عَلَى اللهِ ، وَيَأْسٌ مِنْ روحِ اللهِ، وَقُنُوطٌ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ وَاحْتِقَارٌ لِعِبَادِ اللَّهِ، وَسُوءُ ظَنٍّ بِاللهِ. قوله:(فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ :(مَنْ ذَا الَّذِي يَتأَلى عَلَيَّ) الْاسْتِفْهامُ هُنَا إِنْكاري أي كيفَ تتأَلَى علي؟ وأنتَ عبدٌ وأنا ربٌّ أفعلُ ما أشاءُ وفيه إِثْبَاتُ الْقَوْلِ لله. والتأَلي: هُوَ الْحَلْفُ.(أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ ؟) الْمَغْفِرَةُ: هِي السِّتْرُ وَالتَّجَاوُزُ.(إِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ) فِيه دَلِيلٌ عَلَى مَذْهَبِ أهْلِ السُّنَّةِ أَنَّ اللهَ قَدْ يَغْفِرُ الذَّنْبَ بَلَا تَوْبَةٍ.(وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ) أَيْ : أَبْطَلْتُهُ فَلَا ثَوابَ لَكَ فِيه.

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٧/٥٠٠) وأصله أخرجه البخاري – بَاب الصُّلْحِ فِي الدِّيَةِ وغيره، برقم: (٦٨٠٦)،و مسلم – باب إِثْبَاتِ الْقِصَاصِ فِى الأَسْنَانِ وَمَا فِى مَعْنَاهَا، وغيره، برقم: (٤٤٦٧)

(٢) رواه مسلم في باب النَّهْيِ عَنْ تَقْنِيطِ الإِنْسَانِ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى .

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ:«أَنَّ القَائِلَ رَجُلٌ عَابِدٌ» قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ:«تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ، أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ»[1].]

روى أبوداود عن أَبِي هُرَيْرَةَ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -ﷺ- يَقُولُ كَانَ رَجُلاَنِ فِى بَنِى إِسْرَائِيلَ مُتَآخِيَيْنِ فَكَانَ أَحَدُهُمَا يُذْنِبُ وَالآخَرُ مُجْتَهِدٌ فِى الْعِبَادَةِ فَكَانَ لاَ يَزَالُ الْمُجْتَهِدُ يَرَى الآخَرَ عَلَى الذَّنْبِ فَيَقُولُ اقْصِرْ. فَوَجَدَهُ يَوْمًا عَلَى ذَنْبٍ فَقَالَ لَهُ اقْصِرْ فَقَالَ خَلِّنِى وَرَبِّى أَبُعِثْتَ عَلَىَّ رَقِيبًا فَقَالَ وَاللَّهِ لاَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ أَوْ لاَ يُدْخِلُكَ اللَّهُ الْجَنَّةَ. فَقَبَضَ أَرْوَاحَهُمَا فَاجْتَمَعَا عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ فَقَالَ لِهَذَا الْمُجْتَهِدِ أَكُنْتَ بِى عَالِمًا أَوْ كُنْتَ عَلَى مَا فِى يَدِى قَادِرًا وَقَالَ لِلْمُذْنِبِ اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِى وَقَالَ لِلآخَرِ اذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ». قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لَتَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ.

وَفِي الْحَدِيثِ مِنَ الْفَوائِدِ : التَّحْذِيرُ مِنَ التألي عَلَى اللهِ وَأَنَّه مُحْبِطٌ لِلْعَمَلِ. وَأَنَّ الْجَنَّةَ أَقْرَبُ لأحدِنَا مِنْ شراكِ نَعْلِهِ، وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ، فَقَدْ دَخَلَ الْجَنَّةَ الْمُذْنِبُ بِكَلِمَةٍ، وَدَخَلَ المتألي النَّارَ بِالْكَلِمَةِ نَفْسِهَا. قَالَ الشَّيْخُ صَالِحُ آلُ الشَّيْخِ " فَهَذَا الرَّجُلُ الْفَاسِقُ أَتَاهُ خَيْرٌ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ، وَقِيلَتْ فِي حَقِّهِ كَلِمَةٌ بِحَسْبِ الظَّاهِرِ أَنَّهَا مُؤْذِيَةٌ لَهُ، وَأَنَّ فِيهَا مِنَ الاحْتِقَارِ وَالْازْدِرَاءِ لَهُ مَا يَجْعَلُهُ فِي ضَعَةٍ بَيْنَ النَّاسِ، حَيْثُ شَهِدَ عَلَيه هَذَا الصَّالِحُ بقولِهِ :« وَاللهِ لَا يَغْفِرُ اللهُ لِفُلَانٍ »، فَكَانَتْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ الَّتِي سَاءَتْهُ وآذتهُ فِيهَا مَصْلَحَةٌ عَظِيمَةٌ لَهُ بِأَنْ غُفِرَ لَهُ ذَنْبُهُ "[2].وَقَدْ يَغْفِرُ اللهُ تَعَالَى الذَّنْب بِأَمْرٍ مَكْرُوهٍ لِلْعَبْدِ وَهُوَ هُنَا التَّأْنِيبُ . وَفِيه وُجُوبُ الْحَذِرِ مِنْ مَزَالِقِ اللِّسَانِ. وَتَرْشِيدُ الْغَيْرَةِ بِالْعِلْمِ. وَالتَّحفُّظُ فِي الألفاظ عِنْدَ إِنْكارِ الْمُنْكَرِ. وَعَدَمُ الأمْنِ مِنْ مَكْرِ اللهِ. وَفِيهِ: الْحَذرُ مِنَ الْعُجْبِ. قَوْلُ أَبِي هُرَيْرَةَ – ﷺ –:(أَوْبَقَتْ) أَيْ : أَهْلَكَت أي خسر الدنيا والآخرة بهذه الكلمة.

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الأدب- باب في النهي عن البغي (٤٩٠١)، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود».

(٢) التمهيد لشرح كتاب التوحيد (ص: ٥٧٥).

[٦٥]

بَابٌ لَا يُسْتَشْفَعُ بِاللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ أَنَّ الإمام – رَحِمَهُ اللهُ – لَا زَالَ يُحَذِّرُ مِنَ الألفاظ الَّتِي تُنْقِصُ التَّوْحِيدَ وَتُنَافِي كَمَالَهُ، وَمِنْهَا أَنْ يُسْتَشْفَعَ بِاللهِ إِلَى عَبْدٍ مِنْ عِبَادِهِ. قَالَ السِّعْدِيُّ – رَحِمَهُ اللهُ –:(وَأَمَّا الاستشفاعُ بِاللهِ عَلَى خَلْقِهِ فَهُوَ تَعَالَى أَعْظَمُ شَأْناً مِنْ أَنْ يُتَوَسَّلَ بِهِ إِلَى خَلْقِهِ؛ لأَنَّ رُتْبَةَ الْمُتَوَسَّلِ بِهِ غَالِباً دُونَ رُتْبَةِ الْمُتَوَسَّلِ إِلَيهِ، وَذَلِكَ مِنْ سُوءِ الْأَدَبِ مَعَ اللهِ، فَيَتَعَيَّنُ تَرْكُهُ، فَإِنَّ الشُّفَعَاءَ لَا يَشْفَعُونَ عِنْدَهُ إِلّا بِإِذْنِهِ، وَكُلُّهُمْ يَخَافُونَهُ، فَكَيْفَ يُعْكَسُ الأمرُ فَيُجْعَلُ هُوَ الشَّافِعُ، وَهُوَ الْكَبِيرُ الْعَظِيمُ الَّذِي خَضَعَتْ لَهُ الرِّقَابُ، وَذَلَّتْ لَهُ الْكَائِنَاتُ بِأَسْرِهَا ؟!)(١)

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ ﷺ قَالَ: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِي ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! نُهِكَتِ الأَنْفُسُ وَجَاعَ العِيَالُ، وَهَلَكَتِ الامْوَالُ، فَاسْتَسْقِ لَنَا رَبَّكَ، فَإِنَّا نَسْتَشْفِعُ بِاللَّهِ عَلَيْكَ، وَبِكَ عَلَى اللهِ فَقَالَ النَّبِي ﷺ : «سُبْحَانَ اللَّهِ! سُبْحَانَ اللَّهِ!» فَمَا زَالَ يُسَبِّحُ حَتَّى عُرِفَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ ثُمَّ قَالَ وَيْحَكَ! أَتَدْرِي مَا اللَّهُ ؟ إِنَّ شَأْنَ اللَّهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، إِنَّهُ لَا يُسْتَشْفَعُ بِاللَّهِ عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ.(٢) وَذَكَرَ الحَدِيثَ رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ.]

الحديث ضعيف (فِيه بِكْر بْنُ سُليمَانِ مُدَلِّسٌ وَقَدْ عَنْعَنَ) أَفَادَهُ الألباني فِي الضَّعِيفَةِ

(١) القول السديد في مقاصد التَّوحيد، ص: ١٨٩.

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب السنة– باب في الجهمية (٤٧٢٦)،وضعفه الألباني في «ضعيف أبي داود»وهو في الضعيفة برقم: ٢٦٣٩.

[٦٦]

بَابُ مَا جَاءَ فِي حِمَايَةِ الْمُصْطَفَى ﷺ حِمَى التَّوحيدِ وَسَدِّهِ طُرُقَ الشِّرْكِ.

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ أَنَّه مِنْ جِنْسِ الأبواب السَّابِقَةِ فِي الْحَذَرِ مِنْ كُلِّ قَوْلٍ يُفْضِي إِلَى الشِّرْكِ؛ لأَنَّهُ لَا يَتِمُّ التَّوْحِيدُ إِلّا بِتَرْكِهِ. قَالَ السّعْدِيُّ – رَحِمَهُ اللهُ – (تَقَدَّمَ نَظِيرُ هَذِهِ التَّرْجَمَةِ وَأَعَادَهَا الإمام ؛ اهْتِمَاماً بِالْمَقَامِ ، فَإِنَّ التَّوْحِيدَ لَا يَتِمُّ وَلَا يُحْفَظُ وَلَا يُصَانُ إِلّا بِاجْتِنَابِ جَمِيعِ الطُّرُقِ الْمُفْضِيَةِ إِلَى الشِّرْكِ ، وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْبَابَيْنِ : أَنَّ الأول : فِيه حِمَايَةُ التَّوْحِيدِ بِسَدِّ الطُّرُقِ الْفِعْلِيَّةِ، وَهَذَا الْبَابُ: فِيه حِمَايَتُهُ وَسَدُّهُ بِالتَّأَدُّبِ وَالتَّحفُّظِ بِالأَقْوَالِ)[١] وَذَكَرَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ فَرْقَاً آخَر وَهُوَ أَنَّ الْبَابَ السَّابِقَ فِي حِمَايَتِهِ ﷺ جَنَابَ التَّوْحِيدِ، وَهَذَا فِي حِمَايَةِ الْحِمَى، وَالْجَنابُ جُزْءُ الشَّيْءِ، وَالْحِمَى مَا كَانَ حَوْله، فَهَذِهِ التَّرْجَمَةُ أَبْلَغُ مِنَ الأولى. أَفَادَهُ ابن بَازٍ[٢] – رَحِمَهُ اللهُ– .

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الشِّخِّيرِ ﷺ قَالَ: انْطَلَقْتُ فِي وَفْدِ بَنِي عَامِرٍ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقُلْنَا أَنْتَ سَيِّدُنَا فَقَالَ: «السَّيِّدُ اللَّهُ تَبارَكَ وَتَعَالَى» قُلْنَا وَأَفْضَلُنَا فَضْلاً، وَأَعْظَمُنَا طَولاً، فَقَالَ: «قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَجْرِيَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ»[٣] رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ.]

قوله: (عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الشِّخِّير) بن عَوْف بْنِ كَعْبِ الْعامِرِي.(انْطَلَقْتُ فِي وَفْدِ بَنِي عَامِرٍ) كَانَ ذَلِكَ فِي عَامِ الْوُفُودِ وَهُوَ الْعَامُ التَّاسِعُ لِلْهِجْرَةِ. قوله:(فَقُلْنَا أَنْتَ سَيِّدُنَا) عَلَى عَادَةِ الْعَرَبِ إِذَا وَفَدُوا عَلَى كَبِيرِهِمْ، مَدَحُوهُ بِالْكَلِمَاتِ وَالألفاظ الْعَظِيمَةِ. قوله:(السَّيِّدُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى) السَّيِّدُ: مِنَ السُؤددِ وَهُوَ الشَّرَفُ وَالْجاهُ، وَيُطْلَقُ عَلَى الْمَلِكِ وَمَنْ لَهُ التَّصرُّفُ الْمُطْلَقُ. وَإِنَّما كَرِهَ النَّبِيُّ ﷺ قَوْلَهَم مِنْ جهتينِ:

---

(١)القول السديد في مقاصد التَّوحيد، ص: ١٨٥.

(٢) في شرحه لكتاب التَّوحيد، ص: ١٦٦.

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب الأدب– باب في كراهية التمادح (٤٨٠٦)، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود»، وفي المشكاة برقم: (٤٩٠١).

الأولى: مِنْ جِهَةِ مُخَاطَبَتِهِمْ بِهِ، فَقَدْ يُفْضِي ذَلِكَ فِي حَقِّ غَيْرِهِ إِلَى الْإِعْجَابِ وَالْغُرُورِ، أَمَّا النَّبِيُّ ﷺ فَهُوَ مَعْصُومٌ مِنْ ذَلِكَ.

الثَّانِيَةُ : بِالنِّسْبَةِ إِلَيهِمْ قَدْ يُفْضِي بِهِمْ إِلَى الْغُلُوِّ لَا سيَّمَا وَهُمْ حدثاءُ عَهْدٍ بِإِسْلامٍ. (قُلْنَا وَأَفْضَلُنَا فَضْلاً) أَيْ: مَنْزِلَةً وَرُتْبَةً. قوله: (وَأَعْظَمُنَا طَوْلاً) أَيْ : غِنىً وَشَرَفاً.قوله (فَقَالَ :« قُولُوا بِقَوْلِكُمْ ، أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ) أَيْ : تكَلَّمُوا بِمَا يَحْضُرُكُمْ مِنَ الْكَلامِ وَلَا تتَكَلَّفُوا. قوله:(لَا يَسْتَجْرِيَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ) أَيْ : لَا يَتَّخِذْكُمْ الشَّيْطَانُ جَرْياً أَيْ: رُسُلاً وَوكلاءَ تَنْطِقُونَ بلسَانِهِ، وَقِيلَ : رُسُلاً : يَتَوصَّلُ بِكَمْ إِلَى الْغُلُوِّ . وَقِيلَ: لَا يَسْتَجْرِيَنَّكُمْ : لَا يَجْذُبَنَكُمْ لِلْكَلامِ الَّذِي لَا يَجُوزُ، وَلَا تَعَارُضَ بَيْنَ هَذِهِ الْمَعَانِي فَيُحْمَلُ الْحَدِيثُ عَلَى الْجَمِيعِ. وَفِيه : مَشْرُوعِيَّةُ قَوْلِ:(السَّيِّدُ اللَّهُ) لِمَنْ قِيل لَهُ أَنْتَ سَيِّدُنَا.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[وَعَنْ أَنَسٍ ﷺ أَنَّ نَاسًا قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ! يَا خَيْرَنَا وَابْنَ خَيْرِنَا، وَسَيِّدَنَا وَابْنَ سَيِّدِنَا! فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاس! قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ، أَنَا مُحَمَّدٌ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، مَا أحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي التِي أَنْزَلَنِي اللَّهُ عز وجل»[(١)]. رَوَاهُ النَّسَائِيُّ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ.]

قولهم: (يَا خَيْرَنَا وَابْنَ خَيْرِنَا): هُوَ خَيْرُنَا نَسَباً وَمَقَاماً وَحالاً، وَأَبُوه خِيرُنَا نَسَباً لَا مَقَاماً وَحالاً.قولهم : (وَسَيِّدَنَا وَابن سَيِّدِنَا) كَذَلِكَ. قوله: (فَقَالَ:« يا أَيُّهَا النَّاسُ ! قُولُوا بِقَوْلِكُمْ) أَيْ: تَكَلَّمُوا بِمَا يَحْضُرُكُمْ مِنَ الْكَلامِ.(وَلَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ) أَيْ: لَا يَقُودَنَّكُمْ إِلَى الْهَاوِيَةِ (أَنَا مُحَمَّدٌ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ) وَصْفَانِ يَجْمَعَانِ غَايَةَ الْمَدْحِ وَالثَّنَاءِ، وَيَنْفِيَانِ كُلَّ ذَمٍّ وَجَفَاءٍ. وَفِيهِمَا رَدٌّ عَلَى الغَالِينَ وَالْجَافِينَ.

قوله: (مَا أحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنْزَلَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ) هَذَا صَرِيحٌ فِي بُغْضِهِ لِمَا يَفْعَلُهُ الْغُلاةُ بِزَعْمِ مَدْحِه، وَأَنَّ الْمَنْزِلَةَ الَّتِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ هِي الْعُبُودِيَّةُ وَالرِّسَالَةُ. ورفعُهُ فوقَ منزلتِهِ قدْ يكونُ محرماً وقد

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٤١/٣)، وقال شعيب الأرناؤوط: «حديث صحيح»، وصححه الشيخ المجدد الألباني –رحمه الله– في "التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان" (٧١/٩) والشيخ مقبل الوادعي في "الصحيح المسند" (١٠٣/١).

يكونُ كفراً وذلكَ إذا عادَ على منزلتِهِ وهي العبوديةُ بالإبطالِ بأن يصيرُهُ معبودا مع اللهِ [1] وَإِنَّمَا كَرِهَ النَّبِيُّ ﷺ مَا نَطَقُوا بِهِ مَعَ أَنَّهُمْ لَمْ يَنْطِقُوا إِلّا بِالْحَقِّ وَلَمْ يُخبِرُوا إِلّا بِالصِّدْقِ سداً لِلذَّرِيعَةِ، وَخَشْيَةَ أَنْ يُفْضِيَ بِهِمْ هَذَا الْمَدْحُ إِلَى مَا لَا يَجُوزُ، أَوْ يُطْلِقُونَ هَذَا اللَّفْظَ لِمَنْ لَا يَسْتَحِقُّهُ. وَفِي الاحادِيثِ مِنَ الْفَوَائِدِ : شَفَقَةُ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى أمَّتِهِ وَتَحْذِيرُهَا مِنَ الْغُلُوِّ. وَفيهِ مَا كَانَ عَلَيه مِنَ التَّوَاضُعِ عَلَيه الصَّلاةُ وَالسَّلامُ وَعَدَمُ رُؤْيَةِ النَّفْسِ، وَهَذِهِ الاوْصَافُ لَا يَبْلُغُهَا إِلّا مَنْ حَقَّقَ التَّوْحِيدَ وَبَلَغَ كَمالَهُ.

قَالَ الْعَلَّامَةُ ابن بَازٍ – رَحِمَهُ اللهُ –:(فَالْوَاجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَحْفَظَ لِسَانهُ، وَأَنْ يَقْتَصِدَ فِي قَوْلِهِ سَواءٌ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَوْ مَعَ غَيْرِهِ وَعَلَيه التَّأَدُّبُ بِالْآدابِ الشَّرْعِيَّةِ فِي أَقْوالِهِ وَأَعْمَالِهِ مَعَ الرّسُلِ وَالصَّالِحِينَ وَالْعُلَماءِ حَتَّى لَا يَقَعَ فِي الْغُلُوِّ)[2].

مَسْالَةٌ : اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي إِطْلَاقِ لَفْظِ السَّيِّدِ إِلَى ثَلاثَةِ أَقْوَالٍ :

الْقَوْلُ الأول: الْكَرَاهَةُ؛ لِوُجُودِ أَحادِيثَ تَدُلُّ عَلَى الجْوَازِ، الْقَوْلُ الثَّانِي : أَنَّ النَّهْي عَنِ الْمُخَاطَبَةِ فَقَط.

الْقَوْلُ الثَّالِثُ : الجْوَازُ ، وَرَجَّحَهُ العلامة ابن عُثَيْمِين – رحمه الله – ، بِشَرْطَيْنِ : الأول أَنْ يَكُونَ مَنْ أُطْلِقَ عَلَيه اللَّفْظُ أهْلاً لِذَلِكَ، ثَانِيَا: ألا يُفْضِي إِلَى مَحْظُورٍ، كَأَنْ يُوقِعَ الْقَائِلَ فِي الْغُلُوِّ، أَوْ يُوقِعَ الْمُخَاطَبَ فِي الْغُرُورِ.

(١) أفدته من شرح الشيخ العصيمي – حفظه الله–.

(٢) في شرحه لكتاب التَّوحيد، ص:١.

[٦٧]

بابُ مَا جاءَ فِي قَوْلِ اللَّهِ تعالَى:﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾[١]

مُناسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ وَلِلْخَاتِمَةِ أيضا : أَنَّ الإمام – رَحِمَهُ اللهُ – تَكَلَّمَ فِي ما سَبقَ عن تَعْظِيم اللَّهِ جَلَّ وَعَلا تَفْصِيلاً بالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ، وَهُنَا يَتَكَلَّمُ عَنْ تَعْظِيمِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلا إِجْمَالاً فَذكرَ النُّصُوصَ الدَّالَّة عَلى عَظمَةِ الربِّ وَكِبْرِيائِهِ وَمجدِهِ وَجَلالِهِ وَخُضُوعِ الْمَخْلُوقَاتِ بِأَسْرِهَا لِعِزِّهِ؛ لأَنَّ هَذِهِ النُّعُوت الْعَظِيمَةَ وَالاوْصَافَ الْكَامِلَةَ، أَكْبرُ الْأدلةِ وَالْبَرَاهِينِ عَلَى أَنَّهُ الْمَعْبُودُ وَحْدَهُ وَالْمَحْمُودُ وَحْدَهُ الَّذِي يُبْذَلُ لَهُ غَايَةُ الذُّلِّ، وَغَايَةُ الحْبِّ والتألُهِ، وَأَنَّهُ الْحَقُّ وَمَا سِوَاهُ بَاطِلٌ، وَهَذِهِ هِي حَقِيقَةُ التَّوْحِيدِ وروحُهُ وَسِرُّ الْإِخْلاصِ – فَنَسْأل اللهَ أَنْ يمْلأَ قلُوبَنَا مِنْ مَعْرِفَتِهِ وَمحبَّتِهِ وَالإِنابَةِ إِلَيه إِنَّه جَوادٌ كَرِيمٌ "[٢] –. قَالَ الشَّنْقِيطِيُّ – رحِمَهُ اللهُ – فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ:(أَيْ: مَا عَظَّمُوهُ حقَّ عَظمَتِهِ)[٣]. وَالضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ:(وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ) يَعُودُ إِلَى كُلِّ منْ خَالَفَ الأمر وَالنَّهْيَ وَهُمْ مُتَفَاوِتُونَ فِي عَدَمِ التَّقْدِيرِ الْوَاقِعِ مِنْهُمْ. – عفا الله عنا– بمنِّهِ وكرمِهِ (وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ) أَيْ : بِعَظمَتِهَا وَسَعَتِهَا بِمَا فِيهَا فِي قَبْضَةِ الرَّحْمَنِ. قَوْلُهُ تعالَى: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾ (مطويات) الطَّيُّ ضِدُّ النَّشْرِ.(بِيَمِينِهِ) لِيُفْهَمَ أَنَّ السَّمَاواتِ فِي الْيَدِ الْأُخْرَى، (سُبْحَانه وَتَعَالَى) أَي: تَنزَّهَ (عَمَّا يَشْرَكُونَ) عَنِ الشِّرْكِ.

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[عن ابنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الأَحْبَارِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ! إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اللَّهَ يَجْعَلُ السَّمَاوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالارَضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ،

(١) سورة الزمر الآية: ٦٧.

(٢)انظر القول السديد شرح كتاب التوحيد ص:١٩٤ .

(٣) أضواء البيان ٥/ ٢٩٩.

وَالْمَاءَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الخَلْقِ عَلَى إِصْبَعٍ، فَيَقُولُ أَنَا المَلِكُ، فَضَحِكَ النَّبِي ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ، تَصْدِيقًا لِقَوْلِ الحَبْرِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الآيَةَ[1]. وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ «وَالجِبَالَ وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ، ثُمَّ يَهُزُّهُنَّ فَيَقُولُ أَنَا المَلِكُ أَنَا اللَّهُ» [2]. وَفِي رِوَايَةٍ لِلْبُخَارِيِّ : «وَيَجْعَلُ السَّمَاوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْمَاءَ وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الخَلْقِ عَلَى إِصْبَعٍ»[3] أَخْرَجَاهُ[4].]

(حَبْرٌ) الْحَبْرُ: هُوَ الْعَالِمِ.(يا مُحَمَّدُ) فِيه جَفَاءُ الْيَهُودِ وَعِنَادُهُمْ؛ لأَنَّه لَمْ يَقُلْ: يا رَسُولَ اللهِ.(إِنَّا نَجِدُ) أَيْ: فِي التَّوْرَاةِ.(أَنَّ اللهَ يَجْعَلُ السَّمَاواتِ عَلَى إِصْبَعٍ) فِيه عَظَمَةُ اللهِ وَعِظَمُ صفاتِهِ، وَفِيهِ: إِثْبَاتُ صِفَةِ الْإِصْبَعِ.(فَيَقُولُ أَنَا الْمَلِكُ) أَيْ: وَحْدِي لِتَعْرِيفِ طَرَفِي الْإِسْنادِ وَفِيه إِثْبَاتُ صِفَةِ الْقَوْلِ.(فَضَحِكَ النَّبي ﷺ) الضَّحِكُ يَكُونُ إِقْرَاراً وَإِنْكارًا، وَلَا يُفَرِّقُ بَيْنَهُما إِلّا الرَّائِي.(حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ) أوائلُ أَضْرَاسِهِ.(تَصْدِيقاً لِقَوْلِ الْحَبْرِ) هَذا بَيَانُ مَنْ رَأَى ضَحِكَهُ. وأنه عليه الصلاة والسلام ضحك إقراراً لا إنكاراً ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾. قِراءةُ النَّبي ﷺ لِلْآيَةِ بَعْدَ كَلامِ الْحَبْرِ يُفْهَمُ مِنه أَنَّ الْحَديثَ مطابقٌ لِلْآيَةِ . وَقَبْضَتُهُ لِهذِهِ الاشْيَاءِ قبضةً حَقِيقِيَّةً تليقُ بِجَلالِهِ وَكَمالِهِ لَا تُماثِلُ قَبْضَةَ الْمَخْلُوقِينَ، وَلَا نُحَرِّفُها بِأَنْ نقول مَعنَاهَا: تَحْتَ تَصرُّفِهِ وَقَهْرِهِ ؛ إِذْ أَنَّ تَصرُّفَهُ وَقَهْرَهُ لَا يَخْتصُّ بيوْمِ القِيامةِ. وَقَالَت الْمُعَطِّلَةُ فِي قَوْلِهِ:(بِيَمِينِهِ) أَيْ: بِقَسَمِهِ وَهُوَ تَحْرِيفٌ بَلَا دَليلٍ

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن– باب قوله: {وما قدروا الله حق قدره} (٤٨١١)، ومسلم في كتاب صفة القيامة والجنَّة والنار (٢٧٨٦).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب صفة القيامة والجنَّة والنار (٢٧٨٦).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن– باب قوله: {وما قدروا الله حق قدره} (٤٨١١).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن– باب قوله: {وما قدروا الله حق قدره} (٤٨١١)، ومسلم في كتاب صفة القيامة والجنَّة والنار (٢٧٨٦).

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[وَلِمُسْلِمٍ عن ابنِ عُمَرَ رضي الله عنهما مَرْفُوعًا: «يَطْوِي اللَّهُ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ القِيَامَةِ ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ اليُمْنَى، ثمَّ يَقُولُ أَنَا الملِكُ أَيْنَ الجبَّارُونَ؟ أَيْنَ المُتَكَبِّرُونَ؟ ثمَّ يَطْوِي الأَرَضِينَ السَّبْعَ، ثمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِشِمَالِهِ، ثمَّ يَقُولُ أَنَا الملِكُ، أَيْنَ الجبَّارُونَ؟ أَيْنَ المُتَكَبِّرُونَ؟»[1].]

قوله:(يَطْوِي اللَّهُ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ القِيَامَةِ ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ اليُمْنَى) هذا النَّصُ مطابقٌ للآيةِ ويمنعُ مِن تحريفِ أهلِ البدعِ لأنَّهُ محكمٌ واضحُ الدلالةِ فهو طيٌّ حقيقيٌّ وأخذٌ حقيقيٌّ بيدٍ تليقُ بجلالهِ وعظمتِهِ لا تماثلُ صفاتِهِ صفاتَ خلقِهِ. قوله: (أَيْنَ الجبَّارُونَ؟ أَيْنَ المتَكَبِّرُونَ؟): الجبَّارُون جَمْعُ جَبَّارٍ وَهُوَ الْمُتَعَالِي عَلَى النَّاسِ بِالْقَهْرِ وَالظُّلْمِ. وَالْمُتَكَبِّرُونَ : جَمْعُ مُتَكَبِّرٍ وَهُوَ الْمُتَرَفِّعُ عَنِ الْحَقِّ وَالْخلقِ.(ثُمَّ يَطْوِي الأَرَضِينَ السَّبْعَ ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِشِمَالِهِ) حَكَمَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ عَلَى هذهِ الرِّوايَةِ بِالشُّذُوذِ؛ لأَنَّهُ قَدْ جَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ :(وَكِلْتَا يديهِ يمينٌ)[2]، لَكِنَّ الْعَلَّامَةَ ابن بَازٍ – رَحِمَهُ اللهُ – قَالَ:(وَفِي هَذَا إِثْبَاتُ الصِّفَاتِ للهِ، وَأَنَّهُ سُبْحَانَه لَهُ يَمِينٌ وَشِمالٌ، وَأَنَّ كِلْتَا يَديهِ يَمِينٌ كَمَا فِي الْحَدِيثِ الْآخِرِ، وَسَمَّى أَحدَهُمَا يَمِينًا وَالْآخَرَ شَمَالاً مِنْ حَيْثُ الْاسم، وَلَكِنْ مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى وَالشَّرَفِ، كلتَاهُما يَمِينٌ – سُبْحَانَه وَتَعَالَى – وَلَيْسَ فِي شيءٍ منهُمَا نَقْصٌ)[3].

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[وَرُوِيَ عن ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما ، قَالَ: مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُونَ السَّبْعُ فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ إِلَّا كَخَرْدَلَةٍ فِي يَدِ أَحَدِكُمْ[4].]

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب صفة القيامة والجنَّة والنار (٢٧٨٨).

(٢) أخرجه مسلم، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر والحث على الرفق بالرعية و النهي عن إدخال المشقة عليهم، برقم:(١٨٢٧).

(٣) شرح كتاب التَّوحيد، ص: ١٩٦-١٧٠.

(٤) حديث حسن رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (٣٠٢١٢) وفي إسناده عمرو بن مالك بن عمر الراسبي الغبرى وهو ضعيف عند ابن حجر وأبو الشيخ في العظمة (١٣٥).

وَفِي هَذَا الْأثَرِ إِثْبَاتُ الْكَفِّ لِلْرَّحْمَنِ جلَّ وَعلا، وَقَدْ جَاءَتْ أَحادِيثُ مَرفوعَةٌ كَمَا فِي حَديثِ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - « مَا تَصَدَّقَ أَحَدٌ بِصَدَقَةٍ مِنْ طَيِّبٍ - وَلا يَقْبَلُ اللَّهُ إِلا الطَّيِّبَ - إِلا أَخَذَهَا الرَّحْمَنُ بِيَمِينِهِ وَإِنْ كَانَتْ تَمْرَةً فَتَرْبُو فِى كَفِّ الرَّحْمَنِ حَتَّى تَكُونَ أَعْظَمَ مِنَ الْجَبَلِ كَمَا يُرَبِّى أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ أَوْ فَصِيلَهُ »(١) وَهِي كفٌّ تليق بِجَلالِهِ وَعَظَمَتِهِ لَيْسَتْ كَكَفِّ الْمَخْلُوقِ. قَوْلُهُ:(إِلّا كَخَرْدَلَةٍ) الْخَرْدَلَةُ: وَاحِدَةُ الْخَرْدَلِ وَهِي نَبَاتٌ مَعْرُوفٌ يُضرَبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي الصِّغَرِ.

قَالَ الإِمَامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[وَقَالَ ابن جَرِيرٍ: حَدَّثَنِي يُونُسُ، أَخْبَرَنَا ابن وَهْبٍ، قَالَ قَالَ ابن زَيْدٍ : حَدَّثَنِي أَبِي، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ فِي الكُرْسِيّ إِلَّا كَدَرَاهِمَ سَبْعَةٍ أُلْقِيَتْ فِي تُرْسٍ» والترس هو الدرقة وهي ما يستعمله المحارب في المعركة ليقي نفسه من السيف والسلاح **قَالَ : وَقَالَ أَبُو ذَرٍّ ﷺ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا الكُرْسِيّ فِي العَرْشِ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ أُلْقِيَتْ بَيْنَ ظَهْرَيْ فَلَاةٍ مِنَ الأَرْضِ»(٢).]**

حسنهُ الألباني فِي التَّعْلِيقِ عَلَى الطحاوية بَعْدَ مَا ضَعَّفَ إِسْنَادَهُ فِي الضَّعِيفَةِ. لأنه قد ثَبَتَ لَهُ شَاهِدٌ مِنْ حَديثِ أبي ذر :(مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ فِي الْكُرْسِيِّ إِلّا كَحَلْقَةٍ بِأَرْضِ فَلاةٍ وَفَضْلُ الْعَرْشِ عَلَى الْكُرْسِيِّ كَفَضْلِ تِلْكَ الْفَلاةِ عَلَى تِلْكَ الْحَلْقَةِ)(٣) . وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ مِنَ الْفَوائِدِ :

١- عِظَمُ الْكُرْسِيّ بِالنِّسْبَةِ لِلسَّمَاوَاتِ، وَيَدُلُّ عليهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾(٤).

---

(١) رواه مسلم برقم ٢٣٨٩. باب قبول الصدقة من الكسب الطيب.

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (٥٧٩٥)، وقال ابن كثير: (أول الحديث مرسل وعن أبي ذر منقطع) راجع البداية (١٣/١) وإسناده ضعيف، راجع الضعيفة برقم:(٦١١٨)،وقد حسن الألباني حديثاً بنحوه بمجموع طرق راجع الصحيحة برقم:(١٠٩، ٢٦٦٨)

(٣) راجع الصحيحة برقم: (١٠٩).

(٤) سورة البقرة الآية: ٢٥٥.

٢- وفيه: أَنَّ الْعَرْشَ غَيْرُ الْكُرْسِيِّ.

٣- وَأَنَّ الْكُرْسِيَّ جُرْمٌ وَلَيْسَ مَعْنَاهُ الْعِلْمَ.

٤- وَأَنَّ الْعَرْشَ جُرْمٌ وَلَيْسَ مَعْنَاهُ السُّلْطَانَ.

٥- وَفِيه سَعَةُ الْعَرْشِ بِالنِّسْبَةِ لِلْكُرْسِيِّ .

٦- وَفِيه مِنْ عَظَمَةِ اللَّهِ مَا هُوَ ظاهِرٌ ، قَالَ الشَّيْخُ صَالِحُ آلُ الشَّيْخِ :(وَهَذَا الْمُلْكِ الْعَظِيمِ يَتَوَجَّهُ إِلَيكَ أَيُّهَا الْعَبْدُ الْحَقِيرُ الْوَضِيعُ فَيَأْمُرُكَ بِعِبَادَتِهِ وَهِي شَرَفٌ لَكَ لَوْ شَعَرْتَ، وَيَأْمُرُكَ بتقواه وَهِي عزٌ لَكَ لَوْ عَقَلْتَ، وَيَأْمُرُكَ بِطَاعَتِهِ وَهِي فَخْرٌ لَكَ لَوْ عَلِمْتَ)(١).

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ –[وَعن ابنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه، قَالَ:(بَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَالتِي تَلِيهَا خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ سَمَاءٍ وَسَمَاءٍ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالْكُرْسِيِّ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ الْكُرْسِيِّ وَالْمَاءِ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، وَالْعَرْشُ فَوْقَ الماءِ، وَاللهُ فَوْقَ العَرْشِ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِكُمْ)(٢)أَخْرَجَهُ ابن مَهْدِيٍّ عَنْ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ عَنْ عَاصِمٍ عَنْ زِرٍّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه (٣) وَرَوَاهُ بِنَحْوِهِ المَسْعُودِيُّ عَنْ عَاصِمٍ عَنْ أَبِي وَائِلٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَهُ الحَافِظُ الذَّهَبِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى قَالَ(وَلَهُ طُرُقٌ)(٤)

قوله:(السَّمَاءِ الدُّنْيَا): هِي الْقَرِيبَةُ مِنَ الْأَرْضِ . وَعَلَى مَا ذُكَرَ مِنَ الْفُرُوقِ يَكُونُ بَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيا وَالْمَاءِ أَرْبَعَةُ آلافِ سَنَةٍ وَالْعَرْشُ فَوْقَ الْمَاءِ وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى:

---

(١) التمهيد لشرح كتاب التَّوحيد، ص: (٢/٣٤٠).

(٢) أخرجه الدارمي في «النقض على المريسي الجهمي العنيد» (١/٤٧١)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٩/٢٠٢/٨٩٨٧).

(٣) أخرجه البيهقي في «الأسماء والصفات» (٨٢٠)، والطبراني في الكبير (٩/٢٠٢)، وجود إسناده الألباني في مختصر العلو (ص:١٠٤)، وقال الشيخ ابن عثيمين: (هذا الحديث موقوف على ابن مسعود لكنه من الأشياء التي لا مجال للرأي فيها ، فيكون له حكم الرفع؛ لأن ابن مسعود لم يعرف بالأخذ عن الإسرائيليات) أهـ "القول المفيد: ٢/٥٣٧".

(٤) انظر: «العلو للعلي الغفار» للذهبي (ص ٤٥)، وهو أثر صحيح.

﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾[1]وَهَذَا صَرِيحٌ فِي إِثْبَاتِ عُلُوِّ اللهِ تَعَالَى عُلُوَّ ذَاتٍ ، وقد ذكر ابن أبي العز:(أن أدلة العلو تَزِيدُ عَلَى ألفِ دَليلٍ)[2]. وَيَنْقَسِمُ الْعُلُوُّ إِلَى: عُلُوِّ ذَاتٍ وَعُلُوِّ مَنْزِلَةٍ. أَمَّا عُلُوُّ الْمَنْزِلَةِ فَلَا يُنْكِرُهُ مُسْلِمٌ، وَأَمَّا عُلُوُّ الذات فَقَدْ أَنْكَرَتْهُ الْمُبْتَدِعَةُ، وَقَدْ انْقَسَمُوا إِلَى قِسْمَيْنِ: مِنْهُمْ مَنْ قَالَ: إِنَّ اللهَ فِي كُلِّ مَكَانٍ وَهَذَا ضلالٌ بعيدٌ وَلَازِمَهُ الْحُلُولُ فِي الْعَبِيدِ. وهو كفر لا يجادل فيه إلا عنيد وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : إِنَّ اللهَ لَيْسَ فوقَ وَلَا تَحْتَ وَلَا يَمِينَ وَلَا شِمَالَ وَلَا مُتَّصِلاً بِالْعَالَمِ وَلَا مُنْفَصِلاً عَنْه وَلَا دَاخِلَهُ وَلَا خَارِجَهُ، وَلَوْ قِيلَ لأحدِهِمْ: صِفْ لَنَا الْعَدَمَ لَمْ يَجِدْ أَبْلَغَ مِنْ هَذَا الْوَصْفِ قولُهُ :(لَا يَخْفَى عَلَيه شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِكُمْ) فِيه إِثْبَاتُ كَمَالِ عِلْمِ اللهِ، وَأَنَّهُ مَعَ عُلُوِّهِ فَوْقَ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ الْعَظِيمَةِ مَطَّلَعٌ عَلَى أَعْمَالِ الْجوارحِ بَلْ وخواطر الْقلُوب

قَالَ الإمامُ – رَحِمَهُ اللهُ – [وَعَن العَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «هَلْ تَدْرُونَ كَمْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ؟ قُلْنَا اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ قَالَ بَيْنَهُمَا مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ، وَمِنْ كُلِّ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ، مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ، وَكِثَفُ كُلِّ سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ، وَبَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالْعَرْشِ بَحْرٌ بَيْنَ أَسْفَلِهِ وَأَعْلَاهُ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَوْقَ ذَلِكَ، وَلَيْسَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِ بَنِي آدَمَ»[3] أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ.] وضَعَّفَهُ الذَّهَبِيُّ – رَحِمَهُ اللهُ – فِي كِتَابِ الْعُلُوِّ[4]،والألبانيُّ – رَحِمَهُ اللهُ – فِي الضَّعِيفَةِ[1]. وفي الصحيح غنية عن الضعيف.

---

(١) سورة هود الآية: ٧.

(٢) شرح الطحاوية ١/١٦٤.

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب السنة- باب في الجهمية (٧٤٢٣)، و الترمذي في كتاب تفسير القرآن- باب ومن سورة الحاقة (٣٣٢٠)، وابن ماجه في كتاب المقدمة- باب في ما أنكرت الجهمية (١٩٣). وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٦٠٩٣).

(٤) راجع كتاب العلو للذهبي (١/٥٠١).

تَمَّ بِحَمْدِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ إِمْلاءُ شَيْخِنَا الشَّيْخِ : عُمَرَ بْنِ مُحَمَّدِ عَلِى بْنِ مُحَمَّدِ خَيْرٍ لِشَرحِهِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ الَّذِي هُوَ حَقُّ اللهِ عَلَى الْعَبِيدِ لِشَيْخِ الْإِسْلامِ الْمُجَدِّدِ الْإمَامِ: مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْوَهَّابِ – رَحِمَهُ اللهُ – بِقَلَمِ: وَلِيدِ بْنِ الْفَكِّي بْنِ إبراهيم ، وَكَانَ الْفَرَاغُ مِنْه فِي مُنْتَصَفِ لَيْلَةِ الْخَمِيسِ الْمُوافِقِ ٥ / رَبِيع الأول / ١٤٣٤هـ - ١٧ / ١ / ٢٠١٣م، وَذَلِكَ بِمَنْزِلِهِ بِالْفادِنِي، شَرْقَ النِّيْلِ / السُّودانُ

(١) راجع الضعيفة (٣/رقم:١٢٤٧).

مسرد الموضوعات

مقدمة الشيخ الدكتور : خالد عبد اللطيف ١

مقدمة الشارح ٢

ترجمة الإمام مُحَّد بن عبد الوهاب – رحمه الله- ٥

قصة عالم هندي مع كتاب التَّوحيد ٩

ثناء العلماء على كتاب التَّوحيد ١٠

[١] كِتَابُ التَّوحيد ١٥

[٢] بَابُ فَضْلِ التَّوحيد وَمَا يُكَفِّرُ مِنَ الذُّنُوبِ ٢٣

[٣] بَابُ مَنْ حَقَّقَ التَّوحيد دَخَلَ الجنَّة بِغَيْرِ حِسَابٍ ٣٠

[٤] بَابُ الخَوْفِ مِن الشِّرْكِ ٣٨

[٥] بَابُ الدُّعَاءِ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لا إِلَهَ إلا اللَّهُ ٤٥

[٦] بَابُ تَفْسِيرِ التَّوْحِيدِ وَشَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ٥١

[٧] بَابٌ مِنَ الشِّرْكِ لُبْسُ الْحَلْقَة وَالْخَيْطِ وَنَحْوِهِمَا لِرَفْعِ الْبَلَاءِ أَوْ دَفْعِهِ ٥٦

[٨] بَابُ مَا جَاءَ فِي الرُّقَى وَالتَّمَائِمِ ٦١

[٩] باب مَنْ تَبَرَّكَ بِشَجَرٍ أَوْ حَجَرٍ وَنَحْوِهِمَا ٦٨

[١٠] بَابُ مَا جَاءَ فِي الذَّبْحِ لِغَيْرِ اللهِ ٧٣

[١١] بابٌ لَا يُذْبَحُ لِلَّهِ بِمَكَانٍ يُذْبَحُ فِيهِ لِغَيْرِ اللهِ ٧٧

[١٢] بَابٌ مِن الشِّرْكِ النَّذْرُ لِغَيْرِ اللهِ ٨٠

[١٣] بَابٌ مِنَ الشِّرْكِ الِاسْتِعَاذَةُ بِغَيْرِ اللهِ ٨٢

[١٤] بَابٌ مِن الشِّرْكِ أَنْ يَسْتَغِيثَ بِغَيْرِ اللهِ أَوْ يَدْعُوَ غَيْرَهُ ٨٥

[١٥] بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ ٨٩

[١٦] بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ ﴾ ٩٤

[١٧] بَابُ الشَّفَاعَةِ ٩٩

[١٨] بَابُ قَوْلِ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ ٩٩

[١٩] بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ سَبَبَ كُفْرِ بَنِي آدَمَ وَتَرْكِهِمْ دِينَهُمْ هُوَ الغُلُوُّ فِي الصَّالِحِينَ ١١٠

[٢٠] بَابُ مَا جَاءَ مِن التَّغْلِيظِ فِي مَنْ عَبَدَ اللَّهَ عِنْدَ قَبْرِ رَجُلٍ صَالِحٍ، فَكَيْفَ إِذَا عَبَدَهُ ؟ ١١٥

[٢١] بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ الغُلُوَّ فِي قُبُورِ الصَّالِحِينَ يُصَيِّرُهَا أَوْثَانًا تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ١٢١

[٢٢] بَابُ مَا جَاءَ فِي حِمَايَةِ المصْطَفَى ﷺ جَنابَ التَّوحيد وَسَدِّهِ كُلَّ طَرِيقٍ يُوصِّلُ إِلَى الشِّرْكِ.... ١٢٧

[٢٣] بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ بَعْضَ هَذِهِ الأُمَّةِ يَعْبُدُ الأَوْثَانَ ١٣٢

[٢٤] بَابُ مَا جَاءَ فِي السِّحر ١٤٠

[٢٥] بَابُ بَيَانِ شَيْءٍ مِنْ أَنْوَاعِ السِّحر ١٤٦

[٢٦] بَابُ مَا جَاءَ فِي الْكُهَّانِ وَنَحْوِهِمْ ١٥٠

[٢٧] بَابُ مَا جَاءَ فِي النُّشْرَةِ ١٥٧

[٢٨] بَابُ مَا جَاءَ فِي التَّطَيُّرِ ١٦٠

[٢٩] بَابُ مَا جَاءَ فِي التَّنْجِيمِ ١٦٨

[٣٠] بَابُ مَا جَاءَ فِي الِاسْتِسْقَاءِ بِالْأَنْوَاءِ ١٧١

[٣١] بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا ﴾ ١٧٧

[٣٢] بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ ﴾ ١٨٣

[٣٣] باب قول الله تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ ١٨٨

[٣٤] بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ ﴾ ١٩٣
[٣٥] بَابُ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ الصَّبْرُ عَلَى أَقْدَارِ اللَّهِ ١٩٧
[٣٦] بَابُ مَا جَاءَ فِي الرِّيَاءِ ٢٠٣
[٣٧] بَابُ مِنَ الشِّرْكِ إِرَادَةُ الْإِنْسَانِ بِعَمَلِهِ الدُّنْيَا ٢٠٦
[٣٨] بَابُ مَنْ أَطَاعَ الْعُلَمَاءَ وَالْأُمَرَاءَ ٢١٠
[٣٩] بَاب قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ ﴾ ٢١٥
[٤٠] بَابُ مَنْ جَحَدَ شَيْئًا مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ ٢٢٠
[٤١] بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ ٢٢٥
[٤٢] بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ٢٣٠
[٤٣] بَابُ مَا جَاءَ فِي مَنْ لَمْ يَقْنَعْ بِالْحَلِفِ بِاللَّهِ ٢٣٦
[٤٤] بَابُ قَوْلِ: (مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ) ٢٣٨
[٤٥] بَابُ مَنْ سَبَّ الدَّهْرَ فَقَدْ آذَى اللَّهَ ٢٤١
[٤٦] بَابُ التَّسَمِّي بِقَاضِي الْقُضَاةِ وَنَحْوِهِ ٢٤٣
[٤٧] بَابُ اِحْتِرَامِ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَغْيِيرُ الِاسْمِ لِأَجْلِ ذَلِكَ ٢٤٥
[٤٨] بَابُ مَنْ هَزَلَ بِشَيْءٍ فِيهِ ذِكْرُ اللَّهِ أَوْ الْقُرْآنِ أَوْ الرَّسُولِ ﷺ ٢٤٧
[٤٩] بَابُ ما جاء في قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا ﴾ ٢٥٠
[٥٠] بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا ﴾ ٢٥٤
[٥١] بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ ٢٥٨
[٥٢] بَابُ لَا يُقَالُ السَّلَامُ عَلَى اللَّهِ ٢٦١

[٥٣] بَابُ قَوْلِ اللَّهُمَّ اِغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ ٢٦٢
[٥٤] بَابٌ لَا يَقُولُ عَبْدِي وَأَمَتِي ٢٦٥
[٥٥] بَابٌ لَا يُرَدُّ مَنْ سَأل بِاللَّهَ ٢٦٨
[٥٦] بَابٌ لَا يُسْأل بِوَجْهِ اللَّهِ إِلَّا الجنَّة ٢٧٠
[٥٧] بَابُ مَا جَاءَ فِي الـ(لَوْ) ٢٧٢
[٥٨] بَابُ النَّهْي عَنْ سَبِّ الرِّيحِ ٢٧٦
[٥٩] بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ﴾ ٢٧٨
[٦٠] بَابُ مَا جَاءَ فِي مُنْكِرِي القَدَرِ ٢٨٣
[٦١] بابُ ما جاء في المصورين ٢٩١
[٦٢] بَابُ مَا جَاءَ فِي كَثْرَةِ الحلِفِ ٢٩٤
[٦٣] بَابُ مَا جَاءَ فِي ذِمَّةِ اللَّهِ وَذِمَّةِ نَبِيِّهِ ٢٩٩
[٦٤] بابُ ما جاء في الإقسام على الله ٣٠٣
[٦٥] بَابٌ لَا يُسْتَشْفَعُ بِاللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ ٣٠٥
[٦٦] بَابُ مَا جَاءَ فِي حِمَايَةِ المصطفى ﷺ حِمَى التَّوحيد وَسَدِّهِ طُرُقَ الشِّرْكِ ٣٠٦
[٦٧] بَابُ مَا جَاءَ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ﴾ ٣٠٩